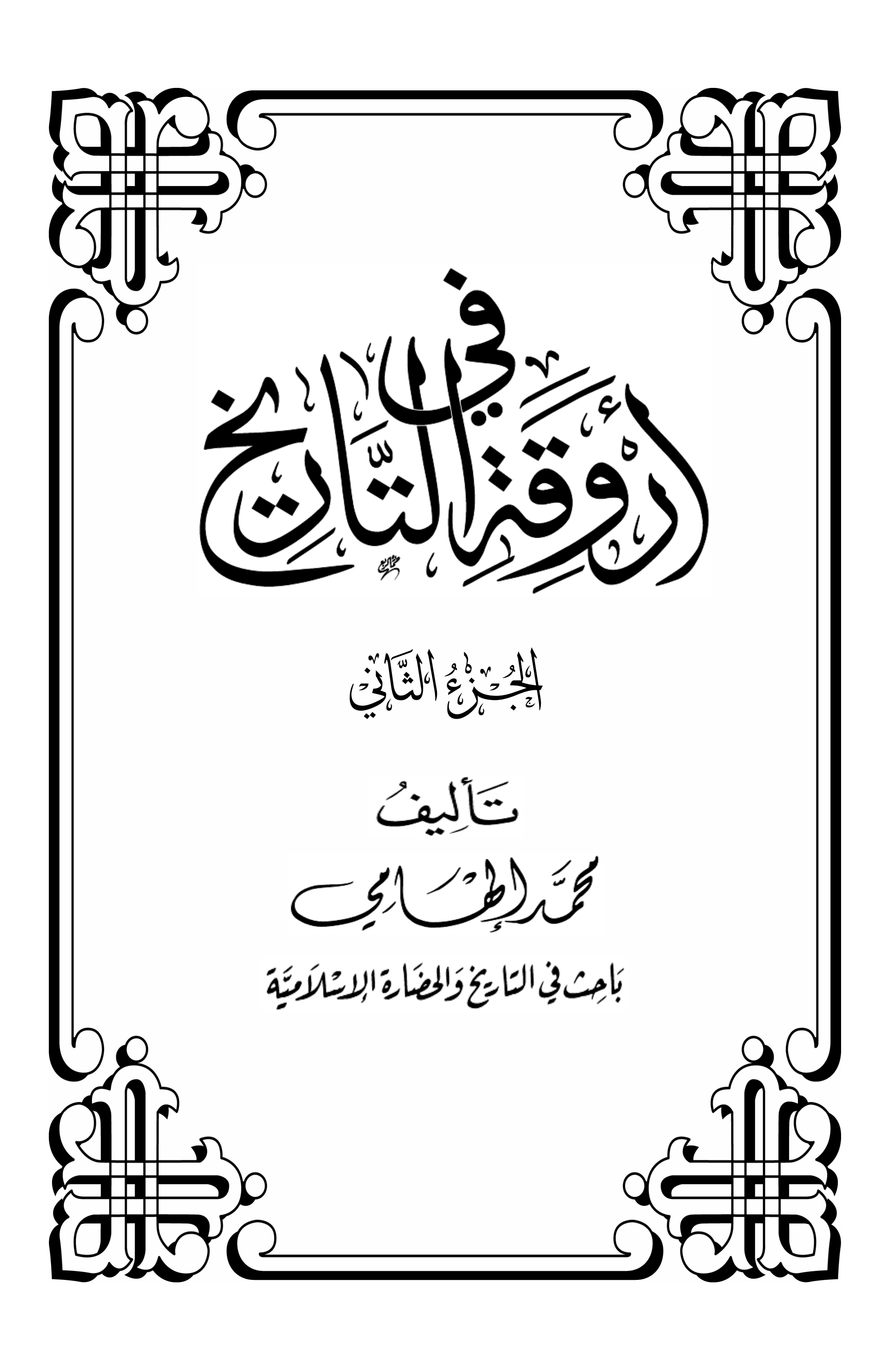


في أروقة التاريخ

الجزء الثاني

تأليف

محمد الهامي

باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

إهداء

إلى روح الشيخ الحبيب الغالي..

علي عبد الرحمن..

رجل كانت خطبته تجدد الإيمان من الجمعة إلى الجمعة..

أول من فُجِعْتُ بموته.. وأول من بكيته..

مر على موته سبعة عشر عامًا، ولا زال صوته يسكن أذني، ونبرته تنزل روحي..

سبحان من خلق الموت والحياة.. وسبحان من قبض الروح وأبقى الذكرى..

نضر الله روحك يا شيخي.. وطيب ثراك.. وأنزلك منازل الصديقين والشهداء والصالحين..

وغفر لك بعدد ما بعثت في النفوس كلام القدوس..

محمد

فهرس المحتويات



مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله..

أذكر دهشتي يوم فتحت كتاب «شبهات حول الإسلام» للشيخ محمد قطب، فكان أول ما كتب في مقدمته أنه هم أكثرة من مرة بإلغاء الكتاب من قائمة كتبه رغم أنه أشهرها وأكثرها تداولًا، وما ذاك إلا لأنه علم بالواقع والتجربة أن ما يجري في الواقع ليس مسألة شبهات تحتاج إلىٰ الرد، وأن أعداء الإسلام لم ينطلقوا في عداوته من شبهات عرضت لهم فيحتاجون جوابها وتوضيحها، وإنما انطلقوا من عداء أصيل لا حل له إلا بجيل يتمثل الإسلام فيغير الواقع والحال، وذلك هو المطلوب بحق أكثر من إنفاق الوقت والطاقة في تفنيد الشبهات.

رسخت كلماته تلك في صدري من وقت قراءتها قبل عشرين سنة وحتىٰ الآن، ولا تزال الأحداث والوقائع تجددها وتؤكدها. مع بقاء مخالفتي له في أن يمنع صدور كتابه، فإن الرد علىٰ الشبهات من الأسلحة اللازمة لمن يخوض معركة الإسلام الفكرية والعملية معًا. ثم استوىٰ الأمر عندي بعد التجربة القصيرة التي عانيتها في أن التعامل مع الشبهات ينبغي أن يكون بمثابة الدواء لمن أصابه مرض، لا بمثابة الغذاء الذي يتناوله الصحيح المعافىٰ!

أما الغذاء الواجب تناوله للصحيح المعافىٰ فهو إزالة الركام والغبار عن الوعي المفقود أو الوعي المدفون، فليس ثمة عامل للإسلام إلا وينبغي أن يكون عارفا بمواطن الفساد والخلل والانحراف في واقعه، وعارفًا بطريقة الإسلام في علاجها أو استبدالها، وتلك مهمة في غاية الصعوبة لا سيما في زمن الاستضعاف والهيمنة الغربية التي تفرض فوق هيمنتها السياسية والاقتصادية

والعسكرية هيمنة أخرىٰ ثقافية تجعل الرؤية نفسها مشوشة ومغبرة، هيمنة الثقافة تخترق الوعي الراقد في القلوب والعقول لتبدل الحق باطلًا والباطل حقًا، فإن تم التبديل في وعي امرئ فإنه قد صار جزءًا من عدوه وصورة منه، فلو أتيح لمثل هذا ما شاء من التحرر والإمكانيات والمواهب والسلطة لسعىٰ في استلهام عدوه وترسيخ هيمنته طائعًا مختارًا راضيًا يرىٰ نفسه يسدي لأمته الخدمة العظمىٰ بتركيعها وإذابتها في شخصية عدوها القاهر لها.

هنا يكون النصر الغربي علىٰ أمتنا قد اكتمل.. واكتملت معه سطوة الثقافة الغالبة!!

علىٰ أن مهمة إزالة الركام والغبار ثقيلة بقدر ما هي واسعة، وقاسية بقدر ما هي عميقة، وأليمة بقدر ما هي شافية. هي محاولة إزالة هدم عمل الهادمون فيه بمعاولهم لقرنين من الزمان، وقبلهم عملت قرون أخرىٰ علىٰ إضعاف البناء الإسلامي الشامخ حتىٰ وصل إليه الهادمون. فكيف يكون تجديد بناء هذا حاله. إن مجرد الوصول لتكوين شكله وسمته علىٰ ما كان عليه إنجاز كبير فضلًا عن إعادة إقامته من جديد.

علىٰ أنقاض البناء يقف حراسٌ غلاظ شداد يحرسون عملية الهدم المستمرة، يمنعون ويشغبون علىٰ من أراد مجرد إيقاف الهدم أو تعطيله، وفي الأنحاء حشود وجماهير وأجيال نشأت وقد ألفت مشهد البناء المنهدم ويرون محاولة بعثه عبثًا، فمنهم من يرىٰ عبث المحاولة في ظل انهيار القوة، ومنهم من يرىٰ عبث المحاولة كلها لأن ما انهدم لا قيام له!

هذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارئ هو محاولة علىٰ ضعف الهمة وقلة البضاعة في معركة التصحيح هذه. مجموعة من البحوث والمقالات، نشر بعضها وبعضها لم ينشر بعد، وبعضها نشر ضمن دراسات أوسع لحساب مراكز بحثية، وبعضها ألقي في مؤتمرات.. فأغلب ما في الكتاب هنا دراسات محكمة

بمعايير البحث العلمي المتعارف عليه في المؤتمرات والمراكز البحثية، وبعضه كان حلقات تلفازية حولتها هنا إلىٰ مادة مكتوبة ليعم النفع بين القارئ والمشاهد.

وهو الجزء الثاني من كتاب **«في أروقة التاريخ»**، أضع فيها تلك المتناثرات التي لا يجمعها عنوان واحد بعينه، بعدما رأيت من تجارب السابقين والمعاصرين أن ما لم يُجمع قد يندثر ويضيع، فالقليل النادر جدًّا من أهل العلم والقلم (ولست أنسب نفسي إليهم بطبيعة الحال) من وجد من تلاميذه من يجمع تراثه من الشتات بعد رحيله، فضاع كثير من نفائس وكنوز العلم والأدب فيما تناثر من المجلات والخطب والدروس ولم يبق إلا ما حوته الكتب.

وإني وبغير أي تواضع مزعوم أعرف من نفسي أن حالي أحقر من أن ينتهض لما أكتب أحد فيجمعه بعد رحيلي، فعزمت أن أجمعه فلعل كلمة فيه تكون حسنة تنفعني، أو نورًا يهدي أحدًا إلىٰ بعض ما عانيناه في أيامنا، أو مجهودًا يوفر علىٰ باحث أن يرتاد الطريق من أوله فيوفر جهده لتمهيد أمور أخرىٰ. ولا يزال كثير مما كتبتُه غير مجموع، ولعل الله أن ييسر فيكون لنا في كل سنة جزء جديد **«في أروقة التاريخ»**.

كنت قديما أتعجب من كلمة ابن مسعود «لو علمت أنه خلصت لي سجدة لتمنيت الموت»! ثم صرنا في عصر مواقع التواصل الاجتماعي فشهدت عيانًا وفقهت حقًّا قول القائل: «لو خلص لي منشور واحد لتمنيت الموت». قد صار عصرنا هذا عصر الرياء والفخر وإعجاب المرء برأيه، وصارت الكلمات مهما قصرت (ولو كانت تغريدة من ١٤٠ حرفا فقط) تخفي تحتها شيئًا من شهوة النفس أو حب المدح أو التطلع للشهرة أو الغمز واللمز... إلخ!

فيا لله! كيف لمن لا يأمن تغريدة أن تكون خالصة لوجه الله أن يرجو خلوص كتاب لوجه الله؟! تلك والله شيء من المستحيلات! ووالله لولا أن الله هو الواسع الكبير، وهو موطن رجاء المكروبين، وهو من أمرنا ألا نستعظم عليه

شيئًا أو نيأس من إجابته لشيء.. والله لولا هذا ما رجا المرء أن يخلص له مقال فضلًا عن كتاب!

يـا مـن هـو المعـروف بـالمعروف   يـا منعمـا عـمَّ الوجـود نـداه

أسألك ربي بجميل فضلك وعظيم منك وسابغ جودك وواسع كرمك أن تجعل عملي كله خالصًا لوجهك الكريم، وألا تجعل لأحد فيه شيئًا.

محمد إلهامي

٣ ربيع الأول ١٤٣٩هـ= ٢١ نوفمبر ٢٠١٧م



البَابُ الأَوَّل

في أروقة عصر الخلافة الراشدة

لئن كان في تاريخ أمة ما شيئًا تفتخر به فلن يكون بحال أعظم من فخرنا بعصر الخلافة الراشدة، فنحن الأمة الوحيدة التي حكمت ثلث العالم المعروف وقتها بعدل ورحمة، فلئن افتخر الغرب بأنه اخترع الديمقراطية فلقد كانت ديمقراطية المدن الصغيرة في اليونان (البلد ذات الجزر الصغيرة المحدودة) فأما حين بلغوا الإمبراطورية فلا عدل ولا رحمة ولا ديمقراطية بل امتصاص شعوب العالم وقهرها لخدمة أمة اليونان والرومان، وهو الأمر الذي نظَّر له فلاسفة الغرب الأوائل وعدُّوه أمرًا طبيعيًّا[1]، وهو الأمر المستمر حتىٰ يومنا هذا.

لكننا لن نتحدث الآن في المقارنة مع الغرب وإن كانت مثيرة للشهية لا سيما في زمن الجهل والهزيمة النفسية وظهور من يدعونا لترك تراثنا والسير وراء الغرب باعتباره قمة التجربة الإنسانية.. وإنما سنحاول أن نعرض بتبسيط: لماذا ينبغي علينا أن نفقه عصر الخلافة الراشدة؟ ماذا سنستفيد من ذلك؟ ولماذا تعلَّقَتْ قلوب المسلمين وطموحات الحركات الإسلامية بعصر الخلافة الراشدة؟.. والإجابة علىٰ تلك الأسئلة هي نفسها الإجابة علىٰ سؤال: لماذا يُراد لنا أن نجهل تاريخنا وننفر من تراثنا ونفقد ذاكرتنا؟

---

(١) انظر مثلًا:

برتراند رسل، **حكمة الغرب: عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي**، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة ٦٢ (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، فبراير ١٩٨٣)؛ ١/ ١٠٠، ١٤٣، ١٥٧، أرنولد توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، ترجمة: فؤاد محمد شبل، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م)، ١/ ٩٣؛ مونتسكيو، **روح الشرائع**، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، ١٩٥٤)، ٢/ ١٤٦.

عصر الخلافة الراشدة هو عصر الإنجاز الكبير، عصر انبعاث الأمة من مجاهل التاريخ لتصعد إلىٰ ذروة القوة العالمية في ثلاثين عام فقط؟!.. إنجاز اندهش له المؤرخون علىٰ اختلافهم وتنوع أفكارهم ومشاربهم! والعجيب أنه إنجاز راسخ لم تغيره الأيام والقرون علىٰ تطاولها، إنجاز غير خريطة العالم منذ حدث حتىٰ الآن.

نحتاج ونحن في زمن القهر هذا أن نقترب من عصر الراشدين، نتأمل كيف صنعوا ذلك المجد الكبير، كيف أنشأوا دولة عظمىٰ تحكم ملايين البشر بالعدل، كيف طبقوا الإسلام في عالم الواقع بعد انقطاع الوحي، كيف استطاعوا أن يخرجوا الجيوش من الصحراء العربية القاحلة المنقطعة عن الحضارة فيكتسحون الحضارات الكبرىٰ والإمبراطوريات العظمىٰ وينقذون الملايين من الظلم والقهر الطويل الذي امتد قرونا متعاقبة، ثم يظللونهم بحضارة إسلامية خالصة فيدخل الناس في دين الله أفواجًا ويخرجون من الظلمات إلىٰ النور، كيف استطاعوا أن يحتفظوا بثقتهم في أنفسهم فلا ينبهرون بمظاهر الفخامة والترف وبدائع القصور وروائع الزخارف والرسوم ومعالي البنيان وفسائح العمران؟!

لن يمكننا الانتقال من حالنا البائس إلىٰ الحال التي نأملها إلا إن استوعبنا وتعلمنا من الخلفاء الراشدين، فأولئك الخلفاء هم التطبيق المثالي النموذجي للإسلام بعد أن توفي رسول الله، ولهذا قال لنا رسول الله في وصيته الغالية المشهورة:

«فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ»

ولن يمكننا تنفيذ وصية حبيبنا إلا أن عرفنا سنة الخلفاء الراشدين! فمن هنا كان معرفة تاريخ وأنباء هذا العصر، ومعرفة رجاله وأحواله وأوضاعه هي

الطريق لفهم الإسلام، وفهم واجبنا في واقعنا المعاصر[1].

سننظر في قضايا من عصر الخلافة الراشدة تحت ثلاثة فصول، هي:

- **الفصل الأول**: السياسة الراشدة.
- **الفصل الثاني**: الأخلاق الراشدة.
- **الفصل الثالث**: الجهاد الراشد.



(١) قُدِّمَ هذا الباب كحلقات تلفازية في شهر رمضان (١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م)، وبث على شاشة قناة التناصح الليبية.

الفصل الأول

السياسة الراشدة

لماذا كان للخلفاء الراشدين سنة.. ألم يكتمل الدين في زمن النبي؟

نعم اكتمل الدين، ومن الأدلة علىٰ اكتماله أن رسول الله ﷺ أوصانا باتباع سنة الخلفاء الراشدين، فإنهم لا سنة لهم في العبادات والشعائر، وإنما سنتهم هي في السياسة وطريقة الحكم، لذلك قال رسول الله (سنة الخلفاء)، ولم يقل سنة أصحابي أو سنة فلان وفلان، كان النبي يصفهم بوصفهم «الخلفاء» ليؤكد علىٰ أن جانب الاقتداء بهم في سنتهم هو الجانب السياسي.

وذلك لأن الدين في سائر الجوانب بينه ووضحه رسول الله، لكن بعض الأمور بقيت لا يمكن الاقتداء فيها برسول الله لاعتبارات خاصة، منها مثلا:

أولًا: أن رسول الله متصلٌ بالوحي، وينزل الوحي عليه يصحح له أو يوجهه، لكن رسول الله سيموت وستبقىٰ الأمة بلا وحي، فكان لا بد من وجود تجربة يقتدي فيها المسلمون ببشر لا يتصلون بالوحي، فهم يجتهدون فيخطئون ويصيبون.

ثانيًا: أنه لا يملك مسلم أن يعارض رسول الله، فهو الرسول الموصول بالوحي الذي ينطق بالحق وهو الكامل روحًا وعقلًا، ومن ثَمَّ لا يمكن لمسلم أن يقاتل النبي، فالذي يفعل شيئًا من هذا يكون كافرًا مرتدًا. فمن هنا كان لا بد من وجود قدوات من البشر يُقتدىٰ بهم، في سنتهم في مثل هذه الأمور كالشورىٰ فيما ليس فيه نص وفي النوازل والمستجدات، والتعامل مع المعارضة، والتعامل

مع الفتن الداخلية.. وهكذا من الأمور التي يختلف التعامل فيها بين النبي وغيره من سائر البشر.

ثالثًا: أن رسول الله اجتمعت فيه النبوة والإمامة، أي الرئاسة الدينية والدنيوية، ولا يمكن لأحد أن يختار الرسول وإنما هو اصطفاء يصطفيه الله له، أما بالنسبة للحاكم فلا بد أن يعلمنا الإسلام كيف نختار الحاكم وما هي شرعية حكمه وما هي حقوقه وواجباته.. ولم يكن هذا ليُعرف علىٰ الوجه الواضح إلا بوجود نموذج بشري يملك الناس فيه أن يختاروه وأن يحاسبوه ويراقبوه بل وأن يعزلوه.

نتناول آفاق تلك السياسة الراشدية في هذا الفصل ضمن خمسة مباحث هي:

- **المبحث الأول**: فقه الخلافة الراشدة.
- **المبحث الثاني**: فقه اختيار الحاكم في الإسلام.
- **المبحث الثالث**: حقوق الأمة علىٰ الحاكم.
- **المبحث الرابع**: شرعية السلطة في النظام الإسلامي.
- **المبحث الخامس**: المعجزة التاريخية للخلفاء الراشدين.



فقه الخلافة الراشدة

المدينة الفاضلة والعصر الذهبي:

سألت بعض الشباب في محاضرة عن العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، فقال بعضهم: العصر الأندلسي حيث القصور الفاخرة والصنائع الدقيقة، وقال آخرون: العصر العباسي حيث الفنون والعلوم، وقال بعضهم: العصر الأموي حيث أوسع مساحات الفتوحات الإسلامية.

لقد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال حين قال:

«**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**».

وكذلك حين أوصانا بالاقتداء بالخلفاء الراشدين لما قال «عضوا عليها بالنواجذ». ولذلك فإن المسلمين في سعيهم نحو إحياء الخلافة الإسلامية لا يطمحون لعصور الأمويين والعباسيين والعثمانيين، بل يطمحون لعصر الخلافة الراشدة، وهم حين يتحدثون عن الحاكم المثالي يتحدثون عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي لا عن عبد الملك بن مروان أو أبي جعفر المنصور أو السلطان سليم، رغم أن كل هؤلاء من عظماء التاريخ الإنساني، إلا أن المسلمين يتمسكون على الخصوص بالقدوة المتمثلة في الراشدين.

هذا التحديد لعصر القدوة أو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية يؤثر كثيرا على اختياراتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، فالحاكم المسلم يظل عبر التاريخ يُحاكم إلى نماذج الخلفاء الراشدين، ولربما يكون الحاكم المسلم أنجز -بالمعيار الدنيوي- إنجازا عظيما لكن جمهرة الفقهاء والمؤرخين لا يرضون عنه، وهو هو نفسه الذي لو كان في سياق غربي لكان بغير شك من عظماء مؤسسي الدول، وذلك لأن وجود نموذج في النظام

الإسلامي يمثل الحق الذي يعلو علىٰ القوة، وانعدام هذا النموذج في السياق العلماني يؤدي لأن تكون القوة هي معيار الحق.

الدليل على صلاحية الإسلام للتطبيق:

كتبت الباحثة الإيطالية ماريا لويزا برنيري كتابها «المدينة الفاضلة عبر التاريخ» وتتبعت فيه تصورات الفلاسفة والمصلحين والزعماء عن المدينة الفاضلة، منذ أقدم العصوم حتىٰ الآن، وكان أول نتائجه أن كل تصورات المدينة الفاضلة لم تتحقق، لم يستطع أحد صناعة مدينته الفاضلة حتىٰ الذين امتلكوا سلطة تنفيذ أفكارهم!

هنا يبدو واضحًا قيمة «عصر الخلافة الراشدة»، إنه نموذج عملي واقعي تحقق في التاريخ لثلاثين سنة، فهو نموذج لم يحلق في آفاق الخيال ولم يحاول اختراع قوانين الطبيعة، بل نجح في التعامل مع واقع البشر. ولقد استمر ذلك النموذج ثلاثين سنة في قمته ثم بدأ النزول عن هذه القمة تدريجيًّا وببطء، لكن الأمة التي خرجت في هذه الثلاثين سنة هي الأمة التي ظلت ألف سنة تشع علما وحضارة. فالخلاصة أن تحقق النموذج في واقع الحياة لعدد من السنين يمثل في حد ذاته القدرة علىٰ إعادة تحققه مرة أخرىٰ، وبهذا يصير حلم إحيائه حلمًا ممكنًا، ويصير السعي إلىٰ تحقيقه من جديد سعيا واقعيا، وهو خير من السعي وراء سراب تصورات حالمة لم تتحقق ولم تستطع أن تخرج من سطور الكتب إلىٰ التعامل مع واقع الناس.

الواقعية مقابل المثالية:

تعترف الباحثة في بداية بحثها، أن الواقع تجاوز المثاليين الحالمين، «الحالمون من أصحاب الرؤىٰ أصبحوا موضع السخرية أو الاحتقار، والناس «العمليون» هم الذين يحكمون حياتنا»، بل لقد صار العالم عقيمًا من الحالمين الذين ينتجون مدينة فاضلة في الكتب وحدها، لقد أصيب الجميع بما تسميه

«عدوىٰ الواقعية»، وهكذا لم تستطع التصورات الحالمة أن ترفع من مستوىٰ الواقع، بل استطاع الواقع أن يجذب إليه التصورات لتكون أقل حلمًا ومثالية.

وكانت واحدة من إشكاليات الموضوع أن الفلاسفة حين كانوا يحلمون بمدينتهم الفاضلة، بدلًا من محاولة «اكتشاف قوانين الطبيعية، فضَّلوا أن يخترعوها» أي أنهم حاولوا إلزام الناس بأفكارهم ولم يحاولوا اكتشاف قوانين الواقع، فأقاموا مدنهم الفاضلة علىٰ مجرد تصورات.

أما الإسلام فقد أقام الإسلام دولته في واقع الناس، والناس لن يتحولوا إلىٰ ملائكة، الناس مختلفون في الفهم والمواهب والقدرات والطاقات، مختلفون في الهمم والطموح والغايات، يقع منهم الخطأ والنسيان، يستزلهم الشيطان، ويوقع بينهم الفتن والعداوة والبغضاء، سيكون منهم ذنوب، وستقع بينهم حروب وفتن.

في عصر الخلافة الراشدة نرىٰ نموذجا مثاليا للتعامل مع واقع البشر كما هو لا كما يحاول الفلاسفة والمثاليون أن يصنعوه، ولهذا لا بد أن نفهم هذا العصر جيدا إذا أردنا أن نقدم رسالتنا وديننا ونموذجنا الحضاري لكل الناس.

العصمة من التيه بين الأفكار والمذاهب:

لو لم يكن في تاريخنا عصرٌ مثل عصر الخلافة الراشدة لكان المسلمون الآن في تيه كبير واضطراب عظيم.. كنا سنكون أشبه بالغرب في تيهه واضطرابه.

نعم الغرب -رغم قوته وعلوه- في تيه واضطراب فكري واسع، والفلسفة الغربية أشبه بالغابة الضخمة المشتبكة المتناقضة من الأفكار والتصورات والرؤىٰ، وما نراه نحن في العالم العربي -لضعف الثقافة وقلة الاطلاع- ثوابت عندهم هي في الحقيقة موضوعات تهتز بشدة وتعاني من انتقادات جذرية وكاسحة، بل إن الفلسفة الغربية أنتجت مصطلح «ما بعد كذا» لتعبر عن «انتهاء» مرحلة أو فلسفة دون استيضاح ماذا سيليه.

إن مجرد «وجود نموذج» يمثل القدوة في الفكر الإسلامي هو بحد ذاته إنقاذ من التيه والضياع الفلسفي الكبير الذي يؤدي إليه «عدم وجود نموذج»، وكذلك عدم اليقين بنموذج واضح الملامح سيأتي به المستقبل. ولا يجد المرء تشبيها لهذا الوضع خيرا من قول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

إذا كان لدينا نموذج عملي متحقق في واقع الناس، أثمر ذلك نجاة من الاشتباكات والتناقضات في تحديد النموذج المعرفي والكليَّات الكبرىٰ، فلن تصير الأمة ضحايا للأفكار التي تمثل ردات فعل علىٰ واقعها بالمقام الأول، إذ لن تضطر لدخول صراعات دموية للخروج من عصر الإقطاع إلىٰ عصر الشيوعية أو من عصر الشيوعية إلىٰ عصر الليبرالية أو من عصر الكنيسة إلىٰ عصر الدولة.. وهكذا!

إن وجود النموذج العملي هو ما يحدد أمورًا كثيرة من أصول الفكر والتوجه، مثل المرجعية النهائية وتفاعلها مع الوقائع التفصيلية المستجدة، ومثل الانحياز بين الفردية والجماعية، بين المادية والروحية، وما ينبثق عن كل هذا من أنظمة وأنماط اقتصادية واجتماعية وغيرها.

كل هذه الأمور وغيرها تختلف العقول بشأنها إن غاب النص وغاب النموذج التطبيقي له، وإن الأمة التي تسعىٰ لاستعادة نموذج سبق وتعامل مع الأوضاع السياسية لهي أكثر بصيرة وأوضح طريقًا من أمة تبحث عن نموذج لم تر ملامحه ولا تحسم كثيرًا من أسئلته الجوهرية.

عصر الخلافة شمل كل أحوال الدولة:

لقد استمرت الخلافة الراشدة ثلاثين سنة، كما قال نبينا ﷺ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**».

هذه الثلاثون سنة فترة طويلة يحدث فيها الكثير من الأحداث والتقلبات التي تسفر في النهاية عن وجود نموذج ثري يمكننا الاقتداء به.

لقد كانت سنوات الخلافة الراشدة شاملة لسنن الدول جميعا: بداية من التأسيس كما في عهد أبي بكر، ومرورا بالنهوض والتطور كما في عهد عمر، وصولا إلىٰ الرخاء كما في عامة عهد عثمان، وانتهاء بالفتنة الداخلية السلمية والمسلحة كما في آخر عهد عثمان وعهد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

ولقد جاءت ولاية أبي بكر بنوازل سياسية كمسألة قرشية الخليفة، وتولية الفاضل، وما إن كانت الشورىٰ معلمة أم ملزمة، وغيرها. وجاءت ولاية عمر بمسائل أخرىٰ كترشيح الخليفة السابق، واختلاف الخلفاء في الاجتهاد السياسي، وأبواب في الأموال والأراضي ومعاملة الشعوب المفتوحة وغيرها. وجاءت ولاية عثمان بمسائل أخرىٰ كتعدد المرشحين للخلافة، وعملية الانتخاب، وفقه مواجهة المعارضة السلمية والمتمردة، وجاءت ولاية علي بمسائل أخرىٰ كاختيار الخليفة في الفتنة، وتحويل العاصمة، وتمرد الوالي علىٰ الخليفة، وانبعاث طائفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير إذن الإمام.

وفي كل هذه الفترات أمور اتفق عليها الراشدون فلا يمكن لأحد أن يجادل في أهميتها ولا أن يخرج برأي آخر فيها، مثل: ضرورة السلطة للدين وأنه لا دين بغير الدولة، فلقد اختار المسلمون خليفتهم قبل أن يدفنوا نبيهم، ورشح أبو بكر للأمة من يخلفه قبل أن يموت، وقبل أن يموت عمر وضع نظام اختيار الذي بعده، وما إن قُتِل عثمان حتىٰ كانت الخلافة تسعىٰ أمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهم الحضارة الإسلامية:

الآن نضرب مثالا آخر لآثار الإيمان بنموذج الخلافة الراشدة، هو أن روح الحضارة الإسلامية تنحاز إلىٰ الإنسان لا إلىٰ البنيان، وإلىٰ المعنىٰ أكثر من المادة.

لقد انتهىٰ عصر الخلافة الراشدة، الذي هو العصر الذهبي في الذهن الإسلامي، ولم يكن للمسلمين قصور مشيدة ولا بيوت فاخرة ولا مباني ضخمة ولا مساجد مزخرفة ولا ثياب مزينة.. لقد أتىٰ هذا كله فيما بعد، في العصور التي لا تمثل قدوة. إلا أن هذا العصر كان هو عصر الإنسان، العصر الذي يأمن فيه الإنسان علىٰ نفسه وعرضه وأهله، لا يستطيع حاكم أن يستذله أو يقهره أو يخيفه أو يظلمه، عصر تستطيع فيه المعارضة أن تواجه الخليفة قولا وصراخا وبالسلاح أحيانًا ثم يكون لهم بعد هذا حقوق لا ينتقص منها.

إن الذي ينتقص من عصر الخلافة لأن ثلاثة من خلفائه قُتِلوا ينسىٰ أن الذين قُتلوا لم يُقتلوا لظلم وقع منهم وإنما لاتساع هامش المساحة الممنوحة للجميع، لقد استطاع العبد الفارسي أن يهدد عمر قبل أن يقتله ويحيا في المدينة لا يمسه سوء، ثم استطاع هذا العبد أن يصلي في الصف الأول خلف عمر وأن يطعنه، وحاصر المتمردون بيت عثمان وهو من حماهم ومنع أصحابه من مقاتلتهم والتصدي لهم بعد مجهود وافر في بيان ما هم عليه من الباطل والدفاع عن نفسه، وكان من قبل ذلك قد تعرض لمحاولة اغتيال فلم يعاقب أصحابها باعتبار أن الجريمة لم تقع فلا يستحقون عقابا، وقُتِل علي علىٰ يد رجل من فريق جهر بالمعارضة وجهر بالحرب ولم يمنعه هذا أن يصل إليه. إنه انحياز لحرية الناس وحقوقهم علىٰ حساب أمن السلطة! وهو انحياز فلسفي كبير يترتب عليه معظم النظام السياسي والأمني في الدولة الإسلامية، وهو انحياز لاقتراب الحكام من العامة.

لهذا فمن أغرب الغريب أن يُعايَر النموذج الإسلامي بأن ثلاثة من خلفائه الأربعة قُتِلوا! وأن يصدر هذا ممن عاش في زمن تهلك فيه الأمم والجماعات والفصائل بدعوىٰ حماية النظام والحفاظ علىٰ الأمن القومي ويُشنق فيه الناس بتهم تكدير السلم العام!! أو لعل هذا هو الطبيعي، فإن من نشأ في ظل هذا النظام

لم يعرف معنىٰ الحرية فهو أخوف علىٰ أمنه منه علىٰ حريته وكرامته!

هذا الانحياز إلىٰ الإنسان وكرامته له وجه آخر، لأنه انحياز ضد القصور والزخارف والزينة، فالحضارة الإسلامية تهتم لأن تقيم مجتمعا تسوده الكرامة والعدل والإنصاف ولو كان يسكن بيوت الحجر والشعر والطين، وتنبذ وتحارب مجتمعا تسوده ناطحات السحاب وتغمره وسائل الترفيه والترف بينما إنسانه مذلول أو مطحون أو مسحوق ماديًا أو نفسيًا! وهذا افتراق خطير!

إن مجتمعات المادة قد تنبهر لروائع قصور الحمراء وتاج محل وفنون المآذن والقباب المملوكية بينما الحكم الأخلاقي للحضارة الإسلامية علىٰ هذه العصور سلبي، نعم قد نستدل بكل هذا علىٰ تقدم العلوم والفنون في الجانب العلمي من الحضارة الإسلامية، لكن يظل العصر الراشدي الذي خلا من كل هذا هو العصر الذي تتشوق له النفوس أكثر من عصور مماليك الشرق أو مغول الهند أو بني الأحمر الأندلسيين!

وعصر الخلافة الراشدة هو دليل علىٰ أهمية وحدة الأمة الإسلامية، لقد قاتل أبو بكر في أول هذا العصر لغاية توحيد الأمة، وقاتل علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أواخره لغاية توحيد الأمة أيضا. والحفاظ علىٰ وحدة الأمة كان في الأهداف الكبرىٰ للراشدين حربا وسلما، من أجلها كان عمر يعزل أي والٍ لم يرتضه أهل البلد مهما كان صلاح الوالي ومكانته، وبها حذر ووعظ عثمان المتمردين عليه.

فمن هنا عرفنا أن وحدة الأمة تحت إمام واحد هي من الأولويات الكبرىٰ، فلا يغرينا ولا يغرنا من يحدثنا عن تحويل الأمة إلىٰ مجرد «تنسيق» أو «تعاون» علىٰ غرار الاتحاد الأوروبي مثلا أو غيرها، فنحن أمة واحدة وهي تتوق إلىٰ الوحدة ولم يفرقنا سوىٰ الحكام المستبدون أو المحتلون.

فقه اختيار الحاكم في الإسلام

أول كلمة نطق بها أبو بكر في خطبة الخلافة هي قوله: «يا أيها الناس، وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم».

هذه الكلمة الموجزة تحدد أسس اختيار الحاكم في النظام الإسلامي، ففيها تأكيد علىٰ أن الحاكم ليس له أن يغتصب الأمر زاعما لنفسه الحق بالحكم، فليس في الإسلام أحد نزل له حق الخلافة بنص من السماء (كما يزعم الشعية)، وليس فيه من يتولىٰ شأن الأمة لمجرد أنه سليل أسرة أو عائلة أو قبيلة، إنما الطريقة الشرعية أن تختار الأمة خليفتها، وتوليه عليها. هذا أبو بكر وهو خير هذه الأمة وأفضلها ينفي أنه استحق الخلافة بفضل أو مكانة وإنما هو اختيار الأمة له.

وفي قوله: «ولستُ بخيركم» دليل علىٰ تواضعه وأنه لا يرىٰ لنفسه شأنا فوق الأمة ولا أنه أفضلها، وبتلك الكلمة قُطِع الطريق علىٰ أي أحد قد يزعم أنه له خيرية خاصة، فإن خير الأمة كلها لم يزعمها لنفسه، وأخذ منها العلماء جواز «تولية المفضول في وجود الفاضل» إن تعذر نصب أفضل الأمة لظرف ما!

وكان النبي ﷺ قد توفي دون أن يُسَمِي أحدا للخلافة رغم وجود الداعي وانتفاء المانع (أي: رغم أهمية الموضوع ووجود الفرصة)، ولكنه ألمح إلىٰ أبي بكر إلماحا كقوله: «**مروا أبا بكر فليصلّ بالناس**»، وقوله: «**يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، فهكذا قصد النبي أن يترك شأن الخلافة للأمة فتكون هذه سنة تولية الأمراء.

اختيار أبي بكر:

فلما توفي رسول الله ﷺ شغل أمرَ خلافته وجوهُ المسلمين، وبينما يتشاور

المهاجرون في الأمر بلغهم أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يتشاورون أيضا، فأسرع إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فوجدوهم يتشاورون في تولية زعيم الخزرج سعد بن عبادة، وكان تفكير الأنصار أنهم أهل المدينة وأصحابها من قبل أن يأتي المهاجرون ومن طبيعة الأمور أن يتولوا الأمر بعد وفاة النبي فهم أكثر أهل المدينة، والمهاجرون عدد قليل فيهم، ثم إنهم أهل النجدة والنصرة فقد نصروا النبي خير نصرة فجاهدوا وبذلوا وأنفقوا وضحوا، قال قائلهم: «أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفَّت دافَّة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر».

فأراد عمر أن يتكلم فمنعه أبو بكر وتكلم بدلا منه، فأثنىٰ علىٰ الأنصار واعترف بفضلهم ومكانتهم، ثم أوضح أن الأمر لم يعد رئاسة في أهل المدينة بل لقد صارت خلافة النبي رئاسة علىٰ كل العرب الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام، وهؤلاء العرب لا يقبلون أن تكون الرئاسة عليهم إلا في قريش لمكانتها العليا بين العرب، والخروج عن رئاسة قريش إنما يساوي انتقاض الأمر علىٰ الأمة. وبهذا تكون الرئاسة في المهاجرين ويكون الأنصار وزراء لهم. قال أبو بكر: «ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا... يا معشر الأنصار إنا والله ما ننكر فضلكم ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا علىٰ رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام».

فاقترح أحدهم أن يكون أميران: أمير من المهاجرين وأمير من الأنصار، فقال عمر: سيفان في غمد؟! لا يصلحان. وقال أبو بكر: لا، بل نحن الأمراء

وأنتم الوزراء. وحدث نقاش بين الصحابة، وارتفعت الأصوات، وهو أمر طبيعي ومتوقع في مثل هذه الأمور، ثم كان أن تراجع الأنصار فقام زيد بن ثابت وهو من الخزرج -أي من قبيلة سعد بن عبادة مرشح الأنصار للخلافة- ومن كُتّاب الوحي وقال: «إن رسول الله كان من المهاجرين، ونحن أنصارهم كما كنا أنصار رسول الله ﷺ». وهكذا جرىٰ الاتفاق علىٰ أن يكون الأمير من المهاجرين.

ثم بحثوا أي المهاجرين يكون أميرا، فاقترح أبو بكر عمر أو أبي عبيدة فرفضا وقدَّما أبا بكر، واتفقوا علىٰ أبي بكر، وبهذا تمت له البيعة التي يسميها العلماء بيعة أهل الحل والعقد، وهو ترشيح وجوه القوم وأصحاب المكانة والمقام فيهم لأحد أن يكون أميرا، وفي اليوم التالي اجتمع الناس بالمسجد وبايعوا أبا بكر البيعة العامة التي هي قبول الأمة بهذا المرشح، وبها تنعقد البيعة ويصير المرشح إمامًا.

اختيار عمر:

عاش أبو بكر خليفة لمدة عامين، فلما مرض وأحسَّ بدنوا الأجل جمع أبو بكر عنده عددا من كبار الصحابة فقال لهم: «إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا لمأتي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمَّرْتُم عليكم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي»

فتشاوروا في الأمر ثم طلبوا منه أن يرشح لهم أحدهم، فاختار عمر بن الخطاب كي يكون مرشحًا فرقع عليه الرضا والاختيار من أهل المشورة، ولما مات أبو بكر بويع عمر البيعة العامة في المسجد، فانعقدت بذلك بيعته وصار إمامًا.

وقد ظل عمر خليفة علىٰ المسلمين لعشر سنوات، وفي أواخر عهده كان يوما بموسم الحج في منىٰ، فجاء من يخبره بأنّ (فلانًا) يقول: لو مات عمر

لبايعت فلانًا، فغضب وقال: «إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم...»، ثم خطب خطبة طويلة ختمها بقوله: «من بايع رجلًا عن غير مشورة من المسلمين فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يُقْتَلا».

وأوضح عمر أن السرعة التي تمت بها مبايعة أبي بكر (لأنه بويع من أهل الحل والعقد في نفس يوم وفاة النبي ﷺ) إنما كانت فلتة، ولكن الله وقىٰ شرَّها، وذلك أنه ليس في المسلمين من «من تُقْطَع الأعناق إليه مثل أبي بكر»، أي ليس فيهم رجل سابق في المكانة والفضل عن سائر المسلمين بفارق ووضوح كما كان أبو بكر، ولهذا فإن أي محاولة بعد هذا للإسراع ببيعة أحد عن غير تمهل وتروي ومشورة بين المسلمين إنما هي غصب لحق الأمة.

اختيار عثمان:

ولما طُعن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بقي في مرضه ثلاثة أيام، وفي هذه الأيام اقترح وسيلة جديدة لإدارة أمر اختيار الخليفة من بعده. وذلك أنه رشح ستة أسماء من السابقين في الفضل والمقام والمكانة، فهم بقية العشرة المبشرين بالجنة، وكلهم ممن تولىٰ الولايات في عهد النبي ﷺ، وأولئك هم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص. مستبعدًا منهم سعيد بن زيد، وهو من قرابة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فعمر هو عمر بن الخطاب بن نفيل، وسعيد هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكان معهم عبد الله بن عمر وهو من فقهاء الصحابة ولكن رأيه استشاري وليس من ضمن المرشحين.

تولىٰ عبد الرحمن بن عوف زمام المبادرة فاقترح علىٰ المرشحين الستة تنازل بعضهم لتقليل العدد وتحجيم الاختيار، فتنازل الزبير لصالح علي، وتنازل طلحة لصالح عثمان، وتنازل سعد لصالح عبد الرحمن، فصار المرشحون

ثلاثة: عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف. فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل أحدهم عن الترشح للخلافة علىٰ أن يدير هو مسألة الاختيار، فسكت الشيخان عثمان وعلي، فعرض عليهما أن يتنازل هو عن الترشح فيكون إليه إدارة هذا الاختيار مشترطا عليهما أن يكون كلامه ملزما ومشترطا علىٰ نفسه أن لا يبتغي باختياره إلا وجه الله، فوافقا.

فقضىٰ عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يسأل ويشاور أهل الشورىٰ، وغيرهم من أهل المدينة، حتىٰ سأل النساء في البيوت ومن كان قادما إلىٰ المدينة في سفر ومن مرَّ بها، ثم جاء في صبيحة اليوم الرابع فجمع من كان حاضرا بالمدينة من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد الذين كانوا في المدينة لأنهم حجوا مع عمر في هذه السنة (فنحن الآن في شهر ذي الحجة عام ٣٢ للهجرة)، ثم أعلن قائلًا:

«يا علي، إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن علىٰ نفسك سبيلا»

ثم بايع لعثمان قائلًا: «أبايعك علىٰ سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده»، ثم بايعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون. وهكذا صار عثمان ابن عفان إمامًا.

اختيار علي:

استمرت خلافة عثمان اثنا عشر عاما، فكانت عشرة منها في رغد ورخاء وخير حال، ثم أقبلت الفتنة المشهورة، وربما تناولناها في مقالات قادمة إن شاء الله، وخلاصتها أن مجموعة من المتمردين يقودهم مجموعة من المتآمرين ويكثر عددهم بالأعراب والغوغاء رأوا أن عثمان غيَّر وبدَّل في أمر الشريعة فخرجوا من بلادهم إليه في المدينة وأرادوا أن يخلعوه، وهو الأمر الخطير الذي لم يرض به الصحابة وكان النبي قد أوصىٰ عثمان ألا ينخلع من الخلافة إن

أراده هؤلاء علىٰ ذلك، وهو من دلائل نبوته ﷺ.. ثم انتهىٰ الأمر بأن حاصروا عثمان في بيته، ومنع عثمانُ الصحابةَ من الدفاع عنه، حتىٰ اقتحم المتمردون عليه البيت وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن قبل الغروب من يوم الجمعة ١٣ ذي الحجة لعام ٣٥ للهجرة.

لئن كان المتمردون متفقين علىٰ خلع عثمان فإنهم لم يكونوا متفقين علىٰ من يخلفه، فحاول بعضهم أن يحمل عليها عبد الله بن عمر فلم يستطيعوا، وحاول غيرهم مع طلحة والزبير فلم يستطيعوا، فعلموا أنهم وإن استطاعوا قتل الخليفة الذي منع أحدا من الدفاع عنه إلا أنهم لا يستطيعون نصب خليفة بما لديهم من قوة، وأن أمر نصب الخليفة إنما هو للمهاجرين والأنصار وأهل بدر فهؤلاء هم الذين يتبعهم الناس، بل إن عليا حين ذهبوا إليه قال لهم: «إني لأستحيي أن أبايع قومًا قتلوا رجلًا قال فيه رسول الله ﷺ: «**ألا أستحيي ممن تسحيي منه الملائكة؟**»، وإني لأستحيي من الله أن أُبايَع وعثمان قتيل علىٰ الأرض لم يُدفن بعد».

فانصرفوا عنه ثم عادوا إليه بعدما دفن عثمان، فظل يدافعهم ويقولون: لا بد للناس من خليفة، وهو يقول: إني لكم وزير خير مني أمير، وهم يقولون: لا أحد أحق بها منك. فاتخذ علي إجراءا يجعل بيعته بيعة عامة مشهودة ولا ينفرد أولئك المتمردون بعقد بيعة خاصة لهم كأنما صاروا أهل حل وعقد. وبذلك يكون أمره متروكا لعامة أهل المدينة الذين فيهم السابقون من المهاجرين والأنصار. وقال: «فإذا أبيتم عليّ، فإن بيعتي لا تكون سرًّا، ولكن أخرج إلىٰ المسجد فمن شاء أن يبايعني بايعني». وبهذا بايعه الناس عن رضا واختيار، وبهذه البيعة العامة انعقدت الإمامة لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خلاصات:

أولًا: تولىٰ الخلفاء الراشدون الخلافة باختيار الأمة، فلم يغتصبها أحد قهرا

بحرب أو بغلبة، ولا ادعىٰ لنفسه فضلا فوق الأمة يخوله الحق بالخلافة! كما أن اختيار أهل الحل والعقد لواحد منهم إنما هو بمثابة الترشيح، وللأمة أن تقبله أو ترفضه، والدليل أنه لا يصير خليفة إلا بعد البيعة العامة.

ومن ثَمَّ فاختيار الحاكم في الإسلام ليس بالنص (كما يزعم الشيعة)، ولا هو بالغلبة والسيف (كما هي طبائع العسكر والمستبدين والمحتلين).

ثانيًا: أن الصحابة اجتهدوا لأمر الأمة فاختاروا للخلافة أفضلهم ثم أفضلهم ثم أفضلهم، لا يبتغون إلا مصلحة الأمة دون النظر إلىٰ العصبية القبلية أو الميول القلبية أو الأهواء، فالمهاجرون قدَّموا عليهم أبا بكر وهو من قبيلة تيم، ومن بعده قدموا عمر وهو من قبيلة عدي، وكلتا القبيلتيْن أضعف مكانة ومقاما من قبائل أخرىٰ كبرىٰ كبني هاشم وبني أمية. وكذلك الأنصار الذين لما علموا أن مصلحة الأمة تقتضي الرئاسة في قريش تراجعوا عن الإمارة وصاروا هم المحكومين في مدينتهم تحت رئاسة المهاجرين القرشيين. وكذلك أبو بكر رشح بعده عمر ولم يكن من قبيلته، وهكذا فعل أهل المدينة حين اختاروا عثمان بن عفان، رغم أن عليا هو الأقرب إلىٰ رسول الله نسبا، فهو ابن عمه، وهو من بني هاشم وهم بعمومهم أسبق للإسلام من بني أمية قبيلة عثمان. لكن هذه الحسابات القَبَلِية لم تكن ترد علىٰ بالهم أو تتحكم في قرارهم، وإنما ينظرون بمعيار مصلحة الأمة وبالخيرية الشخصية.

ثالثًا: أن الصحابة اجتهدوا أن يتم الأمر في سلم وأمن، فكان حوارا وإقناعا في سقيفة بني ساعدة، فبويع لأبي بكر دون أن يُرفع سيف، والحقُّ أن الأنصار قوم لا مثيل لهم، وهم قوم يتمنىٰ كل مصلح لو كان لديه مثلهم فلقد نصروا رسول الله النصرة التامة الكاملة دون انتظار أجر ولا جزاء. واتخذ أبو بكر من الترتيب ما يجعل انتقال الخلافة من بعده بغير اختلاف فشاور ثم رشح عمر. ثم فعل عمر مثل ذلك فاختار ستة وجعل بينهم من يرجح إذا تساوىٰ الاختيار.

وهكذا فعل عثمان حيث منع أحدا أن يدافع عنه وقرر أن يفدي الأمة بنفسه لكي لا يقع اقتتال في المدينة ولتظل جمهرة المهاجرين والأنصار باقية تختار خليفتها القادم.

رابعًا: أن الصحابة اجتهدوا في صرف الأمر عن أنفسهم، فتولي الحكم ليس غنيمة وإنما هي مسؤولية ثقيلة كبرىٰ، والمغرور هو من قاتل من أجل سلطان يعرف من نفسه أنه ليس مؤهلا للقيام بحق الله فيه. هذا الصديق وهو خير الأمة قاطبة يقول: «والله ما كنت حريصا علىٰ الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت راغبا فيها، ولا سألتها الله عَزَّوَجَلَّ في سر ولا علانية»

ومثل هذا قال عمر حين رشحه أبو بكر أمام الأنصار ليتقلد الخلافة: «فلم أكره مما قال غيرها، والله لأن أقدم فتضرب عنقي، لا يقربني ذلك من إثم، أحب إلي من أن أتأمّر علىٰ قوم فيهم أبو بكر»

وقد رشح عمر ستة من الصحابة فتنازل عنها أربعة ليجري الاختيار بين اثنين هما عثمان وعلي. ثم ظل علي يدافع أمر الخلافة عن نفسه بعد استشهاد عثمان. فلم يتولها أحد منهم إلا استشعارا لضرورة أن يتولاها إذ لا بد للأمة من خليفة ونظام.



حقوق الأمة على الحاكم

يمكن تلخيص تلك الحقوق في ثلاثة: حق التولية، حق المراقبة والتقويم، حق الإنكار والعزل.

وربما يسأل سائل: ما الفارق إذن بين النظام الإسلامي والنظام الغربي العلماني، فعندهم نفس هذه الحقوق؟

إن ثمة أمرًا جديرًا بالانتباه يغيب عن تفكير من يتناولون موضوع النظام السياسي الإسلامي: لقد أنشأ الإسلام نظاما سياسيا يجعل الأمة فوق السلطة، بمعنىٰ أنه يوزع عناصر القوة بين الأمة والسلطة، علىٰ العكس مما هو في حالة الدولة الحديثة المركزية التي تتركز فيها القوة في يد السلطة وحدها، فتكون الأمة أمام السلطة كالأسير أمام السجان والأعزل أمام المسلح.. يصنع الإسلام نظامًا سياسيًا يحصل فيه التوازن بين قوة الأمة وقوة السلطة، بينما تصنع الدولة الحديثة نظاما تكون فيه السلطة هي الجهة التي تحتكر القوة.

وهذا مدخل مهم لكي نفهم منه أن الإسلام يُطالب الأمة بالسمع والطاعة للأمير في المعروف وينهىٰ عن الخروج عليه طالما لم يرتكب الكفر البواح ولم يخرج عن نظام الإسلام. إذ تكوين النظام يجعل الأمة صاحبة قوة وعندها القدرة علىٰ الاحتجاج والثورة. بينما القيمة الأساسية في فكر الدولة الحديثة هي «الحقوق والحريات»، لأن السلطة تستطيع كبت وقهر المحكومين بما تحتكره من أدوات القوة، فلا يمكن مطالبة المقهورين بالسمع والطاعة بل تُطالَب السلطة بتوفير وتأمين الحقوق والحريات، ويكون الكفاح السياسي في الدولة الحديثة كفاح لتوسيع هامش الحريات وتقليل تغول السلطة. ومن هنا يجب أن نفهم حقوق الأمة وحقوق الحاكم في النظام الإسلامي ضمن هذا التصور.

وقد تناولنا مسألة تولية الحاكم، وبقي أن نتناول حق المراقبة والعزل.

حق المراقبة:

في الخطبة الأولىٰ لأبي بكر في الخلافة قال: «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني... أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

هنا قرر الصديق أن الأمة رقيبة علىٰ الحاكم، ومشاركة له في شأن السياسة والإدارة، فهي تراقبه وتحكم علىٰ أدائه، فإن كان محسنا أعانوه فيزداد إحسانا، وإن كان مسيئا نصحوه وقوموه فيتداركون إساءته.

والأمة والحاكم جميعا يخضعون للشريعة ولنظام الإسلام، ولهذا فإن معيار التقييم واضح للجميع، يعرف الجميع كيف يحكم علىٰ شيء بأنه حسن وعلىٰ آخر بأنه سيئ، وأما ما كان اشتباه أو تداخل فهو أمر مردود لأهل العلم والاستنباط. كما في الآية: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

فالأمة المسلمة ليست أمة أكل وشرب ورفاهية ومادة، بل هي الأمة المؤتمنة علىٰ الرسالة، فهي عندما تراقب حاكمها وتقيم عمله تقيسه علىٰ معيار الإسلام وتعاليمه، فلا يقبل من الحاكم أن يظلم ويقسو بحجة «مصلحة الدولة» أو أن يسمح بانتشار الفحش والرذيلة لأنها تزيد من «الدخل القومي» أو يسمح بإجراءات اقتصادية فيها احتكار أو غش مراعاة لرجال الأعمال لجذب استثماراتهم.. كل هذه الأمور وأمثالها لا تسمح به الأمة المسلمة ولو كان فيها ازدهار للأموال والرفاهية والطعام والمباني، إنما معيار ومقياس طاعة الأمة لحاكمها بقدر طاعته لله ورسوله.

يُلاحظ في عبارتي الصديق فارق واضح، فأبو بكر يطلب في الأولىٰ أن يعينوه إذا أحسن وأن يقوِّموه إذا أساء. لكنه في العبارة الثانية يتحدث عن شرعية الأمة في عصيانه والتمرد عليه إذا خرج عن طاعة الله ورسوله.. ولا بد أن ننتبه

لهذا جيدا. ذلك أن الحاكم سيكون له آراء واجتهادات وتصرفات في شؤون الحكم والسياسة والإدارة فهو ما دام يعمل في إطار الرسالة والشريعة فإن علىٰ الأمة أن تعينه في الصواب وتنصح له في الخطأ، لكنه إذا خرج عن الشريعة ولم يلتزم هذه المرجعية العليا فقد سقط حقه علىٰ الأمة في السمع والطاعة، ونشأ واجب علىٰ الأمة أن تعصيه وتقاومه حتىٰ يعود إلىٰ الالتزام بنظام الدين وبالمرجعية العليا التي هي الإسلام، يقول الإمام عبد القاهر البغدادي في كتابه «أصول الدين»: «فمتىٰ أقام (أي: الحاكم) في الظاهر علىٰ موافقة الشريعة كان أمره في الإمامة منتظما، ومتىٰ زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارا عليه في العدول به من خطئه إلىٰ صواب أو في العدول عنه إلىٰ غيره. وسبيلهم معه فيها كسبيله مع خلفائه وقضاته وعُمَّاله وسُعاته، إن زاغوا عن سننه عدل بهم أو عدل عنهم».

وإذا كان واجب الأمة أن تعصي من يخرج عن الشريعة فكيف بمن يخرج علىٰ الشريعة ويحاربها وينشر بقوة السلطة ما يناقضها؟!

ثم ها هنا أمر مهم أيضًا، إن تقويم الحاكم والنصح له أو عصيانه إن خرج عن الشريعة ليست مجرد «حق» تمارسه الأمة، بل هو «واجب»، فالحق هو الأمر الذي لصاحبه أن يتنازل عنه، بينما «الواجب» هو أمر لا يجوز تركه والتنازل عنه. فعلىٰ الأمة عليها «واجب» مراقبة الحاكم وتقويمه بل والخروج عليخ إن خرج عن الشريعة.

وقد وقع في عهد أبي بكر أن رجلًا أغلظ له القول، حتىٰ غضب أبو بكر غضبا شديدا من إغلاظه له وشدته، فقام أبو برزة الأسلمي فقال: ألا أضرب عنقه يا خليفة رسول الله؟ فإذا أبو بكر يتجنب الأمر (أي: يغير الموضوع)، فلما انتهىٰ الجمع أرسل أبو بكر إلىٰ أبي برزة فقال له: أرأيت حين رأيتني غضبت علىٰ رجل فقلت أضرب عنقه يا خليفة رسول الله أَوَ كنت فاعلا ذلك؟! قلت: نعم والله والآن إن أمرتني فعلتُ. قال: والله ما هي لأحد بعد محمد ﷺ». فهنا

أسس أبو بكر أن المعارضة للخلفاء والإغلاظ في القول لهم ليست مما يستوجب القتل كما كان ذلك في حق رسول الله ﷺ.

الشـورى:

كان رسول الله خير البشر وأكملهم وأعلمهم بالله والمتصل بالوحي، ومع هذا أُمِر بالشورىٰ، ولما وجد رغبة المسلمين في الخروج إلىٰ أحد نزل علىٰ رغبتهم رغم أنه كان يرىٰ البقاء في المدينة والدفاع عنها من داخلها، فلما حصلت المحنة في معركة أحد أنزل الله عليه القرآن يؤكد عليه أن يظل علىٰ رفقه ولينه معهم وأن يستشيرهم ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وكان رسول الله مثالًا في الاستشارة حتىٰ ليقول أبو هريرة: «ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ».

ومن العجيب أنه منذ كان المسلمون في مكة وقبل أن تتأسس لهم دولة كان القرآن يصف لهم صورة مجتمعهم المنشود بأنه مجتمع عبادة وشورىٰ وتكافل ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورىٰ:٣٨]. هذه الآية هي في سورة الشورىٰ، وهي سورة مكية. فلما توفي رسول الله، وانقطع الوحي من السماء، كان عصر الخلافة الراشدة هو التأسيس الكامل لشأن الشورىٰ التي ستسمر في شأن الأمة مع حكامها:

كان أبو بكر إذا لم يجد للمسألة نصًا في كتاب الله سأل الناس: هل بلغهم شيء في هذا عن رسول الله، فإن لم يجد جمع لها رؤوس الصحابة فاستشارهم، فإذا اجتمعوا علىٰ رأي أخذ به. وكان عمر يجمع للشورىٰ ما أمكنه من الصحابة الكبار، لا سيما في المسائل الكبرىٰ والنوازل، فعند طاعون عمواس جمع من كان لديه من المهاجرين ثم الأنصار ثم مشايخ قريش ممن تأخر إسلامهم حتىٰ صدر عن رأيهم، وذلك قبل أن يلقىٰ عبد الرحمن بن عوف فيخبره بحديث

النبي «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»، وحين كثرت الأموال استشار الصحابة في مصارفها، وفي إنشاء الديوان، وانعقد مجلس للمشورة ثلاثة أيام في شأن تقسيم الأراضي الواسعة الخصبة في العراق وما إن كانت تقسم علىٰ الفاتحين أم يُحتفظ بحق فيها للأجيال القادمة، وكان يستشير الشباب حتىٰ كان من أهل مشورته الصحابي الشاب عبد الله بن عباس، حتىٰ إن الإمام الزهري قال لبعض الغلمان من الناشئة: «لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغي حدة عقولهم»، وقد ختم عمر حياته بمجلس للشورىٰ في شأن انتخاب الخليفة من بعده.

وعلىٰ مثل ذلك من المشورة جرىٰ شأن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فقد افتتح عهده بالشورىٰ في شأن عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان ثأرًا لأبيه لما حامت حوله شبهة الاشتراك مع أبي لؤلؤة، فكان أكثر الناس مع دفع الدية فدفعها عثمان من ماله. وكانت خطواته في جمع الأمة علىٰ مصحف واحد وحرق بقية النسخ علىٰ ملأ من الصحابة كما قال علي بن أبي طالب، بداية من كاتب المصحف والمُحَكَّم في اللهجة ونشر النسخ من المصحف المعتمد، وغير ذلك حتىٰ آخر حياته حيث ثبتت أخبار مشاوراته للصحابة في الفتنة التي انتهت باستشهاده.

وكذلك كان علي يستشير كما في وقف القتال في صفين وفي التعامل مع الولاة في الأمصار ومع المشركين المتظاهرين بالإسلام.

وأبرز ما يبدو فيه شأن الأمة مع الحاكم هو أن يعزل الأمير الوالي عنهم إذا لم يرغبوا فيه، وقد شهد عصر الراشدين عزل ولاة لمجرد طلب أهل البلد، فربما اتهموهم بما هو كذب أو بما لا يثبت، ومهما كان هذا الوالي من الصحابة المشهورين بالفضل والسابقة والكفاءة، فقد عُزل عن الكوفة سعد بن أبي

وقاص وأبي موسىٰ الأشعري والمغيرة بن شعبة، وقد قال عمر: «هان شيء أُصلح به قومًا: أن أُبدلهم أميرًا مكان أمير».

وقد تكرر مثل هذا المعنىٰ في قول عثمان الذي ردَّ أبا موسىٰ الأشعري إلىٰ الكوفة وعزل سعيد بن العاص، ومعه رسالة لأهل الكوفة تقول: «قد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئًا أحببتموه لا يعصىٰ الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصىٰ الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم، حتىٰ لا يكون لكم علي حجة».

ويبدو واضحًا جليًا أن عمر بن الخطاب رشَّح سعد بن أبي وقاص ليكون خليفة من بعده ضمن الستة المرشحين، رغم أنه عزله عن الكوفة، وأعلن عن ذلك أنه لم يعزله عن تهمة أو عجز، وإنما ما وجده من أن بعض أهل الكوفة لا يقبل بولايته. وعلىٰ العموم فأخبار عزل الولاة في عصر الراشدين مشهورة.

عزل الخليفة:

كما لم يدَّع أحد من الخلفاء أنه تولىٰ علىٰ الأمة بحق إلهي أو بفضيلة زائدة عليهم، كذلك لم يدّع أحد منهم أنه مُحصَّن من العزل، وإنما جميعهم يعترف بأن الأمر أمر الأمة، لها أن تعزل الخليفة كما ولَّته. ولما تمرد بعض الناس علىٰ عثمان لم يجادل أبدًا في أن من حقِّ الأمة أن تعزله، وإنما فتح حوارًا طويلًا ومتكررًا مع من تمردوا عليه، وأوضح فيها أن ما يرفعونه من أسباب إما أنها مكذوبة عليه وإما أنها غير موجبة لعزله، وقد اجتمع علىٰ بقائه الصحابة وعامة المسلمين، وقال له عبد الله بن عمر: «لا تخلع قميص الخلافة عنك فتكون سنة، كلما كره قوم أميرهم خلعوه»، ويقصد بهذا أن استجابة عثمان لرأي قلة متمردة سيجعل نظام الخلافة والدولة المسلمة مضطربا، كلما خرج بعض

الناس بالسلاح فإنهم يستطيعون عزل الخليفة لأسباب يتوهمونها. ولهذا فلقد أطال عثمان الجدال معهم محاولا ردَّهم عن هذه الفتنة.

الخلاصة:

تحت هذه الحقوق الثلاثة الكبرىٰ: حق التولية، حق المراقبة، حق العزل تندرج سائر الحقوق التي للأمة علىٰ الحاكم. وهذه الحقوق تحفظ الأمة من الشرور الكبرىٰ، من شر الاحتلال والعمالة، وبقدر ما رسخ في ضمير الناس أن لهم تلك الحقوق بقدر ما كانت قدرتهم وافرة علىٰ مقاومة المحتل والمستبد.

نحن الآن في لحظة جديدة في تاريخنا لم تتكرر من قبل. فتاريخنا علىٰ ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الخلافة الراشدة والتي هي النموذج المثالي للنظام السياسي الإسلامي، ففيها كان الخليفة هو أفضل الأمة دينا وسياسة معا، يقيم فيها العدل ويجتهد لها وينصح، يشاور ويستمع ولا يستبد ولا يطغىٰ.

المرحلة الثانية: الملك العضوض، وهو الذي استمر منذ الأمويين حتىٰ العثمانيين، وفيها ظلت تتناقص الصورة المثالية تدريجيا لكنها لم تنخلع من الإسلام، وحكامها في الجملة من صميم الأمة، ولاؤهم لها، ويعملون لصالحها ويجاهدون أعداءها، مع ما فيهم من ظلم وانحراف واستبداد وما لبعضهم من كوارث وخطايا ومخاز.

المرحلة الثالثة: الحكم الجبري، وهي المرحلة التي بدأت بالاحتلال ثم بعملائه بعد رحيله، وأولئك العملاء كانوا شرا علىٰ الأمة من المحتل نفسه، وارتكبوا من المذابح ما لم ترتكبه قوات الاحتلال، ونهبوا من أموال الأمة وثرواتها ما لم يفعله المحتلون، وهم وُجدوا في هذا المنصب وحكموا بدعم وحماية المحتلين. وإذا قامت عليهم ثورة تدخل أولئك المحتلون لإخمادها بكل القسوة والدمار، أو تدخلوا ليرتبوا عميلًا جديدًا مكان القديم الذي انتهت

صلاحيته، فإذا لم يمكن هذا ولا ذاك نزلوا بأنفسهم وجيوشهم لمنع البلاد من أن يحكمها أهلها والمعبرون عنها.

في هذه المرحلة الثالثة اجتمعت شرور الاحتلال والاستبداد، وانتزعت من الأمة كل عناصر القوة لتصير أسيرة عزلاء أمام الوحش المستبد المدجج بالأسلحة، ولهذا نقول إن هذه اللحظة لم تتكرر من قبل في تاريخنا، ولهذا فنحن في حاجة لمجهود ضخم لكي تكتسب الأمة القوة التي تفرض بها إرادتها علىٰ المحتل وعملائه المستبدين.

وأول هذه القوة: قوة الوعي والإيمان بأن لها وحدها الحق في تولية الحاكم بحق لا كمجرد إجراء شكلي واختيار مزيف. ولها الحق الكامل في المراقبة والمتابعة والنصح والتوجيه كي لا يقع الحاكم -الذي انتخبته بإرادتها- فريسة لضغوط الشرق والغرب. ولها الحق الكامل في عزل الحاكم إذا خرج عن الثوابت الدينية والمرجعية العليا.

الوعي والإيمان بهذه الحقوق هو الذي سيدفع بالإجراءات الأخرىٰ كقوة المؤسسات وأصالتها، والقوة العسكرية المنتمية للأمة لا للسلطة، والمتوزعة بين السلطة والأمة لا التي تحتكرها السلطة وحدها، وكالآليات التي تُمَكِّن من حفاظ الأمة علىٰ قوتها ووجودها.



شرعية السلطة في النظام الإسلامي

ما الذي يجعل السلطة شرعية فيكون لها على الناس حق السمع والطاعة مع الاحتفاظ بالحقوق الواجبة لهم عليها، وما الذي ينزع عنها شرعيتها فيصير للمسلمين حق عصيانها والتمرد عليها؟

ضرورة السلطة لإقامة الدين:

قبل أن يدفن الصحابة الجسد الشريف، جسد رسول الله ﷺ، كانوا قد اتفقوا على تولية خليفته، تناقشوا في سقيفة بني ساعدة حتى استقر أمرهم على أبي بكر، حتى إن العباس وعلي بن أبي طالب الذين انشغلوا بتجهيز الجسد الشريف لم يدركوا أن يحضروا نقاش اختيار الخليفة.

وفي سيرة الراشدين لم تمر ثلاثة أيام من بعد وفاة الخليفة السابق، إلا وكان الأمر قد استقر على اختيار الخليفة الجديد.

من هنا فهم العلماء مكانة وأهمية نصب الخليفة للأمة، وأنه أولى الواجبات على الإطلاق، وهو الواجب الذي كان أولى من دفن جسد رسول الله ﷺ، وقالوا بأن المدة القصوى لاختيار خليفة هي ثلاثة أيام، وذلك كي لا تنشب فوضى ولا ينتثر عقد الأمة وينفرط أمرها.

والإسلام منهج شامل للحياة كلها، ولها نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، ولأجل هذا فهو لا يكون مكتملا أبدا إلا إن كان في موقع السلطة، ولذلك فقد صار من القواعد المقررة في الشريعة أنه:

«لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمام».

ويقول ابن تيمية بأن النظام هو من افتراق الإسلام عن الجاهلية، إذ جاء

الإسلام بتنظيم شأن الناس حتىٰ في أصغر اجتماعاتهم، قال رسول الله: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»، ولم يكن العرب في الجاهلية يهتمون لشأن نظامهم كجماعة ولم يكن لهم رئيس بل كانوا يتفرقون قبائل، لكل قبيلة زعيمها أو زعماؤها، ومن هنا حذر النبي من مفارقة الجماعة أي جماعة المسلمين التي لها نظام ولها إمام، وشبه من يفارقها فيموت ولا بيعة له لإمام المسلمين كالجاهلي الذي كان يموت ولا بيعة له لأحد، فهذا قوله ﷺ: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**».

ومهمات الإمام أو الخليفة كما يصفها علماء السياسة الشرعية هي: «حراسة الدين وسياسة الدنيا به»، فهو المنوط به القيام بواجبات الدين ورعايتها بداية من إقامة الصلاة وجمع الزكاة وحتىٰ الجهاد وحفظ الأمن وإقامة الشريعة.

وقد ظل النبي ﷺ طوال الفترة المكية يبحث عن تلك الأرض وأولئك القوم الذي يقبلون الإسلام ليكونوا أنصار الدولة، ولتكون أرضهم هي قاعدة الدولة الإسلامية، فحاول في مكة والطائف وطاف علىٰ القبائل ثم كان هذا الشرف من نصيب الأنصار رضوان الله عليهم.. وما إن قامت الدولة حتىٰ بدأت تنزل الأحكام التفصيلية علىٰ المسلمين.

وحافظ المسلمون علىٰ دولتهم بكل ما استطاعوا، وبذلوا في سبيل هذا الدماء والأرواح والأموال وزلزلوا زلزالا شديدا حتىٰ فتح الله عليهم مكة، وصارت دولتهم تشمل الجزيرة العربية في عهد النبي ﷺ، فلم يخطر ببالهم التفريط في مكسب السلطة والدولة أبدا، بل إن اختيارهم للخليفة قبل دفن النبي هو إجماع من الصحابة علىٰ أن نصب الخليفة هو أولىٰ الأولويات.

والمقصود أن الإسلام لا يمكن أن يكتمل ولا أن يُطبَّق إلا في ظل دولة وجماعة، لأنه منهاج شامل ينتظم كل مجالات الحياة.

شرعية السلطة في الأنظمة الجاهلية:

عرفنا إذن أن السلطة ضرورية لإقامة الدين، وينبغي أن نعرف متىٰ تكون هذه السلطة شرعية في الإسلام، ومتىٰ لا تكون شرعية.

ولكن قبل أن نتحدث عن شرعية السلطة في النظام الإسلامي، ينبغي أن نفهم كيف تعمل كل سلطة علىٰ تكوين وتثبيت شرعيتها في الأنظمة الجاهلية، أي الأنظمة غير الإسلامية.

لقد شكلت «شرعية السلطة» الهمَّ الأول للحاكم، عبر مختلف المراحل التاريخية، إذ لا يسعه أن يعترف بأنه يحكم قهرا وقسرا وجبرا ورغم أنف الناس بلا حق له في الحكم ولا مبرر ليكون في موقع السلطة، حتىٰ الحاكم بأمر الله الذي نسب إليه أنه نثر الذهب وقال: «هذا حسبي» ثم سلَّ السيف وقال: «هذا نسبي» إنما حَكَم بشرعية انتسابه لآل البيت وأنه من ولد علي وأن جدته فاطمة بنت النبي.

وهكذا فعل الملوك عبر التاريخ فأعلاهم غرورا فرعون حكم بشرعية ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤] و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] وأشهد قومه علىٰ ما البلاد فيه من الغنىٰ والرخاء كمبرر لحكمه ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١] بل ووقف ليعلن نفسه حاميًا لقيم ومعتقدات الشعب حين قال مبررًا حربه علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦].

وأقل الملوك غرورا كوَّن شرعية سلطته بأنها حكم الضرورة، وأنه أقوىٰ من يستطيع أن يحفظ البلاد والعباد، ولو أنه ترك حكم البلاد لغيره لدهمها العدو أو لانتشرت فيها الفتن.. بحكم الضرورة هذا حكم العسكريون والعبيد المماليك الذين لم يعرفوا لهم نسبًا شريفًا يتخذونه كشرعية ولا كان لهم علم

أو فتح أو إنجاز يحكمون به كمبرر لهم وكمستند لشرعيتهم.

ولذلك كان طبيعيًا عبر التاريخ أن تعمل آلة السلطة على تثبيت أركان الحاكم، فتُجَيِّش السلطة أرباب الدين: الكهنة والأحبار والرهبان والفقهاء لإلباسها ثوب الشرعية، وإيجاد التأصيل الديني الذي يجعل هذا السلطان هو إرادة ورغبة الآلهة. وحين جاءت الحقبة العلمانية لم تتخلف هذه القاعدة بل اتخذت لها مثل هذا الجيش، إلا أن كتابها المقدس سُمِّي «الدستور»، وسُمِّي القائمون عليه: «فقهاء الدستور» و«خبراء القانون»، وقد قاموا بنفس الدور الذي قام به أرباب الدين في عصور سابقة.. وهو تثبيت وشرعنة السلطة الذين يحكمون في ظلها.

وهكذا فالعادة الجارية تاريخيا أن جهة ما تمتلك القوة، فتستطيع بهذه القوة أن تسيطر على الحكم وتقهر الشعوب، ثم تبدأ في إسباغ الشرعية على هذه القوة من خلال القيم والمعتقدات المنتشرة، وتستعمل في هذا طائفة الكهنة أو القانونيين، وكذلك طائفة الشعراء والأدباء أو الإعلاميين (بمصطلح العصر).. ليتحول اغتصاب الحكم وقهر الناس ورغبات القوي إلى رغبة إلهية ومواد دستورية وقوانين حاكمة.

ولذلك يقول الفيلسوف الألماني المشهور نيتشه «القانون ما هو إلا تعبير عن رغبات الأقوياء».. وكان القانوني المصري المشهور عبد الرزاق السنهوري يقول: «القانون يحكم بين متكافئين في القوة، فإذا لم يكن ثمة تكافؤ فالقوة هي القانون».

حالة الإسلام.. حالة خاصة:

في هذا الموضوع يمثل الإسلام حالة خاصة، فالنظام الإسلامي نظام متميز متفرد في بناء شرعية السلطة.. كيف؟

يتم هذا عبر ثلاثة أمور:

الأول: وجود نص مقدس معصوم.. هو النص القرآني والنبوي:

١- هذا النص لم يكتبه بشر في لحظة قوة وتغلب وقهر للناس، بل أنزله الله تبارك وتعالىٰ علىٰ رسوله.

٢- ثم هو نصٌّ معصوم فليست فيه أهواء البشر ورغباتهم في التحكم والسيطرة، وليست فيه عيوبهم من الخطأ والزلل والنسيان.. فهو نص معصوم من كل هذا.

٣- ثم هو نص مقدس، بمعنىٰ أنه لا يستطيع حاكم أن يغيره ويبدله، أو ينقص فيه أو يزيد منه.. بل الحاكم مجبر علىٰ احترامه وتقديسه وإظهار الخضوع له.

٤- وهو نص محفوظ تعهد الله بحفظه، فلن يستطيع أحد أن يطمس منه شيئًا أو يتآمر علىٰ إدخال شيء إليه مما ليس فيه.

الثاني: وجود فترة تاريخية واضحة الأحداث والتفاصيل وصفها النص المعصوم بأنها «الخلافة الراشدة»، وبأنها تمثل التطبيق الحقيقي للإسلام، وبأنها القدوة التي يجب علىٰ المسلمين أن يأخذوا بها.. هكذا قال رسول الله ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ**»، وفي الحديث الآخر: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**».

وهكذا أصبح لدىٰ المسلمين نموذج عملي تطبيقي فيه الكثير من الأحداث والتفاصيل والتقلبات عبر ثلاثين سنة، يعطيهم الهداية والمثل لتكراره وتنفيذه.

الثالث: أنه ليس في الإسلام كهنة يحتكرون الحديث باسم الله أو يحتكرون قراءة القرآن، ليس هناك مؤسسة كهنوتية هرمية منظمة لرجال الدين تملك السلطة الدينية، بل إن تعلم الدين والنبوغ فيه مفتوح لكل مسلم يمتلك هذه الموهبة ويبذل هذا المجهود، فالحالة العلمية الإسلامية هي حالة تيار واسع منتشر في المجتمع وليست حالة مؤسسة منظمة، ولذلك فهي حالة لا يمكن للسلطة السيطرة عليها أو احتواؤها..

صحيح يمكن للسلطة أن تعين القضاة أو تتخذ مفتيا للبلاد أو تنعم علىٰ بعض العلماء، ويمكن أن يوجد علماء سوء يقبلون أن يعملوا في خدمة الحكام والسلاطين.. ولكن كل هؤلاء إنما هم جزء محدود من تيار العلماء الواسع المنتشر بين المسلمين. ولهذا فكل محاولة يبذلها الحكام أو علماء السلاطين فيها تأويل فاسد تكون محاولة مكشوفة مفضوحة، ولا يملكون هم فرضها علىٰ الناس فرضا.. إذ لكل مسلم القدرة علىٰ أن يتبع ويستفتي من يثق بدينه وعلمه سواء أكان مندرجا في نظام السلطة أم لا.

وبهذا تظل حالة العلماء عموما حارسة للدين ولقيمه، والغالب أن علماء السوء والسلطان هم من خسروا أنفسهم وسمعتهم بما اقترفوه.. لا كما هو الحال في الكنيسة مثلا، فالكنيسة بما تملك من سلطة دينية قاهرة ومن تنظيم هرمي استطاع نظام الحكم أن يحتويها فيجعلها خادمة له، أو استطاعت هي أن تمارس الحكم بنفسها أحيانًا، فكانت تملك أن تجعل الحلال حرامًا والحرام حلالا، ولا يملك أتباعها إلا السمع والطاعة في الحالتيْن لأن القساوسة يملكون غفران الذنوب ويملكون المنع من الصلوات ويحتكرون الأسرار المقدسة.

الخلاف بين النظام الإسلامي والنظام العلماني:

هذه الأمور الثلاثة: وجود النص المقدس المعصوم الخالي من شبهة الهوىٰ والخطأ، وجود الفترة التاريخية الواضحة التي تمثل النموذج، عدم وجود مؤسسة دينية كهنوتية.. لا توجد في أي تجربة تاريخية أو في أي نظام سلطة آخر.

كيف؟

التجارب التاريخية تتأرجح بين عدد من الحالات.

- **الأول:** عدم وجود كتاب صحيح النسبة إلىٰ مصدر إلهي لا يمكن تحريفه (كما في حالة الديانات القديمة).

- **الثاني:** قد يوجد النص المقدس ولكنه يخلو من شريعة في شأن الحكم والسلطة (كما في حالة المسيحية)

- **الثالث:** قد يوجد النص المقدس وتوجد فيه شريعة ولكن لا توجد فترة تاريخية واضحة المعالم تكون سيرتها موضع قدوة في السياسة والحكم (كما في حالة اليهودية).

- **الرابع:** عدم وجود نص مقدس أصلا، وذلك في حالة العلمانية، فالأمر فيها أوضح؛ إذ مداره كله علىٰ المصلحة (المنفعة) التي يقدرها البشر لأنفسهم، ومنها يخرج دستور تتفرع عنه قوانين تفصيلية، فإن ارتأىٰ البشر حاجتهم إلىٰ تغيير النص الدستوري فعلوا ولا مشاحة.

وفي واقعنا المعاصر لا يوجد تنافس حضاري حقيقي إلا بين «النموذج الإسلامي» و«النموذج العلماني»، وقد استطاع النموذج العلماني أن يسيطر علىٰ العالم المسيحي وانصهر فيه الفكر اليهودي (فإسرائيل، وهي التحقق السياسي لليهودية، جزء من النموذج الغربي ولم تكن لها خصوصية حضارية مغايرة عنه، وقد أفاض في إثبات هذا والتدليل عليه د. عبد الوهاب المسيري في العديد من كتاباته)، ثم تأثرت به وتشربته مناطق الديانات القديمة التي فصلت عمليا بين أديانها وبين أحكام السياسة والسلطة، حتىٰ لم تعد تمثل بديلا حضاريا للنموذج الغربي العلماني، ومن ثَمَّ فهي لا تمثل تهديدًا حضاريًا له.

وهكذا يقدم النظام الإسلامي نموذجًا واضحًا لموضوع شرعية السلطة، إذ لديه نص معصوم وتجربة تاريخية نموذجية، بينما لا يقدم النظام العلماني نموذجًا واضحًا لأنه لا يملك أي نص مقدس ولا لديه أية تجربة تاريخية يراها نموذجية.. بل النص (الدستور) قابل للتغيير والتبديل دائمًا، والتصور النموذجي (المدينة الفاضلة) ما زال خيالًا وحلمًا وهو تصور قابل دائمًا للتغيير والتبديل أيضًا.

من الذي يحكم ويتحكم في هذا التغيير والتبديل عمليًا؟

الإجابة: القوة.

الطرف الأقوىٰ هو الذي يملك أن يصوغ الدستور، بسيطرته العسكرية أو الاقتصادية وبنفوذه الإعلامي، حيث يستطيع بهذا أن يختار واضعي الدستور وأن يوجه الناخبين وأن يدعم حملات المرشحين وأن يمارس الضغط علىٰ الحكومات.. وهكذا يملك صاحب القوة أن يصنع النموذج الذي يرغب فيه، من خلال صياغة الدساتير والقوانين والتصورات أيضًا.

وهكذا لا يجد فقهاء الدستور «العلماني» حرجًا في تغيير النص لإسباغ الشرعية علىٰ السلطة السياسية.. بينما لا يمكن للفقيه مهما أراد أن يغير النص المقدس لإسباغ الشرعية علىٰ الحاكم، فإما يلجأ لتأويلها أو يسبغ عليها شرعية الإكراه والاضطرار وفقه الضرورة.

لذلك يمكن في حالة السلطة العلمانية أن يحدث انقلاب عسكري، فيصدر «البيان رقم ١» الذي ينهي به شرعية النظام السابق، ثم يبدأ في إجراءات إنشاء دستور جديد يمثل شرعيته القانونية، ثم يجعل من هذه الشرعية الواقعية -التي تم صبغها بغطاء قانوني- الأساس الذي يُحاكم ويحاسب الناس عليه. وبقدر ما استطاع هذا النظام الثبات بقدر ما تحول قانونه إلىٰ شرعية راسخة وتقليد مكين.

بينما لم يحدث هذا في ظل النظام الإسلامي، فبعد أربعة عشر قرنا من الزمان لم يعترف الفقه الإسلامي بالشرعية الكاملة لحكم المتغلب، وظل الفقه الإسلامي المكتوب يعتبرها شرعية ناقصة أتت في ظروف اضطرارية وُضِع فيها المسلمون بين اختيارين أحلاهما مرّ: اختيار الفوضىٰ والفتنة، أو القبول بحاكم يقيم الشرعية ويحمي الثغور ولكنه أتىٰ بغير اختيار حر من الأمة. ولا يزال الأمر

حتىٰ الآن موضع خلاف بين الفقهاء في حدود القبول بالمتغلب وشروط القبول به ومتىٰ يمكن القبول به وغيرها.

وظل تيار السياسة الشرعية في الإسلام يحاكم كل حاكم إلىٰ عصر الراشدين، باعتباره العصر القدوة الذي يجب أن يهتدي به الحاكم المسلم، ويُرفع في وجه الحاكم حزم أبي بكر ورفقه، وشدة عمر وعدله، وسياسة عثمان وعلي مع المعارضين.. إلىٰ آخر ذلك.

كيف تكونت شرعية السلطة:

وإذن.. كيف تكونت شرعية السلطة في الإسلام؟

الإجابة: تكونت من أمرين اثنين:

الأول: وهو الأهم مطلقا، أن تقوم هذه السلطة بواجباتها الشرعية انطلاقا من الإسلام. وقد جاء في خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق قوله: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». وقد كانت البيعة تؤخذ للخلفاء الراشدين علىٰ التزامهم العمل بكتاب الله وسنة رسول الله، وكانوا إذا خطبوا في بداية خلافتهم أو في غيره من المواضع يؤكدون ويعلنون هذه المرجعية التي هي الأساس الأول في شرعية سلطتهم.

وما حدث من معارضات في عصر الخلافة الراشدة إنما هو تحت ظل هذه المرجعية نفسها، فالذين عارضوا عثمان إنما تذمروا وتغطوا بما اعتبروا أنه مخالفات لكتاب الله وسنة رسوله، وقد طفق عثمان يوضح لهم خطأ ما هم عليه من الفهم ويقيم عليهم الحجة بكتاب الله وسنة رسوله، ثم ما وقع من الفتنة بين الصحابة في عهد علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إنما كان خلافًا علىٰ إنفاذ كتاب الله وسنة رسوله في أمر البيعة أو الأخذ بالقصاص.

والثاني: هو اختيار الناس للخليفة، حيث يكتسب الحاكم شرعية كونه

خليفة من اختيار الأمة له ورضاها به وتوليتها إياه هذا المنصب.. وقد تحدثنا عن هذا في حلقة سابقة بتفصيل أكبر.

فإذا تعارض الأمران، وتغلب علىٰ الأمة حاكم قوي له شوكة يستطيع بها أن يقوم بواجبات الخليفة من إقامة الدين وحفظ الأمن وجمع الزكاة والقيام بالجهاد، ولكن الناس لم يختاروه.. فهنا أقر العلماء بالخضوع له تقديما لشرعية السلطة (التي تحكم بالإسلام، والإسلام مرجعيتها) علىٰ شرعية شخص الحاكم الذي لم يستوف شروط اختياره (وأهمها اختيار الأمة له).

وكان هذا الإقرار للمتغلب المقيم للشريعة هو الموازنة والاضطرار بين مصلحة انتظام شأن الأمة واستقرار أمرها وإقامة الدين وبين حقها في تنصيب شخص الخليفة.. ثم كانت لهم خلافات طويلة تدل علىٰ نقص شرعيته كاختلافهم في شروط الخروج عليه، والقتال معه إذا خرج عليه آخر، والقتال مع الخارجين عليه.. إلىٰ آخره.

بينما هم لم يتسامحوا في نفس الوقت مع الأمر الأول وهو شرعية السلطة وكونها تقيم الإسلام وتنطلق منه وترجع إليه، فلم يُجز أحد ولاية الكافر، وأوجبوا عزل من يكفر إذا كان في منصب الإمامة، وجعلوا رؤية الكفر البواح منه من موجبات الخروج عليه.

الخلاصة:

هذا موضع التميز والانفراد في النموذج السياسي الإسلامي، لقد عملت قوة الدين وقوة نصه المعصوم في تثبيت الحد الذي يمثل الحق الذي يُحاكم إليه الناس، وهو ما لا يمكن أن يوجد في سلطة علمانية، ولا في أي سلطة تفتقد وجود النص المعصوم الذي له تأثير الدين، أو وجود الفترة الزمنية التي تمثل التحقق السياسي والقدوة لمن بعدها.

وهكذا، فما أسهل أن يحصل حاكم علىٰ شرعية سلطته بقوة السلاح في أي

سياق إلا السياق الإسلامي، فحتىٰ مؤسسو الدول الإسلامية الأقوياء تظل تطاردهم صفحات التاريخ بما خالفوا فيه الدين وسيرة الأئمة الراشدين، بينما من اقترف من الجرائم أضعاف هذا هم في سياق آخر من الأبطال مؤسسي الدول وموحدي البلاد، وما ذلك إلا لأن الحق هنا فوق القوة، والحق هناك تصنعه القوة.



المعجزات التاريخية للخلفاء الراشدين

حديثنا اليوم عن البصمة التاريخية للخلفاء الراشدين، وكيف كان لكل واحد منهم إنجاز لا يُعرف مثله لغيره من حكام التاريخ، إذ كان كل واحد منهم عمودا أساسا في بناء الدولة الإسلامية العظمىٰ التي نشرت أجنحتها شرقا وغربا وعاشت ألف سنة تسود العالم، ولا تزال الأمة حتىٰ بعد زوال الخلافة تحتفظ بمقومات تجديدها مرة أخرىٰ.

أصل المعجزة التاريخية:

يعود أصل المعجزة التاريخية للخلفاء الراشدين إلىٰ كونهم تلاميذ محمد ﷺ، فلولا تلك الرسالة التي حملها هذا النبي، ولولا أنهم كانوا أخلص أنصاره له وألزمهم به ما كان لأحدهم أن يبلغ في تاريخ الدنيا ولا في ميزان الآخرة ما بلغ.

إن الإنجاز النبوي هو المعجزة التاريخية الكبرىٰ، فالسيرة النبوية هي أعظم قصة نجاح بشري علىٰ الإطلاق، فلا يُعرف في تاريخ الدنيا رجل نجح في نشر دين وبناء دولة عظمىٰ إلا محمد ﷺ، وهذا ما يشهد به المؤرخون من غير المسلمين.

كتب مايكل هارت كتابًا حول أعظم مائة شخصية في التاريخ الإنساني، وعلىٰ الرغم من أنه مسيحي لا يؤمن بالإسلام ولا بمحمد إلا أنه جعل النبي علىٰ رأس هذه المائة، وقال: «لقد اخترت محمدًا ﷺ ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدًا ﷺ هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا علىٰ المستوىٰ الديني والدنيوي. وهو قد دعا إلىٰ الإسلام، ونشره كواحد من

أعظم الديانات، وأصبح قائدًا سياسيًّا وعسكريًّا ودينيًّا، وبعد ثلاثة عشر قرنًا من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قويًّا متجددًا».

ويفسر هارت حيثيات هذا الاختيار بالقول: «كان البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم في القتال، وكانوا ممزقين -أيضًا- رغم أنهم قليلو العدد، ولم تكن لهم قوة أو سطوة العرب في الشمال الذين عاشوا علىٰ الأرض المزروعة. ولكن الرسول استطاع لأول مرة في التاريخ أن يوحد بينهم وأن يملأهم بالإيمان وأن يهديهم جميعًا بالدعوة إلىٰ الإله الواحد؛ ولذلك استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية. وإذا استعرضنا التاريخ؛ فإننا نجد أحداثًا كثيرة من الممكن أن تقع دون أبطالها المعروفين، مثلًا كان يمكن أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن إسبانيا دون أن يتزعم حركاتها الاستقلالية رجل مثل: سيمون بوليفار، هذا ممكن جدًّا، علىٰ أن يجيء بعد ذلك أي إنسان ويقوم بنفس العمل، ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو وعن العرب عمومًا، وعن إمبراطوريتهم الواسعة دون أن يكون هناك محمد ﷺ، فلم يعرف العالم كله رجلًا بهذه العظمة قبل ذلك، وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته، وإيمان الجميع به».

ونستطيع أن نذكر أقوالا كثيرة في نفس هذا المعنىٰ، وكلها لغير المسلمين، إلا أن المقصود الآن هو فهم أن معجزة الخلفاء الراشدين وبصمتهم التاريخية إنما كانت فرعا عن أصل المعجزة النبوية.

بصمة الخلفاء الراشدين:

واحدة من أهم بصمات الخلفاء الراشدين هو أنهم جميعًا رغم اتساع المساحة التي حكموها فلقد كانوا أهل دين وزهد وتقشف وإيثار للآخرة.. ليس فيهم واحد تولىٰ الحكم فتكسب منه أو صار أغنىٰ مما كان قبل الخلافة،

ولم يُتَّهم أحد منهم مجرد اتهام في ذمته المالية.

وهم مع اتساع دولتهم التي شملت الملايين لم يكن لأي منهم مظاهر السلطان والصولجان والفخامة، وكان يملك الواحد من الرعية أن يخاطب الأمير ويعترض عليه ويناقشه دون أن يخشىٰ علىٰ نفسه ظلما أو جورا، ولم يكن علىٰ باب أحدهم حجاب أو حماية خاصة، بل إن ثلاثة منهم استشهدوا علىٰ يد خصومهم، وكانوا جميعًا: اثنان في المسجد هما عمر وعلي، وواحد في داره هو عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهم مع قوة دولتهم ورسوخ سلطانهم كانوا يكثرون من الاستشارة والمشاورة، ويضربون أمثلة في الرحمة والشفقة بالرعية، ومراجعة النفس فيما قد يعرض لهم من أمور، ولم يكن لأحدهم حب للسلطة أو تمسك بها أو قتال من أجلها.

ومن بصمتهم أنهم جميعًا عرفوا لبعضهم حقهم، فلم يحاول أحد منهم نقض إنجازات سابقة أو نسبتها إلىٰ نفسه، بل لكل منهم كلام في تعظيم بعض، حتىٰ إن عليًا -وهو آخرهم- توعد بالجلد من يفضله علىٰ أبي بكر وعمر، وكاد أن يقتل من يسبهما، وعمر هو القائل: «لو وزن إيمان الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر»، وعثمان هو القائل: «ومن يطيق ما كان يطيق عمر».. بينما عادة الحكام الأقوياء أن يسعوا في طمس مآثر من قبلهم ليحفروها باسمهم، ثم يأتي اللاحق فيكرر الطمس مع السابق كذلك.

لقد كان الراشدون حكاما مثاليين، لم ير في التاريخ مثلهم، ولهذا فلقد أثاروا إعجاب الزعماء والمؤرخين عبر التاريخ، حتىٰ من لم يكن منهم مسلما، كان نموذجهم في النجاح الفائق ملهما، يقول الزعيم الهندي المعروف جواهر لال نهرو في كتابه «لمحات من تاريخ العالم»: «كان أبو بكر وعمر رجلين عظيمين، وقد وَضَعَا الأساس الذي بُنِيَتْ عليه عظمة العرب والمسلمين، وكانَا خليفتين يجمعان في يديهما السلطة الزمنية والسلطة الدينية معًا، ولكنهما -

وبالرغم من عظم المنصب وقوة الدولة- زهدًا في متاع الحياة الدنيا بما فيها من أبهة وعظمة».

ويقول مؤرخ الحضارة الأمريكي ول ديورانت في كتابه الشهير قصة الحضارة، والذي قضىٰ في تأليفه أربعين سنة: «ولا يسعنا إلا أن نُسَلِّم بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلىٰ المأمون، قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحُكَّام في التاريخ كله، ولقد كان في مقدورهم أن يُصادروا كل شيء، أو أن يُخَرِّبُوا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين؛ لكنهم لم يفعلوا هذا».

معجزة أبي بكر:

أبو بكر هو الحاكم الوحيد في التاريخ الذي تولىٰ الحكم وعاصمة الدولة مهددة بالاجتياح وتعاني تهديدًا أمنيًا خطيرًا، ثم تركها وهي قوة عظمىٰ عالمية، وكل ذلك في عامين فقط!!

وهذا إنجاز لا يُعرف في التاريخ لغير أبي بكر، فالمؤسسون العظماء من الحكام هم الذين يفعلون واحدة من هذه الإنجازات فحسب! كأن يحفظ الدولة في لحظة تهديد حرج فيتركها آمنة من بعد ما كانت مضطربة، أو هو الذي ينقلها من الضعف إلىٰ القوة والمنافسة، أو ينقلها من القوة لتكون قوة عظمىٰ عالمية، وهو يكون عظيما ولو قضىٰ في هذه المهمة عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة حسبما يطول به العمر.

وسائر الملوك العظماء الذين تلمع أسماؤهم في التاريخ كانوا واحدا من هؤلاء، وأكثرهم ممن طال عمره فحكم بعضهم لنصف قرن أو أكثر، وربما ثلث قرن أو ربع قرن.. ويمكن للمشاهد الكريم أن يتتبع ما شاء من أسماء: قورش، شارلمان، رمسيس الثاني، الإسكندر المقدوني، سليمان القانوني، نابليون، ما وتسي تونج، بسمارك، لينين.. إلىٰ آخره! لن يجد فيها واحدا استطاع تحقيق

إنجاز أبي بكر الذي نقل دولته من تهديد العاصمة إلىٰ القوة العظمىٰ العالمية في سنتين فحسب!

فعند بداية عصر أبي بكر كانت حركات الردة قد اشتدت في الجزيرة العربية، منهم من ارتد بالكلية ومنهم من امتنع عن الزكاة، والقبائل القريبة من المدينة أغارت عليها، ولم يرض أبو بكر بالتنازل عن شيء مهما كان بسيطا مما كان لرسول الله، فأرسل أحد عشر جيشا قضت علىٰ حركة الردة، فما إن انتهت حتىٰ انطلقت الفتوحات، وإذا بها تزلزل أركان القوتين العظميين فارس والروم، وتفتح بلادهما في ذات الوقت، ويموت أبو بكر بعد عامين وقد عادت وحدة الجزيرة العربية، وله جيش يفتح العراق، وجيش آخر يفتح الشام!

تلك هي المعجزة التاريخية لأبي بكر الصديق.

معجزة عمر:

وأما عمر بن الخطاب فهو الوحيد الذي حكم إمبراطورية هائلة تكاد تكون ثلث العالم المعروف وقتها والمتنوعة الأعراق واللغات والأديان.. بعدل ورحمة!

ذلك أن عادة الإمبراطوريات الواسعة أن يتسلط فيها العنصر الحاكم علىٰ الشعوب الأخرىٰ، فيسومونها سوء العذاب، ويمتصون ثرواتها لتتضخم العاصمة الاستعمارية. ومن عادة حكام الإمبراطوريات القسوة والدموية، حتىٰ إن المؤرخين في العادة يعتبرون المذابح البشعة التي يقوم بها من يوحد البلاد ضريبة حتمية لعملية التوحيد، فلا يكاد يكون حاكم قد وحد منطقة واسعة تحت حكمه إلا وارتكب عددا من المذابح التي شملت النساء والأطفال والشيوخ، ومع هذا فتلك المذابح في العادة لا تقدح في مكانته التاريخية كبطل مُوَحِّد للإمبراطورية.

لكن عمر بن الخطاب قدم المثال علىٰ الحاكم الذي يحكم إمبراطورية واسعة الأنحاء متنوعة المكونات بعدل، يستطيع فيها أي واحد من الرعية

أن يشكو أميره وواليه الفاتح لبلاده إلىٰ أمير المؤمنين وهو مطمئن لعدالة ناجزة تنتظره.

كان عمر يحكم ثلث العالم المعروف ولا يستطيع تجاوز القانون (أي الشريعة) حتىٰ إنه لينظر إلىٰ قاتل أخيه فيقول له: لا أحبك حتىٰ تحب الأرض الدم. فيقول: وهل هذا مانعي بعض حقي؟ فيقول: لا. فيقول الرجل: فاحبب أو لا تحبب فإنما تأسىٰ علىٰ الحب النساء.

وقد وضع مايكل هارت عمر ضمن المائة الخالدين في التاريخ وقال فيه: «ما أنجزه عمر بن الخطاب شيء باهر، فبعد وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) كان عمر هو الشخصية التي نشرت الإسلام، فبغير هذه الغزوات السريعة ما كان من الممكن أن ينتشر الإسلام في هذه المساحات الشاسعة من الأرض. ومعظم البلاد التي غزتها جيوش المسلمين ظلت عربية إسلامية حتىٰ يومنا هذا».

وتأثر المؤرخون كثيرًا بما كان في الفتوحات العمرية من عدل ورحمة، لا سيما فتح مدينة بيت المقدس، إذ أن الفتح العمري لها كان هو الفتح الوحيد الرحيم بين سائر الغزاة الذين دخلوا المدينة، حتىٰ تقول مؤرخة القدس كارين أرمسترونج بأن هذا الفتح «لم تشهد المدينة فتحًا مثله».

وأكثر المؤرخون من المقارنة بين الفتح العمري للقدس وبين بقية الغزوات، حتىٰ ليقول المستشرق الفرنسي في مقارنة بين الاحتلال الصليبي (والذي بدأ من فرنسا وكان الفرنسيون أصحابه) «يثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يُعَامِل به العربُ الفاتحون الأممَ المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامَّة، فلم يُرِدْ عمر أن يدخل مدينة القدس معه غيرُ عددٍ قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطىٰ الأهلين الأمان، وقطع لهم عهدًا باحترام كنائسهم

وأموالهم، وبتحريم العبادة علىٰ المسلمين في بِيَعِهم».

لقد ضرب المسلمون مثالًا عجيبًا بفتوحاتهم، وها هو الزعيم الهندي جواهر لال نهرو يقول أيضًا: «إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدين حماسًا لعقيدتهم، وإنهم كانوا مع ذلك قومًا متسامحين؛ لأن دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح، وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص علىٰ التسامح عندما دخل بيت المقدس».

وبهذا صارت معجزة عمر التاريخية أنه الوحيد الذي حكم إمبراطورية واسعة متنوعة.. بعدل ورحمة!

معجزة عثمان بن عفان:

وأما عثمان بن عفان فيشترك مع عمر في معجزته حكم دولة شاسعة بعدل ورحمة، إلا أن عمر هو الفاتح لها وصاحب التوسعة الكبيرة، وقد شهد عصر عثمان مزيدا من الفتوحات التي أضيفت بها أراضٍ أخرىٰ إلىٰ الدولة الإسلامية إلا أنها لم تكن بذات الاتساع الذي كان في عصر عمر.

وأما ينفرد به عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو أنه الحاكم الذي يحكم هذه الإمبراطورية الواسعة ثم ضحىٰ بنفسه وبدمه للمحافظة علىٰ نظام الدولة، ولم يسمح أن يُراق في سبيل الدفاع عنه قطرة دم مع قدرته علىٰ إشعال حرب للحفاظ علىٰ حياته.

لقد نشبت فتنة بأثر من إشاعات وحركات سرية وفي ظروف اجتماعية واقتصادية مواتية، فخرج علىٰ إثرها بعض من أهل الكوفة والبصرة ومصر يعترضون علىٰ عثمان ويريدون خلعه، وقد بيَّن لهم عثمان خطأ ما اعتقدوه واتفق معهم علىٰ ما يصلح الأمور ويرضيهم، إلا أن الفتنة ما لبثت أن عادت من جديد، إذ عزم هؤلاء علىٰ أن يخلع نفسه أو يقتلونه!

كان عثمان يحكم ثلث العالم المعروف وقتها، ويستطيع بضعة آلاف أن

يصلوا إليه في المدينة بمطلب الخلع والعزل، وهو مطلب لم تعرفه الشعوب في ذلك الوقت أصلا، فما كان لأهل العراق ومصر أن يتصوروا أن بإمكانهم السير إلىٰ مدائن كسرىٰ أو قصر قيصر للمطالبة بعزله، ولا حتىٰ العرب في الجاهلية كانوا يتصورون مثل هذا. ومع هذا كان عثمان يبذل لهم ما فيه رضاهم ويحاورهم ويقنعهم ويسرد عليهم أعذاره وحججه ويبين لهم خطأهم، إلا أنهم أصروا علىٰ عزله أو قتله.

هنا اتخذ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفًا عظيمًا مثيرًا للإعجاب، ودليلًا علىٰ عظمته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لقد كان يعلم يقينا أنه إن قُتل فإن الخليفة من بعده لن يكون إلا واحدا من كبار الصحابة: علي أو طلحة أو الزبير أو سعد بن أبي وقاص، وكلهم من المرشحين للخلافة، وكلهم أهل لها.. فهو مطمئن لما سيؤول إليه الأمر من بعده! فلن يتولىٰ الخلافة مثلا واحد من أهل الفتنة أو من أعداء الإسلام أو من المتآمرين عليه. ولهذا لم يفكر في إشعال حرب عليهم في المدينة تسيل فيها الدماء إذ نظام الإسلام والخلافة غير متهدد، بل إن بعض أهل الفتنة هؤلاء إنما يتشيع لعلي ويراه الأولىٰ بالخلافة.

وهو من جهة أخرىٰ يعلم ويوقن أن خروجهم عليه أمر لا يجوز لهم وأن قتلهم له لا يحل لهم، فلو أنه تنازل عن الخلافة التي حازها برضا المسلمين لأعطاهم بهذا حق نقض ما أبرمته الأمة، ولصارت من بعده فتنة، كلما خرجت أقلية تريد نقض ما اتفقت عليه أكثر الأمة استطاعت أن تبلغ غرضها الفاسد هذا، وهذا أمر لو تمَّ فلن يكون للإسلام دولة ولا نظام ولا جماعة، وسيصير أمر الأمة مرهونا بالقلة من المتمردين.

لذلك اتخذ عثمان قراره بعدم التنازل عن الخلافة دفاعا واستمساكا بحق الأمة وبيعتها.. واتخذ قراره كذلك بعدم شن حرب علىٰ هؤلاء المتمردين كي

لا تسيل الدماء دفاعا عنه إذ الأمر في حال قتله لن يخرج عمن هو أهل للخلافة من بعده. فيكون قد دافع عن حق الأمة وحافظ علىٰ نظام الخلافة في نفس الوقت! وجعل الثمن هو دمه!

فهذه بصمة عثمان بن عفان في تاريخ الدول والحكام.. رجل يحكم ثلث العالم، يصل إليه خصومه في عاصمته وعند بيته، يحاصرونه، يمنعون عنه الطعام والشراب، فينهىٰ عن قتالهم ولا يتخذ معهم إلا سبيل المحاورة والإعذار والحجة، فيحفظ بيعة الأمة ونظامها كما يحفظ دمها بدمه.

معجزة علي بن أبي طالب:

وأما علي بن أبي طالب فقد كان أكرم الناس لخصومه ومعارضيه، فهو الخليفة الصحيح البيعة ومع هذا لم يجبر أحدا علىٰ الخروج معه في حرب خصومه إذا لم يشأ، وترك من اعتزل الفتنة فلم يحمله عليها بحق البيعة والسمع والطاعة، ثم حين قاتل كان أشرف الناس قتالا، فاجتهد في منع الحرب ما وسعه الاجتهاد، ثم إنه منع من قتل الأسير أو الإجهاز علىٰ الجريح أو تتبع الفار أو غنيمة الأموال أو سبي النساء والذرية، وكان يقول: فينا نزلت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧].

ومع أن بعض هؤلاء، وهم الخوارج، كانوا يكفرونه ويطعنون فيه، إلا أنه لم يقاتلهم إلا حين قتلوا المسلمين واستباحوا منهم ما يستبيحونه من الكفار، وامتنعوا عن تسليم القتلة لأخذ القصاص منهم، وأعلن فيهم حقوقهم في الصلاة والغنيمة والأمان علىٰ أنفسهم ما لم يسفكوا دما، ومع هذا رفض أن يقال عنهم كفار بل قال: «من الكفر فروا» ورفض وصفهم بالمنافقين لما هم عليه من كثرة الذكر وقراءة القرآن، وإنما قال: «بعض قومنا بغوا علينا».

وهذا علي الذي يقاتل بكل هذا النبل والفضل، هو هو نفسه الذي يستعمل أقصىٰ العقوبة فيمن يقدسه ويرفع شأنه فوق البشر، فيصفه بالألوهية أو يطعن

لأجله في أبي بكر وعمر أو يفضله عليهما.

فمن هنا نرىٰ حاكما -وياللعجب- يجتهد ويلتمس الأعذار لمن كفره وقاتله، ثم يعاقب من يقدسه ويرفعه فوق شأنه، وهو أمر لا يفعله من الحكام أحد. لكن عليا كان حارسا علىٰ الدين، يعرف أن الذين قدسوه هم أضر وأخطر علىٰ الدين من الذين كفروه وقاتلوه.

فتلك بصمة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخلاصة:

يجب أن يكون لكل إنسان بصمته في عمله، بصمته في موهبته، بصمته في مجاله وميدانه، ألا يكون مكررا عاديا كشأن الناس الذين لا همَّ لهم ولا رسالة.

قال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال آخر:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

وبالهمة العلياء يرقى إلى العلا ... فمن كان أعلى همة كان أظهرا

فلم يتأخر من أراد تقدما ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

ينبغي أن تعلو الهمم ليكون لكل واحد فينا فتح في مجاله، فالمجاهد في جهاده، والعالم في علمه، والسياسي في علاقاته وسياسته، والموهوب في موهبته، وصاحب الفن في فنه.. وهكذا!

وحين يفتح هؤلاء فتوحًا في أبوابهم، تكون الأمة كلها علىٰ موعد مع الفتح الكبير إن شاء الله تعالىٰ.

الفَصْلُ الثَّانِي

الأخلاق الراشدة

ما العلاقة بين السلطة وبين رعاية الأخلاق في المجتمع الإسلامي.. وكيف يمثل هذا افتراقا وتناقضا بين النظام الإسلامي والنظام العلماني.

الإجابة ببساطة كالآتي:

إن مهمة السلطة في أي نظام هي الحفاظ علىٰ القيم التي يمثلها هذا النظام ويقوم عليها، ففي النظام العلماني مثلا تكون مهمة السلطة هي الحفاظ علىٰ الدولة، الدولة تحافظ علىٰ نفسها، لأن الغاية النهائية هي الوصول إلىٰ دولة قوية راسخة آمنة مرفهة... إلىٰ آخره!

لهذا يُصمم القانون والتعليم والاقتصاد والثقافة وأجهزة الأمن والجيش بحيث تحافظ علىٰ الدولة، ولا تهتم بأي شيء لا يكون له تأثير علىٰ الدولة.. فمثلا: فلان يصلي أو لا يصلي، يصوم أو لا يصوم، يزني أو لا يزني، يشرب الخمر أو لا يشرب الخمر.. كل هذا لا يهم، طالما أنه لا يؤثر علىٰ النظام وعلىٰ الدولة.

نعم، يمكن للقانون أن يمنع شرب الخمر للسائقين بهدف التقليل من حوادث السير، أما شرب الخمر نفسه فلا ضرر منه علىٰ الدولة فلا حاجة للسلطة أن تهتم بتأثير الخمر علىٰ صحة الإنسان أو عقله أو أخلاقه.. كذلك الزنا، يمكن للسلطة أن تهتم به من جهة كونه نشاطًا اقتصاديًا يُدخل أموالًا إلىٰ

خزينة الدولة، ومن شاء أن يفتح بيتا لممارسة الزنا أن يفعل طالما أنه يلتزم بدفع الضرائب!

بنفس المنطق يسمح القانون للمواطن في النظام العلماني أن يكون مسلما اليوم ومسيحيا غدا وبلا دين بعد غد، وأن يعود متىٰ شاء إلىٰ الدين الذي يشاء لأن هذا لا يؤثر علىٰ الدولة نفعًا أو ضرًا.. بينما يعاقب القانون بشدة من يهين علم الدولة أو دستورها لأن هذه الإهانة تمس مكانة الدولة وهيبتها وقداستها، ويكون الاستهانة بها مؤشرا علىٰ التمرد أو الاستخفاف.

ومن يعرفون تاريخ القانون في أوروبا يعرفون أن غرض تطبيق القانون بعدالة إنما كان بغرض جذب الأموال والتجارة والحفاظ علىٰ استمرار النشاط الاقتصادي، ولذلك كانت المدن التجارية كجنوة والبندقية وفلورنسا هي أوائل المدن التي طبقت فيها القوانين بنزاهة.. فيما لم تحاول تلك البلاد تطبيق أي قانون عادل في مستعمراتها، بل سمحت لنفسها بنهب الدول المستعمرة وبقتل الناس واستعبادهم، دون أن تشعر بتأنيب ضمير أو تناقض.

ويصف ابن خلدون السياسة -غير الإسلامية- بأنها علىٰ نوعين؛ الأول: نظام مستبد يخدم الطبقة الحاكمة، ويسميه الملك الطبيعي، ويعرفه بأنه «حمل الكافة علىٰ مقتضىٰ الغرض والشهوة». والثاني: نظام يتمتع بنوع عدالة ورشد وهو «حمل الكافة علي مقتضىٰ النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار». وأما النظام الإسلامي الذي هو الخلافة فهو: «حمل الكافة علىٰ مقتضىٰ النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلىٰ اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

وهكذا يهتم النظام الإسلامي برعاية الأخلاق بين الناس، بما فيها تلك الأخلاق التي لا تؤثر علىٰ نظام الدولة، فالسلطة الإسلامية تعمل علىٰ حراسة

المجتمع نظيفا من الفساد والانحلال الأخلاقي. ليس لكون هذا يؤثر علىٰ نظام السلطة بل لكونه يفسد المجتمع، وهو مستجلب لغضب الله وبلائه.

في هذا الفصل نتناول شأن الأخلاق في النظام الإسلامي، وآثارها في الشريعة وفي الواقع حتىٰ في لحظات الحرب والقتال، فضلا عن لحظات السلم والبناء الحضاري.. وذلك ضمن خمسة مباحث هي:

- **المبحث الأول**: رعاية الأخلاق في النظام الإسلامي.
- **المبحث الثاني**: الميزان الأخلاقي للحضارة الإسلامية.
- **المبحث الثالث**: من مشاهد التجرد لله.
- **المبحث الرابع**: أخلاق القتال في الحضارة الإسلامية.
- **المبحث الخامس**: حضارة الإنسان قبل البنيان.



رعاية الأخلاق في النظام الإسلامي

في خطبته الأولىٰ قال أبو بكر: ولم تظهر الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء.

فكان هذا منه تحديدا لواجبات الإمام في محاربة الفاحشة، حفاظا علىٰ المجتمع من الفساد الذي يأتي بالبلاء.. وكان نهج الراشدين أنه طالما كانت الذنوب مستترة لا تصل إلىٰ السلطة ولا تظهر في المجتمع فليس من صلاحيات السلطة التجسس علىٰ الناس ولا هتك سترهم، ولكن المحظور المحرم أن يكون للفاحشة ظهور بين الناس.

وحرص الخلفاء الراشدون علىٰ أخلاق المجتمع، فمن ذلك أن عليا أنكر علىٰ من لا يتحرزون أن تخرج نساؤهم إلىٰ الأسواق فيزاحمن الكفار الذين لا يرعين أخلاق التعامل مع النساء، قال: ألا تستحيون أو تغارون؟ فإنه بلغني أن نساءكم يخرجن في الأسواق يزاحمن العلوج.

ونادىٰ عليّ ذات يوم علىٰ المنبر فقال: سلوني، فقال رجل: أتؤتىٰ النساء في أدبارهن؟ فقال: سفلت سفل الله بك، ألم تر أن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت:٢٨].

إقامة الحدود:

وقد أقام الخلفاء الراشدون العقوبة علىٰ من زنا أو شرب الخمر أو تهتك وتخنث..

١- فقد سجن عمر من يقعون في أعراض الناس ويهجونهم كما فعل مع الحطيئة الشاعر الهجَّاء، ولم يطلقه من سجنه إلا لما اشترط عليه ألا يهجو

مسلما وأعطاه مالا كي لا يُضطَّر أن يهجو أحدًا ابتغاء المال، فاشترىٰ منه بهذا المال أعراض المسلمين.

٢- وأمر عمر بحلق شعر نصر بن الحجاج ونفيه من المدينة لتخنثه وغزله بالنساء، وقُضِي علىٰ رجل اتخذ حانوتًا لبيع الخمر بإغراق الحانوت.

٣- ولما أتي علي بالشاعر الحارثي النجاشي وقد شرب الخمر في رمضان، ضربه ثمانين جلدة ثم حبسه، فأخرجه الغد فضربه عشرين جلدة ثم قال له: إنما جلدتك هذه العشرين بجرأتك علىٰ الله تعالىٰ، وإفطارك في رمضان.

٤- وأُتِيَ أبو بكر بمن زنا واعترف علىٰ نفسه ولم يكن متزوجا فجُلِد ونفي، ولم يجلد الجارية لأنها كانت مُستكرهة.

٥- وأما من كان متزوجًا أو كانت متزوجة ووقع في الزنا فإنه يُرجم، وقد وضح علي رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ كيف يكون الرجم، وهو أن يُصَّف الناس كوقوفهم في الصلاة، فإن كان الزاني قد اعترف بدأ الإمام برجمه ثم يمضي فيأتي الصف الأول فيرجم ثم يمضي ثم الصف الثاني.. وهكذا، وأما إن كان الزنا قد ثبت بشهادة أربعة فإنهم يكونون أول من يرجم ثم الإمام ثم باقي الناس.

٦- ولا يوقع الحد علىٰ المرأة إن كانت مستكرهة أو كانت مضطرة كأن ألجأها الجوع والعطش إلىٰ الزنا، وقد حدث مثل هذا في عهد عمر حين نفد الماء من امرأة وهي ترعي في الصحراء فلجأت إلىٰ من يعطيها شربة ماء فمنعها حتىٰ تمكنه من نفسها، فأبت، فلما شعرت بالهلاك مكنته من نفسها، فكان هذا عذرها الذي رفع عنها إيقاع الحد.

٧- وكان يؤجل الحد علىٰ المرأة الزانية حتىٰ تضع حملها، وأحيانا حتىٰ يشب ولدها ويستغني عن الرضاعة منها.

٨- وفي عهد علي وقع أن زنىٰ مسلم بنصرانية، فأقام علىٰ المسلم الحد، وسلَّم النصرانية لأهلها يحاكمونها علىٰ مقتضىٰ شريعتهم.

٩- ولا يوقع الحد إلا بعد التأكد من وقوع الزنا بمعناه الكامل، فيُسأل الرجل وتُسأل المرأة بدقة عما وقعا فيه، ثم يجري التأكد من أنه كان فعلا اختياريًا بغير اضطرار ولا إكراه.

١٠- ومن العجائب المثيرة للإعجاب في شخصية الفاروق هو توقعه ما قد حصل بالفعل في زماننا هذا، أن قوما يستشنعون عقوبة الرجم، فقام يوما خطيبًا فقال: «إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشىٰ إن طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم في كتاب الله حق علىٰ من زنىٰ إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف».

حفظ أعراض من أخطأوا:

لم تكن الدولة الإسلامية تقيم الحدود بغرض العقوبة والانتقام، بل بغرض التطهير والتكفير، وأصل هذا ما كان في عهد النبي ﷺ حين أقام الحد علىٰ ماعز والغامدية، فمنع أن يسبهما أحد، وقال عن الغامدية: «**لقد تابت توبة لو تابها أهل المدينة لوسعتهم**».

وتكرر الموقف في عهد الراشدين، ويروي شاهد عيان في عهد علي فيقول: «كنت مع عليّ حين رجم شراحة فقلت: لقد ماتت هذه علىٰ شر حالها، فضربني بقضيب، أو بسوط كان في يده حتىٰ أوجعني فقلت: لقد أوجعتني، قال: وإن أوجعتك، قال: فقال: إنها لن تسأل عن ذنبها هذا أبدًا كالدَيْن».

ومع أنه لا تهاون في إقامة حد من حدود الله، إلا أن الدولة الإسلامية لا تشتهي فضح الناس أو هتك سترهم، بل لا تُنزل العقوبة إلا بمن ظهرت منه الفاحشة.

١- وفي عهد عمر خطب أمير اسمه شرحبيل بن السمط الكندي، وكان يتولىٰ

مسلحة (أي: منطقة حراسة حدودية عند الثغور مع فارس) في جنوده فقال: «أيها الناس، إنكم في أرضٍ الشرابُ فيها فاشٍ (يعني الخمر فيها منتشر)، والنساء فيها كثير، فمن أصاب منكم حدًا فليأتنا فلنُقم عليه الحد، فإنه طهوره». فبلغ ذلك عمر فكتب إليه: «لا أحل لك أن تأمر الناس أن يهتكوا ستر الذي سترهم».

٢- وجاء رجل من اليمن إلىٰ عمر فأَسَرَّ إليه أن ابنة أخيه قد وقعت في الفاحشة، فقال له عمر: «لو أفشيت عليها لعاقبتك، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه»، وقال عمر لرجل آخر في حالة مماثلة: «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة».

٣- وقد قيل لابن مسعود وكان يتولىٰ القضاء علىٰ الكوفة في عهد عمر، «هذا فلان تقطر لحيته خمرا». فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به».

وأما في حالات الاغتصاب فقد كان القضاء في عهد الراشدين يبرئ المرأة التي قتلت من اغتصبها أو حاول اغتصابها، فقد تنكر شاب يوما في ثياب فتاة واستطاع التسلل إلىٰ امرأة فاغتصبها وهي نائمة، فقتلته، فبرأها القضاء، وبرأ أخرىٰ قتلت رجلًا دفاعًا عن عرضها.

أثر الاحتلال في نشر الفاحشة:

المجتمع العفيف مجتمع سوي متماسك، الفاحشة فيه نادرة ومنبوذة، وكان هذا مما انتبه له المحتلون حين نزلوا بلادنا، لذلك كان من خططهم الأساسية نشر الفاحشة في بلادنا، وهذا مصداق قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:٢٧-٢٨].

وحصل تركيز كبير علىٰ موضوع المرأة في بلادنا المحتلة، لأن إفسادها يُسهِّل إفساد المجتمع وإنشاء جيل مرتبط بشهواته، والإنسان الذي هو أسير

شهوته يكون علىٰ الحقيقة أسيرا لمن يملك تحقيقها له حتىٰ لو كان المحتل الذي هو عدوه وعدو دينه وأمته.

أول احتلال حصل في قلب العالم الإسلامي كان الحملة الفرنسية علىٰ مصر، وأخرج الفرنسيون نسائهم متكشفات متهاونات يداعبن الرجال ويضاحكنهن، ثم كانوا إذا أسروا المصريات بعد معارك المقاومة يأخذونهن، وبالذات الصغيرات، فيجعلونهن كالفرنسيات.. وسهَّلوا سبل الاختلاط والاحتفالات، وعملوا علىٰ التزوج من بنات الإعيان بعد إشهار إسلامهم صوريًا، ووجدوا من مرضىٰ القلوب والنفوس من اعتقد أن الأمر استتب للفرنسيين فأراد بتزويجهم أن يحظىٰ ببعض السلطان والجاه.

وأما الاحتلال الإنجليزي فقد كانت له آثار عميقة في تدمير الحياة الاجتماعية، حتىٰ إن المؤرخ الإنجليزي تيموثي ميتشل وهو يتحدث عن استعمار مصر يرصد أنه خلال عشر سنوات تضاعف عدد المقاهي والبارات وصالات القمار أكثر من ثلاثة أضعاف، وانتشرت في مصر ظواهر اجتماعية جديدة مثل «إدمان الكحول، وإدمان المخدرات، والزنا والمرض، والجنون»، وحتىٰ الكتب المنتشرة أخذت تغزوها القصص البذيئة التي حرصوا علىٰ طباعتها ونشرها، وتأثرت الحياة العائلية حيث شرع الرجال في قضاء نهارهم أو كل أمسياتهم في أكثر المقاهي سيئة السمعة، حيث تسليهم النساء ويحكي الرجال حكايات عن «دون جوان»!

وظلت هذه عادة الاحتلال في بلادنا حتىٰ آخر فصوله، كما في أفغانستان والعراق حيث تنطلق حملات تحرير المرأة وتوفير الفعاليات والمؤسسات المهتمة بصناعات الترفيه والفنون والإباحيات.

ولذلك لا تزال القرىٰ والبوادي، وهي المناطق التي كانت أضعف في تأثرها بالاحتلال، أفضل من المدن في الأمن وفي الأخلاق عموما، وفي تقرير

اليونسيف الصادر عام ٢٠١٢ تتحدث الإحصائيات عن أن انتشار مرض الإيدز في المناطق الحضرية أعلىٰ منه في المناطق الريفية، وكان السبب الرئيسي هو ارتكاب الفاحشة، حتىٰ بلغ عدد المصابين به أكثر من مليونين من الشباب بين العاشرة والتاسعة عشر عامًا.

لا يزال الاحتلال يسير علىٰ الوصايا القديمة لكبار المنصرين، ومنذ ٨٥ عاما قال صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥م: «إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا ، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق... مطابقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة، والكسل، ويسعىٰ للحصول علىٰ الشهوات بأي أسلوب، حتىٰ أصبحت الشهوات هدفه في الحياة، فهو إن تعلم فللحصول علىٰ الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمىٰ المراكز ففي سبيل الشهوات.. إنه يجود بكل شيء للوصول إلىٰ الشهوات».

خلاصة:

أليس من العجيب أن ٩٠ بالمائة من الإنتاج الإعلامي في بلادنا يناقش مسائل الحب والعشق؟

أليس من الملفت للنظر أن ٩٩٪ من الأغاني في بلادنا تتحدث عن نفس هذا الموضوع؟

أول ما يُطرح من أسئلة أمام الإسلاميين في الانتخابات: ماذا ستفعلون في الخمر والسياحة العارية والحجاب والملابس القصيرة رغم أن بلادنا مثقلة بالمشكلات الكبرىٰ العميقة، كأن بلادنا ستنهار إن توقف فيها بيع الخمر أو فقدت السائحات العاريات؟

الواقع أن الحضارة الغربية خربت الأخلاق، حتىٰ إن موضوع الأخلاق نفسه صار أمرا مشكوكا فيه، حتىٰ القرن التاسع عشر الميلادي كان علم الأخلاق يبحث في المبادئ وترتيبها واستنباطها وأهميتها للحياة بما يعني التطلع إلىٰ مثل أعلىٰ ومثل عليًا للسلوك تعين علىٰ فعل الخير والابتعاد عن الشر، وبهذا كان علم الأخلاق من العلوم المعيارية؛ بمعنىٰ أنه لا يدرس ما هو كائن، بل ما ينبغي أن يكون، ثم ظهرت في فرنسا مدرسة من علماء الاجتماع نظرت إلىٰ علم الأخلاق باعتباره تفسير ما هو كائن، لا معيارًا لما ينبغي أن يكون، وبهذا تحولت الأخلاق لديهم إلىٰ «القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة من حقب التاريخ»، فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوام أي نزعوا عنها القداسة والاحترام.. تحول الأمر كما يقول شوبنهاور إلىٰ أن يكون علم الأخلاق هو مجرد وصف: «علم الأخلاق يصف أخلاق الناس مثلما يصف التاريخ الطبيعي خصائص الحيوانات».

وظهر في الفلسفات الغربية من يحتقر الأخلاق ويقدس القوة، ويرىٰ أن أعظم عيوب الإنسان هي الرحمة، وأنه يجب إفناء الضعفاء والمرضىٰ والمشوهين لأنهم لن يفيدوا المجتمع، وأن هؤلاء ينبغي عليهم أن يساعدوا المجتمع علىٰ إبادتهم وإفنائهم.. ومن الطبيعي أن تصل أي فلسفة مادية علمانية لا تؤمن بالله إلىٰ هذه النتيجة التي قالها فيلسوف العدمية ألبير كامي: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت».

ونختم بقول الباحث والروائي الإنجليزي المتخصص في الإسلام، والذي ترجم القرآن الكريم إلىٰ الإنجليزية، مرماديوك باكتول: «إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقًا بشرط أن يرجعوا إلىٰ الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم».

الميزان الأخلاقي للحضارة الإسلامية

لماذا يفضل المسلمون عليا علىٰ معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ؟

لماذا يكرهون الحجاج بن يوسف الثقفي؟

لماذا يتعاطفون مع عبد الله بن الزبير ضد عبد الملك بن مروان؟

لماذا كلما جاء ذكر السلطان سليمان القانوني قال بعض الناس: ولكنه قتل ابنه الأمير مصطفىٰ ظلما؟

لماذا لا يندم المسلمون علىٰ أنهم لم يبيدو اليهود والنصارىٰ في الوقت الذي كانت لهم القوة والسيادة؟

السر في هذا هو «الميزان الأخلاقي للحضارة الإسلامية»، ومعياره عصر الخلافة الراشدة الذي ظل مقياسا أخلاقيا لنظام الحكم والسياسة يقيس به المسلمون بقية فصول التاريخ، ويحاكمون به القادة والأبطال! وهو السر الذي لا تعرفه العلمانية ولا الحضارة الغربية المعاصرة.

العلمانية بلا أخلاق:

أحد أهم أسباب رفضنا للعلمانية هو أنها لا يمكن أن تكون أخلاقية. العلمانية مرجعيتها المصلحة والمنفعة، وهو أمر منطقي ومفهوم، فإذا كان الإنسان علمانيا فإن الأخلاق التي تقف ضد مصلحته هي خرافة وهراء، بل هي شيء مزعج أيضًا!

بغير إيماننا بالله لن تعود للأخلاق أي قداسة، لماذا يتمسك الإنسان بالصدق إذا كان الكذب سيأتيه بأرباح طائلة؟ لماذا يهتم للضعفاء والمساكين إذا كان عليه أن يدوس عليهم في طريقه إلىٰ السلطة والشهرة؟ لماذا يحرص

علىٰ الرحمة إذا كان لن يبلغ هدفه إلا بالقوة والقسوة؟!

إن الأخلاق ليست «حقيقة علمية» بل هي قيمة دينية، والذي سيحذف الدين من حياته لن يرىٰ أي شيء يدعوه للتمسك بأي أخلاق. يقول علي عزت بيجوفيتش: «إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن فقط إذا كان الإنسان مخلوقا لله، فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة (مادية)، إن وجودها قائم باعتبارها صفة أخلاقية للإنسان، كسمو إنساني أو كقيمة مساوية للشخصية الإنسانية، وفي مقابل ذلك إذا نظرنا إلىٰ الناس من الناحية المادية فالناس غير متساوين ... فطالما حذفنا المدخل الديني من حسابنا سرعان ما يمتلئ المكان بأشكال من اللا مساواة: عرقيا وقوميا واجتماعيا وسياسيا. إن السمو الإنساني لم يكن من المستطاع اكتشافه بواسطة علم الأحياء أو علم النفس أو بأي علم آخر».

فقط حين نؤمن بدين يخبرنا بالمساواة بين الناس يرسخ في أعماقنا أن كل الناس لهم نفس النفوس ونفس المشاعر ونفس العواطف ونفس الحقوق. إن قيمة آية واحدة أو حديث واحد في إصلاح الأخلاق يفوق كل ما يمكن قوله من أدب وروايات ومواثيق حقوقية، هي عمليا لا تساوي الحبر الذي كتبت به.

الشريعة الأخلاقية:

مما يلفت النظر في أبحاث المستشرقين، لا سيما القانونيين، اهتمامهم بأن الشريعة الإسلامية شريعة أخلاقية، وأن رعاية الأخلاق أصل أصيل فيها، فالقانون لا ينفك عن الأخلاق في الإسلام، ولهذا فالشريعة لا تسعىٰ لمجرد الحفاظ علىٰ النظام أو الدولة بل تسعىٰ للسمو بالفرد والمجتمع، يقول المستشرق والقانوني الفرنسي جاك ريسلر: «إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعىٰ إلىٰ خلق النظام والوحدة الاجتماعية، وإلىٰ تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه يسعىٰ إلىٰ

الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة».

وذات المعنىٰ يقوله مؤرخ الحضارة الأمريكي ول ديورانت: «القانون والأخلاق في القرآن شيء واحد؛ فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضًا السلوك الدنيوي، وكل أمر فيهما موحىٰ به من عند الله، والقرآن يشمل قواعد للآداب، وصحة الجسم، والزواج والطلاق، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان، والتجارة والسياسة، والجريمة والعقاب، والحرب والسلم».

ولأن الشريعة منبعها القرآن، والقرآن نازل من عند الله وفسَّره رسول الله، فهو نص لم تصدره سلطة ولم تحتكر تفسيره جهة تابعة للسلطة، والعلماء طوال التاريخ الإسلامي لم يكونوا جزءا من السلطة بل كانوا جزءا من عموم الأمة، ولم تكن لهم مؤسسة كهنوتية يمكن للسلطة أن تتحكم فيها أو تحتويها بل كانوا تيارا عاما منتشرا في الأمة.. لكل هذا احتفظت مرجعية القرآن والسنة بالتعالي والتسامي الذي يخضع له الحاكم والمحكوم، فالقرآن والسنة فوق السلطة، ولهذا كانت الهيمنة المظللة للمجتمع الإسلامي هيمنة أخلاقية.

ولهذا فقد كان للفقه الإسلامي بصمته الأخلاقية كقانون أخلاقي رفيع، أثمر حسا مرهفا في طبع الفقيه المسلم.. وقد كتب المستشرق والقانوني الإيطالي دافيد دي سانتيلانا، وهو من المتخصصين في الفقه المالكي، عددا من البحوث يشهد فيها بسمو الشريعة، وهو يشير إلىٰ هذا الطابع الأخلاقي، فيقول: «ولكنه إذا كان حق المرء هو منفعته الخاصة وواجبه الأدبي معًا؛ فإن لذلك الحقِّ حدودًا معينة بموجب مبادئ الأخلاق والمصلحة العامة؛ فالصلح والتراضي هما سيِّدَا الأحكام في كل وقت، وأخذ الثأر ممنوع منعًا باتًّا، والتضييق البدني علىٰ الْمَدِين مخالف للقانون، ولا اعتساف في استعمال الحقِّ تمامًا؛ إذ ليس لأحد أن يمارس حقًّا له، بالدرجة التي يسبب للآخر ضررًا مُحَقَّقًا، وللفقهاء المسلمين في هذا الصدد إحساس دقيق مرهف يفوق ما

نتصوره؛ فمثلًا: يمنع أن يخوِّل حقَّ الادعاء إلىٰ وكيل هو عدو للطرف الذي أُقِيمَتْ عليه الدعوىٰ، وممنوع أن يُؤجر حيوان لشخص عُرِفَ بقسوته علىٰ الحيوان.. وهكذا ترسم الأخلاقُ والآداب في كل مسألة حدود القانون».

ثم يختم كلامه بعد حديث طويل في محاسن الشريعة بقوله: «لا شَكَّ وأن المستوىٰ الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عَمِلَ علىٰ تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي علىٰ مرِّ الدهور».

وهكذا يبدو واضحا جليا أن النظرة الأخلاقية هي نظرة مهيمنة مسيطرة في الحضارة الإسلامية، وأن هذا التميز هو ما يرفع شأنها ويجعلها حلا يقدمه المسلمون لهذه الإنسانية الحائرة المعذبة.

الخلافة الراشدة الأخلاقية:

لقد كان عصر الخلافة الراشدة هو العصر المثالي لتطبيق الإسلام، وبه ثبت أن السياسة الأخلاقية يمكنها أن تنشيء مجتمعًا عظيمًا قائما علىٰ العدل مهما كثرت شعوبه وتنوعت أعراقهم وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم كذلك، وأن السياسة الملتزمة بالأخلاق يمكن لها أن تدير امبراطورية واسعة تمتد من حدود الهند شرقا حتىٰ الشمال الإفريقي غربا، ومن بلاد أرمينية وأذربيجان شمالًا إلا بلاد السودان جنوبًا.

ويمكن للسياسة الأخلاقية أن تدير الدولة في سائر فتراتها، في لحظات التأسيس والتهديدات الأمنية الخطيرة كما في عصر أبي بكر، وفي لحظات القوة والنهوض والتوسع كما في عصر عمر، وفي لحظات الرفاهية والرخاء كما في عصر عثمان، وفي لحظات الفتن والحروب الداخلية كما في عصر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

في كل تلك الأحوال لم يضطر خليفة منهم إلىٰ تنحية الإسلام والأخلاق

جانبا ليدير شأن السياسة بمعزل عنها، بل عملت هذه الأخلاق علىٰ صناعة نموذج حضاري فريد، جمع بين القوة والرحمة، بين التمسك والتسامح، بين القدرة والعفو... وهكذا!

وهذا بحد ذاته أعظم دليل ينقض منطق ومنهج السياسة المعاصرة التي تعتمد علىٰ الكذب والمخادعة والسيطرة علىٰ الشعوب المستضعفة ونهب ثرواتها، والاستعانة علىٰ كل هذا بالمذابح الواسعة واستعمال الأسلحة التدميرية الجبارة لتركيع الشعوب وإخضاع إرادتها.

وبناء علىٰ هذا النموذج الراشدي كوَّن المسلمون نظرتهم للتاريخ والسياسة والحرب والبطولة والأخلاق والإدارة والاقتصاد والثقافة... وسائر مناحي الحياة!

أحكام المسلمين على تاريخهم:

١- إن أي تقييم مادي لعصر الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيكون في صف معاوية لا في صف عليٍّ، فعلي لم يستطع إقرار الأمن طوال فترة خلافته التي استمرت لأربع سنوات، ولم يمثل قيادة زعامية لأنصاره كتلك التي مثلها معاوية، ففي حين تكتل أهل الشام خلف معاوية تفرق أهل الأمصار عن علي، ثم افترق معسكر أنصاره فخرج منه الشيعة والخوارج، ثم اغتيل علىٰ يد الخوارج. في المقابل: استمر معاوية زعيمًا محبوبًا علىٰ أهل الشام، ثم حكم بعد علي لمدة عشرين سنة استطاع فيها توحيد الأمة وإعادة عصر السيادة واستئناف الفتوح الإسلامية وتوسع الدولة.

هذا الذي تسوق إليه القراءة المادية (العلمانية) لم يعتنقه أحد في أجيال المسلمين، بل ظل علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أجل وأعلىٰ عند المسلمين من معاوية، بل تجتمع الأمة علىٰ أن معاوية وأنصاره هم الفئة الباغية بنص معصوم من السنة كشف عن هذه الحقيقة «ويح عمار تقتله الفئة الباغية»، وعلي هو خليفة

المسلمين الراشد في حين أن معاوية هو أول ملوك الإسلام غير المحسوب على الفترة الراشدة، وهي الفترة التي بدأ فيها انحلال عرى الإسلام بعروة الحكم. وهكذا كان للنص المعصوم أثره الواضح في الانحياز الفكري والشعوري واختيار الموقف الأخلاقي للأمة كلها.

ومن هنا كان نموذج الخلافة الراشدة هو المقياس الذي يحاكم المسلمون إليه سائر الزعماء والقادة الذين جاءوا من بعدهم.

٢- نفس الكلام يُقال عن عبد الملك بن مروان - وقائد جيشه الحجاج بن يوسف الثقفي -في مقابل عبد الله بن الزبير، فقد استطاع عبد الملك بن مروان في ظروف سياسية أقرب إلى المستحيل وانطلاقا من انقسام في الشام أن يستعيد السيطرة على كل الأمة وأن يعيد توحيدها وأن يستأنف من جديد عصر الفتوحات بعد توقفه الثاني وأن يبدأ موجة إعمارية واسعة وأن يضع أساس تعريب الدواوين وتعريب العملة وغير ذلك. بينما كان عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد جاءته الخلافة تسعى وظل خليفة تسعة أعوام لا ينازعه إلا هذه القطعة في الشام، إلا أنه لم يستطع الحفاظ على هذا الملك الواسع وظل يتناقص ويؤخذ من بين يديه حتى تفرق عنه بعض أهله وقُتِل في النهاية.

إن القراءة المادية للتاريخ تنحاز مباشرة إلى عبد الملك بن مروان، وتنحاز أيضًا إلى قائد جيشه الحجاج بن يوسف الثقفي في مقابل عبد الله بن الزبير. إلا أن الأمة لم تعتنق هذا المذهب، وإنما انحازت فكريا وشعوريا إلى عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي المظلوم، واعتبرت عبد الملك أول خليفة يحكم بالتغلب، ولا زالت تدين الحجاج وتقسو عليه وتراه من أعظم ذنوب بني أمية.

ما كان ذلك كله ليكون لولا أن النص المعصوم والتجربة التاريخية الراشدة رسخت صورة للحق وجعلته فوق القوة، بينما انعدام هذا يؤول عمليا إلى أن الحق هو ما تقرره القوة وتسبغ عليه الشرعية.

الحساسية الأخلاقية:

وقد بلغت هذه الحساسية الأخلاقية مبلغًا عظيمًا، إلىٰ حد أن بعض المسلمين بل وبعض علمائهم يحتدون في وصف التاريخ الإسلامي والحكم عليه وتقييمه، ويبالغون في ذلك مبالغة شديدة، تصل إلىٰ أن يتخذها بعض العلمانيين مدخلًا للطعن في التاريخ الإسلامي كله بل وفي صلاحية الإسلام ليكون حلًا وليصنع نموذجًا يمكن تطبيقه في واقع البشر.

لقد صنع الخلفاء الراشدون نموذجا مثاليا في الحكم والسياسة، إلا أن الواقع والعقل يقتضينا ألا نهدر من حق سائر أبطالنا التاريخيين الذين لم يستطيعوا أن يصلوا إلىٰ هذه الآفاق فكانت لهم بعض إخفاقات في ناحية أو عدة نواح، فضلًا عن أن نقسو عليهم وندينهم كما يفعل البعض مع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو مع غيره!

إن كثيرًا من الخلفاء والقادة التاريخيين الذين يقسو عليهم المؤرخون المسلمون إذ يحاكمونهم بمقياس الخلافة الراشدة لو أنهم كانوا في سياق حضارة أخرىٰ لكانوا أبطالًا لا يُمسّون، من هؤلاء عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وأبو جعفر المنصور والمهدي والمأمون والظاهر بيبرس وقلاوون والسلطان سليم وسليمان القانوني وغيرهم.. فإن الإنجاز التاريخي المادي وحده يجعلهم في عداد عظماء التاريخ، ولكن أحدا من المسلمين لا يتخذهم قدوة لما كان منهم من أخطاء.. بل حتىٰ أمثلة مثل يزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفي لو ظهروا في سياق غربي لكانوا من أبطاله، إن أولئك لم تنطبع عنهم صورة سيئة إلا لأن النموذج الذي يُحاكمون بالقياس إليه هو نموذج أخلاقي رفيع.

إن النزول عن مستوىٰ الخلافة الراشدة هو نفسه مستوىٰ رفيع لم تصل إليه بقية التجارب والنماذج التاريخية، إذ لم يزل شأن التاريخ الإسلامي شأن تجربة

مصبوغة بالأخلاق ومحكومة بالإسلام، بينما عامة شأن التجارب الأخرىٰ أنها لا تُقاس إلا بمدىٰ نجاحها ماديا، ولو جرىٰ هذا علىٰ حساب ملايين الجثث وخراب البلاد وهلاك العباد. فالمهم هو الوصول إلىٰ هذا النصر المادي مهما تكن الوسائل!

الخلاصة:

لقد قدم الخلفاء الراشدون نموذجا أخلاقيا جعل القبطي المصري يثق في العدالة المكفولة له، فيتكلف أن يسافر من مصر إلىٰ المدينة المنورة ليشكو إلىٰ عمر واليه الفاتح في مصر، ثم يجد عنده العدل كما يتوقع، وقد كان قبل عامين فحسب يلقىٰ العذاب والاضطهاد من الرومان فلا يجرؤ علىٰ الشكاية بل إما أن يفعل ما يراد منه وهو صاغر أو يهرب منهم في أقاصي الصحراء أو في كهوف الجبال!

وبعد فترة سيجد أهل سمرقند من العدالة ما يحملهم علىٰ أن يرفعوا أمام القاضي في دمشق شكوىٰ من الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي أنه تجاوز في فتح بلادهم نهج الشريعة الإسلامية في الفتوح، فيخرج قوم من سمرقند حتىٰ يصلون إلىٰ دمشق فيقدمون شكواهم، ثم ينظر القاضي فيحكم بأن يخرج المسلمون من هذا البلد لوقوع هذا الخلل، فيخرج الجيش بعدما كان قد فتح سمرقند ليكون فتحه جاريا علىٰ شريعة الفتح وأخلاقه.

وتلك القصص لا يمكن أن توجد في سيرة إمبراطورية استعمارية مع شعب مغلوب، ولذلك سرعان ما امتزج المسلمون الفاتحون بالشعوب المفتوحة. والإسلام هو الذي نشر الحضارة شرقا وغربا فكانت له عواصمه الحضارية منذ سمر قند وبخارىٰ ونيسابور وأصفهان والري وبغداد ودمشق واسطنبول والقاهرة والقيروان وفاس وغرناطة وقرطبة وطليطلة.. وكلها عواصم خارج الجزيرة العربية، لا كما تفعل المستعمرات التي تستصفي خيرات الناس وبلادهم لتتضخم

بذلك عواصمهم في لندن وباريس وروما وواشنطن!

بل إن ثمة مفاجأة لا يعرفها الكثيرون، ففي دراسته «الإسلام الفاتح» يقول المؤرخ الكبير د. حسين مؤنس بأن البلاد التي صارت مسلمة دون أن تصل إليها جيوش الفتح إنما تمثل ثلثي مساحة البلاد، أي أن الجيوش لم تفتح إلا ثلث مساحة البلاد الإسلامية، وما كان بالإمكان أن يحدث هذا لولا تلك الجاذبية التي قدمها الإسلام لهذه الشعوب.

يقول المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون: «لقد انقضىٰ ثلاثة عشر قرنًا منذ أعطىٰ محمد دروس الأخلاق في المدينة، ولكن تلك الدروس لم تُنْسَ إلىٰ الآن».

لقد كانت حياة الخلفاء الراشدين وسيرتهم النموذج المعبر عن رسالة النبي ﷺ، والتي كان شعارها «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».



من مشاهد التجرد لله

قال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

يسعىٰ المسلم أن يتخفف من الأعباء والمسؤوليات كي لا يعظم حسابه عند الله، فالمسلم الصادق يهرب من الولاية والإمارة لما فيها من مسؤولية كبرىٰ عن المسلمين، فأن يحاسب المرء عن نفسه وأهله أهون من أن يحاسب عن رعيته التي تكون بالعشرات أو المئات أو حتىٰ الملايين. ومع هذا فالمسلم مكلف بأن يحمل عبء هذه المسؤولية طالما كان هو الأنسب لها والأولىٰ بها.. وهو نفسه مكلف أن يتركها ويعهد بها لمن يرىٰ أنه أنسب لها وأولىٰ بها..

وهذا هو الإخلاص.. الإخلاص أن تفعل الشيء الذي فيه إرضاء الله ومصلحة الأمة بغض النظر عن هوىٰ النفس، قد يكون هوىٰ النفس في فعل الشيء أو تركه، في تولي الولاية أو رفضها.. هذا هو الإخلاص، أو التجرد لله، أي أن يتجرد المرء من رغبات نفسه وأهوائها ليكون فعله خالصا لله، لا يبتغي به إلا وجه الله ومصلحة الأمة.

علىٰ مثل هذا الحال كان أجدادنا الأوائل، وفي مقدمتهم أسيادنا الخلفاء الراشدون.

في سقيفة بني ساعدة:

لقد شهدت سقيفة بني ساعدة عددا من مشاهد التجرد والإخلاص.. لقد اجتمع الأنصار ينظرون فيمن يكون أميرا بعد وفاة رسول الله ﷺ، واجتمع المهاجرون إلىٰ أبي بكر في مشهد آخر، ثم جاء حامل الخبر بأن الأنصار قد

اجتمعوا لينظروا في هذا الأمر، فانسل المهاجرون وفي طليعتهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ليذهبوا إلىٰ الأنصار، وبينما هم في الطريق إذ قابلهم أنصاريان فسألاهما:

- أين تريدون يا معشر المهاجرين؟
- فقال أبو بكر وعمر: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار
- فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم. اقضوا أمركم
- فقال عمر: والله لنأتينهم.

فهنا أول مشهد من مشاهد الإخلاص والتجرد، أنصاريان يهوِّنان من شأن اجتماع الأنصار ويحثان المهاجرين علىٰ أن يقضوا في أمر الخلافة من بعد رسول الله حتىٰ لو تجاوزوا الأنصار، ولا ندري هل كانا يوقنان بأن الأنصار لن تخالف المهاجرين إذا اتفقوا علىٰ أمر الخلافة أم كانا سينحازان للمهاجرين ضد قومهما إذا وقع خلاف علىٰ الخلافة لا قدر الله.. وسواء كان هذا أو ذاك، فالموقف فيه إعلاء لمصلحة الأمة عن عصبية القوم والقبيلة.

ثم نجد مشهدا آخر مثله في الإخلاص والتجرد لله ولمصلحة الأمة: أن أبا بكر وعمر لم يفرحا لمجرد وجود اختلاف في الرأي في صف الأنصار كما بدا لهم، ولم يستفسرا عن مدىٰ المخالفة والانشقاق في جبهة الأنصار، بل كانا حريصين علىٰ إتيان الأنصار المجتمعين في السقيفة للاستيضاح والتفاهم والتشاور حول أمر الخلافة.

فلما أن وصلا إلىٰ السقيفة، وجدوا أن الأنصار يتشاورون في تولية سعد بن عبادة، وعندهم وجهة نظر تقول بأن المدينة هي دارهم وأنه من الطبيعي أن يكون الأمير علىٰ من فيها من أهلها، وأن المهاجرين إنما هم قلة في المدينة، ولا يستقيم أن يكون المهاجري أميرا في هذه الحال.

فأراد عمر أن يتكلم فمنعه أبو بكر وتكلم بدلا منه، فأثنىٰ علىٰ الأنصار

واعترف بفضلهم ومكانتهم، ثم أوضح أن الأمر لم يعد رئاسة في أهل المدينة بل لقد صارت خلافة النبي رئاسة علىٰ كل العرب الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام، وهؤلاء العرب لا يقبلون أن تكون الرئاسة عليهم إلا في قريش لمكانتها العليا بين العرب، والخروج عن رئاسة قريش إنما يساوي انتقاض الأمر علىٰ الأمة. وبهذا تكون الرئاسة في المهاجرين ويكون الأنصار وزراء لهم. قال أبو بكر: «ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا... يا معشر الأنصار إنا والله ما ننكر فضلكم ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا علىٰ رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام».

فاقترح أحدهم أن يكون أميران: أمير من المهاجرين وأمير من الأنصار، فقال عمر: سيفان في غمد؟! لا يصلحان. وقال أبو بكر: لا، بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء. وحدث نقاش بين الصحابة، وارتفعت الأصوات، وهو أمر طبيعي ومتوقع في مثل هذه الأمور، ثم كان أن تراجع الأنصار فقام زيد بن ثابت وهو من الخزرج ومن كُتّاب الوحي وقال: «إن رسول الله كان من المهاجرين، ونحن أنصارهم كما كنا أنصار رسول الله ﷺ». وهكذا جرىٰ الاتفاق علىٰ أن يكون الأمير من المهاجرين.

وهنا يبدو مشهد الإخلاص والتجرد واضحًا:

١- فأبو بكر يشير إلىٰ أن الأمر لم يعد رئاسة في المدينة وإنما هو رئاسة علىٰ الأمة الإسلامية التي صارت تشمل قبائل واسعة من العرب، وهؤلاء العرب لا ينطاعون إلا لقريش لمكانتها فيهم.. فالمعيار هنا مصلحة الأمة لا هو رفع لشأن المهاجرين ولا خفض لشأن الأنصار، مع الاعتراف التام بمكانة الأنصار وفضلهم.

٢- وهنا حاول بعض الأنصار التوفيق بين واقع الحال وبين هذا المعطىٰ الجديد الذي أشار إليه أبو بكر، فاقترح أن يكون أميران.. فرفض عمر لأن الحكم بطبيعته لا يقبل الشركة والقسمة، كما لا يدخل السيفان في غمد واحد.

٣- عندئذ خرج من الأنصار من يُسلِّم بالإمارة للمهاجرين عليهم في قلب مدينتهم، ليكون الأنصار أنصار رسول الله أولا ثم أنصار المهاجرين من بعده.

بهذا الإخلاص نجت الأمة من واحدة من أخطر اللحظات العصيبة التي كان يمكن أن تودي بها، فلو لم يكن الأنصار علىٰ هذا القدر من الإخلاص والتجرد لكانت أزمة شديدة لا يدري أحد كيف كان يمكن أن تنتهي، ولا إلىٰ أي مدىٰ كانت ستكون آثارها علىٰ واقع الأمة ووحدتها والنزاع الذي قد ينشب فيها.

لكن مشهد السقيفة لم ينته بعد..

لقد رشح أبو بكر للخلافة عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح، فقال: «وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم»، فوصف عمر مقالته هذه بكلمة بليغة، حيث قال: «كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمر علىٰ قوم فيهم أبو بكر».

ثم بادر عمر ببيعة أبي بكر، فاستجاب له الأنصار، وقبلها أبو بكر وهو يقول مقالته المشهورة: «والله ما كنت حريصا علىٰ الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت راغبا فيها، ولا سألتها الله في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، لقد قُلدت أمرًا عظيمًا ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله».

وهكذا نرىٰ أن رفض عمر ليكون أميرا إنما كان عن تجرد وإخلاص، إذ لم يرض لنفسه أن يتقد علىٰ أبي بكر ولو كان إلىٰ الموت.. ثم نرىٰ أبا بكر يقبل الإمارة وهي حمل عظيم لم يفكر فيه من قبل خشية أنه إن رفضها أن يرتد النقاش مرة أخرىٰ فيصير إلىٰ الفرقة والفتنة.

ولايات الخلفاء:

عندما حضرت المنية أبا بكر شاور الصحابة فيمن يرشح للخلافة، فكان عمر هو الشخصية الثانية الكبيرة المؤهلة للخلافة، وهنا سنرىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقبل بالخلافة مع أنه الذي رفضها تماما قبل سنتين، فكان رفضه يومها وقبوله الآن دليل إخلاصه وتجرده وتقديمه لمصلحة الأمة فوق مصلحة نفسه.

ثم لما حضرت المنية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أشار بستة من الصحابة، وهم بقية العشرة المبشرين بالجنة ليجري اختيار الخليفة من بينهم.. وكان من حرصه أنه لم يجعل من بينهم السابع لأنه من قرابته وهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (ابن ابن عم عمر)، ولم يجعل في المرشحين ابنه عبد الله بن عمر.

وهنا سنرىٰ مشهدًا جديدًا في الإخلاص والتجرد لله!

لقد رشح عمر ستة شخصيات.. فاقترح عبد الرحمن بن عوف وهو أحد الستة أن يتنازل بعضهم لبعض.. فإذا الستة قد صاروا إلىٰ ثلاثة! لقد طلحة بن عبيد الله لصالح عثمان بن عفان، وتنازل الزبير بن العوام لصالح علي بن أبي طالب، وتنازل سعد بن أبي وقاص لصالح عبد الرحمن بن عوف.

ثم انسحب عبد الرحمن بن عوف من المرشحين ليدير هو شأن اختيار الخليفة، وهكذا في مجلس واحد صار المرشحون الستة اثنين فقط، فكان هذا من دلائل إخلاص أسلافنا وتجردهم وزهدهم في المناصب. وبين عثمان وعلي جرىٰ اختيار الأمة فوقع علىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم لما وقعت فتنة مقتل عثمان حاول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدافع الخلافة عن نفسه فلا يتولاها، فرفض أن يتولاها قبل دفن عثمان، وفي ظل الرفض العام القاطع من بقية من عرضت عليهم الخلافة أن يتولوها حضروا إليه مرة أخرىٰ قائلين: لا بد للناس من إمام، فرفض علي أن تكون له بيعة خاصة وإنما خرج إلىٰ المسجد لتكون بيعته عامة من المسلمين، وما حمله علىٰ ذلك إلا لأن ترك

المسلمين بلا خلافة إنما يفضي إلىٰ انفراط عقد الأمة وانتثار أمرها. فتولاها في وقت عصيب وظرف مضطرب وليس فيها يومذاك مغنم بل هي مغرم.

خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح:

كان مما اختلف أبو بكر مع عمر موضوع خالد بن الوليد، كان خالد فارسًا لا يشق له غبار وقائدًا لم تعرف العرب مثله، وكان النصر حليفه، رجل لم يهزم قط.

ومع هذه السمعة الباهرة والسيرة السائرة تخوف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُفتن به الناس، فيحسبون أن النصر إنما يحالف المسلمين لأن قائدهم هو خالد فحسب، وكانت شخصية خالد شخصية قيادية ترتاح إن تركت لها صلاحيات واسعة، وكان أبو بكر يرتاح لهذا الأسلوب فيعطي ولاته وقياداته صلاحيات واسعة لتسيير أمورهم، بينما كان عمر نمطًا آخر في الإدارة والسياسة. لذلك اقترح عمر علىٰ أبي بكر عزله، ورفض أبو بكر رفضًا قاطعًا، فكان يرىٰ أن خالدًا سيف سله الله علىٰ المشركين وسماه النبي «سيف الله» وهو يقوم بمهمته خير قيام، فأبىٰ أن يعزله.

فلما مات أبو بكر وتولىٰ عمر الخلافة كان من أوائل القرارات التي اتخذها عزل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعل القيادة العامة لجيوش الشام في يد أبي عبيدة بن الجراح.

كانت جيوش الشام من قبل تحت القيادة العامة لأبي عبيدة، ولكن أبا بكر لما احتاج أن يدعم جبهة جيوش الشام بخالد بن الوليد جعل له القيادة العامة، فكان من مشاهد التجرد أن ينزل أبو عبيدة بن الجراح السابق للإسلام وأمين الأمة وأحد المرشحين للخلافة في سقيفة بني ساعدة ليكون جنديا تحت قيادة خالد بن الوليد الذي أسلم بعد صلح الحديبية!

والآن وصلت الرسالة من عمر إلىٰ أبي عبيدة بن الجراح بعزل خالد عن

القيادة العامة ورجوعها إليه، وكانت معارك الشام تنتقل من واحدة إلىٰ أخرىٰ فكتم أبو عبيدة هذه الرسالة ولم يشأ أن يطلع عليها خالد كي لا يكون لها عليه تأثير فظل خالد قائدا عاما لشهور قبل أن تأتي رسالة أخرىٰ من عمر تؤكد علىٰ أبي عبيدة عزل خالد وتنهاه أن يحمله الحياء علىٰ غير ما هو مأمور به.

فما إن علم خالد بعزله من قبل عمر وتولية أبي عبيدة حتىٰ عاتب أبا عبيدة أنه كتم الأمر، وبقي جنديا تحت إمرته وهو القائد العام بأمر الخليفة، وعاد خالد ليكون جنديا تحت قيادة أبي عبيدة رغم أنه يتولىٰ القيادة منذ عهد النبي، وكان قائدا طوال حروبه في عهد أبي بكر (سواء في حروب الردة أو الفتوحات).

ثم حدث ما هو أعجب من ذلك..

لقد صارت حروب الشام إلىٰ معركة قريبة فاصلة هي معركة اليرموك.. واضطر الجيش الإسلامي أن ينسحب من المدن المفتوحة إلىٰ الجنوب، والتقت الجيوش الإسلامية الخمسة التي كانت تتوزع علىٰ أنحاء الشام، لتواجه الجيش الرومي الهائل الذي تحرك لها.. وبينما هم يتشاورون في مواقع الانسحاب والخطة إذا بخالد بن الوليد يطلب من أبي عبيدة أن يتنازل له عن القيادة العامة في هذه المعركة، فقال له: «خلني والناس، وولني ما وراء بابك فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو»، وإذا بأبي عبيدة يقبل ببساطة فيقول: «شأنك بالناس». وهكذا يتولىٰ خالد القيادة العامة ويدير معركة اليرموك فيحقق فيها النصر الخالد الكبير، ثم يعود مرة أخرىٰ جنديا تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح.

وبمثل هذا الإخلاص والتجرد من عمر وأبي عبيدة وخالد بن الوليد سارت فتوح المسلمين في الشام وفارس علىٰ خير ما يرام دون أن تشهد نزاعات وصراعات علىٰ القيادة.

المثنى بن حارثة الشيباني:

وهو فارس بني شيبان، والقائد الكبير المشهور في فتح بلاد فارس، وكان

من علو همته أنه بدأ في فتح فارس قبل أن تأتي التكليفات من الخلافة في المدينة المنورة.. وذلك أنه تتبع فلول الفرس الذين ساعدوا المرتدين فطاردهم ووقعت له معهم بعض المواقع والمعارك.

ورغم كونه زعيم قومه منذ قديم إلا أنه ضرب مثالًا نادرًا في التجرد والإخلاص..

لقد أرسل أبو بكر خالد بن الوليد علىٰ قيادة الجيش الإسلامي ليفتح العراق، فكانت القيادة لخالد بن الوليد، فدخل المثنىٰ -وهو فارس قومه وزعيمهم- تحت قيادة خالد ولم يأنف من هذا ولم يتكبر عليه رغم أنه الذي بادر بالفتح. وظل الساعد الأيمن لخالد بن الوليد ونائبه إذا غاب لأمر ما عن المعارك، حتىٰ استطاع معه أن يحقق النتائج المذهلة بتطهير كل ما هو غرب الفرات من القوات الفارسية في أربعة عشر شهرًا فقط.

ثم جاءت رسالة من أبي بكر تنقل خالد بن الوليد مع نصف الجيش إلىٰ جبهة الشام، ويظل الباقي مع المثنىٰ بن حارثة الشيباني، فخاض المثنىٰ بهم بعض المعارك والانتصارات حتىٰ تغير الوضع العسكري في فارس وصار المثنىٰ محتاجا إلىٰ المدد.

ذهب المثنىٰ إلىٰ المدينة المنورة ليطلب مددًا فوجد أبا بكر علىٰ فراش الموت وشهد وفاته، ثم شهد ولاية عمر، وكان من أولىٰ مهمات عمر أن يندب الناس للخروج مع المثنىٰ.. لكن وقع هنا أمر عجيب، لقد تلكأ الناس في الاستجابة للخروج مع المثنىٰ، فهم أولا لا يعرفونه حق المعرفة إذ ليس هو من عرب الحجاز، وثانيا عدوهم هو الفرس ذوو الهيبة والشدة والقتال الشديد، ثم إن الجيش هناك قليل بعد أن أخذ نصفه خالد ومضىٰ به إلىٰ الشام، ثم إن خالد بن الوليد لن يكون هناك.

وأمام هذا التباطؤ فكر عمر بن الخطاب ماذا يفعل، فجعل من مكافأة أول

من يتطوع بالخروج أن يكون علىٰ قيادة الجيش، فكان ذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفي، فلم يجد المثنىٰ حرجا في أن ينزل من جديد ليكون جنديا تحت قيادة أبي عبيد بن مسعود رغم أنه ليس من مشاهير الفرسان كخالد بن الوليد، وخاض معه حروبا ومعارك يسانده كنائبه وساعده، حتىٰ كانت موقعة الجسر التي أخطأ فيها أبو عبيد خطأ تسبب في الهزيمة وفي قتل أربعة آلاف مسلم واستشهاده هو، فاستطاع المثنىٰ من جديد أن يعيد تنظيم انسحاب ممتاز للمسلمين وأن يحقق انتصارات صغيرة تمنع الفرس من تعقبهم، ثم استطاع أن يثأر من الفرس بموقعة أخرىٰ كبيرة هي موقعة البويب الطاحنة.. والتي توفي بعدها بقليل.

فهذه قصة زعيم فارس قبل أن يكون جنديا لمرتين مع أنه الخليق بالقيادة في أرض هو الأعرف بها والأقرب إليها والمبادر للجهاد فيها، ومع أنه أبدىٰ من الكفاءة والمهارة في الوقائع ما يجعل نفسه -إن لم تكن مخلصة- تأبىٰ إلا أن تكون في موقع القيادة.

الخلاصة:

لكم خسرت الأمة وتخسر من انتصارات حين تقع المنازعات والفتن بين العاملين والمجاهدين، إن النفوس التي تكون مخلصة لله ومتجردة له وتقدم مصلحة الأمة علىٰ مصلحتها تمهد للمسلمين انتصارات واسعة وتعصم الأمة من اختلالات خطيرة ونتائج لا يمكن تصورها.

ولو حاولنا تخيل تاريخ الأمة إذا حذفنا منه إخلاص أسلافنا السابقين لوجدنا الأمة تتعرض للهزائم والانقسامات والاضطرابات منذ اللحظة الأولىٰ لوفاة النبي ﷺ، ما كان لأمتنا أن تمد فتوحها شرقا وغربا بغير أولئك المخلصين الذين أنقذوها بإخلاصهم وتجردهم في اللحظات الكبيرة.

لقد كانت أول هزيمة في تاريخ المسلمين لأن بعض المجاهدين أراد

الغنائم، فقال الله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فلو أنهم لم يتعلموا هذا الدرس لما صارت لهم هذه السيرة العطرة والقدوة الحسنة.

ونحن في واقعنا الآن، لو تجردت النفوس لله وخلصت من أغراضها، وعلم كل إنسان متىٰ يتقدم ومتىٰ يقدم غيره ممن هو أولىٰ منه لكان حالنا غير هذا الحال.. والعدو ليس بغافل عن إثارة المطامع والغرائز والمكاسب ليفت في عضد المجاهدين العاملين ويفسد عليهم جهادهم وتدبيرهم.



أخلاق القتال في الحضارة الإسلامية

قال الشاعر:

حكمنا فكان العدل منا سجية فلما حكمتم سال بالدم أبطح

وأحللتم قتل الأسارى وقد كنا نمر على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

ذكرنا أن القوة هي التي تحمي القيم، فالحق بغير قوة ضعيف مهضوم مأسور في يد الباطل، وصاحب القوة هو الذي يستطيع فرض أفكاره وقيمه وأخلاقه، لذلك كان تسلح الحق بالقوة هو حماية للمؤمنين من الباطل وإنقاذا للمستضعفين من البشر من تحت أيدي الظالمين.

في عصر الخلافة الراشدة جاهد الخلفاء الراشدون في سبيل الله علىٰ ثلاث جبهات؛ الأولىٰ: جبهة المرتدين، والثانية: الفتوحات الإسلامية، والثالثة: البغاة والغلاة.

وفي كل هذه المعارك ضرب المسلمون مثالا رائعا في حروبهم، قوة من غير ضعف ورحمة من غير عنف، صلابة مع سماحة، وبسالة في عفاف.

قتال المرتدين:

كعادة البشر في محاولة تقليد النجاحات رأىٰ بعض العرب أنه يمكنهم تحقيق الوحدة بين العرب والرئاسة عليهم إذا ادعوا أنهم أنبياء، كما فعل محمد ﷺ فاستطاع بهذا بناء دولة، كانت مجرد قراءة سطحية ومهترئة لعمل النبي ﷺ ودعوته.. فظهر مدعو النبوة في الجزيرة العربية قبل وفاة النبي بقليل.

وعند وفاة النبي ظهرت فئة أخرىٰ من العرب، أولئك الذين لم يفهموا

معنىٰ أنهم صاروا جزءا من دولة الإسلام، فأعلنوا أنهم كانوا يدفعون الزكاة لمحمد بشخصه، وحيث أنه قد مات فإنهم يمتنعون عن دفع الزكاة.. كان هؤلاء يحسبون أن الأمر مُلْك وسطوة وسلطان كما هو في حال الإمبراطوريات المستبدة التي تستصفي من الناس أموالهم ليتضخم سلطان الملوك، ولم يفقهوا بعدها أن الزكاة هي حق الله تعالىٰ التي فرضها علىٰ الأغنياء لترد علىٰ الفقراء، وأن دور النبي ثم خلفائه من بعده هو تنظيم عملية جمعها ممن وجبت عليهم وإنفاقها علىٰ مستحقيها.

وهكذا كانت المهمة ثقيلة كبيرة أمام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان عليه أن يخوض معركتين معا: معركة لتثبيت دولة الإسلام ومنع تفكيكها علىٰ يد من ارتدوا، ومعركة أخرىٰ لتثبيت شعائر الإسلام وحدوده وألا يُستهان بشيء من واجباته، فكان شعاره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك الشعار الصادق الخالد: «أينقص الدين وأنا حي؟!».. ولذلك قال لمن أرادوا التخلف عن الزكاة: «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، ووالله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق الله في المال»

فأرسل أبو بكر أحد عشر جيشا إلىٰ جيوب الردة في أنحاء الجزيرة العربية، فاستطاعت هذه الجيوش أن تحفظ دولة الإسلام من التفكك والانقسام، كما استطاعت أن تحفظ شعائر الإسلام من التغيير والتبديل.

الفتوحات الإسلامية:

ما إن انتهت حروب الردة وأعاد أبو بكر وحدة الدولة الإسلامية حتىٰ بدأت مهمة إنقاذ البشر من الظلم والطغيان وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وكان الفرس قد ساعدوا وأمدُّوا المرتدين في الحروب فكانت البداية بهم، إذ أخذ المثنىٰ بن حارثة الشيباني في مطاردة أولئك الفرس ومحاربتهم، وأرسل إلىٰ أبي بكر بالخبر، فبدأ أبو بكر بتجهيز جيش لغزو فارس وكان قائده خالد بن الوليد.

وبسرعة غير متوقعة، وخلال أربعة عشر شهرا فحسب، خاض خالد بن الوليد خمس عشرة معركة استطاع بها أن يطهر كل منطقة غرب الفرات من الحكم الفارسي، وبعد شهور من بدء الفتوحات في فارس انطلقت فتوحات الشام أمام الجبهة الرومية، واستطاعت خلال عامين أن تنهي الوجود الروماني من الشام كله، وفي هذه الأثناء كانت إمبراطورية فارس تزول من الوجود ليسقط الظلم والطغيان في وقت واحد، ويحقق المسلمون معجزة تاريخية في قضائهم علىٰ القوتين العظميين في العالم في وقت واحد.

وقد استمرت هذه الفتوح منذ خلافة أبي بكر وطوال خلافة عمر ثم غالب خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتمتد الدولة الإسلامية من حدود السند شرقا حتىٰ نهاية تونس غربا وإلىٰ بلاد أرمينية وأذربيجان شمالا وبلاد النوبة جنوبا. فانتشر الإسلام انتشارا هائلا ودخل الناس في دين الله أفواجا.

قتال البغاة والغلاة:

وهذا الذي كان في عهد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان سيدنا علي ممن جمعوا بين العلم والحرب، فهو في مقدمة فقهاء الصحابة وهو كذلك من كبار قادة الحروب، وعلىٰ يديه كان فتح خيبر ومقاتلة عمرو بن عبد ود في الخندق الذي هو من فرسان العرب الكبار. فلذلك كان الله يعدُّه لمعالجة الفتن التي لا يصلح لها إلا صاحب علم وحرب معا.

لقد تولىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة في ظرف عصيب، وكان الأمر يحتاج إلىٰ سياسة وحكمة لم يقدِّرها عدد ممن خالفه من الصحابة، فكان لهم اجتهادهم الذي لم يكن صحيحا ولا موفقا فزاد هذا من صعوبة الموقف، ونشبت حرب لم يكن يتوقعها ولم يدبر لها أحد «وهي معركة الجمل» حيث وقع قتال بين الجيش الذي يقوده علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين الجيش الذي يقوده طلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. ثم بعد عام آخر وقعت معركة «صفين» والتي كان سببها

امتناع معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن البيعة قبل الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان بينما كان الحق والواجب عليه أن يبايع أولا، ولم يكن علي بالذي يسمح أن تنقسم الأمة.

لقد كانت فتنة عصيبة، وتفاصيلها محيرة للعقول، ولهذا سميت فتنة، وأهداف المقاتلين فيها أهداف شرعية: فبعضهم يريد إقامة حدود الله وإنفاذ القصاص ويرىٰ أن هذا أولىٰ، بينما يرىٰ عليٌّ ضرورة التهدئة والتسكين لئلا يؤدي إنفاذ حد إلىٰ فتنة كبرىٰ في الأمة، ولهذا انقسم بشأنها المسلمون فبعضهم يقاتل هنا وبعضهم يقاتل هناك وبعضهم اعتزل الطرفين ولا يدري وجه الحق في المسألة، ولولا أن لدينا نصوصا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفنا بها أن سيدنا عليا هو الذي كان علىٰ الحق وأن فئة معاوية كانت هي الفئة الباغية، لولا ذلك لما اهتدينا إلىٰ الحق فيها حتىٰ هذه اللحظة.

وكان من آثار هذه الفتنة أن خرج قوم من جيش علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه، فتعصبوا وتشددوا وصارت لهم أفهام غريبة في الدين حتىٰ أنهم كفروا عليا وقتلوا من لم يكفره، واعتقدوا أن الجميع كفار ما عداهم، فقاتلهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موقعة النهروان فهزمهم وشتتهم، ثم استطاع بعض فلولهم أن يغتال عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهكذا قاتل الخلفاء الراشدون في هذه الجبهات الثلاثة: المرتدين، والكفار، والغلاة والبغاة.

مشاهد من الحروب قبل الإسلام:

نحتاج قبل أن نتحدث عن أخلاق القتال في الحضارة الإسلامية أن ننظر إلىٰ شأن الحروب قبل الإسلام وبعده، فنحن لن نعرف قدر عظمة الإسلام والمسلمين إلا حينما نفهم كيف هو حال الجاهلية. وها نحن نرىٰ في عالمنا المعاصر الذي يوصف بأنه عصر حقوق الإنسان والمواثيق الدولية ومعاهدات جنيف وغيرها كيف يُقتل الملايين بالأسلحة التدميرية والكيمائية وما يسمونها

«المحرمة دوليا» ولا يتحرك أحد حركة جادة لوقف هذا مع أنهم قادرون علىٰ ذلك.

لقد كانت الحروب قبل الإسلام وبعده مذابح كبرىٰ، لا يُراعىٰ فيها حرمة ولا توجد فيها رحمة، كالحروب التي كانت بين الفرس والروم وماذا يفعل الفرس إذا ظفروا بالنصارىٰ ثم ماذا يفعل الروم حين يظفرون باليهود، وكيف ينزل العذاب علىٰ الشعوب لإجبارها علىٰ عقيدة ومذهب بعينه كما فعلت الإمبراطورية البيزنطية في مصر وفي أرمينية وفي الشام، فضلا عن حروب الجاهلية التي كانت تشتعل لأسباب تافهة ثم تستمر تحصد الأرواح لعشرات الأعوام.

وفيما بعد ضعف القوة الإسلامية وقعت المذابح الهائلة للمسلمين في الأندلس وأنزلت عليهم محاكم التفتيش العذاب الجهنمي ليتنصروا أو يموتوا أو يطردوا من بلادهم، ثم عملت أوروبا لأربعة قرون في اصطياد الأفارقة السود كعبيد في أطول وأشنع عملية إذلال في التاريخ تصل التقديرات بمن ماتوا فيها إلىٰ عشرة ملايين، ثم ما فعلوه بأنفسهم في الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية فضلا عن المذابح الكبرىٰ للمسلمين وغيرهم في الجزائر والصين وفيتنام والاتحاد السوفيتي والبوسنة وكوسوفا وكشمير وتركستان... إلخ!

الحضارة الوحيدة التي قدمت نموذجًا أخلاقيًا حقيقيًا في الحروب هي الحضارة الإسلامية، وحتىٰ ما وقع من أخطاء من مسلمين عبر كل تاريخهم فإنه لا يقارن بحادثة واحدة كبيرة في تاريخ الجاهلية قديمًا وحديثًا.

أخلاق القتال:

منذ اللحظات الأولىٰ في عصر الخلافة الراشدة وبينما كان خالد بن الوليد يحقق انتصارات في حروب الردة كان أبو بكر وعمر في المدينة -عاصمة الدولة الإسلامية- يختلفان في شأن القائد المنتصر، وما إن كانت حروبه ملتزمة تماما بأخلاق الحرب أم أنه تقع منه بعض التجاوزات، وهي تجاوزات يكون هو

نفسه متأولا فيها أي له وجهة نظر. وكان عمر يلح علىٰ عزل خالد وأبو بكر يرىٰ أن الأمر لا يستحق عقوبة كبيرة كالعزل، فلما توفي أبو بكر وآلت الخلافة إلىٰ عمر كان من أول قراراته عزل خالد وجعله تحت ولاية من هو أكثر منه علما وورعا: أبي عبيدة بن الجراح.

وهذا مشهد لا يمكن أن يوجد في حضارة جاهلية، أن يجري نقاش في عزل القائد المنتصر لبعض تجاوزات تصدر منه يُختلف في تقييمها وتبريرها ضد أعداء حاولوا تقسيم الدولة والخروج عليها!!

وكانت وصية أبي بكر التي أوصىٰ بها جيش يزيد بن أبي سفيان المتوجه إلىٰ فتح الشام كالآتي: «إنك ستجد قوما زعموا انهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا انهم حبسوا أنفسهم له... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن».

ومن العجيب أن قائد دولة يوصي قائد جيش بوصية فيها الحفاظ علىٰ الشجر والنخل والحيوانات وهو ذاهب إلىٰ معركة كبرىٰ، مع التشديد علىٰ تجنب النساء والأطفال والشيوخ والرهبان ومن لا يقاتل. ولا تفسير لهذا سوىٰ أن الإسلام قد حوَّل العرب من جاهليتهم التي لم يكونوا يتورعون فيها عن مثل هذا إلىٰ هذا النظام الحضاري الأخلاقي الجديد.

وذات يوم بلغ عمر أن بعض الجنود المسلمين إذا طاردوا أحدا فلم يقدروا عليه أظهروا له الأمان ثم قتلوه، فأرسل إلىٰ الجيش برسالة فيها: «إنه بلغني أن رجالا منكم يطلبون العلج (الكافر)، حتىٰ إذا اشتد في الجبل وامتنع، يقول له: «لا تخف»، فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده، لا يبلغني أن أحدا فعل ذلك إلا قطعت عنقه».

وكان سفراء الإسلام في الفتوحات يبدأون بالتفاوض، ويعرضون علىٰ الأقوام

أمورًا ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو القتال، فكان السفير يقول: «فاقبلوا نصيحتنا فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم»، وهو كلام داعية يحب الخير للناس أكثر من حبه المال والغنىٰ لنفسه..

وأعظم دليل علىٰ ذلك ما وقع في فتوح الشام، فقد كانت خطة هرقل أن يدع جيوش المسلمين تفتح البلاد وتتوغل شمالا في الشام ثم يرسل جيشًا كبير إلىٰ الجنوب لاسترداد المدن ولتطويق الجيوش الإسلامية وعزلها عن بعضها، فتكرر في فتوح الشام أن يتراجع المسلمون عن مدن بعد فتحها ليجتمعوا في الجنوب ويحولوا دون تطويقهم وليواجهوا الجيش الرومي. فكان من عجائب الفتوح الإسلامية أن الجيش كان إذا أخذ الجزية من بلد اضطر إلىٰ دفعها لأهلها مرة أخرىٰ حيث لم يعد باستطاعة المسلمين حمايتهم. فكان الأهالي يقارنون بين سماحة المسلمين ووقوفهم عند وعودهم وبين تجبر الروم الذين كانوا يحكمونهم.

فهذا مشهد لا يوجد في حضارة جاهلية أخرىٰ! بل التاريخ ناطق بأن الغزاة يسلبون وينهبون ويستبيحون الأموال والأعراض طالما قدروا. وهذه الواقعة بحد ذاتها تنفي كل ما يُقال عن الدوافع الاقتصادية في الفتوحات الإسلامية، فلو أن هذا التفكير وارد لديهم لما طرأت فكرة إرجاع الجزية أصلا، ثم لما طرأت وهم يحتاجون الأموال قبيل معركة فاصلة قد جُمعت لهم فيها ما لم يجمع الروم لأحد من قبلهم مثلها.

ولم يُعرف عن المسلمين تمثيل بالجثث كما هي عادة الأقوام المتحاربين، فلقد سمعوا نبيهم يقول: «أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبيا وإمام ضلالة وممثل من الممثلين». فجعل جريمة التمثيل بجثة العدو قرينة بجريمة قتل النبي!!

ثم لم تعرف الفتوحات الإسلامية إجبار أحد علىٰ اعتناق الإسلام، بل

حررت الناس من الظلم والطغيان وتركت لهم اختيار ما يدينون به، بل لقد وقع في فتوح أرمينية أن جيشا للمسلمين بعدما توغلوا إلىٰ مدىٰ بعيد في بلاد الأرمن وقعوا في مفاجأة لقائد أرمني فهزمهم واستعاد بعض بلادهم ثم جاء الروم البيزنطيون ليقاتلوا المسلمين.. فما كان من الروم بعد أن دخلوا بلاد الأرمن إلا أن حاولوا مرة أخرىٰ إجبارهم علىٰ مذهبهم في المسيحية ما سبب قلقا واضطرابا كبيرا في بلاد الأرمن دفع نفس هذا القائد الأرمني أن ينفذ كمينا لجيش الروم وينضم إلىٰ المسلمين ويعقد معهم صلحا علىٰ الجزية والحماية مع معاوية حاكم الشام في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لقد كانت الفتوحات الإسلامية آية في رحمة الغالبين، وهو أمر يشهد به المؤرخون من المستشرقين غير المسلمين، ويعدُّ كتاب «الدعوة إلىٰ الإسلام» للمستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد وثيقة تاريخية كبرىٰ في شأن انتشار الإسلام في كافة أنحاء الأرض، علىٰ أخلاق المسلمين وسماحتهم ورحمتهم بأهل البلاد المفتوحة في كل الأنحاء شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، وقد تمكن المؤلف لإجادته العديد من اللغات -ومنها لغات قديمة- من الرجوع إلىٰ وثائق قديمة علىٰ ألسنة زعماء الشعوب المفتوحة تشهد بأن الفتح الإسلامي كان خارقا للعادة التاريخية في سائر التوسعات الإمبراطورية الأخرىٰ التي تزخر بأنباء المذابح أثناء الفتوح ثم بأنباء الإذلال والاستعباد بعد تمكن السلطان.

وقد استخلص أرنولد بعد تطواف طويلة وأمثلة عديدة هذه الخلاصة، يقول: «من هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح، الذي بسطه المسلمون الظافرون علىٰ العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار، وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد علىٰ هذا التسامح».

وذلك أمر يخالف تماما سيرة الغالبين في المغلوبين! علىٰ نحو ما يقول المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون: «كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولىٰ أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم علىٰ اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا مثل دينهم».

وقد ضرب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المثال في قتال البغاة والغلاة.. فهو في خضم الحرب في موقعة الجمل ينادي في جيشه: «لا يُقتَلَنَّ مدبر ولا يذفف علىٰ جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن».

وأعلن في الخوارج الذين يكفرونه حقوقهم فقال لهم: «لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله تعالىٰ ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم معنا ، ولا نبدؤكم بقتال».

ولما سُئل عن الخوارج الذين كفروه وقاتلوه: أهم كفار؟ قال: من الكفر فرُّوا، فقالوا: فمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا، قالوا: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. ومن فقه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذت الأمة أحكام ما يقع من القتال بين المسلمين في الفتنة أو مع الخوارج التكفيريين.

الخلاصة:

لقد قدَّمت الحضارة الإسلامية للإنسانية أخلاق القتال، ومنذ البداية نزع النبي عن المقاتل وصف المجاهد أو الشهيد إن كان قتاله لرياء أو سمعة أو مجد أو عصبية قبلية، فلا قتال في سبيل الله إلا الذي يكون لإعلاء كلمة الله.. وهذا امتحان كبير للمسلم إذ يجاهد في سبيل الله، إذ لا بد له من تصحيح نيته وتحسس موقعه وإلا فقد خسر الدنيا (بالموت) والآخرة (بفوات الأجر، بل ربما بالنار).

وأهم من هذا أن الإسلام جعل أخلاق القتال دينا يعتقده المرء في ضميره، وليس مجرد حبر مكتوب في معاهدات لا تلزم أحدا علىٰ وجه الحقيقة، فالدين ملزم للجميع إذ هو ملزم للمسلم في ضميره وملزم لعموم الجيش ولقائده ولأمير المؤمنين، كل هؤلاء يعملون في إطاره وتحت أهدافه فيستطيع بعضهم أن يتدارك خطأ البعض، بينما الجندي الذي يعرف أن دولته ستدافع عن جرائمه فلا يأبه باتفاقيات ولا معاهدات.



حضارة الإنسان قبل البنيان

كانت الحضارة الإسلامية فصلًا رائعًا زاهرًا من الحضارة الإنسانية، وما كُتب في فضل الحضارة الإسلامية كثير جدًا، وما كُتب في فضلها علىٰ النهضة الغربية كثير جدًا كذلك، وهو أمر من الحقائق المعروفة التي يشهد بها كثير من الغربيين أنفسهم. يقول المستشرق البريطاني المشهور مونتجمري وات: «ومع ذلك فإننا -معشر الأوربيين- نأبىٰ في عناد أن نُقِرَّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانًا إلىٰ التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانًا تجاهلًا تامًّا، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافًا كاملًا بهذا الفضل، أمَّا إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا علىٰ كبرياء زائف».

بل بلغ ببعض الغربيين، حتىٰ وهم ملحدون، أن يتمنوا لو كان الإسلام قد فتح أوروبا ودخل باريس، ولم يُهزم في معركة «بلاط الشهداء»، من هؤلاء المستشرق الفرنسي المشهور جوستاف لوبون والذي كان تفسيره لعدم محاولة العرب إعادة فتح باريس أنهم وجدوا جوها البارد لا يناسبهم، يقول: «لنفرض جدلًا أن النصارىٰ عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسا غيرَ باردٍ ولا ممطر كجوِّ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدثُ في أوربا التي تكون قد هُذِّبت ما حَدَثَ فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يَعْرِفْه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضَرَّجَت أوربا بالدماء عِدَّة قرون».

عصر الإنسان:

لكن الذي يلفت نظر المستشرقين عمومًا في حديثهم عن الحضارة الإسلامية هي إنجازاتهم المادية، في التنظيم والعمران والحدائق والفنون والزخارف والعلوم والاختراعات وانتشار المكتبات، ولذلك يكاد يسيطر علىٰ المؤلفات المكتوبة في الحضارات الإسلامية الحديث عن العصر العباسي والمملوكي والأندلسي والهندي والعثماني، حيث ازدهرت كل هذه المظاهر الحضارية.

بينما الصورة مختلفة عند المسلمين، فالمسلمون وعلماؤهم لهم اهتمام خاص بعهد الخلفاء الراشدين، والحركات الإسلامية التي تعمل لإعادة الخلافة والوحدة الإسلامية إنما تتوق لإعادة عصر الخلفاء الراشدين لا عصر الأمويين ولا العباسيين ولا المماليك ولا غيرهم، وهذا الحرص والاهتمام إنما ينبع من قول النبي ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، وقوله: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**»، وقوله: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**».

لقد حددت هذه الوصايا من النبي ﷺ مفهوم الحضارة الإسلامية وانحيازاتها وروحها واتجاهها.. إن عصر الراشدين لم تكن فيه تلك المظاهر الحضارية المادية، لقد انتهىٰ عصر الخلافة الراشدة، الذي هو العصر الذهبي في الذهن الإسلامي، ولم يكن للمسلمين قصور مشيدة ولا بيوت فاخرة ولا مباني ضخمة ولا مساجد مزخرفة ولا ثياب مزينة، لقد أتىٰ هذا كله فيما بعد، في العصور التي لا تمثل قدوة للمسلمين والتي لا يتوق المسلمون الآن للعودة إليها كما يتوقون لعودتهم لعصر الخلافة الراشدة.

والسبب في هذا أن عصر الخلافة الراشدة كان هو عصر الإنسان! الفترة المثالية التي تحقق فيها للإنسان أقصىٰ صور الأمن والعدل والعزة والكرامة، حيث لم يكن يستطيع الحاكم حتىٰ إذا حكم ثلث الدنيا أن يستذله أو يقهره أو يخيفه أو

يظلمه، بل حتىٰ لو أبغض الخليفة رجلا فإن هذا لا يمنعه حقا من حقوقه، كما قال عمر لقاتل أخيه: لا أحبك حتىٰ تحب الأرض الدم. فقال: هل هذا مانعي بعضا من حقي؟ قال: لا. فقال: فأحبب أو لا تحبب إنما تأسىٰ علىٰ الحب النساء.

أمن الإنسان وأمن السلطة:

بينما كانت عادة الدول أن تكون مهمة الأمن هي المهمة الأولىٰ لدىٰ الوالي، كانت دولة الخلافة الراشدة علىٰ غير هذا المثال، خطب عمر في موسم الحج حيث يجتمع الناس فقال: «أيها الناس إني بعثت عمالي هؤلاء ولاة بالحق عليكم، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم أمر دينكم وسنتكم، فمن فُعل به سوىٰ ذلك فليرفعه إلي، ومن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم أقيده منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه».

وتكرر منه هذا المعنىٰ في موسم حج آخر، حيث قال: «اعلموا أنه لا حلم إلىٰ الله أحب ولا أعم نفعًا من حلم إمام ورفقه، وإنه ليس جهل أبغض إلىٰ الله ولا أعم من جهل إمام وخرقه»... «وأيما عامل لي ظلم أحدًا، وبلغتني مظلمته ولم أغيرها فأنا ظلمته».

وكان الخليفة قريبا من الناس، يصلي بهم الصلوات ويخطب لهم الجمعة، ويستطيع سائر الناس أن يصل إليه ويحادثه، أو أن يقوم له معارضا أو مُذَكِّرا.. فلا يجد الخليفة بأسا أن يعود عن قوله إن رأىٰ الحق خلاف ما كان عنده.

ولقد استطاع أبو لؤلؤة المجوسي أن يهدد عمر مع مهابته ويقول له: «لأصنعن لك رحىٰ تتحدث بها العرب»، وتبين عمر في قولته هذه التهديد وقال «أوعدني العبد»، لقد استطاع العبد الفارسي أن يهدد عمرا قبل أن يقتله ويحيا في المدينة لا يمسه سوء، ثم استطاع هذا العبد أن يصلي في الصف الأول خلف عمر وأن يطعنه.

وخرج عثمان يوما للصلاة فأبصر رجلا يقبل إليه ففهم في حركته الخطر فقال انظروا: فإذا رجل معه خنجر أو سيف. فقال له عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما هذا؟

قال: أردت أن أقتلك.

قال: سبحان الله!! ويحك، علام تقتلني؟

قال: ظلمني عاملك باليمن.

قال: أفلا رفعت ظلامتك إليَّ فإن لم أنصفك أو أعديك علىٰ عاملي أردت ذلك مني؟

ثم قال لمن حوله: ما تقولون؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدو أمكنك الله منه.

فقال: عبد همَّ بذنب فكفه الله عني، ائتني بمن يكفل بك، لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به فخلىٰ عنه.

وبهذا عفا الخليفة عمن أراد قتله ظلما.

وقد كفل عثمان لمن تمردوا عليهم حقهم في الاعتراض، وحاورهم وأبدىٰ لهم حججه وأعذاره، وكان اختياره ألا يقاتلهم رغم أنهم صرحوا له بعزمهم أن يخلع نفسه أو يقتلونه، (وسنتعرض لتفصيل هذا الموقف في حلقة قادمة إن شاء الله)، ولكن المقصود الآن أن عصر الخلافة الراشدة كان عصرا تستطيع فيه المعارضة أن تواجه الخليفة قولا وصراخا وبالسلاح أحيانا ثم يكون لهم بعد هذا حقوق لا ينتقص منها.

كذلك فقد قُتِل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ يد رجل من الخوارج، وهم فريق جهر بالمعارضة وجهر بالحرب، ومع هذا استطاع أن يدخل إلىٰ الجامع ويصل إلىٰ علي بن أبي طالب فيطعنه.

إن بعض العلمانيين والمجرمين ومن يزيفون وعي الناس ينتقص من عصر

الخلافة لأن ثلاثة من خلفائه قُتِلوا، وينسىٰ أن الذين قُتلوا لم يُقتلوا لظلم وقع منهم وإنما لاتساع هامش المساحة الممنوحة للجميع، ولأن سياستهم جميعا تقدم أمن الناس علىٰ أمن السلطة، وتحفظ حق الناس فوق حق السلطة.

وهكذا رسم الراشدون سياسة النظام الإسلامي في العلاقة بين الناس والسلطة، ومن أغرب الغريب أن يُعايَر النموذج الإسلامي بأن ثلاثة من خلفائه الأربعة قُتِلوا! وأن يصدر هذا ممن عاش في زمن تهلك فيه الأمم والجماعات والفصائل بدعوىٰ حماية النظام والحفاظ علىٰ الأمن القومي ويُشنق فيه الناس بتهم تكدير السلم العام!!

أو لعل هذا هو الطبيعي، وهو نتائج تخريب العقول والنفوس وتضييع الكرامة، فإن الذي نشأ وتربىٰ وتشرب الاستبداد والفرعونية لم يعرف معنىٰ الحرية والعزة والكرامة، فهو أخوف علىٰ أمنه منه علىٰ حريته وكرامته!

الرفاهية والرخاء أم العزة والكرامة:

انحياز الحضارة الإسلامية إلىٰ الإنسان له وجه آخر أيضا، فهو تقديم لبناء الإنسان علىٰ بناء العمران والبنيان، فالحضارة الإسلامية تسعىٰ لإقامة مجتمع تسوده الكرامة والعزة والعدل والإنصاف، ولو كان يسكن بيوت الحجر والشعر والطين، وتنبذ وتحارب مجتمعا تسوده ناطحات السحاب وتغمره وسائل الترفيه والترف بينما إنسانه مذلول أو مطحون أو مسحوق ماديا أو نفسيا!

وليس هذا شيئا هينا، بل هو افتراق خطير! فالذين تغرقهم الحسابات المادية يقبلون بقاء الظلم والطغيان والاستبداد ويدفعون ثمن هذا من كرامتهم وحريتهم، ولا يقبلون أن تشتعل ثورة تخرب البنيان والعمران طلبا لكرامة الإنسان وحريته.. وهنا يفاوضهم الطاغية ويساومهم، فإما أن يبيعوا كرامتهم ويقبلوا بالعبودية وإما أن يهدم البلد علىٰ رؤوسهم.. والواقع أن اختيار حركات التحرر عبر التاريخ كله هو أن تخرب البلد في سبيل الحرية والعزة ثم تكون لهم

فرصة بنائها من جديد علىٰ قواعد جديدة! وقبل كل قصة تحرر توجد قصة شعب عاش المعاناة وذاق الجوع والخوف في سبيل التحرر!

إن مجتمعات المادة قد تنبهر لروائع قصور الحمراء وتاج محل وفنون المآذن والقباب المملوكية بينما الحكم الأخلاقي للحضارة الإسلامية علىٰ هذه العصور هو حكم سلبي، لأن الإنسان كان في هذه العصور أقل قدرا وشأنا من مكانه الذي يحق له في الإسلام.

نعم، قد نستدل بكل هذه المآثر المادية علىٰ تقدم العلوم والفنون في الجانب العلمي من الحضارة الإسلامية، لكن يظل العصر الراشدي الذي خلا من كل هذا هو العصر الذي تتشوق له النفوس أكثر من عصور مماليك الشرق أو مغول الهند أو بني الأحمر الأندلسيين!

لقد بلغ عمر أن سعد بن أبي وقاص انتزع من أحد المجاهدين في القادسية سلب الجالينوس -القائد الفارسي- لأنه لم يستأذنه في اتباعه، فأرسل إلىٰ سعد ينهاه عن هذا، ويوصيه ألا يتعامل مع رجاله بما قد يكسر نفوسهم ويعطل انطلاقتهم، وأمضىٰ له غنيمته.

وفهم ابن خلدون من هذا أن الفارق بين جيل الصحابة وغيرهم، أن أولئك أخذوا أدب الدين من النبي الذي كان حريصا ألا يكسر نفوسهم، وأن من بعدهم إنما نزلوا عن هذه المراتب حين صار التعليم تأديبا فيه عقوبات وإجبار وكسر للنفوس، مما يورث التكاسل الذي هو سمة النفوس المضطهدة.

الخصومات والقضاء:

ويظهر شأن الإنسان في عصر الخلافة الراشدة في مجال الخصومات والقضاء، وأول ما يطالعنا من الأخبار العجيبة أن الناس كانوا يتعاملون بالمروءات والصدق والأمانة فتقل بينهم الخصومات واللجوء إلىٰ القضاء، وهي عادة المجتمعات السوية الراقية، حتىٰ إن عمر بن الخطاب الذي ولي

القضاء في عهد أبي بكر مكث سنة لا يأتيه رجلان. ويروي صديق سلمان بن ربيعة -أول قاض علىٰ الكوفة- أنه مكث يزوره أربعين يوما منذ تولىٰ القضاء فيها لا يجد عنده أحدا من الخصوم.

واجتهد أحد الولاة من نفسه، وكان يتولىٰ منطقة في أرض فارس، فأعلن في الناس أن هذه المنطقة يكثر فيها الفرس وهم يشربون الخمر وفيها من نسائهم من لا تتعفف، فمن كان أصاب حدا فليأت إلىٰ الوالي ليقيم عليه الحد فيطهره، فلما بلغ ذلك عمر أرسل إليه: لا أحل لك أن تأمر الناس أن يهتكوا ستر الذي سترهم. وأوضح له أن القضاء لا يقضي إلا حين يظهر الذنب لا إذا كان مستترا.

وقد جاء رجل من اليمن إلىٰ المدينة وأخبر عمر أن ابنة أخيه وقعت في الفاحشة، فقال له عمر: «لو أفشيت عليها لعاقبتك، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه»، وفي رواية: «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة».

وهكذا كانت السلطة تحفظ الإنسان وعرضه وستره، ولا تعمل علىٰ التجسس عليه ولا هتك ستره، بل إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سجن الذين يلغون في أعراض الناس كما فعل مع الحطيئة الشاعر الهجَّاء، إذ كان كثير الهجاء حتىٰ أنه هجا أباه وأمه وزوجه ونفسه أيضا، حتىٰ خرج ذات يوم فلم يجد من يهجوه، ثم نظر في بئر فرأىٰ وجهه فأنشد يقول:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما بشر ... فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجها قبح الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

ثم أطلقه عمر بعد أن دفع له أموالا مشترطا عليه ألا يهجو مسلما، فاشترىٰ بهذا المال منه أعراض المسلمين.

لم يكن يضيع حق الإنسان في ظل الخلافة الراشدة، ومن ذلك أنه وُجِد قتيل بين حيين في خلافة عمر، ولم يُعرف القاتل، فألزم الحيان بالقسم خمسين يمينا علىٰ البراءة، ثم ألزم أقرب الحيين بدفع الدية.

وكان الخلفاء يخضعون أنفسهم للقضاء، ويحرصون علىٰ عدالته ونفاذ أحكامه في الكبير والصغير وفيهم هم كذلك، وللقضاة في هذا أخبار مشهورة، فمن ذلك أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ تخاصم مع أبي بن كعب في أمر، فحَكَّما زيد بن ثابت، فأتياه في منزله، فلما دخلا عليه، قال له عمر: جئناك لتقضي بيننا، وفي بيته يؤتىٰ الحكم.

فتنحىٰ له زيد عن صدر فراشه، فقال: هاهنا يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: جرت يا زيدُ في أول قضائك، ولكن أجلسني مع خصمي.

فجلسا بين يديه. فادعىٰ أبي وأنكر عمر.

فقال زيد لأبي: أعف أمير المؤمنين من اليمين، وما كنت لأسألها لأحد غيره.

فحلف عمر. ثم حلف عمر لا يُدرك زيد القضاء حتىٰ يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء.

وساوم عمر بن الخطاب بفرس فركبه ليجربه فعطب، فقال لصاحبه خذ فرسك. فأبىٰ الرجل، فاحتكما إلىٰ شريح، فقال شريح: يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رُد كما أخذت. فقال عمر: وهل القضاء إلا هكذا؟ فبعثه إلىٰ الكوفة قاضيا.

بمثل هذه السياسة كان حق الإنسان محفوظا ومكانته محروسة في عصر الخلافة الراشدة.

الخلاصة:

لقد حكمت النصوص أن الفترة الذهبية للمسلمين هي فترة الخلافة الراشدة بحديث «خير الناس قرني» وحديث «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين».. ومع هذا فإن عصر الراشدين انتهىٰ قبل أن يكون للمسلمين صروح علمية وقصور مشيدة وزخارف مترفة، إلا أنه كان العصر الذهبي في نشر

العدل وحفظ الأمن وتوفير كرامة الإنسان.. ولهذا فإن الحضارة الإسلامية هي حضارة الإنسان قبل أن تكون حضارة البنيان، والمسلمون يتوقون للعودة لعصر الراشدين لا لعصر الأمويين والعباسيين والعثمانيين والأندلسيين، فأولئك رغم كل مفاخرهم الحضارية لم يبلغوا شأن عصر الخلافة في التقوىٰ والعدل ونشر الأمن علىٰ الناس.. إن القراءة الإسلامية للتاريخ ترفع شأن الخلفاء الراشدين علىٰ من عداهم رغم أن ثلاثة منهم استشهدوا، وترفعهم فوق من ماتوا علىٰ فراشهم لأن هؤلاء آثروا أمن المحكومين.





الفصل الثالث

الجهاد الراشد

هل تعلم أن كل هزيمة نكابدها الآن هي أثر من آثار توقف الجهاد قبل أكثر من قرنين من الزمان علىٰ الأقل؟! وكلما توقفنا كلما زادت الفجوة العلمية والعسكرية والسياسية بيننا وبين عدونا، وكلما زادت كلما كانت عملية تضييقها أصعب وأصعب وأصعب، وكلما كان الثمن المدفوع فيها أفدح وأعلىٰ وأكبر؟!

أمتنا الآن تدفع الثمن.. وستظل تدفعه حتىٰ يعتدل بالجهاد ميزان القوة، فحينها تُعصم دماء أبنائها وتحفظ مدنها وقراها ومواردها!

نحن لا ندفع الثمن لأننا أخطأنا في حق النظام الدولي، أبدًا.. نحن ندفع الثمن لأننا ضعفاء فحسب! العراقيون لم يستفزوا الأمريكان حتىٰ احتلوهم، الإخوان في مصر اجتهدوا في سحب كل ذريعة لئلا يحدث انقلاب، حماس لم تسمع منها رغم كل الحصار كلمة سيئة في حق مصر أو السعودية أو الأردن (وهم رأس الحربة في حصارها وتجويعها وقتلها)، ولم تتبن الجهاد العالمي بل التزمت بالحدود ولم تتدخل في شأن دولة أخرىٰ لكي لا تهيج علىٰ نفسها عداء جديدا.. المسلمون في بورما لم ينفذوا تفجيرات في البوذيين، المسلمون في إفريقيا الوسطىٰ لم يهددوا نظام الدولة، المسلمون في تركستان الشرقية ممنوعون حتىٰ من التعليم والعبادة ويُجبرون علىٰ تزويج المسلمة من الصيني.

وسيظل كل ضعيف يدفع الثمن من ضعفه ودمه حتىٰ يقوىٰ فتتغير المعادلة.

في هذا الفصل نتناول كيف أنشأ الراشدون جهادا باسلا منضبطا أخلاقيا، راشدا غير عشوائي ولا عبثي ولا عدمي كما هو حال كثيرين ممن يحسبون أنهم يجاهدون في عصرنا الآن، نتناول هذا ضمن خمسة مباحث هي:

- **المبحث الأول**: أهمية الجهاد وآثاره.
- **المبحث الثاني**: من بطولات الصحابة.
- **المبحث الثالث**: ابتكارات واجتهادات فارقة.
- **المبحث الرابع**: مواجهة الخوارج.
- **المبحث الخامس**: مواجهة التشيع.



أهمية الجهاد وآثاره

في الخطبة الأولىٰ للخليفة الأول أبي بكر الصديق، والتي كانت أصول النظام السياسي في الإسلام، قال أبو بكر: «لم يدع قوم الجهاد في سبيل الله، إلا ضربهم الله بالذلّ»

أبو بكر شاهد عيان:

كان أبو بكر شاهد عيان علىٰ تاريخ الإسلام منذ يومه الأول، عاش تكوين المجموعة المسلمة الأولىٰ، ثم رأىٰ وعاين فترة التعذيب والإيذاء والحصار، وأوذي في نفسه، وبذل ماله لتحرير المسلمين وإنقاذهم من التعذيب، ثم هاجر مع النبي ورأىٰ نزول الوحي بالبشرىٰ الكبيرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، وسمع النبي وهو يبشر سراقة بن مالك بأغرب بشارة: «كيف بك يا سراقة وقد لبست سواري كسرىٰ؟!».

وبعد الهجرة نزل الإذن بالقتال، فكان أبو بكر ممن سمع هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٣٩-٤١].

وتنفيذا لهذه الآية بدأت حركة الجهاد في الدولة المسلمة، وشهد أبو بكر المشاهد -أي: المعارك- كلها مع رسول الله، فشهد تطور حال جماعة المسلمين من الاستضعاف إلىٰ التحرر، ومن التحرر إلىٰ العزة والتمكن وفتح الأنحاء،

حتىٰ ختمت حياة رسول الله وقد جاءته الوفود تعلن البيعة والطاعة لقائد الدولة المسلمة، ومات رسول الله وهو يوصي بإنفاذ جيش أسامة الذي سيخرج لمقاتلة الروم: القوة العظمىٰ في العالم آنذاك.

وهكذا منذ الآية الأولىٰ التي نزلت للإذن بالقتال حتىٰ اللحظة الأخيرة من حياة رسول الله كان الجهاد أصلا أصيلا من مهمات الأمة الإسلامية، تقوم به السلطة الشرعية وتنظم شؤونه، ولا يردُّها عنه ما تلقاه من الأذىٰ فيه، تُقِيمه لتحرير الناس وإنقاذهم من سطوة وسلطة الباطل، ولحماية الدولة الإسلامية التي تقيم الدين وتحفظ الشريعة. وبالجهاد تحول المسلمون من مستضعفين في مكة لا يملكون دفع الأذىٰ عن أنفسهم إلىٰ الدولة القوية المهابة التي تأتيها القبائل طائعة مبايعة.

هذا ما استوعبه أبو بكر والخلفاء الراشدون، وهذا ما سارت عليه سياستهم!

هل مجرد وجود الحق يكفي للهداية؟

لو أن الناس يهتدون بمجرد بيان الحق لما احتاج النبي أن يحمل السيف، بل ولما احتاج أحد من المصلحين أن يجاهد ويعاني، بل ولاختفىٰ من التاريخ الإنساني كافة مظاهر العشيرة والعصبية والعائلة والقبيلة، ولما ظهر في الدنيا شيء اسمه «دولة» أو «امبراطورية» أو «نظام عالمي». لو أن الناس يهتدون بمجرد بيان الحق لما احتاجت الدول إلىٰ أجهزة أمن واستخبارات وجيوش، ولا كان في الدنيا سلاح وقتال وعساكر ومعدات حربية وأسلحة فتاكة. كانت أي مشكلة ستُحل بمجرد بيان الحق فيها!

لكن كل هذا ظهر، لأن الحقيقة أن مجرد بيان الحق للناس لا يعني اهتداؤهم إليه، الحقيقة ببساطة تقول أن مجرد «وجود» الحق وحده لا يكفي! والإنسان يعلم من نفسه وذاته أنه لا يلتزم بكل ما يعرف أنه الحق، بل ربما ارتكب الذنب والخطيئة والجريمة وهو يعلم أنه ذنب وخطيئة وجريمة. إن

الذين لا يستسلمون لرغباتهم ويكبحون جماح أنفسهم وشهواتهم وطغيان نفسهم إنما هم القلة الفاضلة، بينما الكثرة الغالبة لا يردعها عن الخطيئة والجريمة إلا العجز والخوف من العاقبة والعقوبة.

الإنسان مسرح لمهمة الشيطان الذي قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧]، والمفاجأة أن غالب البشر ينجح معهم الشيطان ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[يوسف:١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

فإذا كان ذلك في الإنسان نفسه، فهو في حالة الدول أشد وأخطر، إذ هي مظنة اجتماع الشهوات والرغبات والمطامح والمطامع، وشهوة المُلك والسلطة أقوىٰ من شهوات الفرد بنفسه، وفي سبيل الملك يقتل الرجل ابنه أو أباه أو أخاه فضلا عن أبناء عمومته وأهل عشيرته، فأما قرار قتل الناس فهو أسهل ما يأخذه المتسلط تمكينا لحكمه وإرساء لملكه، وإذا كان قرار قتل الأقربين سهلا فكيف بالإغارة علىٰ الأباعد؟! وإذا كانت المؤامرة تدبر للتخلص من الأقوياء والأذكياء فكيف إذا كان الخصم ضعيفا مهيض الجناح سهل المأخذ؟! وإذا كانت رابطة الدم والعصبية وسنوات الوداد والوصال وأزمان العشرة والصحبة والفضل القديم، إذا كان كل ذلك لا يقف مانعا أمام رغبة فاسدة، فكيف نتوقع أن يكون الوعظ والبيان والنصح كافيا في تغيير الحال وردع المجرم وكبح جماح الفساد؟!!

الجهاد علاج.. وآخر الدواء الكي:

قد يبلغ الجرح من الفساد ما لا يكون له دواء إلا الكيّ، وقد يبلغ المرض من التمكن ما لا يكون علاجه إلا البتر، وكذلك الفساد في النفوس والعقول والأمم قد يبلغ حدا لا يصلح له إلا الحسم!

إن ضلال النفس قد يحمل علىٰ غرائب مدهشة؛ فإن هؤلاء الذين عبروا البحر بمعجزة كونية هائلة، بجسر تكون فعبروا عليه ثم تلاشىٰ فأغرق عدوهم، هؤلاء لم يلبثوا إلا قليلًا حتىٰ قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٨] ولو لم يكن عندهم نبيهم الذي ردعهم بقوة وحسم لاتخذوا صنما وعبدوه في تلك اللحظة!

بل ذلك ما فعلوه حين غاب عنهم أيامًا ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨]، ولم ينفع معهم حينئذ وجود نبي الله هارون فلقد استضعفوه حتىٰ أوشكوا أن يقتلوه، وما انتهىٰ الباطل إلا حين أتىٰ موسىٰ النبي القوي المُهاب فحرق العجل ونسفه، ثم لم يكن علاجهم إلا بعقاب شديد ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤].

هؤلاء الذين تمنوا عبادة صنم واتخذوا عجلا صنعوه بأيديهم، قالوا لنبيهم ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، فانظر كيف اعتنقوا ما هو شديد البطلان ثم يمتنعون عن الإيمان بمن أنجاهم بالمعجزات وأنعم عليهم بالخيرات إلا أن يروه جهرة، ولم تكن العقوبة إلا حسمًا شديدًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٥٥].

وكم في ضلالات الناس من غرائب نراها صبحا وعشيا، لا سيما في زمان الإعلام الفاسد الذي يحيل الناس إلىٰ كائنات عجيبة، يحبون من يقتلهم ويستبد بهم، ويبغضون من يكافح عنهم ويعمل لخدمتهم، وتنغلق عقولهم وقلوبهم أمام حقائق الحياة البسطية فلا يعرفون ما ينفعهم مما يضرهم، حتىٰ لتبدو لهم أغلال الطغيان فخرا مجيدا، ويغدو من يحاول الخروج منها متمردا عنيدا!!

تجد المرء يرىٰ قتل الآلاف في يوم واحد عملا جميلا، بينما ردة فعل واهنة قتلت واحدا أو جرحت غير واحد (دفاعًا عن النفس) عملا إرهابيا مجرما.!!

تراه لا يهتز لمذابح المسلمين في كل مكان بينما يهتز لعمل مُقاوِمٍ فيهتف ضد الإرهاب!! وعلىٰ رغم أن المسلمين هم المُعتدىٰ عليهم في كل مكان، وهم المستباحة دماؤهم فلا يكاد يرىٰ إرهابا إلا هم، وتصل القناعة حدا يصير عقيدة راسخة تذهب دونها كل الحقائق، ومثالها ذلك الجندي الإنجليزي الذي قتل إفريقيا ثم نظر في دهشة إلىٰ زملائه وصاح متعجبا «يا له من همجي؟! تصور أنه عضني وأنا أقتله»!!

فإذا بلغ الضلال في النفوس إلىٰ هذا الحد، فبأي شيء ينفع الوعظ والنصح وبيان الحق؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

ضرورة القوة للحق:

قد يتبين الحق، لكن النفوس لا تقبله رغم اعترافها بأنه الحق.

قد يكون لمجرد الكبر ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل:١٤].

وقد يكون لطغيان الشهوة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦].

وقد يكون لطغيان العادة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزُّخرُف:٢٣-٢٤].

وقد يكون اتباعًا للمنافع التي ارتبطت بوجود الباطل والفساد ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ [القصص:٥٧]، فانظر كيف اعترفوا أنه «الهدىٰ». وفي كل الأحوال، فما دام الحق ضعيفا فلن يستجيب له إلا أولئك القلة النادرة الفاضلة، فيما يكون الرد التلقائي علىٰ نحو قولهم:

- ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود:٣٢].

■ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٩].

■ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧].

■ ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

■ بل قد يبلغ التحدي والكبر مبلغًا غريبًا ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

وانظر إلىٰ بني إسرائيل الذين شهدوا معجزات الله كيف لم ينضبط أمرهم إلا حين كانت تظللهم العقوبة، وذلك حين رفع الله فوقهم جبل الطور حتىٰ كانوا يخشون إذا عصوا أن يقع عليهم، ثم لم يبلغوا شأنا إلا حين كانت أنبياؤهم ملوكهم كداود وسليمان عليهما السلام، وكما في الحديث: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي».

أما حيث كان أنبياؤهم غير ذوي سلطان فلقد كان حالهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة:٧٠] وحيث لم يكن عليهم سلطان قاهر فقد بلغوا في الاستهزاء والاستخفاف أن قالوا ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة:٨٨] أي مغلقة، بل تجرؤوا أن يقولوا لأمر الله ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وأن يحرفوا في دين الله ويجاهرون بالتحدي ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦].

لكل هذا كان لابد للحق من قوة، وإلا حاربه أقوام وفيهم من يعرفون أنه الحق لمخالفته شهواتهم وعاداتهم ومصالحهم، ولقد كان أهل الكتاب

يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، وكان كفار قريش يعرفون في النبي الصدق والأمانة، لكنهم كذبوه وحاربوه وكادوا أن يقتلوه! فلولا أن وقفت للحق سيوف تحملها الألوف لما انتفع أهل الحق بمجرد حمله ولا أثمرت جهودهم في بيانه والدعوة إليه.

الجهاد: إجماع الخلفاء الراشدين:

لقد رأىٰ الراشدون في حياتهم نماذج الذين يرفضون الحق لأنه يضاد مصالحهم وشهواتهم، حتىٰ أنهم لما جاءهم الحق الواضح من الصادق الأمين لم يتبعوه بل لقد ساوموه علىٰ ترك هذا الدين الذي يهدد سلطانهم بأن يعطوه ما شاء من الأموال أو يزوجوه ما شاء من النساء أو يمنحونه ما يشاء من السلطان، فلما أبىٰ ﷺ انهالوا علىٰ أصحابه بالتعذيب الشديد الذي وصل إلىٰ القتل.

وقد علم الراشدون بما قرؤوه من كتاب الله وبما سمعوه من النبي ﷺ أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وذرورة السنام هي أعلىٰ شيء فيه!

وقد تقرر الجهاد لحماية المؤمنين، فالضعفاء الذين لا قوة لهم يأكلهم المبطلون والمفسدون، يستعبدونهم ويضطهدونهم ويُخضعونهم لباطلهم وفسادهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾**﴾ [النساء:٧٥].

فالجهاد حماية للمسلمين، ولنقلهم من الاستضعاف والاستعباد إلىٰ القوة والمكانة والسيادة، فالمسلمون بغير قوة لا مكان لهم في هذا العالم، فمن لا يستطيع الدفاع عن نفسه لا يستطيع أن يقرر شيئًا لنفسه، والذي يختار الضعف يختار أن يكون فريسة للأقوياء من حوله.

والجهاد أيضا حماية لكل الضعفاء والمظلومين من البشر، ولهذا فهو عدو لكل الطغاة والمستبدين، وهذا ما كان يستوعبه سفراء الجهاد في تاريخنا، حيث

قال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس قبيل المعركة الفاصلة في القادسية، هذه العبارات القوية الواضحة الفصيحة: «لقد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام».

ولهذا فالمسلمون أعداء لكل طاغية ومستبد، وأنصار لكل مظلوم ومضطهد، وهم مشروع تحرر لأنفسهم وتحرير للبشر أجمعين. وقد فهم المحتلون هذا في ديننا فعملوا بكل جهودهم حين نزلوا إلىٰ بلادنا علىٰ حذف الجهاد من عقول المسلمين، فلقد ادعىٰ نابليون أنه مسلم وأنه صديق للسلطان العثماني لكي يتجنب إعلان المسلمين الجهاد عليه في مصر، وادعىٰ الإنجليز أنهم لم ينزلوا محتلين وإنما كأصدقاء وأنهم يسلِّمون بحق السلطان العثماني في مصر، بل إن الإنجليز في الهند جعلوا بعض عملائهم قيادات لجماعات ومذاهب دينية تنبذ الجهاد وتتحدث عن السمع والطاعة لولي الأمر حتىٰ لو كان الحاكم هو الاحتلال الأجنبي نفسه، أو كان واحدا من عملائه يحارب الإسلام صراحة. ولا تزال مناهج التعليم ووسائل الإعلام في العالم الإسلامي -الذي ما يزال فعليا تحت هيمنة الاحتلال الأجنبي- تحذف الجهاد والمجاهدين وتطمس سيرتهم وتشوههم، وتتحدث عن هذه القيم كأنها «تطرف» و«إرهاب» و«تشدد» و«أصولية».. إلىٰ آخر هذه المصطلحات التي يُقصد بها نزع روح الجهاد من هذه الأمة.

وإذا نظرنا في صدر تاريخنا الإسلامي فسنجد أن النبي وصحابته الكرام جاهدوا لثلاثة أهداف علىٰ ثلاثة مراحل:

١- جاهدوا لإنشاء الدولة المسلمة وتأمينها وحمايتها، كما هي سيرة النبي ﷺ منذ الهجرة إلىٰ المدينة وحتىٰ وفاته.. أحد عشر عامًا من الجهاد المتواصل، لا تكاد تمضي سنة بغير غزوة كبرىٰ أو غزوتين كبريين فضلًا عن السرايا الصغيرة.

٢- ثم جاهدوا علىٰ وحدتها وضد تقسيمها، كما فعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضد المرتدين ومانعي الزكاة، ثم كما جاهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الإمام الشرعي ضد من امتنع عن بيعته -ولو متأولا- كي تظل الدولة المسلمة دولة واحدة.

٣- ثم جاهدوا لإنقاذ البشر من الطغيان والمظالم الواسعة المنتشرة في فارس والروم، ففتحوا البلاد الواسعة، وأنقذوا العبيد والمستضعفين من استبداد الملوك والقياصرة والأباطرة، وأقاموا لهم العدل، وهذا ما كان في عصر أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

لقد كان عصر الراشدين عصر الوحدة والفتوح، وكانت فتوحاتهم أعجب الفتوحات في التاريخ الإنساني كله، وهي الفتوح التي انبهر لها المؤرخون من غير المسلمين[١]، وبغير هذا الجهاد ما كان ليكون للإسلام دولة، وكنا نحن الآن نعبد الأصنام أو نعبد الخرافات والأوهام، أو نعبد الملوك والحكام. إن الجهاد روح هذه الأمة، وهو حامل رسالتها إلىٰ البشر أجمعين.

فالجهاد من إجماعات الخلفاء الراشدين، فهي من سنتهم بل من أقوىٰ سننهم إذ كلهم قام بها وقام عليها، ونحن الآن أحوج لهذا الجهاد من أي وقت آخر، فنحن تحت الاحتلال الأجنبي المباشر أو الاستبداد الأجنبي عبر طبقة الحكام التابعين للاحتلال.



(١) راجع الجزء الأول من «في أروقة التاريخ»، ص٢٣ وما بعدها.

من بطولات الصحابة

تقوم الأمم علىٰ أكتاف الأبطال، ليس من أمة نهضت وسادت إلا وكانت قصة انطلاقها حافلة بالأبطال والبطولات، الجيل المؤسس في كل دولة هو أصلب أجيالها وأكثرهم بسالة وتضحية، ويظل هذا الجيل هو مفخرة الدولة والأمة، يحتفظون باسمائهم ويعظمون شأنهم ويروون قصصهم ويعلمونها للأجيال لتقتدي بهم وليستمر عطاء هذه الأمة وحضارتها.

ولذلك فقد كان من أخطر أساليب التشويه الفكري أن المحتل هو من يختار لنا أبطالنا، فصارت لدينا مهمة خطيرة لم تتعرض لها الأمة في عصورها السابقة، وهي مهمة تصحيح التاريخ وتوعية الأجيال بحقيقة الشخصيات التي درسوها كأبطال عن غير استحقاق، وإزالة الغبار والركام عن الأبطال الحقيقيين الذين درسوا سيرتهم كأعداء أو إرهابيين أو مجرمين.

وفي عصر أجدادنا الأوائل، عصر الخلافة الراشدة، صفحات زاخرة من البطولة والفداء، أبطال عظماء فتحوا الدنيا شرقا وغربا، قاتلوا العرب والفرس والروم حتىٰ اتسع ظل الإسلام علىٰ كل هذه البلاد، عشرات الآلاف من الفاتحين الذين اكتسحوا الأمم ونشروا العدل وفتحوا صفحة جديدة في تاريخ العالم، أغلبهم لا نعرف أسماءهم، والقليل منهم فحسب هو الذي بقيت سيرته يرويها التاريخ حتىٰ وصلت إلينا.

بطولات الجهاد:

هل سمعتم عن هاشم بن عتبة؟

إنه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ابن أخي سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

كان يُلقَّب بالمرقال لما له من سرعة في الحرب، إذ كانت العرب تقول للإبل إذا أسرعت «رقلت الإبل»، وهو من الأبطال المعدودين الذين شهدوا المعركتين الفاصلتين: اليرموك في جبهة الروم والقادسية في جبهة الفرس. وذلك أن خالد بن الوليد لما نقله أبو بكر من جبهة الفرس إلىٰ جبهة الروم أخذ معه نصف الجيش الفاتح في جبهة الفرس، ولما انتهت الموقعة الفاصلة «اليرموك» عاد هذا الجيش إلىٰ العراق ليجد نفسه أمام المعركة الفاصلة الأخرىٰ «القادسية».

فكان أولئك من الأبطال الكبار.. ومنهم صاحبنا هاشم بن عتبة الذي كان قائد هذا الجيش العائد.

عاد هاشم بن عتبة من اليرموك وقد فقد عينه اليمنىٰ في سبيل الله، فخاض جهاده في القادسية وما بعدها بعين واحدة، وهو من مشاهير العور في التاريخ الإسلامي.

كان رجلا ضخما، ماهرا كفئا حتىٰ قالت عنه عائشة: كان رجلا لا تكاد تزل به دابته، وقد وصل إلىٰ القادسية بعد أن اشتعلت المعركة، وكان لأجل ذلك قد قدَّم أمامه القعقاع بن عمرو التميمي، فوصل القعقاع ونفذ خطته النفسية في تقسيم طليعته إلىٰ فئات صغيرة تثير الغبار ثم تنضم تباعا إلىٰ الجيش بحيث يظهر أن المدد قد وصل، فما إن انتهىٰ ضم الطليعة إلىٰ الجيش حتىٰ كان جيش هاشم بن عتبة قد وصل فصار ينضم إلىٰ المسلمين تباعا هكذا لدعم المعنويات في الجيش المسلم وإخمادها في جيش الفرس.

ومنذ وصل إلىٰ القادسية حتىٰ أبلىٰ في قتالها بلاء حسنا مشهورا، ثم بعد انتصار القادسية كان من قادة الجيش الإسلامي الذي انطلق إلىٰ المدائن، وهناك قبل الوصول أطلق الفرس أسدا كان قد اتخذه كسرىٰ من حديقة له، وكان الأسد سلاحا جديدا آخر مختلفا عن الفيلة.. إلا أن صاحبنا البطل الكبير هاشم بن عتبة نزل عن فرسه فتصدىٰ للأسد بشجاعة قلب نادرة حتىٰ قتله

بسيفه، فكان فتحا معنويا للمسلمين ورعبا جديدا ينزل بالفرس، حتىٰ إن سعد ابن أبي وقاص -قائد الجيش وعم هاشم- قبل رأس هاشم فقبل هاشم قدمه.

ثم كان هاشم قائد جيش المسلمين في جلولاء التي تجمعت بها قوات الفرس بعد اندحارهم الكبير في القادسية، حيث كان هذا آخر جيش كبير لهم، فانتصر عليهم النصر الكبير الذي انهارت بعده امبراطورية فارس تماما.

وكان هاشم فيما بعد من قادة فتوح فارس، ومع ذلك خرج من كل هذا سليما فلم يمت إلا بعد عشرين سنة في معركة صفين حيث كان من قادة جيش علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بطولات السياسة:

عادة ما يجري الحديث عن بطولات المقاتلين ويغفلون عن بطولات السياسيين والسفراء، والواقع أن من يخوض معركة السياسة شرط أن يكون مخلصا حقا يستطيع بذكائه وحسن تدبيره أن يوفر علىٰ المسلمين دماء كثيرة، وأن يحقق بالسياسة ما قد تعجز عنه الحروب.. وصحيح طبعا أن قوة السياسي تنبع من قوته علىٰ الأرض وقدرته علىٰ خوض المعارك.. فالسياسة والحرب كالجناحين للطائر، والأمم التي تنتصر لا بد لها من استعمال الأمرين معا.

أولًا: سفراء القادسية:

قبل أن تنشب معركة القادسية، وهي المعركة الكبرىٰ القاصمة في فتوح فارس، جرت مفاوضات بين المسلمين والفرس، وكان سفراء المسلمين فيها ثلاثة: ربعي بن عامر وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة.

كان قائد جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص قد أرسل في طلب وفد من الدهاة والسفراء، فلما اجتمع بهم اقتراح ربعي بن عامر أن ذهابهم وفدا كبيرا سيوحي للفرس أن العرب يهتمون لأمرهم، بينما إرسال واحد فحسب يدل علىٰ قوة المسلمين وقلة اكتراثهم بالفرس، فأعجب هذا الرأي سعد بن أبي

وقاص، وقرر أن يكون سفراؤه واحدا تلو الآخر. فكانت البداية بصاحبنا ربعي ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أراد الفرس أن يحدثوا صدمة نفسية للسفير المسلم، فجهزوا له استقبالا مهيبا، حيث لبسوا فيه الثياب المذهبة وفرشوا الوسائد والنمارق المزخرفة، وصنعوا صورة بصرية فاخرة ومهيبة، وعزموا علىٰ أن يتعاملوا معه بقلة اكتراث ولا مبالاة. وعلىٰ الجانب الآخر دخل ربعي بن عامر في صورة المقاتل الأشعث الأغبر الفقير الصلب، معه سيفه ودرعه وأسهمه تدل علىٰ الخشونة والبساطة حتىٰ إن غمد سيفه كان من القماش الأخرق الرثّ. لكن الأهم من هذا أنه لم ينبهر بزينة الفرس بل مضىٰ هذا المقاتل الأشعث فأخذ وسادة من زخارفهم فشقها ليربط بها بغلته في مقدمة الخيمة السلطانية لرستم، ثم صار يمشي متوكأ علىٰ رمحه فيخرق البسائط والنمارق والوسائد بلا مبالاة، ولأنهم عزموا علىٰ إظهار اللا مبالاة به فقد تركوه مظهرين الاستهانة بشأنه حتىٰ اقترب إلىٰ رستم في صدر المجلس فأراد أن يجلس إلىٰ جواره فمنعه الحرس الخاص الذين حملوه فأبعدوه، فإذا به يزيح بسائطهم ويجلس علىٰ الأرض وهم يستغربون ويسألون:

- ما حملك علىٰ هذا؟
- فقال: إنا لا نستحب الجلوس علىٰ زينتكم هذه
- فقال له رستم: ما جاء بكم؟
- قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبىٰ قاتلناه أبدا حتىٰ نفضي إلىٰ موعود الله.
- قال: وما موعود الله؟
- قال: الجنة لمن مات علىٰ قتال من أبىٰ، والظفر لمن بقي.

- فقال رستم قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتىٰ ننظر فيه وتنظروا؟

- قال: نعم كم أحب إليكم أيوما أو يومين؟

- قال: لا بل حتىٰ نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. (وأراد مقاربته ومدافعته).

- فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئتمنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه وإن كنت إليه محتاجا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا أنا كفيل لك بذلك علىٰ أصحابي وعلىٰ جميع من ترىٰ.

- قال: أسيدهم أنت؟

- قال: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم علىٰ أعلاهم.

واستطاع ربعي بهذا المنظر البسيط المخيف، وبهذا الكلام الواضح أن يوقع الرهبة في نفس رستم الذي بدا كأنه يميل إلىٰ تجنب الحرب، فقال لقومه: هل رأيتم كلاما قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟

قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلىٰ شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب! أما ترىٰ إلىٰ ثيابه؟

فقال: ويحكم لا تنظروا إلىٰ الثياب ولكن انظروا إلىٰ الرأي والكلام والسيرة إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ما ترون.

ثم كان للمسلمين سفيرين في اليوم الثاني والثالث هما حذيفة بن محصن

والمغيرة بن شعبة، ولم يختلف كلامهما كثيرا عن كلام ربعي بن عامر، بل إن مما وقع للمغيرة أنه سار إلىٰ أن أراد أن يجلس إلىٰ جوار رستم مباشرة فلما أخذه الحرس فوثبوا عليه ومنعوه قال لهم: «كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرىٰ قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسىٰ وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكن دعوتموني اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم علىٰ هذه السيرة ولا علىٰ هذه العقول»

ولما فرغوا من الحوار علىٰ نفس ما قاله ربعي وحذيفة قال رستم: هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين والله لئن كان بلغ من إربهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء.

وبهذا فعل السفراء في نفوس القادة والكبار ما لم تكن تستطيع السيوف أن تفعله من قذف الرعب في قلوبهم وتثبيت هيبة المسلمين.

ثانيًا: أرطبون العرب وأرطبون الروم:

لما تمكن المسلمون من فتح الشام بقيت أمامهم مدينة بيت المقدس، وضرب المسلمون حولها الحصار، وكان قائدها الرومي واحدا من أذكىٰ وأدهىٰ قادتهم ويسمىٰ «الأرطبون».

وكان الجيش الإسلامي المحاصر لها بقيادة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو المعدود كذلك من دهاة العرب، فجرت بين عمرو وبين الأرطبون رسائل وسفارات لم يستطع عمرو منها أن يحصل علىٰ ما يريد، فعزم علىٰ أن يذهب بنفسه علىٰ هيئة السفير.

وهناك دارت معركة سياسية بين داهية العرب وداهية الروم!

كان كلام عمرو ونظراته مما فهم معه الأرطبون أنه ليس شخصية سفير فحسب، ووقع في نفسه أنه عمرو بن العاص أو علىٰ الأقل رجل من كبار القادة الذين يأخذ عمرو برأيهم، فعزم علىٰ اغتياله وقال: «ما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله»، ثم كلف واحدا من جنوده بأن ينفذ هذا الاغتيال أثناء عودة عمرو، ولكن عمرا أحس بما يُدبَّر له، فقال له في الجلسة الأخيرة:

«قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرىٰ فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلىٰ مأمنهم وكنت علىٰ رأس أمرك».

فأعجب الأرطبون أن الصيد سيكون أعظم من هذا، سيبلغ عشرة من كبار القادة، فأرسل إلىٰ المكلفين بالاغتيال أن يتوقفوا، وبهذا نجىٰ عمرو، ثم علم الأرطبون أنه كان هو الخاسر في حرب العقول هذه، فقال: خدعني الرجل هذا أدهىٰ الخلق.

ولما بلغت عمر فقال غلبه عمرو لله عمرو، لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب.

الحرب النفسية:

ومما لا ينتبه له كثيرا في بطولات أجدادنا الفاتحين استعمالهم للحرب النفسية، وبها بلغوا نتائج لم يكن بالإمكان تحصيلها بغير هذه الوسيلة. وهو ما ينبغي أن ننتبه له في واقعنا المعاصر ونستفيد منه.

سنحكي في هذا الإطار مثالا واحدا فحسب، وهي الخطة التي وضعها خالد بن الوليد في معركة اليرموك الفاصلة.

لقد بنىٰ خالد بن الوليد خطته يوم اليرموك علىٰ إحداث الصدمة النفسية في جيش الروم، وكانت الانتصارات السابقة للمسلمين قد أوقعت الفزع في نفوس

الروم، حتىٰ إن هرقل إمبراطور الروم أمر قائده في اليرموك باهان -وكان من أشهر قادتهم وأكثرهم قوة وذكاء- أن يضع جيشه في موقع من الأرض «واسع المطرد ضيق المخرج» بحيث لا يكون أمامهم فرصة إلا الثبات، كذلك فقد جعل صفوفا من جنوده مربوطين بالسلاسل لئلا يندفعون إلىٰ الهروب إذا شدّ عليهم المسلمون.. وقد اختار قائده بالفعل موقعا تتحقق فيه هذه الصفات، حيث موقع المعركة نفسه فسيح ولكنه محدود من ثلاث جهات بفروع نهر الأردن، ولا يبق إلا الموضع الذي دخلوا منه، وهو الذي جاءه المسلمون فيما بعد فصار الروم بين المسلمين من الأمام وبين الماء من ثلاث جهات، حتىٰ قال سيدنا عمرو بن العاص: «أبشروا، قد حصرت اليوم، ولا يأتي محصور بخير».

ومن قوة الصدمة النفسية أن أحد فرسان الروم الكبار وهو من سفرائهم كذلك، أي أنه جمع بين القوة والعقل، وكان اسمه جرجة، أسلم قبل أن تبدأ المعركة، حيث خرج بين الصفين بعد انتهاء المفاوضات وقبل ابتداء القتال ونادىٰ علىٰ سيدنا خالد بن الوليد، فخرج له واقتربا حتىٰ أمن كل منهما الآخر، ثم قال له:

- يا خالد اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع.. بالله هل أنزل الله علىٰ نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله علىٰ قوم إلا هزمتهم؟

- قال: لا.

- قال: فبم سميت سيف الله؟

- قال إن الله عَزَّوَجَلَّ بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سله الله علىٰ المشركين ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين علىٰ المشركين.

ثم أسلم جرجة وانحاز إلىٰ المسلمين وقاتل معهم، واستشهد في اليرموك ولم يصل إلا ركعتي إسلامه، وقيل: بل لم يصل أبدا. فهو ممن مات علىٰ الشهادة ولم يسجد لله سجدة.

نعود إلىٰ خطة خالد بن الوليد في اليرموك..

لقد استوعب خالد منذ رأىٰ فرسان الروم أن عددهم وقوتهم أكبر بكثير من فرسان المسلمين، وأنه لا يستطيع أن يتصدىٰ لهم، فكان أساس خطته أن يحتفظ بفرسانه دون خوض قتال، وأن يجعلهم خلف جيش المسلمين من المشاة، وأن يتحمل المشاة المسلمون صدمة فرسان الروم.. لذلك أوصىٰ المسلمين بالصبر والثبات ما استطاعوا، ثم ذهب إلىٰ النساء في مؤخرة الجيش فأوصاهن أن يضربوا من يرجع منسحبا من أمام الروم بالحجر أو حتىٰ بالسيف حتىٰ يعود مرة أخرىٰ لقتالهم فلا يتتابع انسحاب المسلمين.

كان خالد يريد امتصاص صدمة فرسان الروم وإضعافها بمقاومة الفرسان المسلمين وتيسير انفصال فرسان الروم عن بقية الجيش وهو من المشاة.. وبالفعل تحقق الواقع كما أراد خالد، فاندفع فرسان الروم يهاجمون الميمنة والميسرة، واستطاعت صدمتهم الشديدة أن تضغط علىٰ جيش المسلمين حتىٰ تقهقرت وضعفت الميمنة والميسرة واستطاع بعض فرسان الروم أن ينفذ من جيش المسلمين إلىٰ أن وصل إلىٰ معسكر النساء، ومع قوة الصدمة انهارت بعض قطاعات الميمنة والميسرة فانسحب منهما المسلمون، وهنا جاء دور النساء اللاتي صرن يقذفن المتراجعين ويواجهن من استطاع النفاذ إليهن من فرسان الروم بالحجارة والخناجر وعواميد الخيام.. وكانت لحظات عصيبة ظهرت فيها بطولات وبسالات شديدة في الصمود والثبات.

كل هذا وسلاح الفرسان لم يتحرك بعد.. لقد انتظر خالد حتىٰ يتحقق من انفصال الفرسان عن المشاة، ومن تعثر صدمة الفرسان بثبات المسلمين، وهنا

تدخل سلاح الفرسان وانطلق قسم بقيادة خالد وقسم بقيادة قيس بن هبيرة، فنفذوا هجوما مفاجئا علىٰ فرسان الروم الذين اضطرب أمرهم لظهور قوات أخرىٰ من الجيش لم يتنبهوا لها، فتخلخل هجومهم ونظامهم وزادوا تعثرا، ثم سمح لهم خالد بالنفاذ والخروج من المعركة، فانطلقوا في ظل هذه الصدمة النفسية يهربون من ذلك المنفذ الذي يقع خلف معسكر المسلمين.

ثم عاد خالد ليهاجم جيش الروم (المشاة) بعد فراغه من فرسانهم، وعندئذ تحققت الصدمة التي كان ينتظرها خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، إذ صار المشهد عند الروم أن فرسانهم قد انطلقوا فخاضوا المعركة ثم لم يرجعوا، وإذا بهم يفاجؤون بهجوم فرسان المسلمين عليهم.. فوقع فيهم الاضطراب والارتباك، وصاروا يتراجعون إلىٰ الخلف، وزاد الطين بلة أنهم لا مهرب لهم إلىٰ الخلف، بل إن ثمة جنود لا يستطيعون انسحابا طبيعيا لأنهم مترابطين بالسلاسل.. فصارت فرسان المسلمين ثم مشاتهم تضغط علىٰ جيش الروم الذي لا يجد إلا الرجوع أكثر مما يزيد في اضطرابه وارتباكه، وكان الزمن في تلك اللحظة قد صار بعد العصر، وكان اليوم ضبابيا.. فانهار جيش الروم بوقوعه في الواقوصة، المرتفع الذي ينحدر إلىٰ النهر.

وبهذه الصدمة النفسية، انتصر المسلمون في أعظم معارك فتوح الشام وفي واحدة من أعظم معارك كل تاريخ الإسلام.

الخلاصة:

لا تتقدم الأمم إلا علىٰ أكتاف الأبطال ذوي البسالة والتضحية، وما من أمة نهضت إلا وكان جيل تأسيسها من الأبطال الأشداء الذين بذلوا تضحيات هائلة مهدت الأرض لقيام دولتهم وحضارتهم.

إلا أن البطولة لا تنحصر فقط في القتال، بل لا بد لها من أبطال آخرين في ساحة السياسة والتفاوض والسفارة وعرض الأفكار، أي لا بد أن يكون جهازها

الإعلامي والدبلوماسي علىٰ نفس القدر من الكفاءة والإجادة.. وصحيح أن قوة السياسي تكمن فيما يسنده من المقاتلين البواسل، ولكن الصحيح أيضا أن السياسي يستطيع بذكائه وعقله أن يحقق ما تعجز عنه السيوف وأن يمهد لانتصارها النفوس.

ومما لا ينتبه له كثيرا في شأن الحروب والمفاوضات أمر الحرب النفسية، وهي مسألة في غاية الأهمية ونغفل عنها كثيرا، وقد صارت الحرب النفسية الآن علما كبيرا وله نظرياته وفروعه ومؤلفاته، ولا بد للمجاهدين من قراءة هذه الكتب واستيعاب هذه النظريات واستعمال هذه الأساليب.. فرب خطة حكيمة أنهت معركة فاصلة فارقة.



ابتكارات واجتهادات فارقة

مما لا يأخذ حظه كثيرا في العرض التاريخي للفتوحات الإسلامية أمر ابتكارات المجاهدين واختراعاتهم في ميدان الحرب والقتال، مع أنه من أهم الأمور التي ينبغي التعرض لها والتركيز عليها والاهتمام بها، فإن ابتكارا واحدا ربما غيَّر مصير المعركة، وربما كان مصير تلك المعركة هو ما تتحدد به مصائر الأمم والشعوب وخرائط الجغرافيا والتاريخ، فالمعارك هي السطر الأول والأخير في صفحة تاريخ كل أمة، فليس من أمة إلا وبدأت بحرب تأسيس أو تحرر أو استقلال، وليس من أمة إلا وختمت صفحتها بحرب سقوط وانهيار.

١- مواجهة الفيلة في القادسية:

كان من أعظم المحن التي أتعبت المسلمين في فتوح فارس أن الفرس يقاتلون على الفيلة، ولم تكن خيول العرب قد شاهدت الفيلة من قبل، فكانت تنفر منها، وسلاح الفرسان هو السلاح الضارب في جيوش تلك الأيام، فكانت الخيل ترى تلك الكائنات الغريبة الضخمة الثقيلة فتنفر، فيتعطل سلاح الفرسان بجيش المسلمين، ولم يكن للمسلمين فيلة بالمقابل، ولا كانوا يعرفون كيف يعطلونها، فصار الأمر يمثل خللًا خطيرًا في حسابات المواجهة، فابتكرت عقولهم أربعة وسائل مبتكرة:

أولًا: هجوم نوعي:

كان يُربط إلى الفيل تابوتان على جانبيه، يُحمل فيهما المقاتلون، وهما مرتبطان معا عبر ظهر الفيل، فحين يهجم الفيل على الجيش تَنْفِر منه الخيل والمشاة وترتبك الصفوف فيستطيع المقاتلون على جانبي الفيل استغلال حالة

الارتباك هذه ليطعنوا بالرماح تلك الجموع المتفرقة المختلة فتكون الخسارة مضاعفة: اختلال الصفوف، وخسائر في المقاتلين، ثم يأتي من خلفهم المشاة فيحصدون هذا الوضع بمزيد من إيقاع القتلىٰ والجرحىٰ.

تفتقت عقول المجاهدين عن خطة مضادة، هجوم نوعي من فرق خاصة تهاجم الفيل من الخلف ومن الأجناب فتكون مهمتها قطع الأحزمة التي تربط التابوتين عبر ظهر الفيل، فتسقط التوابيت بمن فيها من المقاتلين، فما إن يحدث حتىٰ يهجم حملة الرماح علىٰ الفيلة بالطعن من بعيد بعد أن صاروا بلا مقاتلين، فيوجهونه برماحهم بعيدا عن المسلمين.

أدت هذه العمليات لاختفاء الفيلة طوال اليوم الثاني من معركة القادسية الفاصلة، فلقد قضىٰ الفرس يومهم في إصلاح التوابيت، ثم دعم الفرس المقاتلين علىٰ الفيلة بمقاتلين إضافيين للحراسة كي لا يتكرر الهجوم النوعي السابق، لكن الأمر جاء علىٰ عكس إرادتهم، فقد عطلت القوات الإضافية مساحة حركة الفيلة ومناوراتها، ثم إن الفيل صار يستأنس بكثرة ما حوله وهو ما خفَّ من توحشه وشراسته، ثم إن مقاتلي الفيلة صاروا متوجسين يهتمون بالدفاع أكثر من الهجوم. فساهم جميع ما سبق في خفض عمل الفيلة.

ثانيًا: برقعة الإبل:

وتلك من بنات أفكار القعقاع بن عمرو التميمي، فقد فكر في أن يصنع بسلاح الفرسان الفارسي كما فعلوا بالمسلمين، فعَمِدَ إلىٰ إلباس عدد من الإبل براقع كبيرة تجعل منظرها جديدًا، كأنما حيوان جديد دخل المعركة، ووضع حول كل إبل مبرقعة جنودًا تحميه وتصحبه في الهجوم، فنفرت خيل الفُرْس من الإبل المبرقعة ووقع لهم مثلما وقع في اللحظات الأولىٰ لخيل المسلمين. وبهذا حُرِم الفرس من سلاح الفرسان أمدًا.

ثالثًا: فيل من الطين:

وهذا ابتكار لجندي من المسلمين لم نعرف اسمه، وذلك أنه لما وجد خيل المسلمين تنفر من الفيلة قضىٰ ليلته في بناء فيل من الطين، وصار يقرب فرسه منه حتىٰ قضىٰ الفرس معه طوال الليل فأنس به فلم يعد ينفر منه، فلما أصبح يوم القتال امتطىٰ الرجل صهوة جواده وأقبل علىٰ الفيل فلم ينفر منه، فكان هذا مما حَثَّ خيول المسلمين علىٰ الثبات للفيلة، ونادىٰ به الناس: إنه قاتلك (أي الفيل)، فقال لهم: لا ضير أن أُقتل ويُفتح للمسلمين.

رابعًا: دور المعلومات:

وهو أخطر الأدوار، وقد قامت به القيادة الإسلامية، حيث نشط المسلمون في جمع المعلومات عن الفيلة ومقاتلها ممن أسلم من الفرس أو من العراب الموالين لهم، فظفروا بمعلومات ثمينة أهمها: أن الفيلة لا نفع منها إذا فقدت عيونها أو أشفارها. كما اكتشفوا أن فيلين فقط هما بمثابة القيادة التي تتبعها بقية الفيلة: الفيل الأبيض والفيل الأجرب.

أرسل سعد بن أبي وقاص بالمعلومات إلىٰ بني تميم (بقيادة: القعقاع بن عمرو التميمي وأخيه عاصم) ليتولوا أمر الفيل الأبيض، وأرسل إلىٰ حمال بن مالك (أمير المشاة) والربيل بن عمرو وهما في مقدمة بني أسد أن يتوليا أمر الفيل الأجرب.

انطلق القعقاع وعاصم في فرقة مهمتها تشتيت قوات الحماية حول الفيل، ثم وضعا رمحيهما في وقت واحد في عيني الفيل، فرفع الفيل خرطومه فاستبقه القعقاع بسيفه فقطعه، فسقط علىٰ الأرض أعمىٰ فقتل عددا من مقاتليه، وأربك الجهة التي حوله فتسابقت إليهم كتيبة بني تميم.

وانطلق حمال بن مالك والربيل بن عمرو واستطاعا ضرب خرطوم الفيل وطعن عين واحدة منه، وأصيب الربيل بضربة حطمت أنفه من سائس الفيل

إلا أنه أفلت منها، غير أن النتائج التي حققاها كانت أفضل، إذ أن الفيل الأعور عرف طريق هروبه من المسلمين فانطلق إلىٰ الخلف يدوس صفوف الفرس ويخترقها فأطاعته بقية الفيلة التي هرعت وراءه حتىٰ خرجت من المعركة وأهلكت من كان في توابيتها. بينما ظل الفيل الذي عمي تماما والذي ضربه القعقاع وعمرو لا يعرف أين يذهب فصار مترددا بين الصفين، إذا قدم علىٰ المسلمين نخسوه بالرماح وإذا قدم علىٰ الفرس نخسوه بالرماح ولا يدري كيف يتحرك[(١)].

٢- عبور صحراء السماوة:

أراد أبو بكر الصديق أن يدعم الفتوحات علىٰ جبهة الروم فأرسل إلىٰ خالد بن الوليد (قائد جبهة الفتح في فارس) أن يصطحب نصف الجيش وينطلق إلىٰ الشام، ومع دقة الموقف في الشام قرر خالد أن يعبر إليها من طريق سريع يوفر الوقت ويُدخله إلىٰ عمق الشام، ولم يكن أمامه إلا عبور صحراء السماوة القاحلة بين العراق والشام، فلو سلك طريق الجنوب طال عليه الوقت وربما فاتته الفرصة، ولو سلك طريق الشمال لتعرض لمواجهات مع روم وأعراب في مناطق لم تفتح بعد. فكان قراره الخطير ومغامرته الجريئة بعبور صحراء السماوة، فكيف فعل في طريق خالية من الماء والطعام تماما لخمسة أيام؟!

قرر خالد أن يتزودوا من الماء لخمسة أيام، وأمر لكل صاحب خيل بقدر ما يسقيها، ثم أمر بتعطيش الإبل وحبسها عن الماء حتىٰ كان آخر يوم قبل

---

(١) أحسن ما رأيته في تحقيق شأن الفتوح كتب المؤرخ العسكري أحمد عادل كمال، فقد اجتهد في جمع وتحقيق المرويات حتىٰ أخرجها صورة واضحة للمعارك الإسلامية، ولهذا أفضل في شأن المعارك العزو إلىٰ كتبه لا إلىٰ المصادر القديمة، وفيما نقلناه هنا من شأن القادسية، ينظر كتابه: **القادسية**، ط٩ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٩م)، ص١٢٢ وما بعدها.

إلا أن وقعة صناعة فارس فيلا من الطين نقلناها من: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م)، ٢/ ٣٦٣.

الرحيل فأطلق الإبل للماء فروت حتىٰ امتلأت أسنمتها، ثم ربطوا أفواهها، فجعلوها كأنها مخزنهم للطعام، فإن احتاجوا ذبحوا الإبل فأكلوا منها ومزجوا ما في كروشها من الماء بالألبان في ضروعها، فكان هو طعامهم وطعام خيولهم.

وفي خمسة أيام قطع الجيش المسلم الصحراء فصار في عمق الشام قريبا من دمشق، فتحققت المفاجأة الحربية للطرفين: المسلمين فارتفعت معنوياتهم والروم فازداد اندهاشهم، ومن هناك تولىٰ خالد قيادة فتوح الشام وبدأ مآثره الخالدة[١].

٣- معركة ذات الصواري:

بدأ المسلمون ببناء أسطولهم في عهد عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما تحقق أن تأمين الفتوحات البرية لا يتم بغير أسطول يصد الهجمات البحرية للأسطول البيزنطي العتيد علىٰ ساحل الشام، وأسرع المسلمون ببناء أسطول في مدن الشام ومصر، ثم خاضوا أول معاركهم البحرية مع أسطول الروم العريق (٣٤ هـ) عند ساحل أنطاليا.

وكانت معركة فاصلة مصيرية، فالمواجهة بين مائتي سفينة للمسلمين أمام ثمانمائة سفينة بيزنطية، وعلىٰ قيادة الروم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بن هرقل بنفسه، والنتيجة ستحدد لمن ستكون سيادة البحر المتوسط!

مع شدة حرج المعركة ونتائجها كان المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد ابتكروا فكرتهم الخطيرة: تحويل المعركة البحرية إلىٰ معركة برية حيث يستطيع فيها المجاهد المسلم تحقيق نتائج أفضل، لا نعرف بالضبط صاحب الفكرة، وحسبه أن الله يعرفه، والطريقة كالآتي:

تهبط مجموعات خاصة من المسلمين تحت الماء فتربط السفن بعضها

---

(١) انظر تفصيل القصة وتحديد المسار بدقة عند: أحمد عادل كمال، **الطريق إلىٰ المدائن**، ط٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦م)، ص٣٢١ وما بعدها.

ببعض، فهي حين تربط السفن الإسلامية ببعض فإنها تحولها كجزيرة فسيحة تمنع أسطول الروم من النفاذ بينها واختراقها وتطويقها، فإن تم لها ذلك، ربطت ما استطاعت من سفن الروم بسفن المسلمين، وبهذا تحولت السفن إلىٰ سطح بري أجبر به البيزنطيون علىٰ خوض معركة شبه برية فوق السفن.

وكان موقع المعركة بين خلجان وشبه جزر برية مما جعل فكرة ربط السفن تحصر حركة الأسطول البيزنطي، وهكذا استطاع المسلمون فرض أسلوبهم، واستطاعوا أن يحققوا نصرا مبهرا غير متوقع بالأسطول الإسلامي الوليد علىٰ الأسطول البيزنطي العريق، بل وتحققت أقوىٰ نتيجة حربية في تاريخ المعارك الإسلامية الرومية حتىٰ تلك اللحظة إذ أصيب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين ابن هرقل. واستطاع المسلمون إخراج الأسطول البيزنطي لفترة من شرق البحر المتوسط إذ اضطر الإمبراطور البيزنطي لنقل قاعدته البحرية لتكون في جزيرة صقلية[1].

الخلاصة:

لا تشكو الأمة من ندرة في أهل البسالة والتضحية والفداء، ولكن تشكو من ندرة من يستطيعون ردم وتضييق الفجوة العلمية بيننا وبين عدونا، لا سيما وتلك الفجوة محروسة بالأنظمة المستبدة التي إن قُدِّمت لها اختراعات أو ابتكارات فأحسن ما يكون أن تهمله، وربما سجنت أو طردت صاحبه. إن الأمة تفتقر إلىٰ الوسائل التي تجعل تضحية الفدائيين ذات ثمن وأثر ونفع، بدلا من أن يذهبوا هكذا مجانا.

لا تزال مشكلة الطيران تمثل تحديا ضخما، فكأنها لأول وهلة كمشكلة

---

(١) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٥م)، ص٢١٧، ٢١٨؛ أرشيبالد ر. لويس، **القوىٰ البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة: أحمد محمد عيسىٰ، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ)، ص٩١، ٩٢.

الفيلة قديما، ولعل من سيبتكر وسيلة لمواجهته لا يقل أجرا عن أجداده الفاتحين الأوائل، ومثلها مشكلة الطائرات بلا طيار، وأنماط الاتصالات ونقل البيانات والتشفير، ومن ورائها تلك الصواريخ بعيدة المدىٰ التي تصيبنا من وراء البحار ومن قواعد بحرية، وقبل أيام جاءت أخبار باصطناع جنود آليين يعملون بتقنيات الذكاء الاصطناعي.. ولا يزال مسلسل التحديات طويلا، وهو ما سيحتاج مجهودا عسيرا وصبرا وجلدا كبيرا.

ولعل من فرص اليوم أن كثيرا من المجهود يمكن أن يجري بعيدا عن مواطن الخطر، فالحصول علىٰ المعلومات وتحليلها والبحث عنها يمكن أن يكون من أي مكان، بل ويمكن أن يشارك فيه أصحاب الأعذار ممن عفا الله عنهم من المشاركة بأنفسهم، فقد أوجب الله عليهم النصيحة لله ورسوله، فهم مكلفون بسائر ما يدعم الثائرين والمجاهدين، وبهذا يكتب لهم أجر الجهاد وهم في مأمنهم كما قال رسول الله عنهم «إن بالمدينة قوما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم شاركوكم في الأجر».

وأما أصحاب التخصص من المهندسين والكيميائيين والمبرمجين ونحوهم فهم أول المسؤولين الذين يتعين عليهم استعمال هذا العلم في إنقاذ هذه الأمة، فذلك دورهم الأكبر والأخطر، وهو بابهم الكبير بل لعله يكون الوحيد نحو الجنة في الآخرة وخلود الذكر الحسن في الدنيا.. ويا له من شرف أن يكتب المرء اسمه في نفس السجل الذي كتب فيه اسم خالد والقعقاع والفاتحين العظام.

مواجهة الخوارج

بعد معركة النهروان التي قاتل فيها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخوارج طلب من جنوده أن يبحثوا في الجثث عن رجل أسود مُخدَّج (أي بلا ذراع) تشبه يده أن تكون مثل الثدي ملتصقة بكتفه وفيها حلمة فيها شعيرات بيضاء؟

جاءه قومه فقالوا: لم نجد أحدا بهذا الوصف، فقال علي: اذهبوا فابحثوا فوالله ما كذبت ولا كُذِّبت. فذهبوا فعادوا فبحثوا فلم يجدوا، فقال: اذهبوا فوالله ما كذبت ولا كذبت، ثم مضىٰ معهم فإذا بكومة من القتلىٰ، فرفعوها فوجدوه أسفل منها، فكبَّر علي وكبَّر أصحابه، وكانت تلك علامة علىٰ أنهم علىٰ الحق في سائر المواقف لا في هذا القتال وحده، وعلىٰ أن هؤلاء القتلىٰ هم الفئة التي وعد النبي بالبشرىٰ من سيقتلونهم.

هذه هي نهاية القصة.. فكيف كانت بدايتها؟

بداية القصة:

يروي أبو سعيد الخدري أنه كان حاضرا يوما حين كان النبي يقسم قسما، فقال ذو الخويصرة رجل من بني تميم: يا رسول الله اعدل. قال: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل». فقال عمر: ائذن لي فلأضرب عنقه، قال ﷺ: «**لا إن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كمروق السهم من الرمية... يخرجون علىٰ حين فرقة من الناس آيتهم رجل إحدىٰ يديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر... هم من أشر الخلق، تقتلهم أدنىٰ الطائفتين إلىٰ الحق**».

قال أبو سعيد الخدري بعد هذا الحديث بثلاثين سنة تقريبا: أشهد لسمعته من النبي ﷺ، وأشهد أني كنت مع علي حين قاتلهم فالتمس في القتلىٰ فأتي به



علىٰ النعت الذي نعت النبي ﷺ.

هنا ظهر في المسلمين رجل يرتكب ذنبا غريبا، يرىٰ أن النبي -الذي يوحىٰ إليه ممن السماء- لا يعدل في القسمة، ثم يتجرأ أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر للنبي نفسه، فقد جمع بين قلة الفقه الذي يعصمه من الخطأ وبين الاندفاع والانفعال الذي يعصمه من التهور! وهو الأمر الذي انزعج له النبي، إذ كيف يُقال لمقياس العدل أن يعدل؟ كيف لمن يعلم الناس أن يعدلوا أن يُتَّهم بالظلم أو الجور؟.. ثم انزعج له الصحابة وانبرىٰ عمر يقول: دعنىٰ أضرب عنقه.

ثم ذكر النبي أن هذا أول شخصية في طائفة ستظهر فيما بعد حين يختلف المسلمون إلىٰ طائفتين، سيبدو أنهم من أشد العباد والقراء حتىٰ إن الصحابة ليحقرون صلاتهم إلىٰ صلاتهم وقراءتهم إلىٰ قراءتهم، إلا أن هذه الصورة خادعة، وحقيقتهم أن القرآن لا ينفذ إلىٰ قلوبهم ولا يؤثر فيهم، وأنهم سيقاتلون المسلمين فتقتلهم أقرب الطائفتين إلىٰ الحق.. وعندئذ سيكون بين القتلىٰ رجل بهذه العلامات فيكون هو الدليل والآية علىٰ صدق هذه الوقائع.

وصدق رسول الله، ولهذا كبَّر عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنصاره.

قصة الخروج:

لما وقعت الفتنة بين الصحابة كان الخلاف بين سيدنا علي وسيدنا معاوية حول أخذ القصاص من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان علي ومعه الحق يرىٰ أن السعي في تهدئة الفتنة وإقرار وضع الأمة يكون أولا ثم يؤخذ بالقصاص كي لا يتسبب القصاص في فتن أخرىٰ ومعارك أكبر. وكان معاوية ومن معه يرون أن التهدئة تضيع دم الخليفة المقتول وتزيد من تمكن أهل الفتنة الذين صاروا منتشرين في جيش علي، ويرون أن موقفهم هو الأصح لأنهم أنصار عثمان الذي شهد له حديث النبي بأن الحق في الفتنة ستكون مع عثمان. ونحن إذا تناولنا الأمر بالتفصيل سنجد أن الأمر كان حقا محيرا ومثيرا للجدل الطويل، كيف لا

وقد اختلفت فيه عقول الصحابة وهم أزكىٰ الناس وأطهر الناس وأتقىٰ الناس.

كانت مهمة إعادة الوحدة أولىٰ من مهمة إنفاذ القصاص، فوقعت معركة صفين بين جيش الشام بقيادة معاوية وجيش العراق بقيادة علي، وكان قتالا باسلا شديدا طويلا، يؤمن فيه كل طرف أنه علىٰ الحق، وصارت الحرب تحصد أبطال المسلمين الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا، وظهر للفريقين أن استمرار هذه الحرب يعني فناء الأبطال والفرسان وخلو بلاد المسلمين من الرجال فلربما عاد إليهم الفرس والروم من جديد.

عندئذ ظهرت فكرة التحكيم في جيش الشام، والتحكيم هو الدخول في التفاوض لكن بمرجعية شرعية، فرفعوا المصاحف علىٰ الرماح كعلامة لهذه الفكرة، فوجدت الفكرة قبولا كذلك في جيش العراق، وكانت حلا يعصم دماء المسلمين.

اتفق الجيشان علىٰ التحكيم، وأخرج كل طرف ممثليه ليتفقوا علىٰ شروط وضوابط التحكيم وموعده ومكانه.. وإذا بمفاجأة غير متوقعة تظهر في جيش علي: خرج قوم يعترضون علىٰ التحكيم ويعتبرونه كفرا بالله وإهدارا للدين وقبولا بتشريع البشر فوق تشريع الله!!

كانوا أربعة آلاف فقط من جيش يبلغ خمسين ألفا، إلا أنهم رفعوا شعار «لا حكم إلا لله»، اعتراضا علىٰ الذهاب إلىٰ التحكيم. وانشقوا عن جيش علي أثناء رجوعهم إلىٰ الكوفة ونزلوا قرية حروراء القريبة من الكوفة (ولهذا سُمُّوا بـ الحرورية أيضًا)، وبسرعة انتقلوا من التكفير إلىٰ تكوين جماعة ونظام واختاروا لهم أميرا يؤمهم في الصلاة وقائدا يقودهم في القتال، وبدءوا حركة دعائية واسعة فزادت أعدادهم إلىٰ ثمانية آلاف ثم إلىٰ بضعة عشر ألفا.

وهكذا في تطور سريع مدهش انتقلوا من الرفض إلىٰ التكفير إلىٰ الانشقاق إلىٰ الدعوة لمذهبهم وجماعتهم!!!

كان هذا التسارع دليلا علىٰ هذه النفسية الضيقة وهذه العقول العنيفة التي لا تتريث ولا تتفكر ولا تعطي الأمور حقها من النظر والعمل، وكانوا -كما وصفهم النبي- من كثرة العبادة والقراءة بحيث أن آراءهم التي تبدو واضحة قاطعة حماسية مع مظهرهم وعبادتهم يجذب لهم المزيد من الأتباع والمعجبين ممن هم أيضا علىٰ شاكلتهم من نقص النظر وقلة الفقه. لا يفكر أحدهم في أنهم يخرجون علىٰ الأمة جميعها، وأنهم يرمون بالتكفير رجلا كعلي وهو من هو علما وفقها وسابقة وجهادا وقربا من النبي ﷺ، ومعه من الصحابة العلماء والفقهاء والعارفون بكتاب الله.

إن الغلو في حقيقته موقف نفسي وعقلي ضيق.

عندئذ أرسل إليهم علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس ليناظرهم ويناقشهم بالعلم والحجة والدليل.

المناظرة البديعة:

لبس ابن عباس أحسن ثيابه، ثم حضر إليهم فكان من أول ما قاله لهم أن عظَّم له علم الصحابة وفقههم، إذ ليس فيهم من الصحابة أحد، قال:

قد أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، من عند ابن عم النبي ﷺ وصهره وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون.

فتصدىٰ له نفر منهم فقال ابن عباس: هاتوا ما نقمتم علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وابن عمه.

قالوا: ثلاث؛ أما إحداهن: فإنه حكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] ما شأن الرجال والحكم؟، وأما الثانية: فإنه قاتل ولم يَسب ولم يغنم، فإن كانوا كفارًا لقد حَلَّ سبيهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ سبيهم ولا قتلهم، وأما الثالثة فإنه محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

ونحن نرىٰ في هذه الأسباب هذا الضيق النفسي والعقلي، فهم لا يفرقون بين القتال الذي يقع بين المسلمين وبين قتال الكافرين، بل طالما كان قتال فلا بد من سبي وإلا فلا قتال. ثم إنه إن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين!.. وهذه إلزامات لا تلزم وهي معبرة عن عقلية سطحية لا ترىٰ الأمر إلا بزاوية ضيقة.

وقد تصدىٰ لابن عباس لهذا الفهم السطحي بعقلية الفقيه الذي يعرف الفوارق والمراتب، وبروح الداعية الشفوق الذي يُحسن اختيار المداخل إلىٰ عقول الناس وقلوبهم، قال ابن عباس:

أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسنة نبيه ﷺ ما يرد قولكم أترجعون؟

قالوا: نعم.

قال: أما قولكم: حَكَّم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم من كتاب الله أن قد صَيَّر الله حكمه إلىٰ الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالىٰ أن يحكموا فيه، أرأيتم قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة:٩٥]، وكان من حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟

قالوا: بلىٰ، بل هذا أفضل.

قال: وفي المرأة وزوجها ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء:٣٥]، فنشدتكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة، أخرجتم من هذه؟

قالوا: نعم.

قال: وأما قولكم: قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة، تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نستحل

من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]، فأنتم بين ضلالتين فأتوا منها بمخرج، أفخرجتم من هذه؟

قالوا: نعم.

قال: وأما محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن نبي الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «**اكتب يا علي ما صالح عليه محمد رسول الله**»، قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: «**امح يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امح يا علي واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله**»، والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة، أخرجتم من هذه؟

قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان فيهم اثنان من زعمائهم، ثم بقي أكثرهم علىٰ ضلالتهم.

وقد استمرت محاولات المناظرة مع عدد من الصحابة والتابعين، ومنها محاولة قام بها علي نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معهم، وفي نهايتها أعلن علي فيهم حقوق المعارضة فقال لهم: «لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتىٰ تقاتلونا».

وكان بعضهم يعود مع المناظرات فظلوا ينقصون حتىٰ وصلوا إلىٰ أربعة آلاف هم بقيتهم الذين بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي أميرا عليهم وانحازوا إلىٰ قرية حروراء، وبدأ الأمر يتفاقم ويخرج عن حده.

توابع التكفير:

إذن أقرَّ لهم علي أن يحتفظوا بأفكارهم حتىٰ وإن كان منها تكفيره هو، وأعلن فيهم أنه لا يمنعهم من الصلاة مع المسلمين ولا من الجهاد معهم، وهم إن جاهدوا فلهم نصيبهم في الغنائم، وأنهم آمنون علىٰ أنفسهم ما لم يفسدوا في

الأرض أو يقاتلوا المسلمين.

ومع أن التحكيم لم ينجح، وبدأ علي من جديد في تجهيز جيش لقتال معاوية في الشام، إلا أنهم لم يعودوا إلىٰ جيش علي، بل ظلوا علىٰ انفصالهم وشقاقهم وتكفيرهم لعلي ومن معه، وكان المتوقع منهم أن يعودوا إذا انتهىٰ سبب الشقاق، وعادت الأمور إلىٰ ما كانوا يرغبونه أولا من قتال أهل الشام، إلا أن مبدأ التكفير قد رسخ فيهم، وتطور إلىٰ مرحلة جديدة وهي امتحان المسلمين وقتالهم.

وبينما يجهز علي جيشه إذا بالخوارج يمسكون بعبد الله بن خباب بن الأرت وزوجته -وكانت حبلىٰ في شهرها التاسع- فسألوهما عن الحكم في علي، فرفضا أن يكفراه فقتلوهما وقتلوا الجنين كذلك، ثم صاروا إلىٰ قتل آخرين إذا لم يوافقوهم علىٰ القول بكفر علي. فصاروا يستبيحون أموال وأعراض من يخالفهم، وصارت مناطق نفوذهم غير آمنة.

عندئذ أرسل إليهم علي يطالبهم بإخراج أولئك القتلة، فامتنعوا وقالوا: كلنا قتلناه، وبذلك اشتركوا جميعا في الجريمة، وعلم عليٌّ أن هؤلاء هم المذكورون في حديث النبي ﷺ بقوله: «**يقتلون أهل الإيمان ويتركون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**».

فتحولت وجهة جيش علي إلىٰ الخوارج في العراق، فما كان له أن يتوجه إلىٰ الشام وهؤلاء يفسدون في العراق ويقتلون المسلمين، ونشبت معركة لم تستمر طويلا قضىٰ فيها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ الخوارج وشتتهم حتىٰ قيل لم ينجُ منهم إلا عشرات استطاعوا الهرب والتفرق. وفي هذه المعركة وجد علي آية الخوارج: هذا الأسود المخدج صاحب الثدية.

إنصاف علي مع الخوارج:

عامل علي الخوارج معاملة المسلمين البغاة، ولم يكفرهم، وأجرىٰ عليهم أحكام البغاة في القتال: ألا يتعقب مدبرهم ولا يُجهز علىٰ جريحهم ولا يُسبىٰ

منهم ولا تُغنم أموالهم (إلا السلاح وأدوات القتال)، وأن يطلق أسيرهم مع أخذ القسم منه والعهد عليه ألا يعود للقتال.

وقد سُئل عنهم: أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا. فقيل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا. قيل: فمن هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلناهم. وفي رواية: قوم بغوا علينا فنصرنا عليهم. وفي رواية: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا.

وكانت نصيحته للأمة في التعامل معهم أنهم «إن خالفوا إمامًا عادلًا فقاتلوهم، وإن خالفوا إماما جائرًا فلا تقاتلوهم فإن لهم مقالًا».

وبمثل هذا ضرب علي مثال الحاكم الصالح كيف يتعامل مع المعارضة المسلحة التي تنطق بتكفيره.

الخلاصة:

الغلو موقف نفسي عقلي يعبر عن ضيق وقلة فهم، ومن المؤسف أن جنايته ونكايته تكون في أهل الإيمان أكثر منها بكثير في أهل الكفر والضلالة، فهم أكثر يقظة واهتماما «بنقاء المنهج» فيسارعون إلىٰ التكفير مع نسيان السابقة في العلم والفقه والجهاد والمكانة، فيقاتلون من يخالفهم في مسائل الفروع ويبغضونهم كما يبغضون أهل الكفر.

وهو منهج انشقاقي انشطاري، فالاهتمام الدائم بنقاء المنهج يؤول إلىٰ انقسامات وانشطارات بين الخوارج أنفسهم، إذ تظل فكرة «نقاء المنهج» مع الضيق النفسي والعقلي تثير بينهم الأزمات والانقسامات حتىٰ يأكل بعضهم بعضا.

ومع هذا فهم من المسلمين ولا يُقاتلون إلا حين يصدر عنهم الفساد في الأرض، ويعاملون معاملة البغاة لا معاملة الكفار في القتال.. وذلك أعظم العدل مع المعارضين، وهو عدل وإنصاف لا نراه في أي نظام معاصر.

مواجهة التشيع

ذكرنا قبل قليل فتنة الغلو من جهة التحقير، وأولئك هم الخوارج، وبقي أن نتناول فتنة الغلو من جهة التقديس..

كان انحراف الخوارج هو اجتراؤهم علىٰ أي أحد وكل أحد، بل إن أولهم من اجترأ علىٰ رسول الله نفسه يقول له: اعدل فإنك لم تعدل! ثم جاء أصحابه من بعده يكفرون من لم يتبع رأيهم ويقتلونهم ويقاتلونهم وأولئك هم المهاجرون والأنصار وعلىٰ رأسهم علي بن أبي طالب نفسه الذي هو ثمرة تربية النبي منذ كان صغيرا، وهو بطل الإسلام وفارسه وفقيهه الكبير الذي كان مقدما في عهد النبي وفي عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان.

أما الشيعة فعلىٰ العكس من هذا، أولئك قوم يقدسون الشخص فيرفعونه فوق مقامه، ويرون له من الحقوق ما لا يراه هو لنفسه، ويدعون له ما لا يدعيه هو لنفسه، وهم لأجل هذا يُخَطِّئون سائر الصحابة والخلفاء الراشدين لأنهم لم يروا لعلي ما رآه هؤلاء له، بل غلا بعضهم فجعل الخطأ منسوبا إلىٰ جبريل.. وهم في غلوهم هذا لم يختلفوا عن الخوارج في تخطئة الجيل الأول الفريد بل زادوا عليهم في أنهم تناولوا بالسب والشتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة حتىٰ صار هذا الجيل الفذ الكبير ليس فيه من الصالحين إلا من كان مع علي ووافقه في كل شيء، وأما من عارضوه في قليل أو كثير فقد رموه بالفسق أو بالكفر أو بالفحش.

وهكذا اتفق الخوارج والشيعة في تخطئتهم لعموم الأمة وكبارها وأفذاذها، واتفقوا في عدائهم للأمة قبل أن تتجه طاقة عدائهم وجهادهم لأعداء الأمة، واتفقوا في قتالهم للأمة أكثر من قتالهم للكافرين.. وكلا الطائفتين اتخذهم

أعداء الأمة سبيلا ومدخلا للإفساد بين المسلمين في القديم والحديث.

جذور الفساد:

تعودت الأمم القديمة علىٰ حكم الملوك، عائلة حاكمة تستعبد الناس، يتوارث أفرادها الملك والسلطان دون أن يتجرأ أحد من الرعية علىٰ قول: لا أو حتىٰ لماذا؟ ولكي يثبت الملوك سلطانهم فإنهم أشاعوا من الأفكار ما يجعل لهم نوعا من القداسة والعلو والتميز عن بقية الناس، فهم من نسل الآلهة، أو من أبناء الآلهة، أو من أنصاف الآلهة، أو علىٰ الأقل: تولوا السلطان بإرادة ورغبة الآلهة.

ودائما ما كان حول الملوك كهنة وأحبار ورهبان، أولئك الذين ينطقون باسم الآلهة، وإليهم يكون التوجيه الروحي والمعنوي للناس، فهم يثبتون أفكار الملوك ويدعمونها، ويمنعون الرعية من الشكوىٰ والاعتراض، ويخدرونهم بإرادة الآلهة وحكمتها التي جعلت هؤلاء ملوكا وجعلت هؤلاء عبيدا، فأولئك الكهنة يأخذون من الملوك مساحة من النفوذ ليعطونه الجماهير المخدرة، ولذلك قال ماركس تعليقا علىٰ هذه الأوضاع «الدين أفيون الشعوب».

هذه الأفكار التي رسخت في شعوب الإمبراطوريات قبل الإسلام بقيت آثارها لدىٰ بعضهم، حيث اعتبروا أن أولىٰ الناس بالحكم بعد النبي ﷺ هو أقربهم إليه نسبا، وهو علي بن أبي طالب، لا سيما وأن نسل النبي الباقي إنما هم حفيداه الذيْن هما أبناء علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فاتحد نسل النبي مع نسل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحظيت شخصيته بـ «قداسة» ليست لأحد من الصحابة عند من لا زالت فيه هذه القناعات الجاهلية.

وقد كان من آثار الجاهلية العربية أن القبائل يعلو بعضها بعضا ويتفاضل بعضها علىٰ بعض، وكان النبي ﷺ -كسنة الله في النبيين، يبعثون في أشراف أقوامهم- في الصميم من أشرف النسب العربي، من بني هاشم، سادة قريش

ومكة، والذين هم أصحاب الشرف والسيادة بين العرب جميعا. لكن النبي بعث بدين يساوي بين الناس جميعا ويجعل التفاضل في التقوىٰ والعمل الصالح، ولا يفرق بين عربي وعجمي أو بين أسود وأحمر من الناس.

صحيح كان لا بد من مراعاة أحوال الناس، ولذلك تنازل الأنصار للمهاجرين عن الإمامة لمعرفتهم أن العرب لا يخضعون إلا لواحد من قريش، لكن بعض الذين أسلموا حديثا كان لا يزال الأمر غريبا عليهم، واستغربوا أن يصير أمر الزعامة إلىٰ أبي بكر وهو من قبيلة تيم وهم من أضعف قبائل قريش، فيتزعم علىٰ بني هاشم وبني أمية وبني مخزوم، وذهب بعض أولئك إلىٰ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليحرضوه علىٰ أبي بكر فأبىٰ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد كان يعرف أنها نبوة وليست ملكا.. ولم ينازع أبا بكر في الخلافة وكان من رجال مشورته، ثم كان من رجال مشورة عمر، ثم كان المرشح الثاني للخلافة فكان من رجال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.. وفي عصر عثمان أطلت الفتنة.

التشيع أول فتنة في الإسلام:

ظهر في عصر عثمان رجل يهودي من أهل اليمن اسمه عبد الله بن سبأ، فبذر بذرة التشيع، فصار يرفع من شأن علي ويقدسه لا حبا في علي ولكن كمدخل إلىٰ الطعن في عثمان والتحريض عليه، فأخذ يعتمد علىٰ ما هو مشهور من فضائل علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثم يضيف إليها إضافات من عنده، فيقول: عجبا ممن يزعم أن عيسىٰ يرجع ولا يرىٰ أن محمدا يرجع ومحمد خير من عيسىٰ، ويتلو قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] ويزعم أن معناها الرجوع إلىٰ الدنيا (بينما الآية تدل علىٰ فتح مكة ونزلت علىٰ النبي في لحظة الهجرة). ثم يقول: إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال لهم بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب علىٰ وصي رسول الله وتناول أمر الأمة (أي:

الخلافة)، ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق!

وهكذا بدأ عبد الله بن سبأ تنظيمه السري لبث الفتنة بين المسلمين بهذه الفكرة التي تقدس عليا وترفعه علىٰ بقية الصحابة وتنشر أن الخلافة قد اغتصبت منه.

حاول عبد الله بن سبأ أن يكون مركز دعايته في الحجاز أو العراق أو الشام، فكانت أصعب المناطق عليه الشام، ثم استطاع أن يجد له أرضا خصبة بمصر، فكان فيها مركز حركته التي كان لها فرعان آخران في البصرة والكوفة.. ولم يكن مهتما أن يجمع حول فكرته بقدر ما انصب همه علىٰ الطعن علىٰ الخليفة وإثارة الأمر عليه، فمن هنا ابتدأت الفتنة التي كانت في عصر عثمان، ظاهرها أن هؤلاء قوم حريصون علىٰ الدين ولهم مآخذ شرعية علىٰ سياسة عثمان، لكن القلب الذي يحركها والذي بذر بذرتها كان يتشيع لعلي وينشر فكرة تقديسه.

ولما اشتعلت الفتنة وانتهت بقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أولئك السبئية في موقع الظل، لا يظهر أثرهم إلا في مواطن قليلة ولكنها فارقة، فيظهر تدبيرهم بعد اللحظة التي تكاد الفتنة فيها أن تنتهي:

فأولئك الذين تمردوا علىٰ عثمان وذهبوا إلىٰ المدينة من مصر والبصرة والكوفة استطاع عثمان ومعه عدد من الصحابة كعلي أن يصلوا معهم إلىٰ تفاهم واتفاق بالعودة، وبالفعل سار القوم إلىٰ بلادهم وبعد مراحل من السير وجد أهل مصر راكبًا يتعرض لهم فيقترب ويبتعد فأمسكوا به، فسألوه عن حاله المريب هذا، فقال لهم: أنا رسول أمير المؤمنين عثمان إلىٰ واليه علىٰ مصر، واستخرجوا منه رسالة من عثمان إلىٰ الوالي علىٰ مصر يأمره فيه بقتل وجلد قادة أولئك الخارجين. فقالوا: غدر عثمان، وعادوا من الطريق مرة أخرىٰ إلىٰ المدينة. وفوجئ أهل المدينة أن المتمردين من أهل مصر قد عادوا ثم عاد معهم أهل الكوفة والبصرة، ولذلك قال لهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟

قالوا: أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا.

فقال علي: فما بال أهل الكوفة وأهل البصرة قد عادوا؟

فقالوا: نحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعًا.

فقال لهم: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟! هذا والله أمر أبرم بالمدينة.

ومثلما زوروا هذه الرسالة علىٰ عثمان، زوروا رسائل أخرىٰ علىٰ لسان الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعائشة، تحرضهم علىٰ الخروج علىٰ عثمان.. وكانت هذه الرسائل من أعظم ما أثار الفتنة فيما بعد بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حتىٰ إن عائشة سُئلت بعد زمان الفتنة: أنها كتبت كتابا تحرض فيه علىٰ الخروج علىٰ عثمان، وقيل لها: «هذا عملك كتبت إِلَىٰ النَّاس تأمرينهم بالخروج عَلَيْهِ»، فقالت عائشة: «والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد فِي بياض حَتَّىٰ جلست مجلسي هَذَا».

وهذه الرسائل هي أصل وسبب وجود النصب، الذي هو ضد التشيع، فكما وُجِد من يغلو في آل البيت، وُجِد علىٰ الطرف الآخر من يناصبهم العداء (ولهذا سُمِّي النصب) إذ اعتنق هؤلاء أن عليا وأنصاره من آل البيت هم الذين كانوا وراء الفتنة وحرضوا علىٰ قتل عثمان بدليل هذه الرسائل المنسوبة لعلي، وما ظنوا أنه تهاون في الدفاع عن عثمان ثم تهاون في أخذ القصاص من قتلته.

كيف تعامل علي مع الغلو فيه؟

بينما الفتن تسير بين المسلمين وتشغلهم وتشغل نظر التاريخ كان الغلو في تقديس علي يترسخ في نفوس بعض الناس حتىٰ يصل إلىٰ حدود مريعة، وقد ظن هؤلاء الغالين أن عليا يرضىٰ بهذا، حتىٰ إن قوما منهم لما رأوه سجدوا له،



فقال: ما هذا؟ قالوا: أنت الله! وفي رواية أخرىٰ أنهم لما رأوه قالوا له: أنت! فقال: وما أنا؟ فقالوا له: الخالق الباري.

فعندئذ جمعهم عليٌّ فحبسهم واستتابهم لثلاثة أيام، فلما لم يرجعوا عن قوله حفر لهم أخدودا وأشعله نارا وأحرقهم فيها، وهو يقول بيت شعره المشهور:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا

وقنبر هو خادم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعرف هؤلاء القوم بالسبئية، وهم أول فرقة كافرة ظهرت في الإسلام، وهم أول من كفروا من الرافضة، ولما علم عبد الله بن عباس بهذه العقوبة استنكر أن يكون قتلهم حرقا لأنه سمع النبي يقول «لا يعذب بالنار إلا رب النار» وقال بأن الأمر لو كان إليه لقتلهم ردة ولكن بغير النار. ويختلف المؤرخون هل كان عبد الله بن سبأ ممن قتل حرقا بالنار في هذه الحادثة أم كان هاربا أو منفيا في المدائن.

وهنا يبدو واضحا تأثر هذا الغلو بجذور فكرية من النصرانية والمجوسية، حيث المسيح عند النصارىٰ إله وابن إله، كما أن أكاسرة الفرس عند الفرس أشباه آلهة.

واستطاعت أفكار ابن سبأ أن تتسرب إلىٰ عموم فكر الشيعة، ولا تزال تمثل أصول فكرتهم كالوصية لعلي، وأحقيته بالإمامة عن طريق النصّ، وقولهم برجعته بعد موته، وسب الصحابة وتكفير من خالف عليا، واختصاصهم بعلوم سرية خاصة لا يعرفها غيرهم. وقد سأل أبو جحيفة عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «قلت لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة. قلت وما في الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر».

أي أن هذا حديث كتبه عليّ أو انفرد بسماعه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أكثر.

وكان الغلو في علي قد وصل إلىٰ ثلاثة صور؛ فالصورة الأولىٰ هي أولئك

الذين زعموا أنه رب وإله، والصورة الثانية أولئك الذين صاروا يسبون أبا بكر وعمر، ولما بلغ أمره عليا طلبه ليقتله فهرب منه إلىٰ قرقيسيا (وهي مدينة فارسية)، والصورة الثالثة هي من يفضله علىٰ أبي بكر وعمر دون أن يسبهما، ففي أولئك قال علي: لا أوتىٰ بأحد يفضلني علىٰ أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفترين، وقال ابن تيمية: «وروىٰ عنه من أكثر من ثمانين وجهًا أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر».

الخلاصة:

نلاحظ أن عليا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عاقب من غلا فيه وقدَّسه بأكثر مما عاقب من كفَّره وخرج عنه، فالخوارج -كما رأينا في الحلقة الماضية- لم يمسهم بسوء لما اعتنقوه من فكر فاسد حتىٰ وإن كانوا يكفرونه إلا لما صاروا يقتلون المسلمين ويمتحنونهم فحينئذ خرج لهم بجيش يقاتلهم، ثم لما هزمهم عاملهم معاملة البغاة، أي المسلمين، ورفض أن يجعلهم من الكافرين أو المنافقين.

وأما من غلا فيه فقد استعمل معه أقصىٰ العقوبة، وعاملة معاملة المرتدين، فأحرق من زعم أنه إله، وحكم علىٰ من سب أبا بكر وعمر بالقتل، وتوعد بالجلد من يفضلهما عنه.

لقد كان علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يعلم أن خطر الغلو بالتشيع أخطر من خطر الغلو الخارجي، وأن الغلو في الأشخاص يعود بالأمة إلىٰ الوثنية والجاهلية القديمة التي يقدس فيها البشر بعضهم بعضا.

وعلىٰ مدار التاريخ كان علماء أهل السنة يفتون بقتال الشيعة ولو تحت راية الخوارج، وأشهر ما وقع في هذا ما كان في قتال أبي يزيد الخارجي للعبيدين في القرن الرابع الهجري، وكانت دولتهم قد تأسست وأميرها القائم بأمر الله، وكان الفقيه أبو بكر المالكي يقول: «الخروج مع أبي يزيد، وقطع دولة بني عبيد فرض، لأن الخوارج من أهل القبلة، لا يزول عنهم الإسلام ويرثون ويورثون.

وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين، فلا يتوارثون معهم، ولا ينتسبون إليهم».

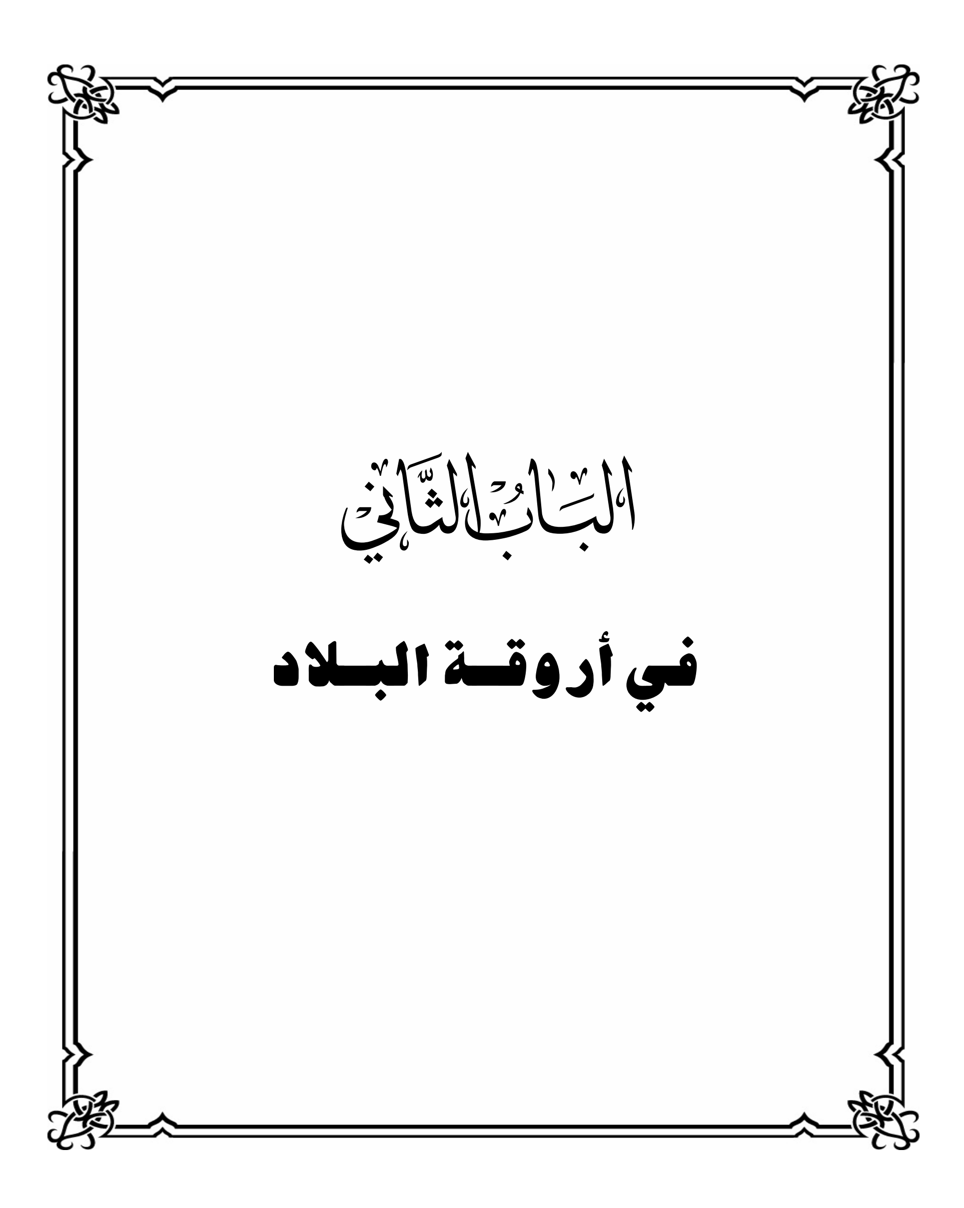
هذا مع أن أبي يزيد لما حقق نصره علىٰ العبيديين لم يفلت منه أهل السنة أيضا، بل عاملهم كالكفار فاستباح دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

إن الغلو كله شر، سواء ما كان منه تحقيرا أو تقديسا، والواقع أن الصورة التي يقدمها الخوارج أو الشيعة عن الصحابة إنما هي صورة تسيئ للنبي ﷺ، إذ أولئك الصحابة إنما غرس النبي وأول من استجاب له، وعليهم كان اعتماده، وبهم انتصر، وقد أخبر بفضلهم ومكانتهم وأجرهم الجزيل، فلئن كان هذا الغرس الشريف أغلبهم وأكثرهم علىٰ هذا النحو من الضلالة والضغائن والأحقاد والتنازع فإنما هذا يمس بمن رباهم وعلمهم وأدبهم معاذ الله.

ومن هنا كانت وراثة النبوة وتجديد الدين في تنقيته من هذا الغلو والتحريف كما قال نبينا ﷺ مبشرا أمته: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**».

ولذلك كان الخوارج والشيعة كليهما قلة في الأمة، ولم يكونوا كثرتها ولا عمومها.





البَابُ الثَّانِي

في أروقة البلاد

بين أروقة الماضي المفضية إلىٰ هموم الحاضر والمُسَلِّمة إلىٰ أحوال المستقبل، سارت بنا صفحات التاريخ تثير علىٰ أجواء الحاضر الغبار كما تثير الأريج، فيتفاعل الحاضر مع الماضي محاولا رسم المستقبل الجديد.

عدة أوراق في عدة مؤتمرات بعدة بلدان، جمعها الحديث عن البلدان، وضعتها هنا ضمن ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول**: جذور الأزمات في تركيا الحديثة.
- **الفصل الثاني**: الصين في التاريخ والأدب العربي الإسلامي.
- **الفصل الثالث**: نهاية سلطنة سنار الإسلامية.



الفصل الأول

جذور الأزمات في تركيا

مقدمة

ربما ليس ثمة دولة في العالم المعاصر تحمل من عبء التاريخ والجغرافيا مثلما تحمل تركيا المعاصرة؛ فمن جهة التاريخ تجرُّ تركيا خلفها تاريخا مديدا لإمبراطورية عثمانية كانت أقوىٰ الإمبراطوريات في عصرها الذهبي، ثم طرأ عليها تحول قاسٍ عنيف حملها إلىٰ الاتجاه المناقض وهو العلمنة والتغريب ومحاولة زرع نمط حضاري مناقض لهويتها وثقافتها. ومن جهة الجغرافيا فإن موقعها في قلب العالم عند التقاء الطرق والمضايق البحرية، ومن ثم: خطوط الإمدادات ونقل الطاقة، يجعلها مسرح المطامع والمطامح، وبقدر ما خدمتها الجغرافيا في لحظة القوة بقدر ما صارت عبئا عليها في لحظة الضعف. ثم إن حدودها الحالية التي بُنِيَت علىٰ غير اتفاق مع الطبيعة أو الثقافة أنشأ فيها أزمة إنسانية لما فيها من التنوع البشري العرقي والديني والمذهبي.

تحاول هذه الورقة البحثية تقديم صورة عامة موجزة عن جذور الأزمات في تركيا، والبحث في الجذور يعني محاولة النظر المتعمق إلىٰ الواقع بالفهم المتعمق للتاريخ والجغرافيا، وهو فهم يتجاوز التفاصيل والمتغيرات اليومية ليسلك إلىٰ فهم ورصد القدر الثابت والعميق في الأزمة التركية.

وبهذا يتحدد المجال المكاني موضع الدراسة، وهو تركيا المعاصرة بحدودها

المعروفة والمستقرة في خريطة السياسة الحالية، مع مدَّ النظر نحو الجغرافيا المحيطة طالما يؤثر هذا في شكل وتصور الأزمة التركية.

كذلك فإن الفترة التاريخية المدروسة في هذه الورقة تمتد منذ تأسيس الجمهورية التركية الكمالية وحتىٰ اللحظة التي تسلم فيها حزب العدالة والتنمية السلطة في ٢٠٠٢م، إذ لا تزال تجربة الحزب ماضية متفاعلة لم تنته بعد، ومن ثم لم تدخل أوراقها باب التاريخ كتجربة مكتملة، والهدف في هذه الورقة هو رصد جذور الأزمات. بمعنىٰ أنه يمكن وصفها بموجز للأوراق التي كانت موضوعة أمام حزب العدالة والتنمية لحظة تسلمه للسلطة.

ونحن ننظر في بحث جذور الأزمة إلىٰ محورين رئيسييْن، هما: التاريخ والجغرافيا، والجغرافيا كما هو معروف تنقسم إلىٰ: جغرافيا طبيعية وجغرافيا بشرية، فنحن في هذه الورقة ننظر في العوامل التاريخية التي شكَّلت الواقع المعاصر، والعوامل الجغرافية التي يتحرك فيها السياسي المعاصر ولا يملك منها فكاكا إذ الجغرافيا حقائق حتمية لا يمكن تغييرها. ولعله يتاح في أوراق قادمة تقديم موجز لجذور الأزمة التركية في محاور أخرىٰ كالاقتصاد والاجتماع والثقافة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أقدم الشكر للمعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية، ولمديره الأستاذ والصديق د. عصام عبد الشافي، علىٰ هذه الثقة للكتابة في هذا الملف الممتد والمعقد والحافل بالتفاصيل، وأسأل الله تعالىٰ أن أكون قد وفَّيْت المراد[1].

محمد إلهامي

اسطنبول ٥ مارس ٢٠١٧

---

(١) نشر هذا البحث ضمن سلسلة «جذور الأزمات الداخلية» التي أصدرها «المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية».

أزمة التاريخ في تركيا

دال الزمان علىٰ الدولة العلية، وصارت جيوشها المهيبة تتعرض للهزائم، وبدأت أطرافها تضعف ويقضمها الكفار من كل جانب، ومن بعد ما كان جيش الإنكشارية مفخرة الدولة العثمانية العلية صار عبئا عليها، واتجهت الأنظار والآمال إلىٰ فحص ذلك السر الذي قلب الحال، وكان أول ما انتهىٰ الرأي إليه أنه ينبغي التخلص من الإنكشارية وبناء جيش حديث علىٰ النمط الأوروبي الذي أثبت كفايته في الحروب، وبعد عدد من المحاولات الفاشلة تخلص السلطان محمود الثاني من الإنكشارية، وافتتحت المدارس العسكرية واستقدمت لها الخبرات الأوروبية من علوم ومدربين، وكان من بين الآثار العديدة لهذا التوجه ظهور طبقة عسكرية متغربة نبت فيها بعدئذ التنظيمات السرية التي نفذت في النهاية انقلابا علمانيا علىٰ السلطان عبد الحميد الثاني ثم علىٰ الخلافة كلها وأسست الدولة العلمانية في تركيا[(١)].

عصر أتاتورك:

أولًا: التغريب و«صناعة» تركيا:

اعتنق أتاتورك «القومية» كفكرة غربية رغم أنه لا وجود لها في الواقع التركي، فليس ثمة «هوية تركية» منفصلة ومحددة حينذاك، ولا كان هذا مطلبا شعبيا لكنه عمل علىٰ خلقها وإيجادها[(٢)] وذلك بقهر البشر الموجودين داخل

---

(١) كرم أوكتم، **تركيا**: **الأمة الغاضبة**، ترجمة: مصطفىٰ مجدي الجمال (القاهرة، سطور، ٢٠١٢م) ص٦٤، ٦٦؛ Şherif Mardin, **Religion and Secularism in turkey**, in Albert Hourani [et al.], **The Modern Middle East**, (Berkly and Los Angeles, University of California Press,1993), p. 351, 359-63, 367-8.

(٢) Şherif Mardin, **Religion and Secularism**, p363.

الحدود الجغرافية لـ «تركيا الحديثة» علىٰ قومية ولغة واحدة، فهي في الوقع عملية «خلق السلالات القومية»، فعُرِّف المواطن التركي بأنه (LAHSÜMÜT) وهي الحروف الأولىٰ من: (علماني، حنفي، سني، مسلم، تركي)، واعْتُبِر من لم يخضع لهذا التعريف عدوا، وترتب علىٰ هذا في الداخل أن سحقت كل معارضة -لا سيما إن صدرت عمن هم خارج «الهوية التركية» كالأكراد أو العلويين- بعنف وصل إلىٰ المذابح والتهجير. وترتب عليه في الخارج أن نفضت تركيا يدها من كل ميراث وعلاقات الدولة العثمانية مع البلقان أوبلاد العرب[(١)].

عند لحظة إعلان الجمهورية كان أتاتورك رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس حزب الشعب الجمهوري والقائد العام للجيش، وهكذا قامت «الكمالية علىٰ سياسات التحديث الملغومة التي لا تعرف الهوادة»[(٢)] ولا تفكر في تفاوض أو مشورة مع الشعب[(٣)]، والتي فاقت سطوة بطرس الأكبر بل كانت النموذج الأقسىٰ لمقولات ماركس وفيبر عن هدم وإزالة القديم[(٤)]؛ فأغلقت المدارس الدينية ليحل محلها تعليم رسمي علماني موحد (١٩٢٤)، ثم أغلقت تكايا وإخوانيات الصوفية ومُنِع ارتداء الطربوش (١٩٢٥)، وتغيرت العطلة الأسبوعية من الجمعة إلىٰ الأحد، وأُدْخِل التوقيت الأوروبي بدلا من التوقيت التركي المبني علىٰ الصلوات والتقويم الميلادي بدلا من الهجري، وفي أقوىٰ ضربة ثقافية حضارية حُظِر استخدام الحروف العربية واستبدل بها الحروف اللاتينية

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٩، ٧٠، ٧٢، ٧٩ وما بعدها.

(٢) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٨، Ira M. Lapidus, **A History of Islamic Societies**, (Cambridge: Cambridge University Press, 2014), p. 501-2.

(٣) Angel Rabasa and F. Stephen Larabee, **The rise of political Islam in Turkey**, (Santa Monica, RAND, 2008), p. 32.

(٤) إيان بوروما ومرجليت أفيشاي، **الاستغراب: موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب**، ترجمة: ثائر ديب (السعودية، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٨م)، ص١٢٤؛ Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam,** p. 33.

(١٩٢٨) مما أنشأ جيلا منقطع الصلة بماضيه وتراثه، واستبدلت القوانين العثمانية بالقانون الإيطالي، وأُلْغِيَ تعدد الزوجات والطلاق، وقُرِّر رُفع الأذان بالتركية بدلا من العربية في سابقة تاريخية (١٩٣٢م)[١]. لم تكن العلمانية التركية تعني فصل الدين عن الدولة بل إنتاج الدولة لدين يخدمها[٢].

ولذات الهدف أراد أتاتورك صناعة تاريخ جديد فعهد بالمعمة لابنته بالتبني عفت عنان التي كانت تلميذة في جنيف للمؤرخ الأنثروبولوجي يوجين بيتارد صاحب نظرية أن التاريخ هو صراع الأجناس العليا مع الأجناس الدنيا، فصدر عنها تاريخ عنصري يرىٰ الترك جنسا أعلىٰ من سائر الأجناس، وموجود من قديم الزمان في الأناضول، وله لغة عليا قديمة أَخَذَتْ منها سائر اللغات، وصارت المهمة تنقية اللغة مما دخلها من العربية والفارسية[٣].

أسفر عصر أتاتوريك عن تحويل تركيا من أرض عاصمة الخلافة الإسلامية التي تحرك الجيوش شرقًا وغربًا دفاعًا عن الدين إلىٰ «دولة قومية علمانية يتصادف فيها أن يكون الإسلام دين الأغلبية»[٤]، وصارت الدولة «الإسلامية» الوحيدة، التي يحمي دستورها العلمانية ويستبعد الإسلام تمامًا[٥]، وانقسمت

---

(١) Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 502-3; Binnaz Toprak, **The Religious Right**, in Albert Hourani [et al.], **The Modern Middle East,** p. 630-1.

(٢) Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 509; Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 33; Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 627, 633.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٧٦ وما بعدها؛ Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 33, Şherif Mardin, **Religion and Secularism**, p. 366.

(٤) Carl W. Ernest, **Following Muhammad: Rethinking Islam in the Contemporary World**, (Chapel hill & London, The University of North Carolina Press, 2003), p. 136.

(٥) Cemal Karakas, Turkey: **Islam and Laicism Between the Interests of State, Politics, and Society**, (Frankfurt, PRIF, Report No. 78, 2007), p. 1.

تركيا بين «نخبة مدنية متغربة وجماهير قروية ريفية متمسكة بالإسلام»[١]، فالجماهير تحلم بثورة إسلامية، ولكنها بالنسبة للنخبة «كقيام الساعة»[٢].

علىٰ أن كل ما حدث لم يؤد إلىٰ إصلاح حقيقي، بل خلق «طبقة من الحداثة والأعراف والمعمار الأوروبي، والتي عملت علىٰ طمس ما تحتها من فقر وتخلف والكثير من التوترات العرقية والدينية»[٣].

ثانيًا: المقاومة الإسلامية:

ظل الإسلام -بالرغم من كل قهر الدولة ومطارداتها- الهوية العميقة للأتراك، وقد جاهد الأتراك للدفاع عن هويتهم بقدر ما استطاعوا، فبالجهاد حينا، وبالسياسة أحيانا، وبالدعوة والتعليم في كل حين.

خلال العشرينات والثلاثينات اندلعت سلسلة ثورات لأتباع الطريقة النقشبندية وُوجهت جميعها بعنف لا رحمة فيه[٤]، وكان أبرزها حركة الشيخ سعيد بيران الكردي (فبراير ١٩٢٥م) في شرق تركيا بجيش «قوامه ١٥ ألف مقاتل استولىٰ علىٰ جزء كبير من ديار بكر والمحافظات المتاخمة لها... واستطاع الجيش احتواءها في مارس من ذات العام بالاستعانة بقصف جوي مكثف. وشُنِق الشيخ سعيد وأتباعه، وتم ترحيل الكثير من القبائل التي اشتركت في التمرد إلىٰ غرب الأناضول»[٥]، وكان أتباع الطريقة التيجانية يحطمون أو يلطخون تماثيل أتاتورك ويؤذنون بالعربية وبلغوا من الجرأة أنهم تظاهروا أمام المجلس الوطني[٦]!

---

(١) Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 535

(٢) Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 625.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٧٩، Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 503.

(٤) Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 627, 632-3.

(٥) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٨١، ٨٢.

(٦) Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 637.

وبرزت كثير من حركات المقاومة الدعوية والعلمية التي تقتصر علىٰ الوعظ والدعوة والتربية، وبرزت أسماء كبيرة كالشيخ عاطف الإسكليبي الذي أُعْدِم بسبب كتاب ينكر ارتداء القبعة تشبها بالغرب وقد صدر قبل قوانين الزي الأتاتوركية، والشيخ سليمان حلمي الذي تصدىٰ سرًّا لتعليم اللغة والحرف العربي بعد قانون كتابة التركية بالحرف اللاتيني[(١)]، وأشهر هؤلاء قاطبة كان الشيخ سعيد النورسي صاحب الرسائل الذائعة «رسائل النور» والذي تحول أتباعه إلىٰ تيار كبير معروف[(٢)].

عصر الانقلابات:

أولًا: التعددية السياسية:

مات أتاتورك (١٠ نوفمبر ١٩٣٨م) وخلفه رفيقه عصمت إينونو، إلا أنه اضطر إلىٰ تغييرات مؤثرة في طبيعة النظام وخطابه، من أهمها فتح باب التعددية الحزبية (١٩٤٦م) وهو ما يقتضيه موقع تركيا السياسي ضمن المعسكر الغربي «الليبرالي» في مواجهة المعسكر الشرقي «الشيوعي»[(٣)]، فدخلت تركيا ضمن خطة مارشال لإعادة بناء أوروبا بعد الحرب (١٩٤٨م) وانضمت للمجلس الأوروبي (١٩٤٩م) وحلف الناتو (١٩٥٢م) وحلف بغداد (١٩٥٦م) الذي قُصِد به محاصرة الاتحاد السوفيتي جنوبا، واتفاقية الشراكة (١٩٦٣م) التي تمهد لدخول السوق الأوروبية[(٤)].

أُجْرِيَتْ في عام (١٩٤٦م) أول انتخابات تركية، ثم أجريت انتخابات

---

(١) د. هدىٰ درويش، **الإسلاميون وتركيا العلمانية: نموذج الإمام سليمان حلمي**، (القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٨م) ص١٥٩ وما بعدها.

(٢) Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 508.

(٣) Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 505; Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 33.

(٤) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٨٥، ٨٦، ٩١.

(١٩٥٠م) وكانت أول انتخابات نزيهة، وفاز فيها حزب العدالة المحافظ بزعامة عدنان مندريس، وهو برلماني سابق بحزب الشعب الجمهوري، سوَّ نفسه إلىٰ الأتراك من طريقيْن: رفع سلطة الدولة عن الاقتصاد فكسب بهذا الطبقة الصناعية التي بدأت في البروز والتشكل، ورفع سلطتها عن الدين وإعادة رفع الآذان باللغة العربية. لم يكن التغيير كبيرا لكنه كان بداية توجه جديد، فأثيرت اضطرابات تزعمها اليسار وأجحتها الدولة العميقة ثم ختمتها بانقلاب عسكري (٢٧ مايو ١٩٦٠م) أَعْدَمَ أَوَّلَ رئيس وزراء منتخب في تاريخ البلاد (١٦ سبتمبر ١٩٦١م)[١]!

ثانيًا: الحرب الباردة:

افتتح عقد الستينات بعسكر قننوا وضعهم وسلطتهم علىٰ مساحة السياسة[٢] التي شهدت ظهور شخصية سليمان ديميريل -زعيم حزب العدالة- كنسخة مخففة من مندريس، إذ فاز في انتخابات (١٩٦٥م) التي جرت في وقت يشهد تصاعد قوة اليسار كجزء من نمو صوت اليسار عالميا لا سيما بعد الهزيمة الأمريكية في فيتنام، وفي تلك الأثناء ظهر أول حزب يساري في تركيا هو حزب العمال، وتنامت قوة الطلاب اليساريين، ونشبت صدامات بين اليسار وبين الإسلاميين والمؤيدين لحكومة ديميرل، وبرغم الوضع المضطرب استطاع حزب العدالة بزعامة ديميريل الفوز بانتخابات (١٩٦٩م)، لكن الاضطرابات استمرت واتخذها العسكر -المتهمون بإثارتها وتدبيرها من الخلف- ذريعة لتنفيذ انقلاب عسكري جديد (مارس ١٩٧١م)[٣].

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٨٨، ٩١؛ Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 505-6; Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 633.

(٢) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p.35-6; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 13.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٨٩، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٧.

وضع الانقلاب دستورا معاديا للحقوق والحريات، وشهد عقد السبعينات مزيدًا من التدهور والاضطراب السياسي، وذلك أن زعماء المشهد السياسي الأربعة كانوا من الاختلاف والتنافر بحيث استحال استقرار الأمر لأحدهم منفردا أو لبعضهم متحالفًا مع آخر، ظهر إلىٰ جوار سليمان ديميرل بولنت أجاويد علىٰ رأس حزب الشعب الجمهوري، وألب أرسلان توركيش علىٰ رأس حزب الحركة القومية، ونجم الدين أربكان علىٰ رأس حزب السلامة الإسلامي، وتشكل في هذا العقد أحد عشرة حكومة منها ما قضىٰ شهرا واحدا، وكان أطولها عمرا من قضىٰ ثلاث سنوات فحسب. ومن ثَمَّ كانت البيئة التركية أرضا خصبة لإثارة وإدارة اضطرابات جديدة تتصنع في محاضن الدولة العسكرية العميقة، لينتهي المشهد بانقلاب عسكري جديد في (١٩٨٠م)[١].

تولىٰ العسكر زمام الحكم لثلاث سنوات بائسة، وكعادتهم وضعوا دستورا جديدًا يقيد المزيد من الحريات ويقضي علىٰ المزيد من الحقوق، وابتكر الدستور عتبة ١٠٪ من الأصوات لدخول البرلمان منعا للأحزاب الكردية والإسلامية[٢]، إلا أن هذا الانقلاب انفرد عن سابقيه بأمرين؛ أولهما: أنه كان أكثر الانقلابات دموية، فقد بلغ ضحاياه أكثر من نصف مليون محبوس ومُعَذَّب، ووضع نحو مليونَيْن تحت الاشتباه الأمني، وأُعْدم خمسون من بين خمسمائة صدرت عليهم أحكام الإعدام، ومُنِع نحو أربعمائة ألف من السفر، ونُفِي ثلاثون ألف ناشط سياسي، وأُسْقِطت الجنسية عن أربعة عشر ألف تركي، وحُظِرت النقابات وكاد أن يُقْضَىٰ تماما علىٰ الروابط والجمعيات[٣]. وثانيهما: أن خطاب الانقلاب بدا متسامحًا ومُوَقِّرا للإسلام، وفُسِّر هذا بأنه من لوازم

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٩٩ وما بعدها؛ Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 506-7; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 16.

(٢) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 38.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٣؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 17.

مواجهة الشيوعية التي يقتضيها الموقع التركي ضمن المعسكر الغربي، ومن لوازم احتواء المدّ الإسلامي بأسلمة «تقودها الدولة من فوق»[١] وتعيد تكييف الإسلام لصالح الدولة[٢].

رتب العسكر لانتخابات جديدة (ديسمبر ١٩٨٣م) خاضها ثلاثة أحزاب منها اثنان تابعان للدولة العميقة والثالث لا يؤبه له فتُرك ليكون زخرفا ديمقراطيا، إلا أن المفاجأة تحققت، وفاز الحزب الثالث «الوطن الأم»-الديمقراطي المحافظ- بزعامة تورجت أوزال[٣]، وكان أوزال متدينا وعضوا في طريقة نقشبندية ووصف بأنه «أول رئيس تركي يخفي إيمانه ويختلس الصلاة في القصر الجمهوري بعيدًا عن العسكر»، كما حرص علىٰ صيام رمضان وحج البيت[٤].

كان زمن الانقلاب انعكاسا للأجواء والأوضاع الدولية من جهة ولسياسات وانحيازات الدولة العميقة من جهة أخرىٰ، فنستطيع أن نرىٰ ثلاث اتجاهات متناقضة اجتمعت في نفس الوقت؛ ففي السياسة يسود خطاب قومي عسكري تركي عنصري وتنتشر بكثافة تماثيل أتاتورك، وفي الاجتماع يُسمح بوجود أوسع للإسلام بعيدًا عن السياسة فتنتشر المساجد ومدارس الأئمة والخطباء،

---

(١) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 17-9.

(٢) William Hale and Ergun Özbudun, **Islamism, Democracy, and Liberalism in Turkey: the case of AKP**, (London and New York, Routledge,2010), p. xx.

(٣) Heinz Kramer, **A Changing Turkey: The Challenge to Europe and the United States**, (Washington D. C., Brooking Institution Press, 2000), p. 25; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 19.

(٤) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 20; M. Hakan Yavuz, and John L. Esposito, **Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement**, (New York, Syracuse university press, 2003) p. xxvi; Heinz Kramer, **A Changing Turkey**, p. 64.

وفي الاقتصاد يسود اتجاه ليبرالي صريح. وفوق كل هذا رئيس وزراء كردي هو أوزال وفوقه كنعان إيفرين قائد الانقلاب العسكري في موقع رئيس الجمهورية، واستطاع أوزال أن يكون نقطة التقاء المحافظين والقوميين وممثلهم أمام سطوة «الدولة العميقة»، ولا زال مؤيدوه في الواقع التركي كثر، وهم يحتفون بمرونته وقدرته علىٰ الموازنة بين سائر الضغوط والاتجاهات المتناقضة[(١)].

ثالثًا: زمن القطب الواحد:

كان الزمن يسير في ركاب أوزال علىٰ حساب العسكر الأتاتوركي في الجملة، حتىٰ ليقال -بحق- أن بذور سياسات حزب العدالة والتنمية غُرِسَت في ذلك العهد[(٢)].

لقد ساعده ضعف الشيوعية ثم انهيارها مع زيادة القوة الغربية الأمريكية في عدة أمور كتوسيع الحريات بتعزيز عمل الجمعيات وإنهاء احتكار الدولة للمجال العام واحتواء المدّ الإسلامي[(٣)]، وإرساء الليبرالية الاقتصادية التي ستؤدي إلىٰ نمو طبقات اجتماعية جديدة ذات ثقافة جديدة ستذهب لاحقا إلىٰ تحدي الدولة[(٤)]، وتدشين سياسة الانفتاح علىٰ العلاقات القديمة الموروثة عن

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١١٢ وما بعدها، ١٢٠، ١٢٤؛ Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 37-40; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 3.

(٢) Ömer Taspinar, **Turkey's Middle East Policies Between Neo-Ottomanism and Kemalism** (Massachusetts Avenue, Carnegie Endowment for International Peace, Septemper 2008), p. 11.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١١٣، ١١٤؛ Yavuz and Esposito, **Turkish Islam and the Secular State**, p. xxv, 1; Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 38-9.

(٤) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٣، ٤٤، ١٢١ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 20-1.

العثمانيين بين تركيا ودول البلقان وبينها وبين جمهوريات الاتحاد السوفيتي بل والتعبير عن تركيا خارجيا بأنها إسلامية وأوروبية معا[١]، ومع هذا فقد شهد هذا العهد تجديد الصنمية الكمالية والقومية التركية التي كان الأكراد أبرز ضحاياها، وشهد أيضًا: تحسين العلاقات مع إسرائيل[٢].

وكلما تقدم الزمن كلما قويت مكانة أوزال علىٰ حساب العسكر، حتىٰ انتخب رئيسا للجمهورية (١٩٨٩م) وتسلم السلطة من قائد الانقلاب كنعان إيفرين.

وعند مطلع التسعينات أخلف العسكر عادتهم في الانقلاب كل عشر سنوات، لقد كان انهيار الاتحاد السوفيتي يلقي بظلاله علىٰ الواقع التركي؛ إلا أن أهم هذه الآثار يتمثل في ثلاثة اتجاهات؛ الأول: تمدد تركيا خارجيا في الفراغ الذي خلَّفه السوفيت في البلقان وآسيا الوسطىٰ، والثاني: اكتشاف تركيا نوايا أوروبا التي تعاملت معها بإهمال كأن حاجتها إليها قد انتهت بزوال الشيوعية، وكلا الأمرين دشَّن توجه تركيا نحو الشرق[٣]، والثالث: هو تأييد أوزال للحملة الأمريكية علىٰ العراق (١٩٩٠م) بالمخالفة لتوجه العسكر مما جعلهم لا يتمتعون بالغطاء السياسي الخارجي اللازم لتنفيذ انقلاب عسكري، بل انعكس الحال وأُجْبِر رئيس الأركان التركي علىٰ الاستقالة بعد مواجهة علنية مع أوزال[٤].

خسر حزب الوطن الأم في انتخابات (١٩٩١م) ومات أوزال فجأة (١٩٩٣م)

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٣٢ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 22; Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 75.

(٢) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١١٤ وما بعدها، ١٣٦.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٤، ٤٥؛ Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 509-10; Samuel P. Huntington, **The Clash of Civilizations**, (New York, simon & Schuster ,2003) p. 145-7.

(٤) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٣٦، ١٣٧.



فيما يحسب البعض أنه اغتيال[١]، ولم يملأ أحد فراغ الزعيم التركي الراحل، وتوزع المشهد السياسي بين شركاء متشاكسين تنشأ بينهم ائتلافات حكومية هشة ما تلبث أن تنهار:

ورث مسعود يلماظ أوزال في زعامة حزب الوطن الأم، وورثت تانسو تشيلار سليمان ديميريل في زعامة حزب الطريق القويم، وظل بولنت أجاويد علىٰ رأس حزب اليسار الديمقراطي، ونجم الدين أربكان علىٰ رأس حزب الرفاه الإسلامي، وألب أرسلان توركيش علىٰ رأس حزب الحركة القومية.

وفي مثل هذه البيئة المناسبة عاد من جديد شبح الدولة العميقة ونفوذها، عاد العسكر يلهبون معركة «محاربة الإرهاب الكردي» ليتسع نفوذهم ويجرون الجميع إلىٰ معركتهم، وانتشرت عمليات القتل والاغتيالات المجهولة، وتراجعت مكاسب تركيا التي حصَّلها أوزال من انفتاح ونفوذ مدني، إلا الليبرالية فقد زادت، والعلاقات مع إسرائيل فقد قويت لا سيما في التسليح والأمن والتجارة وإلىٰ حد ما الثقافة والتعليم[٢].

ثم جاء الانقلاب العسكري علىٰ الحكومة الوحيدة التي شكلها نجم الدين أربكان -زعيم حزب الرفاه الإسلامي- بعد ثمانية أشهر من ولايتها، في (فبراير ١٩٩٧م)، وهو ما يُعرف بالانقلاب الناعم، ذلك أن العسكر سلكوا طريق الضغط علىٰ الساسة لا انتزاع السلطة قهرا، وانتعشت حرب العلمانية العسكرية علىٰ الإسلاميين ومؤسساتهم وأنشطتهم وأموالهم وإعلامهم وحتىٰ الحجاب، وبرغم كل ما تمتع به أربكان من صلابة إلا أنه اضطر للاستقالة (يونيو ١٩٩٧م) بعد سنة من توليه الحكومة[٣].

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٤٥.

(٢) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٤٣ وما بعدها، ص١٥٣ وما بعدها.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٧٠ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 27.

منذ ١٩٩٧ وحتىٰ ٢٠٠١ عاشت تركيا واحدة من أكبر الأزمات في تاريخها، وصلت السياسة إلىٰ إفلاس شامل، وأزمات طاحنة، وانهار الاقتصاد وتسارع التضخم واتسع حجم الفساد، واتضح ذلك جليا عند فشل الحكومة في التعامل مع الزلزال الهائل الذي ضرب مرمرة (أغسطس ١٩٩٩م) فقُتِل فيه ١٨ ألفا (وقيل ٤٠ ألفا) مع دمار هائل[1]. كان كل هذا بمثابة التمهيد للتغير الكبير الذي ستشهده تركيا بقدوم حزب العدالة والتنمية.

يمكن إجمال الصورة العامة لتركيا العلمانية علىٰ هذا النحو:

طوال تاريخ تركيا الحديث، حتىٰ من بعد التحول نحو الديمقراطية والتعددية الحزبية (١٩٤٦م)، لم تكن الحكومة المنتخبة هي الحاكم علىٰ الحقيقة، بل إنها تقع تحت هيمنة أطراف غير منتخبة مثل الجيش والبيروقراطية والقضاء[2]. ويمكن في مرحلة لاحقة أن نضيف إليهم «الإعلام»؛ إذ هو -خصوصا في المجتمعات الرأسمالية- بوق لمالكيه من ذوي الأموال وهم غير منتخبين، وهم به قادرون علىٰ التأثير وتوجيه الشعوب والضغط علىٰ الساسة[3].

وإذن، فلئن كانت لحظة تأسيس الجمهورية تمثل ولادة الدولة التركية العلمانية فإن لحظة التحول إلىٰ التعددية هي لحظة إنشاء قشرة مدنية ديمقراطية شكلية تخفي تحتها ما اصطلح علىٰ تسميته فيما بعد: الدولة العميقة، الدولة

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٧٦ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 29.

(٢) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٨، ٨٧؛ Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 505.

(٣) عند بداية تأسيس حزب العدالة والتنمية جلس أيدين دوغان، وهو رئيس أقوىٰ مجموعة إعلامية تركية، مع أردوغان وهدده بأنه هزم ثلاثة رؤساء وزارة: أوزال وديميريل وتانسو تشيلار. انظر: حسين بسلي وعمر أوزباي، **رجب طيب أردوغان: قصة زعيم**، ترجمة وتقديم: د. طارق عبد الجليل، (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١١م). ص٣٨٥، ٣٨٦.

الحارسة، الدولة الموازية.. إلخ. تلك التي تتكون من تحالف يضم حزب الشعب الجمهوري «والقيادة العليا للجيش والقضاء الأعلىٰ والبيروقراطية، والذين استمروا في النظر لأنفسهم باعتبارهم الملاك المستحقين للدولة»، فكانت لهم هيئات سرية وعلنية لتنفيذ الأعمال القذرة، إذ كل شيء كان مسموحا به بمبرر «إنقاذ الدولة»، ولو كان قتل الآلاف وتأجيج الصراع بين المكونات المختلفة في تركيا لتوفير المبرر للانقلابات العسكرية[١]، ولم تجد هذه الانقلابات أي معارضة حقيقية من الغرب الليبرالي الذي ضغط لإنشاء تعددية من قبل بل كان هذا هو النظام المفضَّل لديهم[٢]، في مشهد متكرر للنفاق وخيانة الشعارات.

وقد ظل التوجه نحو الغرب سياسة مستقرة لتركيا الحديثة في عهد جميع حكوماتها، وحتىٰ محاولات أوزال وأربكان لم تكن جذرية ولا ثورية، وهذا طبيعي ومُتَفَهَّم، إذ لم يكن بالإمكان غير هذا، ومثلما يُقال بأنها محاولات إسلامية أرادت النفاذ إلىٰ النظام العلماني المغلق من خلال منظومة الحريات الغربية، يقال أيضا بأن المنظومة الغربية احتوت واستوعبت الإسلاميين الأتراك وأنشأتهم خلقا جديدا.

رابعًا: كفاح المقهورين:

ما إن جاءت سياسة التعددية حتىٰ ظهرت أحزاب إسلامية، لكنها أغلقت بعد أيام أو شهور، مما اضطر الإسلاميين للدخول إلىٰ السياسة عبر الأحزاب العلمانية المحافظة واليمينية التي لا تعادي الدين[٣].

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٤٩ وما بعدها، ٨٧، ٩٢.

(٢) كرم أوكتم، الأمة الغاضبة، ص٨٧؛ Lapidus, A History of Islamic Societies, p. 505.

(٣) محمد زاهد جل، **التجربة النهضوية التركية: كيف قاد حزب العدالة والتنمية تركيا إلىٰ التقدم**، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، ٢٠١٣م)، ص٥٢، ٥٣.

ومنذ الدخول في التعددية كانت السلطة الكمالية لا تشعر بالتهديد الوجودي من جهة الإسلاميين كما كان الحال في عصر أتاتورك، فارتخت قبضة الكمالية وصارت علاقتها ضد الإسلاميين كسلطة تضطهد وتطارد منافسيها لا كحركة تريد إبادة أعدائها، ثم إن أجواء الحرب الباردة ووجود تركيا في المعسكر الغربي كان يسمح بمساحة للإسلام كحائط صد ضد الشيوعية.

أسفرت هذه المعادلة بعد قليل عن عهد عدنان مندريس الذي استمر بعقد الخمسينيات، وشهد ما يشبه انقلابا في صيغة الدولة العلمانية الكمالية إذ افْتُتِحَتْ في عهده مدارس الأئمة والخطباء وسُمح للأئمة بدروس تطوعية في المدارس وأقر رفع الآذان باللغة العربية وتخصيص دروس دينية في الإذاعة. وحتىٰ لما انقلب عليه العسكر (١٩٦٠م) وأعدموه كانت سلطة الانقلاب بحاجة إلىٰ الوقوف ضد الشيوعية، فكان دستور (١٩٦١م) موصوفا بالليبرالية ويحفظ الحريات وحقوق التجمع مما أتاح فرصة واسعة أمام النمو الإسلامي[(١)]، وصارت الأحزاب تغازل الشعور الإسلامي طلبا للجماهير وحرصت علىٰ إثبات أنها لا تعادي الدين[(٢)]، وهكذا لم تضع كل مكتسبات عهد مندريس بل كان عهد سليمان ديميريل نسخة مخففة من عهد مندريس فيما يخص المساحة الإسلامية[(٣)].

وما إن انتهىٰ عقد الستينيات إلا وكان المزاج الإسلامي سائدا علىٰ الساحة التركية[(٤)]، وظهرت أحزاب إسلامية كحزب «الوحدة التركي» الذي أسسه الجنرال صدقي أولاي عميد الكلية الحربية (١٩٦٧م) وحزب «تحرير

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٩٣؛ Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 35-6.

(٢) Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 509; Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 35-7; Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 634.

(٣) Hale, Özbudun**, Islamism, Democracy, and Liberalism**, p. xix,xx.

(٤) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 13.

تركيا»[١]، إلا أن هذه الأسماء انطفأت سريعا ولم يبق في الأفق سوىٰ اسم أول محاولة للزعيم الإسلامي القادم: نجم الدين أربكان، ذلك هو حزب النظام الوطني (يناير ١٩٧٠م)، وهو الحزب الذي صار يصارع النظام العلماني العسكري فيغلقونه فيعود باسم جديد، فكانت سلسلة أحزاب بدأت بـ «السلامة الوطني» ثم الرفاه ثم الفضيلة ثم السعادة.

ازدهر النمو الإسلامي في السبعينيات، وشهدا هذا العقد نموا كبيرا في الإقبال علىٰ كتب الحركة الإسلامية المترجمة من العالم العربي، وكانت كتب حسن البنا وسيد قطب والمودودي وغيرهم الأكثر رواجا، وانتشرت المكتبات الإسلامية، وكثرت المجلات الإسلامية في تلك الفترة والتي كانت تتخذ من الأدب غطاءً لمضامينها الإسلامية[٢]، ثم كان عهد أوزال فرصة ممتازة لنمو وتمدد الحركات الإسلامية بشتىٰ أطيافها، خصوصًا مع ازدهار قطاع الاقتصاد الذي كان ثمرة لظهور طبقة رجال أعمال في تلك الفئة التي يهيمن عليها التدين ممن قدموا قديم من القرىٰ والأنحاء إلىٰ المدن والعواصم جراء سياسات الدولة الأتاتوركية فسكنوا أطراف المدن الكبرىٰ أو كانوا قوة عاملة في مصانع الدولة، ثم صاروا فيما بعد ينافسون في القطاع المالي، وهم الذين سيُعرفون فيما بعد باسم «الموسياد» كما ستُعرف مناطقهم الصناعية باسم «نمور الأناضول»، فصار هؤلاء مددا للأحزاب الإسلامية كما صارت الأحزاب الإسلامية تدافع عنهم ضد حيتان المال الأتراك أو الأجانب باعتبارهم طليعة الاقتصاد المحلي ضد الإغراق الأجنبي[٣].

---

(١) منال الصالح، **نجم الدين أربكان ودوره في السياسة التركية ١٩٦٩ - ١٩٩٧**، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٢م) ص٤٨، ٤٩.

(٢) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٤١ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 22.

(٣) Heinz Kramer, **A Changing Turkey**, p. 67-8; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 20-1.

ومثلما ظهرت أحزاب إسلامية تنافس النظام العلماني وتشتبك معه، ظهرت في أطياف هذا التيار الإسلامي جماعةٌ بدت أقرب إلىٰ الإسلام الذي تريده الدولة العلمانية، وهي جماعة فتح الله كولن التي هي طيف من التيار النورسي إلا أنها لم تكتف بالاستقامة الشخصية بل سعت لصناعة بيئة إسلامية بالعمل الدعوي والتعليمي والاقتصادي وابتعدت عن العمل السياسي[١]، وقد فضلت هذه الجماعة ألا تواجه النظام بل أن تخادعه فَسَعَتْ إلىٰ اختراق مؤسسات الدولة وألزمت أفرادها الذين أهلتهم لهذا بالتخلي عن كل ما من شأنه أن يصفهم بالإسلامية فصار لها نفوذ كبير داخل جهاز الدولة، وهي في طريقها هذا تلقت دعمًا حكوميًّا صريحًا أحيانًا كما تعرضت للمضايقات والضغوط أحيانًا أخرىٰ باعتبار مؤسساتها التعليمية والمالية رافدًا داعمًا ومساندًا للأحزاب الإسلامية، رغم أنها ملتزمة دائمًا بمعارضة هذه الأحزاب وكانت الحركة الإسلامية الوحيدة التي تعارض أربكان وتوالي الجيش والحكومة الرسمية ولم تعترض علىٰ انقلاب (١٩٩٧م)[٢]، ولهذا يُختلف في شأنها كثيرًا وما إذا كان منهجها وسيلة ذكية اعتمدها الإسلاميون في تركيا أم أن النظام العلماني صنع بذكاء جماعة إسلامية وظيفية علىٰ صبغته ومثاله؟! وسيزداد هذا الاختلاف وتشتد إثارته حين تحقق هذه الجماعة أعلىٰ تأثير ونفوذ في نفس اللحظة التي ينجح فيها حزب العدالة والتنمية -تلاميذ أربكان- في أن يكون علىٰ رأس السلطة، إذ سيشن كل منهما علىٰ الآخر حربا ضروسا.

والحصيلة النهائية أن تركيا منذ السبعينات شهد فشل الكمالية أن تكون

---

(١) Yavuz, **The Gülen Movement**, in Yavuz and Esposito, **Turkish Islam and the Secular State**, p. 19.

(٢) Ihsan Yilmaz**, Ijtihad and Tajdid by conduct**, in: Yavuz, Esposito, **Turkish Islam and the Secular State**, p. 226; Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 15-8.

بديلا للإسلام[١]، وعند مطلع التسعينات تأسف كاتب تركي معجب بأتاتورك لأن الكمالية تتشقق ولأن الإسلام بات أقوىٰ شيء في تركيا وأن الكمالية لم تفهم موقع الإسلام من هوية الأتراك[٢].

إلا أن اللافت للنظر أن الديمقراطية والتعددية التركية -وإن كانت قشرة للدولة العميقة- استطاعت استيعاب المجهود الإسلامي داخلها، وبقدر ما ظلت الدولة العميقة تخشىٰ من اختراق أو اختطاف الإسلاميين للدولة عبر هذه الآلية، بقدر ما أمنت من تحول المجهود الإسلامي نحو الحركات السرية والقتال المسلح[٣].

يُعَدّ أربكان أول سياسي إسلامي في تركيا منذ دخولها الحقبة العلمانية، فلقد كان السياسيون قبله علمانيون، ومن نُسِب منهم إلىٰ العاطفة الإسلامية كمندريس أو أوزال أو ديميريل إنما كانوا يعلنون اعتناق العلمانية وإذا أوسعوا مساحة لبعض المظاهر الإسلامية فإنما هو من منطلق الليبرالية والحريات، الحريات التي يستلزمها موقع تركيا كعضو في المعسكر الغربي ضد المعسكر الشيوعي، وفي حين انتهىٰ مندريس نهاية درامية بإعدامه انتهىٰ أوزال نهاية نصف درامية بموت مشكوك فيه وانتهىٰ ديميريل نهاية عادية بذوبانه في النظام وأفول نجمه، ثم كانت الإثارة كلها متكثفة في الحياة الحافلة لنجم الدين أربكان! علىٰ أنه ينبغي أن نقول بأنه لولا راديكالية نجم الدين ما سطع نجم أوزال ولا أفل نجم ديميريل ولا ظل نجم مندريس ذكرىٰ تثير الشجون الإسلامية.

لقد كان نجم الدين أهم شخصية إسلامية في تاريخ تركيا العلمانية.

ينحدر أربكان من نسل أمراء السلاجقة، وتربىٰ في أحضان الطريقة النقشبندية،

---

(١) Binnaz Toprak, **The Religious Right**, p. 627, 632.

(٢) Şherif Mardin, **Religion and Secularism**, p. 372-3.

(٣) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 15, 35.

ثم تخرج في كلية الهندسة كمهندس متفوق، فكان الأول علىٰ دفعته، وكان أصغر أستاذ مساعد في جامعة اسطنبول، وله إضافات في صناعة المحركات، وأسس مصنعا لإنتاج محرك الديزل وهو في الثلاثين، ثم تولىٰ مناصب اقتصادية مهمة فكان الأمين العام لاتحاد غرف التجارة والصناعة والبورصة التركية (١٩٦٧م) ثم رئيسه (١٩٨٦م)، وكانت له سياسة وطنية تصادمت مع العلمانيين وكبار الرأسماليين فاستقال تحت الضغوط الإعلامية العلمانية، فعزم علىٰ دخول عالم السياسة فاصطدم مع الرئيس ديميريل الذي رفض أن يضعه علىٰ قوائم انتخابات حزب العدالة (١٩٦٩م) لتوجهه الإسلامي، فترشح مستقلا في قونية وفاز، ثم أسس أول أحزابه: حزب النظام الوطني (٢٦ يناير ١٩٧٠م)[1].

كان هذا أول حزب إسلامي صريح منذ تأسيس الجمهورية، وقد أغلق بعد عام وأربعة أشهر من تأسيسه (٢٠ مايو ١٩٧١م) ضمن سياق الانقلاب العسكري (مارس ١٩٧١م)، وحُظِر أعضاؤه من ممارسة السياسة لخمس سنوات، وفي (١٩٧٢) دفع أربكان بعض من لم يصبهم الحكم القضائي لتأسيس حزب السلامة الوطني (١١ أكتوبر ١٩٧٢م)، وخفَّف من لهجته وشعاراته الإسلامية، وفاز بالمركز الثالث في انتخابات (١٩٧٣م)، ودخل في تحالفات حكومية مع حزبي الشعب الجمهوري بزعامة أجاويد والعدالة بزعامة ديميريل ما لبثت أن انهارت، لكن الحزب كسب منها خبرة سياسية إذ كان له ست أو سبع وزارات، وكان أربكان في موقع نائب رئيس الوزراء[2].

عند نهاية السبعينات نجحت الثورة الإيرانية وصار لها زخم كبير، وتبادل الخميني وأربكان التهاني والتمنيات، وفي سبتمبر (١٩٨٠م) حشد حزب السلامة

---

(١) منال الصالح، **نجم الدين أربكان**، ص٥٣ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 14.

(٢) منال الصالح، **نجم الدين أربكان**، ص٥٣ وما بعدها، ٨٩ وما بعدها، ١٠٥ وما بعدها؛ Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 40-1.

لمظاهرة ضخمة في مدينة قونية أوصلتها بعض التقديرات إلىٰ ربع المليون احتجاجا علىٰ القرار الإسرائيلي بضم القدس، ومع ما تمر به البلاد من أزمات واضطرابات، كانت المظاهرة مناخا جامعا اختلطت فيه الروح الإسلامية بالروح الاحتجاجية ورُفِعَت فيها شعارات تعلن الإسلام وترفض العلمانية، وبدا المشهد كأنما سيكرر أربكان تجربة الخميني في إيران، فكان الردُّ الانقلاب العسكري بقيادة كنعان إيفرن (١٩٨٠م)، وسُجن أربكان ثم أفرج عنه مع حظر ممارسة السياسة لأربع سنوات[١].

لما سُمح بتأسيس الأحزاب (١٩٨٣م) أسس أربكان حزب الرفاه (١٩ يوليو ١٩٨٣م) بنفس نمط القيادة من الخلف، ولم يُسمح للحزب بخوض انتخابات (١٩٨٣م)، ثم فاز في انتخابات (مارس ١٩٨٤م) بنسبة ٤.٤٪، ثم عاد إلىٰ قيادة الحزب علنا بعد رفع الحظر السياسي (١٩٨٧م)، وحصل علىٰ ٧.٢٪ في انتخابات (نوفمبر ١٩٨٧م)، ثم ٩.٨٪ في انتخابات البلدية (مارس ١٩٨٩م)، ثم ١٦.٩٪ في انتخابات (أكتوبر ١٩٩١م)، ثم ١٩٪ في انتخابات البلدية (١٩٩٤م) منها مقعدي رئيس البلدية لأنقرة واسطنبول[٢].

ولما انهار التحالف بين حزبي «الطريق القويم» و«الشعب الجمهوري»، أجريت انتخابات مبكرة (ديسمبر ١٩٩٥م) فاز فيها الحزب بنسبة ٢١.٣٨٪ (١٥٨ مقعدًا)، وفي ظل عجز الأحزاب الأكبر عن التفاهم صار أربكان نائبًا لرئيس الوزراء ثم رئيسًا للوزراء علىٰ رأس حكومة ائتلافية مع حزب الطريق القويم برئاسة تانسو تشيلار[٣]، وأرسل هذا الفوز «صعقة كهربائية» للعلمانيين

---

(١) منال الصالح، **نجم الدين أربكان**، ص١٤٩، ١٥٠، ١٥٥ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 16.

(٢) منال الصالح، **نجم الدين أربكان**، ص١٧٦ وما بعدها، ص١٩٤ وما بعدها؛ Hale and Özbudun, **Islamism, Democracy, and Liberalism**, p. 4; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 22-3.

(٣) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص١٨٤؛ Lapidus, **A History of Islamic Societies**, p. 508.

وفي قلبهم العسكر حيث صارت تركيا لأول مرة تحت إدارة إسلامية[١]، وبعد فاصل قصير أطلق هؤلاء حملة سياسية لقلب النتائج، فعاشت تركيا صراعا على الهيمنة السياسية[٢].

أراد العسكر جرَّ الدولة كلها لمحاربة «الإرهاب الكردي»، وكانت «الدولة العميقة» تدير هذه الحرب بمستوياتها السرية التي تشيع الاغتيالات والتعذيب وكافة ما هو غير قانوني، وهو ما يُحرج الحكومة التي تعجز عن فعل شيء حيال العسكر مهما ظهرت دلائل جريمتهم[٣].

وفي سياق آخر ذهب أربكان في طريق تغيير تركيا، فاتخذ خطوات جريئة من أهمها: تأسيس مجموعة الدول الصناعية الإسلامية الثمانية تمهيدا لإنشاء سوق إسلامية مشتركة، واعتماد سياسة اقتصادية وطنية تغلق تركيا في وجه الاستثمارات الغربية وتمنع الاقتراض من الخارج[٤]، وحاول إنهاء السير في طريق الانضمام للاتحاد الأوروبي كما حاول الترويج لاستعمال العملة الذهبية (الدينار الإسلامي)، إلا أن حزب الطريق القويم -شريكه في الائتلاف- أبلغه أن قضيتيْن غير قابلتين للمناقشة في تركيا: عضوية للناتو وصك الدينار[٥]. ولم تفلح محاولاته التماهي مع السياسات المستقرة كمواصلته الدعم اللوجيستي للقواعد العسكرية الأمريكية في تركيا أو موقفه من مسألة قبرص أو ازدراد ما يجري في المسألة الكردية أو إبقاء العلاقات مع إسرائيل أو

(١) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 42; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 25.

(٢) Heinz Kramer, **A Changing Turkey**, p. 70.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٦٣ وما بعدها.

(٤) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 23.

(٥) لقاء مع أبو بكر ريغر، رئيس دار السكة الإسلامية العالمية، فيلم وثائقي «حركة الدينار»، قناة الجزيرة الوثائقية، ١٠ إبريل ٢٠١٤م.

ابتلاع الحظر المفروض علىٰ الحجاب[١].

لم يُجْدِ كل هذا وحدث ما هو متوقع: انقلاب عسكري جديد، لكنه ناعم هذه المرة (في ٢٨ فبراير ١٩٩٧م) انتهىٰ إلىٰ استقالة أربكان، وهكذا امتدت رئاسته للحكومة رسميا ما بين (٢٨ يونيو ١٩٩٦ - ٣٠ يونيو ١٩٩٧م).

أسس أربكان حزب «الفضيلة» برئاسة صديقه محمد رجائي طوقان، واعتمد خطابا أهدأ من خطاب الرفاه[٢]، لكن لم يحصل في انتخابات (إبريل ١٩٩٩م) سوىٰ علىٰ ١٥.٤٪ فصار في المعارضة ثم صدر قرار حله (يونيو ٢٠٠١م)[٣]، فأسس حزب السعادة (٢٢ يوليو ٢٠٠١م)، وهو آخر أحزابه، وما يزال يطرح نفسه كحزب إسلامي أصيل يُعْلي من شأن الأخلاق والقيم ويعادي التغريب ويرفض الانضمام إلىٰ الاتحاد الأوروبي[٤]، إلا أنه أفل نجمه وصار في عداد الأحزاب الهامشية.

من بين كثير من الإنجازات للحركة الإسلامية بزعامة أربكان، يعد الإنجاز الرئيسي لها هو نقل الكتلة الإسلامية من ساحة المقهور المغلوب الذي يؤيد الأقل سوءا بين الساسة إلىٰ ساحة الفاعل الذي يطرح نفسه كبديل[٥]، وهو ما فتح طريقا أمام سائر طاقات المتدينين -والشباب خصوصا- للبحث في مسائل الإسلام والسلطة والدولة، وتجارب الجماعات الإسلامية في العالم، وترجمة أدبياتهم، مما جعل فترة السبعينات فترة ازدهارٍ فكريٍّ إسلاميٍّ[٦]، وتأسيسٍ

(١) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 43-4; Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 26.

(٢) Hale, Özbudun**: Islamism, Democracy, and Liberalism**, p. 5.

(٣) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 27-8.

(٤) Senem Aydin and Ruşen Çakır, **Political Islam in Turkey**, (CEPS Working Document No. 265, April 2007), p. 11.

(٥) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 31.

(٦) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٤٢، ٤٣.

لحالة إسلامية تعيد اكتشاف ذاتها وتسعىٰ لإعادة المجد القديم وتنظر للحقبة العلمانية في تاريخ تركيا علىٰ أنها حقبة انحدار وانهيار لا حقبة بعث جديد، وأن هذا الوضع يحتاج إلىٰ تصحيح[1].

حفلت حياة نجم الدين بأنواع المعاناة، وأولها معاناته من داخل الوسط الإسلامي، أول الأمر، إذ طُرِحَتْ ذات الإشكاليات المتعلقة بشرعية تأسيس حزب والدخول في ظل نظام غير إسلامي وانتهاج وسيلة الديمقراطية سبيلا[2]، كما انقسمت قاعدة حزبه من النقشبنديين والنورسيين بعد تحالفه مع اليسار واليمين فاعتبروا التحالف مع الكماليين خيانة لمبادئ الإسلام[3]، مرورا بما تعرض له في مسيرته الطويلة من حصار وتضييق وإغلاق أحزابه ومحكاماته التي قضت عليه بالسجن أو بالإقامة الجبرية، وفي آخر حياته التي قضاها بين سجن وإقامة جبرية لم يستطع تلاميذه وإن كانوا في موقع السلطة أن يرفعوا عنه شيئا، إلا عفوا صحيا (۲۰۰۸م) وما كاد يتحرر من الحظر والسجن حتىٰ عاد بجلد عجيب وصبر دؤوب لرئاسة حزبه «السعادة» مرة أخرىٰ (۲۰۱۰م) وهو في الرابعة والثمانين من عمره، لكنه لم يقض سوىٰ ستة أشهر حتىٰ وافاه الأجل.

العثمانيون الجدد:

أولًا: أردوغان:

ولد (٢٦ فبراير ١٩٥٤م) في أسرة فقيرة متدينة تسكن حي قاسم باشا وهو من أفقر أحياء اسطنبول، وأتم دراسة الثانوية في مدارس الأئمة والخطباء، وكان حي قاسم باشا من الأحياء التقليدية التي تسود فيها قيم وتقاليد المجتمعات الشرقية القديمة كقوة العلائق بين الناس وشيوع الحمية والمروءة والحسبة

---

(١) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 40.

(٢) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٤١.

(٣) منال الصالح، **نجم الدين أربكان**، ص٩٨، ١١٨.

الاجتماعية، وعمل منذ صغره في بيع الخبز (السميط) والماء للمساعدة في توفير المال وشراء الكتب، ثم تخرج (١٩٨١م) في معهد علوم الاقتصاد والتجارة (كلية الاقتصاد والتجارة بجامعة مرمرة فيما بعد)، وعمل موظفا في البلدية[١]، وتشير بعض المصادر إلىٰ انضمامه لطريقة إسماعيل أغا النقشبندية الصوفية إلا أن بعض المقربين منه ينفون هذا وربما يكون النفي لكون الطرق الصوفية ممنوعة قانونا[٢].

وباختصار: فإن نشأة أردوغان وبيئته تدل علىٰ أنه نقيض للنظام التركي السائد، فهو ابن الطبقة التي طحنتها توجهات السياسة التركية العلمانية المدينية النخبوية، كما تفتحت مواهبة القيادية عبر مراحل حياته، كان كثير القراءة محبا للشِّعر، لا سيما محمد عاكف أرصوي صاحب المجهود الدعوي المشهور والملقب بـ «شاعر الإسلام» في تركيا، ونجيب فاضل قيصاكورك الملقلب بعميد الأدب الإسلامي في تركيا.

بدأ نشاط أردوغان العام منذ الخامسة عشرة من عمره، حين كان عضوا باتحاد الطلبة الأتراك بمدارس الأئمة والخطباء، وحين تفتح وعيه السياسي كان نجم الدين أربكان بطل الساحة الإسلامية التركية، فالتحق بحزب السلامة، ولم تمض أربع سنوات حتىٰ كان أردوغان رئيس جناح الشباب لحزب السلامة في اسطنبول (١٩٧٦م) بفوزه في الانتخابات الداخلية لشُعَب حزب الشباب، وهو فوز انتزعه وحيدا علىٰ غير رغبة قيادة الحزب في اسطنبول، ثم تولىٰ رئاسة شعبة اسطنبول في حزب الرفاه (١٩٨٥)، وترشح لانتخابات البرلمان (١٩٨٧) عن منطقة باي أوغلو وزيتن بورنو، ثم لانتخابات المحليات (١٩٨٩) عن ذات المنطقة متحديا قيادة الحزب أنه إن أُطلقت يده في تجديد الأساليب فسيفوز في

---

(١) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٢٧ وما بعدها.

(٢) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. 14.

هذه المنطقة التي لم تعط الحزب في الانتخابات الأخيرة سوىٰ ٣٪، ثم أسفرت النتائج عن خسارته بفارق بسيط عزاه بعض أنصاره إلىٰ تلاعب في الأرقام، إلا أن هذه النتيجة أثبتت عمليا نجاعة أفكاره وأساليبه وعزز من مكانته داخل الحزب، بل تذكر بعض التقديرات[١] أن استعمال أردوغان للطاقة النسائية في الانتخابات جلب للرفاه مليون امرأة علىٰ مدىٰ ستة أعوام. وصار عضوا في الهيئة العليا لحزب الرفاه (أكتوبر ١٩٩٣م)[٢].

وفي (١٩٩٤م) كان أردوغان رئيس شعبة حزب الرفاه في اسطنبول وأقوىٰ شخصية في الحزب بعد أربكان، ولما حان موعد انتخابات بلدية اسطنبول الكبرىٰ أيَّد ترشحه لها من داخل الحزب ٣٣٠٨ عضوا من بين ٣٩٩٣ كذلك أيده ٧٠٪ من جمهور حزب الرفاة[٣]، ولما فاز بمنصب رئيس بلدية اسطنبول الكبرىٰ كان فوزه أقوىٰ انتصار للحزب علىٰ مستوىٰ البلديات، وحقق في منصبه هذا أقوىٰ نجاحات اقتصادية وإدارية شهدتها تركيا في تاريخها الحديث وتغير بها وجه اسطنبول[٤]، وبرغم كل محاولات العرقلة من الحكومة أو من وسائل الإعلام العلمانية إلا أن نجاحه استمر حتىٰ جاء الانقلاب العسكري (١٩٩٧م) فكان من تداعياته محاكمة أردوغان بتهمة إلقاء أبيات شعر دينية تحريضية في ديار بكر (١٢ ديسمبر ١٩٩٧م) وإغلاق حزب الرفاه، ثم عزل أردوغان بقرار محكمة من رئاسة بلدية اسطنبول (٥ نوفمبر ١٩٩٨م)، ثم مُنِع من العمل بالسياسة، ليُسدل الستار علىٰ تجربة دامت أربع سنوات وشهورا[٥].

---

(١) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 24.

(٢) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٤٤ وما بعدها، ٥٠، ٥٨ وما بعدها، ١١٠، ١٣٦.

(٣) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص١٣٠، ١٣٨، ١٣٩.

(٤) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص١٦٤ وما بعدها؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 24.

(٥) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص١٨٤ وما بعدها، ص٢٥٧.

سُجِن أردوغان ثلاث مرات؛ الأولىٰ بُعيْد انقلاب ١٩٨٠ لمدة أيام لتهمة التظاهر في ظل الأحكام العرفية، والثانية حين دخل في اشتباك لفظي مع رئيس المجلس الانتخابي لمحليات باي أوغلو إذ اتهمه أردوغان بالسُّكْر الذي أدىٰ إلىٰ التلاعب في النتائج فاتهمه بالتعدي عليه فحوكم وسُجِن لمدة أسبوع (١٩٨٩)، والثالثة بعد واقعة أبيات الشعر الشهيرة التي ألقاها ضمن خطاب شعبي في ديار بكر -(١٢ ديسمبر ١٩٩٧م) قبيل أيام من إغلاق حزب الرفاه- والتي اعتبرها خصومه دينية تحريضية، فحكم عليه بالسجن لعشرة أشهر وغرامة مالية، ثم خفف فسُجِن لأربعة أشهر، وكان وداع الناس له يوم سجنه دليل واضح علىٰ أن تركيا صار لها زعيم شعبي جديد[1].

بدأت بعد السجن مرحلة جديدة في حياة أردوغان، ففي ذلك الوقت تفاقمت الخلافات بين الرجليْن القوييْن: الزعيم أربكان، والسياسي الصاعد أردوغان، وانقسم بينهما أعضاء الحزب، ولم تفلح محاولات الاحتواء مع اتساع هوة الخلاف الذي لم يعد إداريًّا أو خلافًا علىٰ الزعامة، بل صار خلافًا فكريا يوصف فيه أربكان بالمحافظة أو التشدد ويوصف فيه أردوغان بالانفتاح أو التنازل. وبدأ بين الرجلين صراع القيادة من الخلف، فكلاهما محظور من ممارسة السياسة، وقد سعىٰ أربكان لإنشاء حزب «الفضيلة» بزعامة صديقه رجائي قوطان، بينما رفض أردوغان وفريقه هذا الاختيار ودفعوا بعبد الله غل لينافسه علىٰ رئاسة الحزب، وكان فوز أحد الفريقين يعني انفصال الآخر عنه وتأسيس حزب جديد، وكانت هذه المنافسة العلنية «سابقة في تاريخ الأحزاب الإسلامية التركية»[2]، ولما جرت الانتخابات، خسر التجديديون بفارق خمسين صوتًا (٥٧٠ مقابل ٦٢٠)، وشككوا في هذه النتيجة التي بُنيَت علىٰ تشويههم

---

(١) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٦٦ وما بعدها، ٢٣٧ وما بعدها، ٢٧٠؛ Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 31

(٢) Hale and Özbudun**, Islamism, Democracy, and Liberalism**, p. 5.

وعرقلتهم، وساروا في المسار المتوقع: تأسيس حزب جديد لهم[١].

ثانيًا: تأسيس حزب العدالة والتنمية:

بلغ عدد الموقعين علىٰ عريضة تأسيس الحزب ٧١ عضوا، ثم انضم إليهم في اليوم نفسه ٥٣ نائبا بالبرلمان ليصير عددهم ١٢٤ عضوا[٢]، لكن أبرز المؤسسين هم: رفيق دربه ووزير الدولة للشؤون الخارجية في فترة أربكان: عبد الله غل، والمحامي والبرلماني: بولنت أرينتش، ورجل الأعمال الشاب الصاعد في مجال الاقتصاد والإدارة: علي باباجان. وفي الخلفية شخصية أكاديمية لم تكن ضمن المؤسسين لكنها كانت بمثابة العقل الفلسفي السياسي للحزب وهو أحمد داود أوغلو.

ولداود أوغلو عدد من المؤلفات أهمها ثلاثة: الفلسفة السياسية، العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية، العمق الاستراتيجي. فأما «الفلسفة السياسية» فيتحدث عن التناقض الجوهري بين النظامين الإسلامي والغربي في السياسة وكيف أن تناقض العقائد والتصور العام للوجود انعكس علىٰ النظم السياسية فأنشأت اختلافا أساسيا لا يمكن تجاوزه بين النموذجين، وأما «العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية» فيحمل علىٰ الفلسفة الغربية وغرورها وإفلاسها ثم يخلص إلىٰ أن المرشح الوحيد لإحداث تحول حضاري حقيقي مستقبلا هو الإسلام، وأما «العمق الاستراتيجي» فينصبُّ علىٰ إعادة تعريف موقع تركيا ودورها في العالم وأنها لا تملك سوىٰ أن تكون قوة عالمية بحكم موقعها الجغرافي وتاريخها العريق وثقلها الثقافي شرط أن تتصالح مع هويتها وتعيد وصل ما انقطع من العلاقات العثمانية بمجالها الحيوي الذي هو عمقها الاستراتيجي.

---

(١) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٣٠١ وما بعدها.

(٢) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٣٢٣.



ثالثًا: على رأس السلطة:

قادت السلطة العلمانية معركة قضائية لحظر الحزب الوليد وسجن زعيمه أردوغان، وبعد فصول متعددة[1] أسفر غبار المعركة عن بقاء الحزب وإقصاء مؤسسه وحرمانه من الترشح! فبقي المولود حيا وإن كان كُسِرَ!

تدهورت الأمور في تركيا بشدة، ففي صيف ١٩٩٩ خطب مسعود يلماز -نائب رئيس الوزراء ورئيس حزب الوطن الأم- في حزبه بمناسبة تشكيل الحكومة الائتلافية فذكر بأن «تركيا تعيش الآن مشكلة نظام بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ... فالمشكلة ليست في هذا العنصر من النظام أو ذاك، إنما هي النظام نفسه»، وبلغت الأزمة بين أطراف النظام حدَّ أن ألقىٰ أحمد نجدت سيزار -رئيس الجمهورية- الدستور فوق رؤوس أعضاء مجلس الأمن القومي (١٩ فبراير ٢٠٠١)[2]، ثم دخلت تركيا في «أكبر أزمة اقتصادية ومالية في تاريخ البلاد»[3]، إذ وصل حجم التضخم إلىٰ ٥٠٪ انهارت علىٰ إثره الكثير من الأعمال، وسُحِبت الكثير من الأموال المودعة في البنوك حتىٰ سُحب مبلغ ٧.٥ مليار دولار في يوم واحد، ثم لم تجد الحكومة حلا إلا أن ترفع الضرائب علىٰ الناس، وتزامن هذا مع إطلاق ٦٠ ألفا مسجون في جرائم سرقة ونصب واغتصاب بقانون «إخلاء السبيل المشروط» فارتفعت نسبة الجريمة وزادت حالة الانفلات الأمني في البلاد. وفشلت الحكومة الائتلافية التي شكلها الحزب القومي. ثم زاد الأمر سوءا بأزمة صحية حلت برئيس الحكومة بولنت أجاويد فتوقفت أعمال الحكومة، ولم يعد من مفرٍّ إلا الذهاب لانتخابات

---

(١) انظر فصولها في: بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٣١٧، ٣٢٤، ٣٤٨ وما بعدها، ص٣٥٧ وما بعدها.

(٢) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٣٥٤؛ كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٨١.

(٣) Cemal Karakas, **Turkey: Islam and Laicism**, p. 29.

مبكرة حُدِّد موعدها (٣ نوفمبر ٢٠٠٢م)[١].

وفي مفاجأة لجميع الأطراف حصد حزب العدالة والتنمية «نحو ٧٠٪ من المقاعد، بينما عند تأسيسه لم يكن الحزب أكثر من ٧٪ من الشارع التركي. ولكن فوز الحزب في ذلك الوقت ارتبط بالثقة في رئيس الحزب رجب طيب أردوغان»[٢]، و«في ضربة واحدة فقد ٩٠٪ من أعضاء البرلمان مواقعهم، كما فشلت كل أحزاب البرلمان السابق (الطريق القويم، الحركة القومية، الوطن الأم، اليسار الديمقراطي، الشعب الديمقراطي الموالي للأكراد) في تخطي عتبة الـ ١٠٪ اللازمة للتمثيل»[٣]، ولم ينجح سوىٰ حزب الشعب الجمهوري بقيادة دينيس بايكال في الحصول علىٰ ثلث مقاعد البرلمان بنسبة ٢٠٪ تقريبًا من الأصوات. وكان الفوز الكبير من نصيب المولود الجديد: حزب العدالة والتنمية الذي حظي ببقية مقاعد البرلمان بنسبة ٣٥٪ (من الأصوات)، وهنا تبدو مفارقة التاريخ، فالعتبة التي وضعها العسكر لمنع الأحزاب الإسلامية من دخول البرلمان قد أثمرت سيطرة الإسلاميين الجدد علىٰ البرلمان والاستحواذ علىٰ حوالي ثلثي المقاعد.

يبدو أن هذا النجاح الكبير وغير المتوقع يدعم لمرة أخرىٰ مقولة فيكتور هوجو «ليس شيء أقوىٰ من فكرة حان وقتها»!

سعىٰ الحزب منذ اللحظة الأولىٰ لرفع الحظر السياسي عن أردوغان[٤]، واستطاع باتفاق مع حزب الشعب الجمهوري تعديل الدستور بوضع عبارة «الأفعال الإرهابية» بدلًا من «الأفعال الأيديولوجية والتحريضية» من المادة ٧٦، ليرفع الحظر عن أردوغان الذي كانت قضيته قضية «تحريض»، ثم إن

(١) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٣٥٦.

(٢) محمد زاهد جل، **التجربة النهضوية التركية**، ص٦٩، ٧٠.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٨٩.

(٤) عبد الله غل، حوار لبرنامج «لقاء خاص»، قناة الجزيرة، بث بتاريخ ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٢م.

اللجنة العليا ألغت انتخابات محافظة سيرت لما شابها من مخالفات قانونية، فكانت إعادة الانتخابات فرصة لأن يترشح فيها أردوغان، فيفوز ويصير عضوا بالبرلمان، ومن ثَمَّ يتنازل له عبد الله غل عن موقع رئيس الوزراء فتتشكل حكومة جديدة برئاسته ويأخذ فيها عبد الله غل منصب وزير الخارجية[1]، ويبدأ في تركيا من هذا اليوم (١٤ مارس ٢٠٠٣م) عصر جديد.

تكشف القراءة العامة لسياسة الحزب في الفترة المبكرة من تأسيسه وتصدره أنه عمل علىٰ تحويل كل تهديد إلىٰ فرصة؛ فمن ذلك:

١- أنه استثمر حالة ما بعد ١١ سبتمبر ليقدِّم نفسه بوصفه الإسلام المعتدل الذي ينافي التطرف والإرهاب والذي يمكن التلاقي معه بشأن قيم الديمقراطية والحريات وعلمانية الدولة والليبرالية الاقتصادية ومن ثمَّ يجب دعمه وإسناده للتقليل من حالة التطرف ولإثبات أن الغرب لا يعادي الإسلام كدين أو المسلمين كأمة[2].

٢- أنه استثمر الرغبة القديمة المقيمة للسياسة التركية في الانضمام للاتحاد الأوروبي للقيام بإصلاحات هيكلية في مجال الحقوق والحريات التي تتيح فرصة أوسع لرفع المظالم عن الأكراد والأقليات من ناحية[3]، ومن ناحية أخرىٰ تدعم تقليم أظافر «الدولة العميقة» وفي القلب منها: العسكر التركي[4]،

---

(١) بسلي وأوزباي، **قصة زعيم**، ص٣٩٥، ٣٩٦.

(٢) Paul Wolfowitz: **Fifth Annual Turgut Ozal Memorial** Lecture, March 13, 2002) Ömer Taspinar, **Turkey's Middle East Policies**, p. 14; Ümit Cizer, **The Justice and Development Party**, p. 7.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص١٩٢، ٢٠٥، ٢١٢ وما بعدها؛ Aydin, Çakır: **Political Islam in Turkey**, p. 3.

(٤) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. xv, 2, 47; Lesser, **Turkey: «Recessed» Islamic Politics**, p. 175; Ömer Taspinar, **Turkey's Middle East Policies**, p. 13.

ونقد روايتهم ورؤيتهم للهوية والتاريخ التركي[١].

٣- أنه استثمر الرفض الغربي في الانضمام للاتحاد الأوروبي في فتح آفاق نفوذ وتأثير واسعة مع دول الشرق الآسيوي والشرق الأوسط، مما يساهم في الابتعاد التدريجي التركي عن «الهوية الغربية»[٢]، كما يساهم في إنشاء خرائط سياسية جديدة تنكمش فيها القوة الأوروبية والأمريكية[٣].

أزمة الجغرافيا في تركيا:

للجغرافيا في تركيا قصة درامية مثيرة، بعضها صنعته يدر القدر وبعضها صنعته يد البشر، فموقع تركيا الجغرافي من حيث المضايق والسواحل والجبال والخلجان والجزر يرسم بنفسه طرق التقاء وانتقال ووسائل تحكم وحماية في سائر المنطقة المحيطة، ثم جاءت الاتفاقيات السياسية في سيفر ثم لوزان فرسمت خطوطا حدودية تفصل المساحات البرية واتفاقيات تحكم عمل المضايق البحرية، فصُنِعت كثير من النقاط المتوترة برا وبحرا والتي يُتوقع أن تتحول إلىٰ نقاط ساخنة في أي وقت.

تبلغ مساحة تركيا ٧٨٣.٥ كم٢، ٩٨٪ منها يابسة، ويبلغ طول سواحلها ٧٢٠٠ كم، بينما تمتد حدودها البرية بطول ٢٦٤٨ كم، منها ٢٥٢ كم مع جورجيا، ٢٦٨ كم مع أرمينيا، ٩ كم مع أذربيجان، ٤٩٩ كم مع إيران، ٣٥٢ كم مع العراق، ٨٢٢ كم مع سوريا، ٢٠٦ كم مع اليونان، ٢٤٠ كم مع بلغاريا.

إشكالية الموقع المتميز:

تُعرف تركيا جغرافيا بأنها «مركز العالم»، فموقعها هو النقطة الأقرب التي تلتقي عندها القارات الثلاث التي تمثل العالم القديم جميعا إلىٰ ما قبل اكتشاف

---

(١) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٢١٧.

(٢) Rabasa and Larrabee, **The Rise of Political Islam**, p. xiv.

(٣) كرم أوكتم، **الأمة الغاضبة**، ص٢٥٧.



الأمريكتين. فمن حيث الجغرافيا، تقع تركيا عند التقاء البحار الثلاثة الأهم في العالم: البحر المتوسط وبحر إيجه والبحر الأسود، وعاصمتها تسيطر علىٰ المضيق الوحيد للبحر الأسود الذي ينفذ به إلىٰ المياه الدافئة. ولطالما كان البحر المتوسط ساحة الصراع الحضاري الأهم في العالم، كذلك فإن الذي يسيطر علىٰ بحر إيجه الحافل بالجزر والأرخبيلات يتحكم في الطريق بين الشمال والجنوب.



ثم إن خرائط السياسة والاقتصاد أضافت إلىٰ تركيا أهمية مضاعفة، فتركيا في التاريخ الحديث والمعاصر تمثل نقطة التقاء المشاريع الحضارية المتصارعة، كما أنها تمثل المعبر الرئيسي لخطوط وإمدادات الطاقة والمواد الخام التي تُتَبادل بين الشرق والغرب. ولا يمكن لدولة في هذا المكان إلا أن تكون إمبراطورية، فتزداد بموقعها قوة إلىٰ قوتها، أو أن تكون مسرحا لمطامع ومعارك الأقوياء من حولها.

١- عند التقاء البحار الثلاثة:

باختصار وتركيز يصف روبرت كابلان موقع تركيا الجغرافي بقوله: «لكونها

تتشارك حدودها مع اليونان في الغرب، وإيران في الشرق، وبلغاريا في الشمال الغربي، والعراق في الجنوب الشرقي، وأذربيجان في الشمال الشرقي، وسورية في الجنوب، إضافة إلىٰ أن أكثر من نصف الأناضول يقع علىٰ سواحل البحر الأسود أو البحر المتوسط، فإن تركيا تقع حقا علىٰ مسافة واحدة من أوروبا وروسيا والشرق الأوسط»[(١)].

وأما موقع تركيا الجيوسياسي فيصفه أحمد داود أوغلو بهذه العبارة: «تقع تركيا في موقع مركزي من مناطق العبور، ولساحات صراع النفوذ للقوىٰ البرية والبحرية بين خطي شرق - غرب، وشمال - جنوب. وتتقاطع في تركيا النقاط التي تربط الكتلة البرية الأوروآسيوية المركزية مع البحار الساخنة وإفريقيا علىٰ خط شمال - جنوب من خلال منطقتي عبور بريتين هامتين هما: البلقان والقوقاز، ونقاط عبور بحرية تتمثل في المضايق. بالإضافة إلىٰ المناطق التي تربط أوراسيا مع منطقتي الشرق الأوسط وقزوين اللتين تعتبران مركزا للمصادر الجيواقتصادية. أما في اتجاه شرق - غرب، فتعتبر شبه جزيرة الأناضول هي أهم حلقة في سلسلة حزام شبه الجزر الاستراتيجي الذي يطوِّق القارة الأوروآسيوية»[(٢)].
ويضيف، في معرض حديثه عن الدول التي تمثل ثقلا إقليميا، أن السمة الأهم التي تميز تركيا عن ألمانيا، روسيا، مصر، إيران «تتمثل في كونها الدولة الأقرب إلىٰ القارات الثلاث التي تشكل القارة الأم أفروأوراسيا. فتركيا حاضرة بأراضيها في قارتي آسيا وأوروبا، وذات ساحة جوار مع إفريقيا عبر البحر المتوسط. وبتعبير

---

(١) روبرت كابلان، **انتقام الجغرافيا: ما الذي تخبرنا به الخرائط عن الصراعات المقبلة وعن الحرب ضد المصير**، ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم علي، سلسلة عالم المعرفة ٤٢٠ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير ٢٠١٥)، ص٣٤٩.

(٢) أحمد داود أوغلو، **العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية**، ترجمة: محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل، ط٢ (الدوحة: مركز الجزيرة للأبحاث؛ بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠١١)، ص١٤٢.

موجز فإن تركيا دولة أوراسية وجار مباشر لإفريقيا، ولا يوجد في قارة أوراسيا دولة أخرىٰ بخلاف تركيا تتمتع بهذه الوضعية المركزية المتميزة»[١].

وبالإضافة إلىٰ الموقع التركي المتميز، فإن موقع عاصمتها أشد تميزا، فاسطنبول «مرفأ آمن يتيح الوصول إلىٰ منطقة البلقان والبحر المتوسط وشمال إفريقيا، بالإضافة إلىٰ كونها محطة لطرق القوافل الآتية من بلاد فارس والقوقاز وما وراءها»[٢]، وهي بهذا الوضع «مدينة شرق أوسطية، ومدينة أوروبية شرقية، ومدينة للبحر الأسود، ومدينة للبحر المتوسط»[٣]، ولقد «كانت القسطنطينية بطبيعتها مطمعًا للجميع، كأن الجغرافيا والتاريخ قد أعداها لتكون عاصمة لإمبراطورية عظيمة. فالمدينة الواقعة علىٰ طرف شبه جزيرة مثلثة، تحيطها المياه من ثلاث جهات. فإلىٰ الشمال منها يمتد مرفأ بعرض كيلومتر واحد وطول ستة كيلومترات يسمىٰ القرن الذهبي... وإلىٰ الشرق منها يوجد البسفور، ذلك الممر المائي الضيق الذي يفصل أوروبا عن آسيا، وإلىٰ الجنوب منها يوجد بحر مرمرة، ذلك البحر الداخلي الصغير الذي يربط بين بجر إيجة والبحر الأسود. لذلك كانت المدينة حصنا طبيعيا وميناء عميقا منقطع النظير، تمتع بالوصول السهل بحرا إلىٰ إفريقيا والبحر المتوسط والبحر الأسود، كما أنها كانت تقع أيضا علىٰ تقاطع الطرق البرية الرئيسة بين أوروبا وآسيا، وحوضي الدانوب والفرات. كأن موقعها خُلق لكي يكون مصب الثروة من أربعة أركان الكرة الأرضية»[٤]، بل لم تتعرض مدينة لعدد الهجمات ونوبات الحصار التي تعرضت لها القسطنطينية:

---

(١) أحمد داود أوغلو، **العمق الاستراتيجي**، ص٦١١.

(٢) روبرت د. كابلان، **انتقام الجغرافيا**، ص٣٤٤.

(٣) أحمد داود أوغلو، **العمق الاستراتيجي**، ص٦١١.

(٤) فيليب مانسيل، **القسطنطينية التي اشتهاها العالم ١٤٥٣ - ١٩٢٤ (الجزء الأول)**، ترجمة: د. مصطفىٰ محمد قاسم، سلسلة عالم المعرفة ٤٢٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يوليو ٢٠١٥)، ص٢٤، ٢٥.

من القوط والهون والسلاف والأفار والفرس والعرب والبلغار والروس والبجناك وحملة صليبية نظمتها البندقية[١].

٢- عند البوسفور:

نظرة عابرة إلىٰ الخريطة تكشف أن البحر الأسود ذي المساحة الكبيرة مخنوق تماما بمضيقين صغيرين مفتاحهما في تركيا هما البسفور والدردنيل، وهكذا ألقت الأقدار في يد تركيا قدرة علىٰ التحكم في بحر واسع، وبقدر ما كانت هذه الهدية الجغرافية ثمينة ولا تقدر بثمن في لحظات القوة بقدر ما كانت أزمة كبرىٰ وموقفا عصيبا في لحظات الضعف. إن البحر الأسود ليس له منفذ سوىٰ مضيق البسفور، وهو ما يعني أن كافة الدول المطلة علىٰ ساحلة مضطرة تمامًا وبلا بديل آخر إلىٰ تأمين الملاحة في البسفور لنشاطها الاقتصادي.



(١) فيليب باسيل، القسطنطينية (الجزء الأول)، ص٢٦، ٢٧.

عندما كانت الدولة العثمانية قوية كان تحكمها في البسفور يعطيها قوة نفوذ عسكري وسياسي هائلة، وحينئذ كانت ضفاف البحر الأسود -إلا قليلا- تابعة للدولة العثمانية إما مباشرة أو بالولاء الإسلامي.

لكن الموقف تغير تمامًا ضمن عوامل تاريخية متعددة:

١- لقد ظهر في مسرح السياسة الاتحاد الروسي الذي بدأ من موسكو، والذي ظل يتقدم ويقوىٰ في زمن ضعف وتراجع الدولة العثمانية حتىٰ صار مسيطرا علىٰ سائر الساحل الشمالي من البحر الأسود، وصار تحكم تركيا في البسفور إمساكا بخناق العملاق الضخم وتحكما في نشاطه البحري الاقتصادي والعسكري معًا.

٢- ظهر في ذات الحقبة تفاعلات الثورة الصناعية التي استلزمت جمع الكميات الهائلة من الموارد وطرحت إلىٰ السوق كميات هائلة من البضائع التي تحتاج تسويقا وتوزيعا، ونشط وتضاعف حجم التجارة العالمية، فعندئذ صار استغلال موانئ البحر الأسود ليس مصلحة روسية فحسب بل هي مصلحة عالمية تتداخل فيها العديد من الدول التي تحتاج إلىٰ الموارد الروسية والسوق الروسية كذلك.

٣- بالرغم من اعتماد بطرس الأكبر للتغريب وفرضه بكل شراسة علىٰ الشعب الروسي إلا أن العلاقات الروسية الغربية لم تكن في أحسن أحوالها سوىٰ حلفا اضطراريا، فقد بُنِيَت سياسات الطرفين علىٰ العداء للآخر، وهذا ما ساهم كثيرا في إطالة عمر الدولة العثمانية حيث لم يتفق أعداؤها علىٰ وراثة تركتها فبقي الحال علىٰ كونها «الرجل المريض» الذي يحافظ الجميع علىٰ مرضه لانتزاع ما أمكن من تركته كما يحافظ الجميع علىٰ بقائه لأن موته قد يُشعل حروبا هائلة.

هذه التفاعلات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تجري بين الأطراف

الثلاثة: العثمانيون والروس والغربيون إنما كانت تتركز علىٰ هذا المضيق الذي تحول من نقطة قوة ونفوذ إلىٰ نقطة ضعف كبيرة، وكان بند سلامة الملاحة في البسفور علىٰ الدوام حاضرا في مختلف أنواع الاتفاقيات: الاقتصادية واتفاقيات التحالف واتفاقيات الهزيمة وإنهاء الحروب أيضًا.

ولما وقعت الحرب العالمية الأولىٰ وانهارت الدولة العثمانية، شحذ الأعداء سكاكينهم للتمزيق، فقد «اتفق الوفد الأمريكي إلىٰ مؤتمر السلام في باريس مع لويد جورج (رئيس الوزراء البريطاني) علىٰ أن القسطنطينية والمضايق التي تقع عليها أبلت العالم بالكثير من المتاعب، وكبَّدت البشرية خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة دماء ومعاناة أكثر من أي بقعة أخرىٰ علىٰ وجه الأرض (!!!)»[1]، ثم نشأت فيما بعد الجمهورية التركية سُوِّي وضع مضيق البسفور في اتفاقية لوزان (١٩٢٣) ثم منترو (١٩٣٦) التي لا تزال سارية رغم انتهاء مدتها.

٣- عند حافة المشاريع الإمبراطورية:

كانت تركيا، منذ زمن ضعف الدولة العثمانية وحتىٰ سقوط الاتحاد السوفيتي، حاجزا بين المشروعيْن الغربي والروسي، ومنذ حوالي القرن من الزمان كتب الشيخ رشيد رضا الفقيه والسياسي المعاصر لتلك الفترة يقول: «ولقد اشتهر لدىٰ الخاص والعام أن الدولة البريطانية كانت ظهيرة للخلافة العثمانية التركية، وما ذلك إلا لعلمها أنه صورية وأنها هي التي تنتفع بإظهار صداقتها لها، وكان رجال هذه الدولة الداهية أعلم الناس بأن هذه الدولة قد دَبَّ في جسمها الانحلال، وأنها سائرة في طريق الفناء والزوال، وإنما كانوا يحاولون

---

(١) فيليب مانسيل، **القسطنطينية التي اشتهاها العالم ١٤٥٣ - ١٩٢٤ (الجزء الثاني)**، ترجمة: د. مصطفىٰ محمد قاسم، سلسلة عالم المعرفة ٤٢٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ٢٠١٥)، ص٢٢٣.

أن تبقىٰ حصنًا بين القيصرية الروسية المخيفة بسرعة تكونها ونموها، وبين البحر الأبيض المتوسط علىٰ شرط أن تكون قوة هذا الحصن بما وراءه من المساعدة البريطانية لا بنفسه، وقد بيَّنا هذا في المنار من قبل، وأن الغازي أحمد مختار باشا وافقنا علىٰ أن قاعدة الدولة البريطانية في السياسة العثمانية: أن لا تموت الدولة ولا تحيا»[1].

وكان الموقع الجيوسياسي الحرج للقسطنطينية (اسطنبول) من بين أهم الدوافع للتفكير البريطاني في «صناعة مشروع خلافة» في الجزيرة العربية لنقل الخليفة والخلافة ونفوذها علىٰ المسلمين من اسطنبول التي يصعب السيطرة عليها والتي يشتهيها الجميع إلىٰ الحجاز الواقع عمليا تحت سيطرتها، وبينما تجتهد بريطانيا في إيجاد طريقة لئلا تقع اسطنبول في يد الروس أو الألمان عند نهاية الحرب اقترح كيتشنر أن تدعم بريطانيا الرأي القائل بأن الخليفة يجب أن يكون من الجزيرة العربية مهد النبي محمد -ﷺ- إذ موقعها البعيد عن ساحة الصراع الإمبراطوري مع السيطرة البريطانية علىٰ سواحلها سيُمَكِّن بريطانيا من التحكم بالإسلام وعزل الخليفة عن منافسيها الأوروبيين[2].

كذلك فإن إنشاء إسرائيل نفسها إنما هو تعبير عن ولادة كيان وظيفي في نقطة من نقاط الاحتكاك الحضاري، فعند منتصف القرن التاسع عشر فكرت أوروبا -وعلىٰ رأسها بريطانيا- في حل «توطين اليهود في فلسطين» الذي يخلصها من مشاكلها الثلاثة الكبرىٰ دفعة واحدة: المشكلة اليهودية الداخلية، والدولة العثمانية «المسألة الشرقية» بتقسيمها وزرع كيان معاد في قلبها، وقطع

---

(١) محمد رشيد رضا، **الخلافة الإسلامية**، مجلة المنار، شعبان ١٣٤١هـ (= مارس ١٩٢٣). ثم أعيد نشر مقالاته في الخلافة في كتاب «الخلافة»، انظر: محمد رشيد رضا، **الخلافة**، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٤) ص١٢٤.

(٢) ديفيد فورماكين، **سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ - ١٩٢٢**، ترجمة: أسعد كامل إلياس، ط١ (لندن - قبرص: رياض الريس للكتب والنشر، ديسمبر ١٩٩٢)، ص١٠٩.

الطريق علىٰ التمدد الروسي في الشرق. وخرجت فكرة «إسرائيل» في ذلك الوقت من ساحات الأدباء والمتدينين والدراويش اليهود لتكون موضوعة علىٰ جدول أعمال السياسة والصحافة[١].

وحين هُزِمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولىٰ ثم تأسست الجمهورية العلمانية متخلية عن ميراثها الإمبراطوري لم يكن هذا ليمثل حلًّا في حقيقة الأمر، فمهما كانت قدرة المستبد ووحشيته فإنه أعجز من أن يحذف التاريخ والجغرافيا، فصارت تركيا من نقاط المعاناة التي يفرضها الخلاف بين مفهوم «القومية» المعاصر ومفهوم «النفوذ» التاريخي.

يشرح ذلك أحمد داود أوغلو، فيذكر أن العالم المعاصر يتشكل بناء علىٰ مفهوم «القومية» وهو الذي يظهر في هذه الحدود القانونية التي رُسِمت بين الدول والتي ينتهي عندها حكم السلطة، إلا أن الواقع الطبيعي يكشف عن أن كثيرا من هذه الحدود لا تعبر بصدق عن مفهوم القومية كما تشكلت عبر التاريخ والثقافة واللغة والاقتصاد، وهكذا فإن «عناصر الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الاقتصادية، التي تتكامل مع بعضها لتشكيل الحزام الجيوسياسي، والتي تختلف بدورها عن مفهوم الحدود الفاصلة بين الدول، أنشأت معها علىٰ طول هذا الحزام الجيوسياسي احتمالات لصراعات سيادة يمكن أن تظهر في أي وقت. وقد تسبب عدم الانسجام بين الحزام الجيوسياسي والحدود القانونية في حصول أغلب الصراعات الحدودية بين الدول القومية التي ظهرت بعد تفكك الإمبراطوريات الاستعمارية. وتلعب الخطوط الجيوسياسية الأمامية، المدعمة بالعناصر الثقافية والتاريخية المتراكمة لأي مجتمع، دورا مهما في تشكيل وضع هذا المجتمع في الساحة الدولية. علىٰ سبيل المثال، إن الاختلاف بين الخطوط

---

(١) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ٦/ ١٥٣ وما بعدها

الأمامية الجيوسياسية المعبرة عن الذهنية الاستراتيجية الألمانية، المرتبطة بالهوية الألمانية وتاريخ الإمبراطورية الرومانية - الجرمانية المقدسة، وبين واقع الحدود الألمانية القانونية الفعلية، قد تسبب في حدوث حربين عالميتين في الماضي»[١].

ومن هذا المنظور ربما تكون تركيا نقطة من أعقد النقاط الجغرافية علىٰ مستوىٰ العالم، فهي وريثة الإمبراطورية العثمانية الواسعة التي تحمل تاريخا طويلا وقويا من العلاقات والصلات الثقافية مع الشعوب الإسلامية، ولكن لحظة ضعفها الحالية جعلتها تقع هي بذاتها عند حافة التنافس بين مشروعين إمبراطوريين جديدين هما: المعسكر الغربي الذي يتمدد ويعيش واحدة من أزهىٰ لحظات قوته بعد انتصاره في الحرب العالمية الأولىٰ ثم الحرب العالمية الثانية، والمعسكر الشرقي الذي يحقق تمددًا واسعًا في الجزء الشرقي من العالم ويحمل لواء الشيوعية من الصين حتىٰ منتصف أوروبا ويتمدد جنوبا في وسط آسيا وفي إفريقيا.

وهكذا تقع تركيا في نقطة تمثل بالنسبة للجميع اختلافا بين الحدود القومية القانونية وبين مساحات النفوذ والتمدد. ومما زاد المشكلة تعقيدا أن تركيا كانت ضمن المعسكر الغربي بينما هي بحكم الجغرافيا واقعة في قلب محيط من نفوذ المعسكر الشرقي، فهي محاطة من سائر جهاتها بدول تابعة -بدرجات متفاوتة- للاتحاد السوفيتي!

إن وجود تركيا عند حافة المشاريع الإمبراطورية يتسبب بطبيعة الحال في تهديدات أمنية عسكرية لكونها -لا سيما في حال ضعفها الذي عانت منه منذ تأسيس الجمهورية وما قبلها- مسرحا تدور عليه معارك المشاريع المتنافسة بداية من أعمال المخابرات وانتهاء بالقواعد العسكرية، وهو ما يطرح بدوره

---

(١) أحمد داود أوغلو، **العمق الاستراتيجي**، ص٣٧.

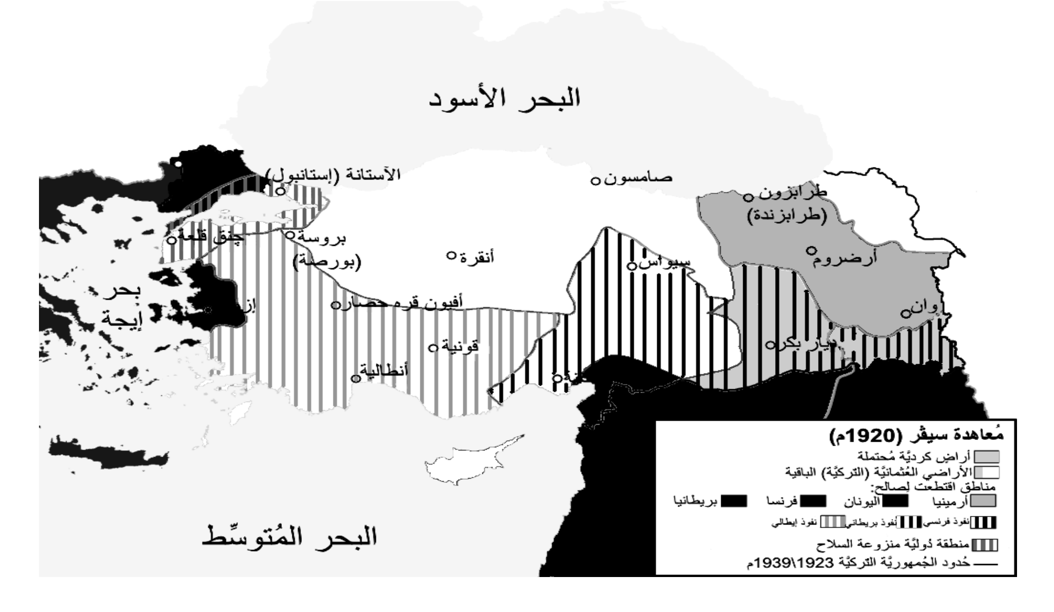
تهديدات أخرىٰ فكرية واجتماعية إذ تنشأ في هذا المسرح معارك أخرىٰ في مجال الفكر والسياسة والتوجه، وتستقطب المشاريع الكبرىٰ ما أمكنها من شرائح مجتمعية أو قطاعات نخبوية ووسائل إعلام وغيرها. ولذلك كثرت مصادر التهديد من وجهة نظر السياسي التركي، بداية من التهديدات العسكرية والأمنية من جهة الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه علىٰ الحدود، ومرورا بتيارات اليسار التي تنتشر في الجامعات والشرائح الاجتماعية فضلا عن النخب الثقافية، وانتهاء بالمشكلة الكردية التي تداخل فيها المدّ اليساري مع الهوية القومية والنزعة الانفصالية.

المحيط المعادي لتركيا:

مجرد النظر إلىٰ خريطة اتفاقية سيفر التي تقسمت فيها الأناضول بين «الجيران» يشير إلىٰ حقيقة وضع المحيط الجغرافي المعادي لتركيا. ومما زاد من وضوح هذه الحقيقة لدىٰ العقل الجمعي للأتراك هو أن الجمهورية الحديثة بُنِيَت أساسا علىٰ شرعية أنها استردت هذه الأراضي من «الجيران الأعداء»، أي أن كل لحظة فخر عاشت عليه الجمهورية كانت في وجهها الآخر لحظة ترسيخ لعداوة الجيران وتذكيرا بأطماعهم «المهزومة» علىٰ يد مؤسسي الجمهورية!

لقد كان هذا المحيط المجاور لتركيا من أهم أسباب هزيمة الدولة العثمانية، كان بيئة خصبة للتدخل الأجنبي بما له معها من صلات دينية أو عرقية أو حتىٰ صلة الرغبة المشتركة في إضعاف الدولة العثمانية، ولذلك كانت دول الغرب -بما فيها روسيا- حاضرة دائما في التمردات العرقية والقومية والدينية التي تنشب في الشرق أو الغرب، وحين وقعت الهزيمة بالدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولىٰ قامت اتفاقية سيفر علىٰ قاعدة من هذه الأوضاع لتزيد في تقسيم الدولة العثمانية فلا يُترك لبقيتها إلا جزءا محصورا في وسط الأناضول. إلا أن الترتيبات التالية أفضت إلىٰ توسيع هذه الرقعة حتىٰ حدود

تركيا الحديثة، لكنها لم تُفْضِ إلىٰ تغير في شأن العداوات القائمة المحيطة بالجغرافيا التركية.



خريطة سيفر

وجد حزب العدالة والتنمية نفسه في مطلع الألفية الثالثة وقد ورث عددا من العداوات التاريخية، منها عداوات موروثة منذ زمن الدولة العثمانية، كما في حالة روسيا وأرمينيا وجورجيا وبلغاريا واليونان وإيران، ومنها عداوات مورثة من زمن الجمهورية الأتاتوركية كما في حالتي العراق وسوريا مع استمرار العداء مع روسيا وإيران وإن غابت الدولة العثمانية لأسباب أخرىٰ.

١- عداوات العثمانيين:

ثار سؤال العداوة منذ ما قبل غروب الدولة العثمانية: تُرىٰ لماذا لم تستطع الدولة العثمانية أن ترسخ وجودها في المناطق التي فتحتها في شرق أوروبا؟ والجواب في هذا يطول، ونحن نميل فيه إلىٰ من قالوا بأن السبب الرئيس في ذلك كان تخلِّي الدولة العثمانية عن اللسان العربي وبقائها علىٰ اللسان التركي

مما كانت له آثار بعيدة علىٰ رسوخ الإسلام والحضارة في تلك المناطق التي فتحها الأتراك، فامتنع علىٰ القوة التركية أن تستفيد بالمدد والمخزون البشري والحضاري الهائل الذي كان سيتوفر لها إن تعربت[(١)].

وقد ترتب علىٰ هذا أن بقيت الأرض التركية في موقع «الطرف» لا «القلب» حضاريا، ليست كدمشق أو بغداد أو القاهرة مثلا، حيث كل مدينة من تلك العواصم الحضارية كان بينها وبين أعدائها مسافات بعيدة من الأرض الإسلامية ذات الحضور البشري الإسلامي الكثيف، بخلاف القسطنطينية التي اضطرت وحدها أن تحمل عبء الجهاد بصورة مركزية عن الثغور الإسلامية، وهو أمر يستحيل أن يستمر قرونًا طويلة بنفس الكفاءة، فكان لا بد من الانهيار في النهاية، إلا أنه انهيار يجعل عاصمة الخلافة نفسها في قبضة الأعداء التاريخيين، فمدن الثغور لا تصلح أن تكون عواصم، وهذا ما دفع بعض رجال الإصلاح إلىٰ القول بأن الخطأ العثماني كان في اتخاذ عاصمة قريبة من أرض العدو وهي بمثابة المستعمرة القابلة للاسترداد[(٢)].

وهكذا كان مفهوما لماذا تشكل حول الدولة العثمانية محيطٌ معادٍ، سَهُل أن يكون في لحظات ضعفها وانهيارها من أسباب حصارها وتراجعها وتمكين عدوها. إلا أن هذا المحيط كان يرجع إلىٰ مركزين أساسين هما: **العداء المسيحي الإسلامي** الذي تحمله الدول الغربية وروسيا وتثير به الحدود الشمالية والغربية

---

(١) انظر: جمال الدين الأفغاني، **الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الحسيني**، تحقيق: السيد هادي خسروشاهي، ط١ (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢)، ٦/ ١٩٠ وما بعدها (الخاطرات)؛ محمد رشيد رضا، **الدولة العلية ومكدونية، ورأي في الإصلاح**، مجلة المنار، ٦/ ٤٣٣؛ محمد رشيد رضا، **الجنسيات العثمانية واللغتين العربية والتركية**، مجلة المنار، ٢١/ ٥٠١ وما بعدها؛ محمد جلال كشك، **القومية والغزو الفكري**، (بدون بيانات نشر)، ص١٧٧.

وانظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ**، ط١ (القاهرة: دار التقوي، ٢٠١٧)، ١/ ٣١٤ وما بعدها.

(٢) جمال الدين الأفغاني، **الآثار الكاملة**، ٦/ ١٩٠، ١٩١ (الخاطرات).

والشمالية الشرقية والجنوبية الغربية والتي تشمل (روسيا، وأرمينيا، جورجيا، بلغاريا، اليونان). و**العداء الشيعي السني** الذي مثلته الدولة الصفوية في إيران.

أولًا: العداء المسيحي الإسلامي:

لقد رأت روسيا نفسها وريثة الأرثوذكسية التي تلقت ضربة قاصمة بفتح العثمانيين القسطنطينية (عاصمة الأرثوذكسية العالمية)، وصارت الكنيسة الروسية هي التي تضطلع بهذا الدور، وبدأت روسيا تتحول إلىٰ إمبراطورية منذ بطرس الأكبر الذي حكمها ثلاثا وأربعين سنة انتهت بموته عند نهاية الربع الأول من القرن الثامن عشر، في ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية قد غادرت عصر القوة وبدأت عصور الضعف، لذا فسرعان ما أخذت روسيا في التمدد علىٰ حساب الوجود الإسلامي في المناطق الممتدة شمال البحر الأسود، وهو الوجود القديم منذ الحملات المغولية واستقرار القبيلة الذهبية التي أسلمت ونشرت الإسلام في تلك الأنحاء، فهو وجود إسلامي من حيث الدين وتركي من حيث العرق الأصلي. ثم صار التمدد الروسي ينزاح علىٰ جانبي البحر الأسود من الشمال إلىٰ الجنوب في القوقاز شرقا والبلقان غربا، وكان يندفع إلىٰ تلك الأنحاء حاملا سلاح القومية السلافية والمسيحية الأرثوذكسية. وفي كل هذا التمدد كانت تندلع الحروب برا وبحرا، واضطرت الدولة العثمانية أن تدخل في تحالفات مع القوىٰ الأوروبية التي التقت معها في هدف منع روسيا من التمدد نحو الشرق، للخلاف العرقي مع السلاف والديني مع الأرثوذكسية الروسية[1].

---

(١) للمزيد في تاريخ العلاقات الروسية التركية، انظر:

أحمد نوري النعيمي، **العلاقات التركية الروسية: دراسة في الصراع والتعاون**، ط١ (عمّان: دار زهران، ٢٠١١)؛ أكمل الدين إحسان أوغلي (إشراف)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، نقله إلىٰ العربية: صالح سعداوي، (اسطنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩٩م)، ١/ ٦٥ وما بعدها، ٧١ وما بعدها، ٨٢ وما بعدها، ٩٤ وما بعدها، ١٠٣ وما بعدها، ٢٢٨، ٢٢٩.

وعلىٰ الجبهة الأخرىٰ، فأوروبا تؤرخ لنهاية العصور الوسطىٰ بتاريخ فتح القسطنطينية، أي أن النهضة الأوروبية بدأت منذ تلك اللحظة، ولقد كان خط المواجهة الرئيسية العالمية في ذلك الوقت هو خط الحروب العثمانية الأوروبية، فمنذ البزوغ الإسباني والبرتغالي في أقصىٰ غرب أوروبا -أوائل عصر النهضة- كان هذا بزوغا للمواجهات مع العثمانية، إذ اندفع الإسبان والبرتغال فطردوا المسلمين من الأندلس ثم هاجموا سواحل المغرب والشمال الإفريقي ثم التفوا حول قارة إفريقيا لتهديد الساحل الجنوبي للجزيرة العربية مع أهداف معلنة بالدخول إلىٰ البحر الأحمر وتهديد الحرمين، ومع أن الدولة العثمانية في ذلك الوقت كانت في أوج قوتها إلا أنها لم تستطع إنجاد الأندلس ولا الدفاع عن سواحل المغرب لبعد المسافة، إلا أنها دعمت الجهاد البحري في الأجزاء الغربية من البحر المتوسط، ثم إنها أزالت سلطنة المماليك وتولت حماية الجزيرة العربية وخاض الأسطول العثماني معارك ضارية في خليج عدن والخليج العربي. وتزامنت هذه المعارك مع الصحوة التي شهدتها الجمهوريات والمدن الإيطالية وتمويلها للحروب المتكررة مع العثمانيين في شرق البحر المتوسط وفي شرق أوروبا، ثم انتهت هذه الموجة الغربية وانهارت إسبانيا والبرتغال ليبدأ عصر الثورة الصناعية وتبزغ قوتا بريطانيا وفرنسا، وتبدأ الموجة الثانية من محاولات الاحتلال التي لم يواكبها العثمانيون بالتقدم العلمي والحضاري كما لم تنشأ قوة جديدة في العالم الإسلامي تحمل العبء مع العثمانيين أو تحل مكانهم، فها هنا بدأ عصر الهزائم للدولة العثمانية. وما إن وصل التاريخ إلىٰ منتصف القرن التاسع عشر حتىٰ صارت الدولة العثمانية هي «الرجل المريض» الذي يتنازع حوله الأقوياء، ويثيرون القلاقل في أنحائه بدعم حركات التمرد القومية والمسيحية في شرق أوروبا عسكريا وماليا وسياسيا، وهو الدعم الذي يصل أحيانا إلىٰ إعلان الحرب العسكرية، حتىٰ حكمت بين أولئك الأقوياء الحربُ العالميةُ الأولىٰ لتخرج الدولة العثمانية منها مُقَطَّعَة الأوصال محتلة

الأنحاء، مُجبرة علىٰ توقيع اتفاقية سيفر، وهي الاتفاقية التي تعلن انسحاق الإمبراطورية العثمانية العظيمة وموتها، وكل ميراث أتاتورك «البطولي» إنما يتمثل في قدرته علىٰ تجاوز سيفر والحصول علىٰ ما هو أحسن منها في لوزان.

وطوال هذه القرون كانت الصورة التركية المرسومة في الآداب الأوروبية غاية في الشناعة، تداولت علىٰ رسمها الصحافة السياسية والروايات الأدبية وكتابات الرحالة والمسرحيات، وفيما بعد محطات الإذاعة والتلفزة وأفلام السينما[١]، وهي «صورة كانت تهدف إلىٰ تذكية حماسة شعوب الغرب لمواجهتها ولتبرير سلوكه الإجرامي ضدها، بل تجاهره في تفتيتها وتمزيقها»[٢]. حتىٰ إن بعض الأوروبيين ممن قدِّر لهم البقاء في تركيا استنكر هذه الصورة ونقدها بعنف[٣].

ثانيًا: العداء الشيعي السني:

وأما العداء مع إيران فتبدأ فصوله الكبرىٰ بالحملة العنيفة التي شنها تيمور لنك علىٰ أراضي العثمانيين والموقعة الكبرىٰ في أنقرة التي هزم فيها العثمانيين وأَسَر سلطانهم بايزيد «الصاعقة»، ما سبَّب فوضىٰ عارمة في أنحاء الدولة استطاع السلطان محمد الأول أن يسيطر عليها فيعيد ضبط أمورها. وأما خلفاء تيمور ففشلوا في متابعة أمجاد أبيهم فتأسست في إيران الدولة الصفوية علىٰ أنقاض التيمورين، وبدأت في التوسع الكبير في عهد الشاب الطموح الشاه إسماعيل

---

(١) انظر في صورة الأتراك في الآداب الأوروبية:
رنا قباني، **أساطير أوروبا عن الشرق: لفِّقْ تَسُد**، ترجمة: د. صباح قباني، ط٣ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٣)، ص٤٠ وما بعدها؛ روبير مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: بشير السباعي، ط١ (القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٣)، ١/ ٨ وما بعدها.

(٢) محمد جلال كشك، **القومية والغزو الفكري**، (بدون بيانا نشر)، ص٢٩.

(٣) انظر مثلا: كاثرين برننج، **شاي تركي من فضلك: تركيا من الماضي إلىٰ الحاضر**، ترجمة: أسماء عادل، ط١ (القاهرة: دار النيل، ٢٠١٣)، ص١٥، ١٢٧، ١٢٨.

حتىٰ هيمن علىٰ فارس والعراق وديار بكر وتمدد نفوذه إلىٰ ثورات شيعية في كوتاهية وبورصة، فاندفع العثمانيون لحرب الشاه فوقعت المعركة الشهيرة تشالديران التي انتصر فيها سليم الأول علىٰ الشاه وواصل تقدمه حتىٰ استولىٰ علىٰ عاصمته تبريز، ثم أعاد ابنه سليمان الاستيلاء علىٰ تبريز ومنها استولىٰ علىٰ بغداد، ثم حقق مراد الثالث (حفيد سليمان) انتصارات حاسمه اضطر معها الشاه عباس إلىٰ توقيع معاهدة سلام تنازل بها عن أنحاء واسعة للعثمانيين وبألا يجهروا بسب الخلفاء الراشدين الثلاثة. ثم أعاد الصفويون شن الحرب في عهد الشاه عباس فاستعادوا ما كان لهم زمن إسماعيل علىٰ مراحل متعاقبة وفشل العثمانيون في تعديل الموقف إلا لما مات عباس واضطربت الأحوال علىٰ الصفويين في جهة الشرق فاستعادوا بغداد في آخر مواجهة كبرىٰ زمن السلطان مراد الرابع، ثم حلَّ الضعف بالدولتين وصارت بينهما مدة من السلم لاضطراب الأمور عليهما في الشرق بالنسبة للصفويين وفي الغرب بالنسبة للعثمانيين، فانتهت المواجهات الكبرىٰ لحساب مواجهات أقل عنفا تبادل فيها الطرفان الاستيلاء علىٰ المدن، ويمكن القول بأنها انتهت بالاعتراف الذي أقر به نادر شاه -القائد العسكري الكبير في أواخر الدولة الصفوية، ووراثها، ومؤسس الدولة الأفجارية- بالسلطان العثماني كخليفة، ولكن هذا الاعتراف لم يكن يعني إلا نهاية المواجهات العسكرية بعد قرنين ونصف القرن[1].

لم تكن الحروب العثمانية الصفوية كأي نزاع عسكري، بل إن خطورتها كامنة في أنها لبست دروع المذهبية، فلقد حرص الصفويون منذ إسماعيل علىٰ

---

(١) انظر في تفصيل العلاقات العثمانية الصفوية:

وجيه كوثراني، **السلطان والفقيه: جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية القاجارية**، ط٤ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، إبريل ٢٠١٥م)، ص٧١ وما بعدها؛ أكمل الدين إحسان أوغلي (إشراف)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ١/ ٣٠ وما بعدها، ٦٤ وما بعدها.

التدرع بالتشيع حتىٰ كان دخولهم إلىٰ بغداد يعني هدم قبر أبي حنيفة، وهو الفقيه الذي تسير الدولة العثمانية علىٰ مذهبه، وإنشاء ضرائح علىٰ قبور أئمة آل البيت، وقتل علماء السنة، وإظهار شعائر الشيعة. فتمددت آثار الحروب لتكون حاجزا دينيا قائما وعاليا بين المذهبين، ولم تكن إيران نفسها قبل عهد إسماعيل ذات أغلبية شيعية، فالتشيع لم يغلب علىٰ إيران إلا مع الدولة الصفوية، فكان اتخاذ الصفويين للتشيع وفرضه وحمل الناس عليه مما جعل الصراع العثماني الصفوي صراعا مذهبيا دينيا، ونقله من مستوىٰ العداء السياسي الذي تجرفه الأيام إلىٰ مستوىٰ العداء التاريخي الذي تتوارثه الأجيال.

٢- عداوات الكماليين:

لم تتوقف العداوات المحيطة بتركيا مع انهيار الدولة العثمانية، بل علىٰ العكس أضيفت إليها عداوات جديدة. ونستطيع أن نرىٰ رافديْن يُغَذِّيان هذه العداوات التي ورثها الأتراك من فترة الجمهورية، هما: هيمنة القومية علىٰ تلك الحقبة، وموقع تركيا في الحرب الباردة.

أولًا: عصر القومية:

منذ ظهرت القومية في المنطقة الإسلامية فُتِح بابٌ لم يكن معروفًا في الحقبة العثمانية من العداء، فقد سيطرت فكرة القومية، ضمن سياقات عديدة غذتها سياسات الاحتلال، علىٰ العرب والأتراك والإيرانيين، وقد استقرت الهيمنة القومية علىٰ السياسات التركية والإيرانية والعربية واضحة صريحة عدائية حتىٰ نهاية القرن العشرين علىٰ الأقل.

ففي تركيا لم يزل ميراث أتاتورك العنيف في إعلاء القومية التركية سائدًا لا يجرؤ أحد علىٰ المساس به حتىٰ إن سياسة أردوغان التي تمثل انقلابًا علىٰ الأتاتوركية لا تحاول هدم القومية التركية بقدر ما تحاول توسيعها وتبديل ثوبها ليكون أكثر اتساعًا ورحابة فيشمل العنصر التركي الممتد من شرق آسيا

ووسطها، وهو الثوب الذي احتوىٰ في زمن العثمانيين شعوبا آخرين كالبلقان والعرب، فهي بذلك سياسة امتداد وتوسيع لا سياسة نقض وانقلاب.

وفي إيران أُحْيِيَت القومية الفارسية وميراثها وفخرها في عصر الشاه، وأقيمت الاحتفالات الباذخة التي تجدد سيرة الحضارة الفارسية وأخبار الأكاسرة، ثم لما وقعت ثورة الخميني عند مطلع الخمس الأخير من القرن العشرين لم تتزحزح سياسة الفخر الفارسي بل تعمقت وتجذرت بالرغم من الشعار الديني المرفوع، ولا تزال اليد العليا حتىٰ في شأن المرجعيات الدينية للقومية الفارسية.

ولا يختلف الحال في العالم العربي فما إن رحل الاحتلال حتىٰ استلم الحكم منه مجموعات العسكريين الذين رفعوا لواء القومية العربية، وكانت أعنف وأصلب هذه القوميات تلك التي جاورت تركيا في العراق وسوريا فلقد بقيت القومية مسيطرة علىٰ النظام السياسي فيهما حتىٰ بعد غروبها في بلاد أخرىٰ كمصر والجزائر.

وبالإضافة إلىٰ هذا فإن قومية أخرىٰ واقعة علىٰ الحدود العربية التركية الإيرانية، وهي القومية الكردية، وهي تلك القومية التي انتعشت في عصر القوميات نفسه وصارت لها أحلام في دولة كبرىٰ مستقلة، ثم وجدت نفسها بلا دولة، وإنما مشتتة بين الدول الأربع، ولها في كل دولة قضية اضطهاد قومي ثم صار لها تاريخ من التجارب المأساوية في تلك البلدان فهي لا ترىٰ لمشكلتها حلًّ إلا أن تقيم دولتها المستقلة، وهو الحلُّ الذي تتفق القوميات الثلاث علىٰ رفضه وإجهاضه بكافة الوسائل بداية بالعنف العسكري وحتىٰ التهميش والإهمال الاقتصادي والاجتماعي، وسائر ما بين هذين من وسائل التنكيل والإضعاف.

لذلك فقد صارت الحدود التركية مع إيران والعراق وسوريا حدود حرب باردة مصغرة بين القوميات الثلاثة التي يرث كل منها نحو الآخر تاريخا من

العداء الذي بُنِيَتْ عليه شرعية النظم السياسية الحاكمة وتغذيه وسائل الإعلام ومناهج التعليم. ثم إن وجود قومية رابعة في هذه المنطقة جعلها بيئة قابلة للاشتعال في كل وقت، وجعل الأكراد سلاحا تستخدمه كل دولة ضد الأخرىٰ وتخشىٰ منه كل دولة كذلك.

ثانيًا: عصر الحرب الباردة:

تداخل مع رافد العداء القومي رافدٌ آخر، ذلك هو الموقع الذي اتخذه العلمانيون الأتراك منذ فترة الجمهورية من ساحة الصراع الدولي، لقد توجهوا من البداية نحو الغرب، فيما توجه أغلب المحيط التركي بما فيه العربي نحو المعسكر الشرقي، ومع أن الغرب لم يبادلهم في أي لحظة ودًّا حقيقيا رغم كل ما فعلوا له فإن الحصاد الوحيد الذي تحقق هو تعمق العلاقات الملتهبة علىٰ الحدود التركية التي كانت تابعة لنفوذ الاتحاد السوفيتي، وهكذا صارت تركيا هي خط الدفاع الأمامي للمعسكر الغربي.

كذلك فإن العلاقة المبكرة مع إسرائيل والارتباط معها بتحالف عسكري وعلاقات اقتصادية، وذلك كله من لوازم وجود تركيا في المعسكر الغربي، وضعت تركيا في موضع معادٍ للعرب طول الوقت، ولإيران من بعد قيام الثورة، بل إن الانقلاب العسكري (١٩٨٠م) كان في طليعة دوافعه منع قيام أربكان من تكرار تجربة الخميني في إيران.

لم تستطع أي حكومة تركية حتىٰ نهاية الألفية الثانية أن تغير شيئا جوهريا في السياسة الخارجية التي رسَّخها الكماليون وحافظ عليها العسكريون أصحاب الدولة العميقة، بما في ذلك عدنان مندريس أو سليمان ديميريل أو نجم الدين أربكان، بل ظلت تركيا تؤدي دورها كما هو المتوقع من دولة عاملة في نطاق الاستراتيجية الغربية خلال الحرب الباردة، حتىٰ حين بدت بعض الفرص التي تمنحها مساحة أوسع للتوجه نحو العالم العربي -كالثورة النفطية، والتصلب

الغربي في قضية قبرص بما يضاد الموقف التركي، وتحول عدد من الدول العربية إلىٰ موقع الحليف الأمريكي- لم يكن لتركيا دور يُمكن أن يُطلق عليه تغير جوهري في السياسة الخارجية، إذ «لا تزال قوة الأيديولوجيا الدولتية [العلمانية الكمالية] ومخاوف الماضي [الإسلامي العثماني] وقوة الأمل بالمستقبل [الالتحاق بالغرب] تجعل الجغرافية التاريخية والتقليدية عاملا أقل تأثيرا في تقرير السياسة الخارجية»[١].

وما إن انتهت الحرب الباردة حتىٰ كان العمل الأول للنظام العالمي الجديد ذي القطب الأمريكي الواحد هو غزو العراق، وحينئذ اتخذت السياسة التركية التي كان يقودها أوزال قرارها بالدعم والمشاركة في هذه الحرب إلىٰ جانب الأمريكان، كان لهذا القرار فوائده الداخلية في تقوية الرئيس المدني ضد العسكر التركي، ولكنه كان بالنسبة للسياسة الخارجية انسجاما جديدا مع النظام الغربي ووضعا لعداوة جديدة مع الشعور العام العربي. وصحيحٌ أنه كان تغييرا في السياسة الخارجية التركية بالاهتمام بالخارج بعد سياسة العزلة والانكفاء الأتاتوركية إلا أن الأمر لم يستمر مع وفاة أوزال المفاجئة والتي عاد بعدها الجناح المدني في السياسة التركية ليكون أضعف أمام الجناح العسكري فتعطَّل مشروع أوزال في الاهتمام التركي بالتمدد الخارجي. ولم تكن فترة العام الواحد التي قضاها أربكان -ذي الطموح الإسلامي الواسع في إقامة علاقات إسلامية- كافية ليبدأ فيها مشروعه أصلا، فظلت تركيا إلىٰ ما قبل عصر أردوغان أقرب إلىٰ الانكفاء والعزلة منها إلىٰ المساهمة الواسعة في أحوال الإقليم والعالم.

المحصلة:

بالإمكان إذن أن نتصور طبيعة العداوات التي تختزنها الذاكرة الجمعية

---

(١) عقيل سعيد محفوض، **السياسة الخارجية التركية: الاستمرارية - التغيير**، ط١ (الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص٥٠.

للسياسة الإقليمية في هذه المنطقة جرّاء هذيْن الرافديْن: القومية والحرب الباردة، وكيف يعزز كل منهما الآخر ويقويه ويدعمه، لا سيما والمنطقة الملتهبة لا تفتأ تفرز من الأحداث والمواقف -باعتبارها ساحة حرب بالوكالة- ما يجعل كل حدث سياسي ذا آثار متعددة داخلية وخارجية بحيث يكون أي موقف سياسي علىٰ قدر من الدقة والحرج بحيث يستحيل معه الخروج بلا خسائر.

ويمكننا أن نضرب مثالا علىٰ هذا التعقيد بالمسألة الكردية، فعلىٰ حين ينظر لها الأوروبيون باعتبارها مشكلة تركية ينظر لها الأمريكان باعتبارها مشكلة عراقية، وكلا النظرتين تسبب أزمة لتركيا، فالأوربيون يضعونها علىٰ مائدة التفاوض للانضمام للاتحاد الأوروبي فضلا عن الأعداد الكردية الكبيرة الموجودة في ألمانيا والتي تبلغ نصف المليون كردي، والأمريكان يتصرفون أحيانا بغير إطلاع تركيا حتىٰ أنهم جمعوا زعماء شمال العراق (البارزاني والطالباني) في واشنطن بعيدا عن تركيا وتوقيع اتفاقية واشنطن (١٧ سبتمبر ١٩٩٨) علىٰ الرغم من أن تركيا كانت وسيط العلاقة بينهم وبين الأكراد، وهو اللقاء الذي أسفر عن ترتيب الأوضاع لاستقرار الكيان الكردي في شمال العراق بما يلقي بتأثيراته علىٰ الوضع في تركيا، وهو ما دفعهم لفتح علاقة مع الحكومة في بغداد واستضافة طارق عزيز لإحداث التوازن المطلوب، ثم إن دخول الأمريكان المباشر علىٰ الملف يجعله مفتوحا علىٰ استعماله ضد تركيا في حالات تضارب السياسات الأمريكية التركية في ملفات أخرىٰ كقاعدة إنجرليك[1].

وبالمحصلة فقد «كانت تركيا بنفس عزلة إسرائيل تقريبا في الشرق الأوسط» ينظر إليها «كدولة منبوذة»[2] في محيطها، لها مشكلات مع سوريا بدأت منذ انتهاء الانتداب الفرنسي حول إقليم هاتاي أو لواء الإسكندرونة، الذي تمكنت

---

(١) أحمد داود أوغلو، **العمق الاستراتيجي**، ص٤٨١.

(٢) روبرت كابلان، **انتقام الجغرافيا**، ص٣٥٥، ٣٥٦.

تركيا من ضمِّه إليها بينما تراه سوريا قطعة محتلة من أراضيها. وحدث غير مرة أن حشدت تركيا قواتها علىٰ الحدود السورية، ونفذت مناورات عسكرية، وبلغت حافة الحرب مع سوريا لدعمها حزب العمال الكردستاني. ولها مشكلات مع العراق تبدأ بالشعور التركي بأن الموصل قد انتزعت منها، ولا تنتهي بغزو العراق في حرب الخليج الثانية، وهو الموقف الذي غلَّ يد العسكر الأتراك داخليا عن الانقلاب علىٰ تورجت أوزال كما سبق بيانه، وقد اشترطت تركيا علىٰ الحلفاء ضمان إقامة منطقة آمنة للأكراد في شمال العراق -منعا لتدفق الهجرة الكردية إليها، بما يحمله هذا من تفجير وإثارة مضاعفة للمشكلة الكردية- مع تعهدهم بعدم السماح بقيام أي كيان سياسي كردي(١).

هكذا تبدو واضحةً خلاصة التاريخ في الجغرافيا، لقد عملت الحوادث علىٰ صناعة محيط معادٍ أمام السياسي التركي من كافة الجهات، لقد كان ملف العداوات التاريخية متخما أمام حزب العدالة والتنمية حين تولىٰ الحكم ٢٠٠٢م، وإن أي محاولة لتوسيع الدور التركي ومدِّه إلىٰ خارج الحدود تثير بطبيعتها توترات تاريخية قديمة، وتجعل عمل السياسي بالغ الحرج والصعوبة.

أزمة الجغرافيا البشرية:

لم يكن التنوع البشري في تركيا يمثِّل أزمة إلىٰ ما قبل تأسيس الجمهورية،

---

(١) انظر في العلاقات التركية العربية بعد تأسيس الجمهورية:

وليد رضوان، **العلاقات العربية التركية: دور اليهود والتحالفات الدولية والإقليمية وPKK في العلاقات العربية التركية العلاقات السورية - التركية نموذجا**، ط١ (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠٠٦)؛ أندرو راثميل، **الحرب الخفية في الشرق الأوسط: الصراع السري علىٰ سورية ١٩٤٩ - ١٩٦١**، ترجمة: عبد الكريم محفوض، ط١ (سلمية: دار سلمية، ١٩٩٧)، ص١٨١؛ ناظم يونس عثمان، **الأكراد علىٰ طرفي الحدود العربية التركية: التداعيات السياسية والاجتماعية**، ضمن: سمير العيطة... [وآخ.]، **العرب وتركيا: تحديات الحاضر ورهانات المستقبل**، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مايو ٢٠١٢)، ص١٨١.

لكن إرادة «خلق قومية تركية» علىٰ النمط الغربي، وكذلك إنشاء حدود بين الدول -منذ معاهدة لوزان وما بعدها- حوَّل ذلك التنوع البشري إلىٰ مشكلة مستطيرة لا تفتأ تثير الأزمات السياسية والاجتماعية، ذلك أن كل مُكوِّن بشري تحول بذاته إلىٰ مشكلة أو مشروع مشكلة، ثم تحولت العلاقة بينه وبين غيره من المكوِّنات إلىٰ مشكلة جديدة أو مشروعا لها.

وبالإضافة إلىٰ هذا فإن تكوَّن تلك المشكلات جرىٰ في منطقة لا تمثل فقط حدودا بين تركيا وجيرانها، بل حدودا بين المعسكرين الشرقي والغربي، أي أنها كانت حدودا لصراع إمبراطوري متفجر، مما جعل كل هذه المكوِّنات وسائل قابلة للاستعمال والإشعال والاختراق.

باختصار صنعت الحدود السياسية التي لم تنسجم مع حدود طبيعية أو عرقية جملة من التوترات والمشكلات، ثم صنعت السياسة القومية القاهرة جملة أخرىٰ من التوترات والمشكلات، فوجد المضطهدون أنفسهم في حاجة إلىٰ مختلف أنواع الدعم لنصرة قضيتهم المحلية، فوجد فيهم الصراع الإمبراطوري وسائل ممكنة لخدمة الصراع العالمي. وحتىٰ حين انتهت الحرب الباردة لم يكن هذا كافيا لإنهاء المشكلات المحلية، لأنها مشكلات عضوية بنيوية وليست مجرد ناتج من نواتجه.

أولًا: التنوع البشري في تركيا:

تحتضن تركيا «كافة العناصر البشرية العديدة المختلفة التي تعيش فوق أرضها. ولذلك، تعد تركيا من حيث العنصر البشري وساحة التأثير الجغرافي دولة شرق أوسطية، وبلقانية، وقوازية، وتنتمي إلىٰ آسيا الوسطىٰ، وبحر الخزر، والبحر الأبيض المتوسط، والخليج، والبحر الأسود، كل ذلك في آن واحد»[(١)]. هذا الوصف الوقور من سياسي أكاديمي يمكن أن نراه بصيغة أخرىٰ تلقائية

(١) أحمد داود أوغلو، **العمق الاستراتيجي**، ص٦١١.

عند زائرة أوروبية تتحدث عن ملامح البشر في تركيا، «فتجد أتراكا بأنوف كبيرة راجعة إلىٰ منطقة البحر الأسود، وأتراكا طوال القامة بشعر أشقر، وأتراكا آسيويين قصار القامة أقوياء البنية يتميزون بعظام وجنة مرتفعة وأعين مائلة تعود بكل وضوح إلىٰ الفرس، وتجد أتراكا بشرتهم بيضاء وشعرهم أشقر أو أصهب من نسل الشراكسة الذين عاشوا بين حريم السلطان، وهناك أتراك بشرتهم بلون زيت الزيتون وبنيتهم بنية البحر الأبيض المتوسط النحيلة، وأكراد بأنوف كبيرة وأعين أخاذة نابضة بالحياة، إلىٰ جانب الفلاح الأناضولي القوي المكتنز مدبب الرأس ذي القسما الحادة»[1].

وطبقا لإحصائية (٢٠١٦)[2]، فإن تركيا تشهد ارتفاعا واضحا في نسبة الشباب، إذ يشكل الشباب بين ١٥ إلىٰ ٢٤ عاما نسبة ١٦٪، بينما يشكلون بين ٢٥ إلىٰ ٥٤ عاما نسبة ٤٣٪ من مجمل السكان. وهذا الارتفاع في نسبة الشباب بقدر ما يكون قوة وإضافة في أجواء الاستقرار، بقدر ما يمثل تهديدا في لحظات الأزمة أو إذا فشلت الدولة في احتواء الطاقة الشبابية.

كذلك فإن هذه الطاقة الشبابية يُنظر إليها كتهديد تركي، إذ تحتل تركيا المرتبة الـ ١٧ عالميا من حيث تعداد السكان، فوجود كتلة كبيرة يغلب عليها فئة الشباب في ذلك الموقع الجغرافي الخطير يمثل سببا قد تتخوف منه أوروبا التي توصف بالقارة العجوز لضعف نسبة الشباب من بين تعداد السكان[3].

من حيث الأديان، وعلىٰ غير ما هو متوقع من دولة كانت زاخرة بالتنوعات،

---

(١) كاثرين برانج، **شاي تركي**، ص١٢٩.

(٢) التي ينشرها كتاب الحقائق الصادر عن المخابرات المركزية الأمريكية.

(٣) علي حسن باكير، **تركيا: الدولة والمجتمع.. المقومات الجيوسياسية والجيو استراتيجية**، ضمن: علي حسن باكير [وآخرون]، **تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج**، تحرير: محمد عبد العاطي، ط١ (الدوحة - بيروت: مركز الجزيرة للدراسات - الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠)، ص١٩.

يمثل الإسلام ٩٩.٨٪[1]، فيما لا تمثل الأديان الأخرىٰ سوىٰ ٠.٢٪ معظمهم مسيحيون ويهود. ويرجع هذا الانخفاض الحاد في نسبة غير المسلمين إلىٰ سياسات التهجير التي جرىٰ تنفيذها منذ ما بعد الانقلاب علىٰ السلطان عبد الحميد الثاني، فمن بين عدد سكان الأناضول الذي كان -في أواخر الفترة العثمانية- يتجاوز عشرة ملايين نسمة كان من بينهم نحو ٤.٥ ملايين مسيحي، تعرض قسم منهم للتهجير والتطهير خلال فترة الاتحاديين، كما طَهَّرَ الكماليون عشية سحقهم اليونانيين تركيا في العام ١٩٢١ مليون نسمة إضافية منهم، عبر التهجير وتبادل السكان. واتبع الكماليون منذ العام ١٩٢١ سياسة «تطهير» تركيا من السكان المسيحيين. وقد تطورت هذه السياسة بعد قيام الجمهورية إلىٰ سياسة تطهير قومي منهجية تقوم علىٰ أساس خفض عدد المسيحيين إلىٰ نحو ٥٪ من حجم السكان في المدن، وتحولت فعليا خلال فترة قصيرة إلىٰ خفض عددهم في المدن والأرياف والجبال معا، مطيحة في ذلك ما نصت عليه معاهدة فرانكلان بويون عام ١٩٢١ بين الكماليين وفرنسا، التي كرستها معاهدة لوزان باحترام حقوق الأقليات. وكان خفض عدد المسيحيين إلىٰ ٥٪ يعني التخلص من ٤ ملايين، وبقاء نصف مليون فقط... وكان ما حدث حتىٰ نهاية العام ١٩٣٩ أن عملية التطهير الفعلية فاقت ما استهدفته السياسة الإثنية القومية التركية نفسها. فخلال فترة قصيرة وصل عدد السكان غير المسلمين في تركيا الجمهورية إلىٰ لا شيء تقريبا[2]. ومن اللافت للنظر أن الدراسات الغربية[3] تهتم كثيرًا بنسبة التدين في تركيا حتىٰ وإن كان موضوع الدراسة لا يتعلق بهذا الأمر، ففي

---

(١) الأرقام والإحصائيات في هذا المبحث مأخوذة من كتاب «الحقائق» الصادر عن المخابرات المركزية الأمريكية، إلا إن أشرنا إلىٰ مصدر آخر.

(٢) جمال باروت، **التكون التاريخي**، ص١٢٧.

(٣) محمد إلهامي، **كيف تنظر الدراسات الغربية إلىٰ التجربة التركية**، تركيا بوست، بتاريخ ٢٦ نوفمبر ٢٠١٥م.

دراسة روبرت كابلان «انتقام الجغرافيا» -كمثال- يذكر عند تعرضه لتركيا أن نحو ثلثي الأتراك من الطبقة العاملة الحضرية يصلون يوميا، فضلا على معظم الأتراك في المناطق الريفية، كما ارتفعت هذه النسبة المئوية أكثر خلال السنوات الأخيرة[١].

ومن حيث الأعراق يمثل الأتراك ٧٠ إلى ٧٥٪ بينما يمثل الأكراد ١٩٪ وتشغل الأعراق الأخرى ما بين ٧ إلى ١٢٪ من نسبة السكان، و«تضم تركيا نصف أكراد العالم، وأكثر من نصف مساحة تركيا يقطنها الأكراد، ونظرا إلى المقومات التي تمتلكها تركيا من موقع جيواستراتيجي وجيوسياسي وطبيعة نظامها الديمقراطي ودورها الفاعل والمؤثر في السياسة الإقليمية والدولية، فإن تأثيرها ودورها في رسم مستقبل الكرد في بقية الدول المجاورة لا يمكن تجاهلهما»[٢].

ثانيًا: ظهور المشكلات القومية:

لم يكن التنوع العرقي والثقافي يمثل مشكلة طوال التاريخ العثماني[٣]، بل ضُرب المثل بالدولة العثمانية في التسامح واحتضان واستيعاب التنوعات المختلفة، بل كانت الدولة العثمانية ملجأ المضطهدين دينيا ومطمح الأنظار

---

(١) روبرت كابلان، **انتقام الجغرافيا**، ص٣٤٧.

(٢) ناظم يونس عثمان، الأكراد على طرفي الحدود العربية – التركية، ص١٨٠.

(٣) انظر في الخبرة العثمانية تجاه الأقليات والتنوع البشري:

أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، **الدولة العثمانية المجهولة: ٣٠٣ سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية**، ط١ (اسطنبول: وقف البحوث العثمانية، ٢٠٠٨)، ص٦٦١ وما بعدها؛ يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: عدنان محمود سليمان، ط١ (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٩٠)، ٢/ ٤٦٥ وما بعدها؛ محمد عاكف آيدين، **الطوائف غير المسلمة**، ضمن أكمل الدين إحسان أوغلي (تحرير)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ١/ ٤٩٧ وما بعدها؛ هاملتون جب وهارولد بوين، **المجتمع الإسلامي والغرب**، ترجمة ودراسة: أحمد إيبش، ط١ (أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢)، ٢/ ٢٩٥ وما بعدها.

للمحرومين من الحرية، فأصحاب «كالفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك علىٰ الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة، ونظر البروتستانت في سيليزيا إلىٰ تركيا بعيون الرغبة، وتمنَّوْا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجئوا إلا إلىٰ تركيا في نهاية القرن الخامس عشر، كذلك نرىٰ القوزاق Cossaks الذين ينتمون إلىٰ فرقة المؤمنين القدماء -الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية- قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية... وحتىٰ إيطاليا كان فيها قوم يتطلَّعون بشوق عظيم إلىٰ الترك؛ لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبلُ بالحرية والتسامح، اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظِلِّ أية حكومة مسيحية»[1].

إنما صارت تلك التنوعات مشكلة وأزمة حين صار النظام علمانيا يعمل علىٰ «تتريك» كل شيء ليجعل منها قومية علىٰ غرار القوميات الأوروبية، فيما أطلق عليه عملية «خلق السلالات»، حيث يُجبر الناس أن يكونوا علىٰ النحو الذي تريده الدولة، والدولة في حالتنا هذه تنطلق من فكرة لا من واقع، فكرة صناعة قومية تركية لم يكن لها وجود موضوعي في الواقع! وهكذا بينما كانت القومية في أوروبا حلا يضع الحد لنزاعات قومية فيجعل حول كل قومية حدودا تحتفظ بالاستقال والسيادة، كانت القومية أزمة في الأرض المسلمة حيث لم يعاني المسلمون من أزمات وحروب قومية، كما أن تقسيم بلاده لم يتم وفق سياق طبيعي بل وفق اتفاقيات المحتلين، فقُسِّمت الأعراق التي تتحد في كل

---

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخران، (القاهرة: مكتبة النهضة الوطنية، ١٩٨٠)، ص١٨١ وما بعدها.

شيء كالدين واللغة والثقافة ونمط الحياة بين أكثر من دولة، كل دولة منها تريد من أولئك القوم أن ينخلعوا من أنفسهم ليكونوا علىٰ وفق الأغلبية فيها، وربما لا يكون نظام الحكم يمثل الأغلبية بحال وإنما جاءت به كذلك رغبات المحتلين.

وباختصار، فالقومية التي كانت حلا في أوروبا تمنع القوميات من الصراعات الدائمة فيما بينها، كانت هي أداة التفجير والتوتير التي وُضِعت علىٰ المجتمع الإسلامي الذي لا يعاني من مشكلة القوميات والتنوع العرقي فأنبتت فيه دوامة صراع لا يزال يعاني منها حتىٰ هذه اللحظة.

وفيما يخص تركيا تحديدا كانت المشكلة الكردية هي صاحبة نصيب الأسد من هذا الصراع الذي افتعلته فكرة القومية متضافرة مع السياسات والترتيبات الاستعمارية، فقد مثلت كردستان التركية أكبر أجزاء كردستان الجغرافية البالغة مساحتها ٤١٠ آلاف كم مربع. ووفق الخريطة التي أعدها مارك سايكس، واعتمدتها عصبة الأمم عام ١٩٢٠ عشية وضع معاهدة سيفر، بلغت مساحة كردستان تركيا ١٦٥.١٠٠ كم مربع، وقطن فيها نحو نصف أكراد كردستان. لقد أسست سايكس بيكو لتقسيم الأرض العثمانية إلىٰ بلدان عربية وحرمت الأكراد من كيان مماثل، ثم جاءت معاهدة سيفر التي عملت علىٰ تمزيق عنيف للدولة العثمانية فمَنَحَتْ مساحة في الجنوب الشرقي للأكراد، لكن معاهدة سيفر التي أوجدت «حلم الكيان الكردي المستقل» لم تستمر، بل نسختها معاهدة لوزان التي صنعت حدودا جديدة لا تنبني علىٰ أي أساس جغرافي أو تاريخي أو ثقافي، بل علىٰ موازين القوىٰ، ومن ثَمَّ لم تحل لوزان مشكلات الأقليات بقدر ما خلقت شروطا جديدة لاندلاعها في ظل تخلي الدول الكبرىٰ عن وعودها لهذه الأقليات بالاستقلال وإنشاء كيانات سياسية وفي ظل السياسات القومية القاهرة للأقليات. فمن هنا نشأت الأزمة الكردية

التي بدأت بانتفاضات وثورات دموية ومرَّت بحروب عصابات تقوم بها منظمات مسلحة، فصار الملف الكردي يتضخم وتزيد أوراقه حتىٰ صار واحدًا من أعقد وأهم الملفات الموضوعة علىٰ طاولة حزب العدالة والتنمية(١).



(١) للمزيد عن المشكلة الكردية تاريخا وآثارا، انظر:

د. عثمان علي، **الحركة الكردية المعاصرة: دراسة تاريخية وثائقية ١٨٣٣ - ١٩٤٦**، ط٣ (أربيل: مكتب التفسير، ٢٠١١)؛ كمال مظهر أحمد، **كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولىٰ**، ترجمة: محمد الملا عبد الكريم، ط٣ (بيروت - أربيل: دار الفارابي - دار آراس، ٢٠١٣)؛ محمد جمال باروت، **التكون التاريخي والسياسي الحديث للمشكلات الإثنية السورية: المشكلة الكردية نموذجا من الهجرة الأولىٰ إلىٰ «أجانب تركيا»**، ضمن: سمير العيطة... [وآخ.]، **العرب وتركيا: تحديات الحاضر ورهانات المستقبل**، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مايو ٢٠١٢)، ص١٢٣ وما بعدها.

الفصل الثاني

الصين في التاريخ والأدب العربي الإسلامي

مقدمة

يحتاج العرب والصين اليوم للتواصل والتعاون لمصلحة الأمتين كليهما، إذ تجمع بينهما مصالح مشتركة وتواجههما تحديات مشتركة كذلك، ومع أن الصين استطاعت الحفاظ علىٰ وحدتها ووجودها كإمبراطورية فإن العالم الإسلامي لم يعد كذلك، وهو الوضع الذي تحافظ عليه المنظومة الدولية والتي تعد الصين واحدة من أبرز أعمدتها(١).

وحيث كان الأمر كذلك، فإن الحاجة تكون ماسة لمعرفة جذور العلاقة بين الأمتين: الإسلامية والصينية، لتعزيز عنصر الفهم المتبادل، ووصل ما انقطع من العلاقات التي كانت قائمة، وهو القطع الذي ابتدأ بعصر الكشوف الجغرافية ووصول الاحتلال الغربي للسواحل الشرقية، كما أسهم فيه إرادة العزلة والتقوقع لدىٰ بعض الأسر الحاكمة في الصين.

في هذه الورقة نقدم استعراضا موجزا ومكثفا لصورة الصين في التراث العربي الإسلامي، ومتىٰ بدأ الاتصال الإسلامي بالصين، وكيف تكونت صورتها في المخيال الإسلامي، ومنافذ الاتصال التي ساهمت في بناء تلك الصورة.

---

(١) قدمت هذه الورقة إلىٰ مؤتمر «مستقبل العلاقات العربية الصينية والإفريقية - آفاق التعاون»، المنعقد في الخرطوم بتاريخ ٢١، ٢٢ نوفمبر ٢٠١٧.

التاريخ السياسي

الفتوحات الإسلامية:

مع الانطلاقة القوية للفتوحات الإسلامية وصل المسلمون في عصر مبكر إلىٰ حدود الصين، فقبل نهاية القرن الهجري الأول كان قتيبة بن مسلم الباهلي قد فتح بلاد الترك في وسط آسيا جميعها، ودخل مدينة كاشغر، عاصمة إقليم تركستان الشرقية الذي تحكمه الصين الآن. لم يكن إقليم تركستان من بلاد الصين وإنما هو -كما يعبر اسمه «أرض الترك»- من بلاد الجنس التركي المنتشر حتىٰ تلك الأنحاء!

لم تكن الصين بعيدة عن مجرىٰ الفتوحات الإسلامية، بل إن معركة في فتوح بخارىٰ كانت بقيادة كور مغانون التركي الذي كان في الوقت نفسه ابن أخت ملك الصين[1]، إلا أنه لم تقع مواجهات بين الجيوش الإسلامية والصينية، وذلك أن ملك الصين كان من الحكمة بحيث تجنب مواجهة الموجة الهائلة للجيوش الإسلامية، فأرسل إلىٰ قتيبة يطلب وفدا من المسلمين للتحاور، فخرج إليه الوفد وانتهىٰ الأمر بينهم علىٰ مهادنة الإمبراطورية الإسلامية وتقديم الجزية[2]، وبهذا رُسِمت الحدود بين الإمبراطورية الصينية والأمة الإسلامية، فلم يدخل المسلمون إلىٰ الصين فاتحين، وكانت كاشغر هي آخر فتح إسلامي في جهة المشرق. وهكذا تجاورت الأُمّتان الإسلامية والصينية أربعة عشر قرنا!

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ٣/ ٦٧٧.

(٢) الطبري، ٤/ ٣١، ٣٢.

الحروب الإسلامية الصينية:

خلال تلك القرون المتطاولة نشبت بين الأُمّتين القليل من الحروب، وغلب علىٰ العلاقات بينهما التعاون الحضاري والعلاقات السلمية والتجارية. ولا تمدنا المصادر المتوفر بكثير من المعلومات حول تلك الحروب بتفاصيل ترسم لها صورة واضحة، ما يدل علىٰ أنها كانت عابرة مع كونها حاسمة، وظلت حدود الفتح الأول هي الحدود الدائمة بين المسلمين والصين.

بعد فتح كاشغر وقع اضطراب بين قتيبة بن مسلم والخلافة أسفر عن بقاء المشرق علىٰ ما انتهىٰ إليه قتيبة، ثم اضطربت أمور الخلافة كلها بثورة العباسيين علىٰ الأمويين، فنتج عن هذا حلف تركي صيني ضد المسلمين في بلاد ما وراء النهر، فهاجم الحلف الصيني الفرغاني ملك الشاش حيث لم يكن يواليهم فاستغاث ابنه بالمسلمين فأغاثوه، ووقعت معركة كبرىٰ «موقعة طلخ» أو «طالس» انتصر فيها المسلمون، وبها عاد الوضع لما كان عليه، وانتهىٰ الدعم الصيني لقبائل الترك، وغلبت الثقافة الإسلامية علىٰ بلاد ما وراء النهر[1].

ثم يغيب ذكر الصين حتىٰ تظهر مرة أخرىٰ بعد نحو أربعة قرون حين احتل ملكها «كو خان» كاشغر عاصمة تركستان وهزم صاحبَها الخان أحمد بن الحسين (٥٢٢هـ) بمساعدة «الخطا»، وهم الترك الذين ظلوا علىٰ الوثنية في الأنحاء ما بين الصين والتركستان، ولما رجع ملك الصين إلىٰ عاصمته كانت

---

(١) الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق: د. أكرم العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م)، ٣/ ٣٥١؛ الطبري، ٤/ ٣٦٦، ٣٦٩؛ ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفىٰ عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ٧/ ٣٢٤؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عبد الله القاضي، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ٥/ ٩٠؛ وانظر: د. حسن أحمد محمود، **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، ط٥ (القاهرة: دار الفكر العربي، بدون تاريخ)، ص١٧٦، ١٧٨؛ د. عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول**، ط٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٧م)، ص٥٢.

بلاد التركستان قد صارت بيد الخطا، وقد واصل الخطا زحفهم إلىٰ بلاد ما وراء النهر فهزموا خان القرخانيين المسلمين حتىٰ انسحب نحو بخارىٰ وسمرقند، فاستغاث بملوك المسلمين في تلك الأنحاء وأكبرهم سنجر السلجوقي، وانتهىٰ الحال إلىٰ معركة ضخمة بين جيش ملك الصين وقبائل الخطا وغيرهم ضد تحالف الجيوش الإسلامية، وأسفرت المعركة (١ صفر ٥٣٥هـ = ١٦ سبتمبر ١١٤٠م) عن نصر حاسم لملك الصين وحلفائه، امتد بها نفوذهم ليشمل التركستان وبلاد ما وراء النهر لنحو ربع القرن حتىٰ أجلاهم جقري خان عن بخارىٰ وسمرقند ثم انتهىٰ نفوذهم تماما علىٰ يد الخوارزميين بعد نحو سبعين سنة[١].

ثم تغيب الصين مرة أخرىٰ حتىٰ تأتي العاصفة المغولية التي قادها جنكيز خان والتي اجتاحت كل المشرق بما فيه الصين والعالم الإسلامي، وقد أدت هذه العاصفة إلىٰ هجرات واسعة كان من بينها مسلمون فارون من وجهها إلىٰ الصين، وفيما بعد تقسمت مملكة جنكيز خان بين أبنائه، وأسلمت سائر الأقسام: القبيلة الذهبية ومغول الهند وفارس، وبقي القسم الصيني لم يُسلم ملوكه، علىٰ أنه أشيع إسلام ملك الصين -كما نقل القلقشندي[٢] متشككا- وتنوقل هذا بفرح لدىٰ المسلمين، إذ به يكون الإسلام قد بلغ ما بين الخافقين شرقا وغربا، وهو كل العالم المعروف وقتها.

السفارات الإسلامية الصينية:

علىٰ ضفاف تلك الحروب تكونت العلاقات السياسية بين الأمتين الكبيرتين، وتورد رواية شاذة أن العلاقات السياسية بدأت منذ عصر الخلافة الراشدة

---

(١) ابن الأثير، ٩/ ٣٢١ وما بعدها؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ٤/ ٥٢١، ٥٢٢.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا**، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٤/ ٤٧٤، ٧/ ٣٥٦.

بسفارة علىٰ رأسها سعد بن أبي وقاص في زمن عثمان[١]، ثم تبدأ معلومات غائمة عن العلاقات السياسية والسفارات في زمن الأمويين لكنها شذرات غامضة ونادرة، بينما يأتي الوضوح والتفصيل في زمن الخلافة العباسية، حيث نقلت العديد من الروايات أنباء سفارات بين البلاطين أوصلها بعض الباحثين إلىٰ خمسة عشر سفارة، منها سفارة لأبي جعفر المنصور حملت هدايا نفيسة من بينها ثلاثون من الجياد العربية[٢]، وسجلت التواريخ الصينية عدة سفارات عربية إلىٰ البلاط الصيني، مرسلة من أمير المؤمنين (خان المؤمنين = Han- Mi Mo- Mini) أبي العباس (A- bu- lo- ba) وأبي جعفر المنصور (A- Pu Ch'a- fo) وهارون الرشيد (A- Lun)»[٣].

ومع ضعف سلطة الخلافة ظهرت الدول المستقلة علىٰ الأطراف، فكان منها: الدولة السامانية فيما وراء النهر، فكان من أبرز السفارات الإسلامية الصينية سفارة أبو دلف مسعر بن المهلهل الينبوعي إلىٰ الصين والهند بتكليف من نصر بن أحمد الساماني مع بعثة كان أرسلها أمير الصين لخطبة ابنة أمير

---

(١) وذلك أن تاريخ الخلافة الراشدة مشهور وموثق وليس في كتبه ما يشير لهذا، وأغلب الظن أن الخطأ ورد في فهم المؤرخين المعاصرين لما ورد لدىٰ بعض الجغرافيين من أن أول وصول للمسلمين إلىٰ بلاد الصين (علىٰ الأدق: فيتنام، وكانت تابعة للصين لدىٰ الجغرافيين المسلمين) كان في زمن عثمان، وحتىٰ تلك الرواية عن هذا الوصول الأول تبدو شاذة ومفردة. انظر: شيخ الربوة، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، الطبعة القديمة (بطربرغ: الأكاديمية الإمبراطورية، ١٨٦٥م)، ص١٦٨، ١٦٩.

(٢) فيصل السامر، **السفارات العربية إلىٰ الصين في العصور الإسلامية الوسطىٰ**، مجلة آداب المستنصرية، العدد الثاني، ص٣٥٥. نقلا عن: سليمان التاجر، **عجائب الدنيا وقياس البلدان**، تحقيق: د. سيف شاهين المريخي، ط١ (العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٥م)، ص١٢ (مقدمة التحقيق).

(٣) د. عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول**، ص١١٦؛ وانظر: د. حسن أحمد محمود، **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، ص٧١، ٧٢. ويرىٰ الدوري أنها لم تكن سفارات حقيقية، وإنما أراد بعض التجار رفع مكانتهم فقدموا تلك الهدايا الطريفة باعتبارهم سفراء من قبل الخلافة.

بخارىٰ، وسجل أبو دلف أخبار سفارته، فكانت من مصادر الرحالة والجغرافيين من بعده[١].

وبالرغم من أن الدولة العباسية في افتتاح أمرها واجهت الصين في معركة طلخ أو طالس إلا أن ملك الصين استغاث -بعدها بزمن قصير- بالدولة العباسية ضد تمرد عليه سيطر علىٰ بعض العاصمة، فأرسل إليه المسلمون أربعة آلاف جندي استطاع بهم القضاء علىٰ التمرد، وبقي أولئك الجنود في الصين[٢].

وبالعموم، فقد تكونت صورة مهيبة للمسلمين لدىٰ ملوك الصين، فقد كانوا يرون أن الدنيا لأربعة ملوك أعظمهم ملك العرب الذي يُجمعون أنه «أكثرهم مالا وأبهاهم جمالا وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء»، ثم ملك الصين، ثم ملك الروم، ثم ملك الهند، وبقية ملوك الأرض تبع لهم[٣].

ونستطيع القول بأن ضعف مركز الخلافة الإسلامية في بغداد جعل الاتصال الصيني الإسلامي منحصرا في الدول الحدودية في بلاد ما وراء النهر، ثم جاء الغزو المغولي فقرر وضعا جديدا تماما في الاتصال السياسي بين مركز العالم الإسلامي وأطرافه، حتىٰ ليقرر القلقشندي، الأديب الذي عمل كاتبا في بلاط السلطان الظاهر برقوق، أنه لا مراسلات بين سلطان مصر -عاصمة الخلافة حينئذ- وصاحب الصين[٤].

❁❁❁

---

(١) زكي محمد حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ**، ط١ (القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م)، ص٢٨، ٢٩؛ أحمد رمضان أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، (جدة: دار البيان العربي، بدون تاريخ)، ص٤٧؛ سليمان التاجر، ص١٢ (مقدمة التحقيق).

(٢) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م)، ص٣٣٣.

(٣) سليمان التاجر، ص٤٥.

(٤) القلقشندي، ٧/ ٣٥٦.

منافذ الاتصال الإسلامي الصيني

عمل التجاور بين الأمتين كواحد من أوسع منافذ الاتصال بين المسلمين والصينيين، وكان العنصر التركي واسطة كبرىٰ بين الصينيين والمسلمين، فمن أسلم من الأتراك كان علىٰ اتصال مباشر بالصين جغرافيا، كما أن كثيرا من الأتراك انتقلوا إلىٰ مركز الخلافة الإسلامية؛ فمنذ العصر الأموي تدفقت حركة الجواري والعبيد من بلاد الترك بأثر حركة الفتح الإسلامي، ثم ازداد الأمر قوة واتساعا عند نهاية عصر المأمون (الخليفة العباسي السابع) وأخيه المعتصم (الخليفة العباسي الثامن) حيث اعتمدت الدولة الإسلامية علىٰ العنصر التركي في قيادة الجيوش فاستكثرت من استجلاب الأتراك، وكان كثير من أمهات الخلفاء وزوجاتهن تركيات. فكان هذا من عوامل سعة التواصل الإسلامي الصيني، إذ أن كثيرا من هؤلاء كان يجاور الصين ويعرف لغتها وعاداتها.

لكننا نستطيع أن نعد ثلاثة من المنافذ الإسلامية الصينية التي نقلت صورة الصين إلىٰ المسلمين، تلك هي: التجارة، البحث العلمي، الرحلة.

١- التجارة:

اعْتَبَرَ عتبةُ بن غزوان، الذي قاد مسارا ثانيا في فتوح فارس يبدأ من رأس الخليج العربي وينحدر جنوبا إلىٰ منطقة الأهواز، اعتَبَرَ أن فتحه مدينة الأبلة عند رأس الخليج يمثل إنجازا مضافا للدولة الإسلامية، لأن المدينة «مرقىٰ سفن البحر من عمان، والبحرين، وفارس، والهند، والصين»[1]. ومنذ تلك اللحظة وعلىٰ امتداد التاريخ كان الطريق البحري هو الأغزر تجارة لكونه

(١) الدينوري، **الأخبار الطوال**، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربي، ١٩٦٠م)، ص١١٧.

الأكثر أمنا والأقل كلفة، فبالإضافة لكون التركز السكاني الصيني علىٰ السواحل، فإن بين الصين وبلاد العرب من جهة البر مسالك وممالك؛ فأما المسالك فتضاريس جغرافية متنوعة من جبال وسهول وصحار، وأما الممالك فولايات عديدة تتقلب فيها الحوادث وينعكس أثرها علىٰ الأمن طوال تلك المسافة الواسعة. بينما اللافت للنظر أن الخطوط البحرية «لم تشهد طوال تاريخها فكرة السيادة البحرية من أي طرف؛ فقد حافظت علىٰ طابعها السلمي طوال الوقت»(١). وتبدو تلك الفكرة واضحة بقوة لدىٰ أبي جعفر المنصور، الذي كان من عوامل اختياره موقع بغداد أنه «موضع معسكر صالح؛ هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر»(٢). وتشير بعض الدلائل أن الحركة التجارية شهدت قفزة مفاجئة مع ظهور الإسلام، إذ يعبر مؤرخ صيني عن دخولهم بأنهم «جماعات كالطوفان»(٣)، وهو أمر متوقع مع تحول العرب من قبائل متناثرة إلىٰ دولة واحدة قوية وكبيرة.

كان الخط البحري الرئيسي يمتد من سيراف، أهم المدن الساحلية الإسلامية، وينتهي إلىٰ مدينة خانفو (كانتون، جوانج زو Guangzhou) الساحلية في الصين،

---

(١) محسن فرجاني، **العلاقات العربية الصينية: مسار الحوار الحضاري بين العرب والصين في العصر الوسيط**، ورقة في ندوة «العلاقات العربية الصينية» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع معهد دراسات الشرق الأوسط، جامعة شنغهاي الدولية - الصين، في بيروت بتاريخ ٢١، ٢٢ شباط/ فبراير ٢٠١٧م.

ولا نقره علىٰ قول «طوال الوقت»، فقد تغيرت الأحوال وعدم العدل أحيانا فكانت التجارة تتوقف عند مرحلة في منتصف الطريق البحري ليتبادل فيها التجار بضائعهم دون الوصول إلىٰ منتهىٰ الطريق. انظر، المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥م)، ١/ ١٠٩.

(٢) الطبري، ٤/ ٤٥٧ وما بعدها؛ اليعقوبي، **البلدان**، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م)، ص١٢ وما بعدها.

(٣) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ص٣٣٤.

وبقية المدن التجارية علىٰ الساحل هي في حكم المحطات الفرعية الخادمة لهذا الخط الرئيسي. وحفلت تلك المدن بالحركة التجارية حتىٰ قيل في شأن ميناء عدن «لا يخلو أسبوع من عدّة سفن وتجّار واردين عليها (عدن)»[١].

وفي مدينة خانفو تكونت جالية إسلامية كبيرة من التجار وأصحاب الأموال وَجَدَتْ رعاية ومعاملة ممتازة من ملوك الصين، فالبضائع تُحمل إلىٰ ملك الصين فما أعجبه منها أخذه بضعف الثمن في أقصر وقت ولم يظلم فيه، ويدفع التاجر ضريبة مقابل تَكَفُّل الدولة بحفظ ماله، وفوق ما لهم من الحقوق المكفولة للتجار كان لهم رئيس مسلم مُفوض من قبل ملك الصين فيحكم بين المسلمين بشريعتهم، ويخطب فيهم الجمعة، ويصلي بهم العيد، ويدعو للخليفة العباسي[٢]، وسجلت تواريخ صينية أنه قد توفرت لهم ثروة عظيمة وبنوا في كانتون مساكن خاصة لهم علىٰ غير طراز مساكن الصين[٣].

أسهم جميع هذا في ازدهار التجارة الإسلامية الصينية عبر الطريق البحري الذي ظل مستمرا حتىٰ ظهور فاسكو دوجاما ودخول البرتغاليين علىٰ خط الاحتلال مع عصر الكشوف الجغرافية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ولا تزال كثير من آثار السفن الغارقة أمام السواحل الممتدة بين اليمن والصين تشهد للثراء التجاري لهذا الخط البحري، وهي تمثل منجما للأثريين والباحثين في هذا الباب[٤].

---

(١) القلقشندي، ٥/ ٩.

(٢) سليمان التاجر ص٣٦، ٥٠، ٥١.

(٣) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ص٣٣١، ٣٣٢.

(٤) د. معين صادق، **العلاقات الصينية العربية والتجارة الداخلية من القرن السابع إلىٰ القرن العاشر**، مؤتمر «العرب والصين» (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢١ مايو ٢٠١٦م).

٢- البحث العلمي:

أسفرت معركة طلخ (طالس) عن ١٥٠٠ أسير صيني حُمِلوا إلىٰ الكوفة، وظلوا بها أحد عشر عاما، علموا فيها المسلمين كثيرا من الصناعات، وقد ذكر الأسير الصيني (دو هوان) أنهم علَّموا المسلمين المنسوجات الحريرية وصناعة الورق والنقش علىٰ الذهب وعلىٰ الخزف الصيني. وكان المعتصم معجبا بالمصنوعات الصينية فوَجَّهَ الصُنَّاع إلىٰ تقليدها، فتعلموا طلاء الأواني بعجينة بيضاء مزخرفة تشبه الخزف الصيني، وهو ما مَكَّنهم من صناعة مواد عازلة استفادوا منها في صناعة الأدوية، وفي تصديرها إلىٰ مناطق بعيدة وصلت حتىٰ هولندا ولندن، حيث اكتشف في لندن ثمان جرار آتية من دمشق[(١)].

لم يكن أولئك الأسرىٰ أول اتصال علمي بالصين، فالنهضة العلمية التي بزغت منذ العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي بلغت شمسها الصين بطرق متعددة، إذ حضرت الصين في التراث العلمي الإسلامي علىٰ تنوع مجالاته: فنجد للصين حضورا في كتب الأدب والشعر والجغرافيا والتاريخ والأديان والملل والنحل والفلسفة والرحلات والسياسة (أدب الملوك) وطبقات الأمم، بل وفي كتب النبات التي تستكشف عالم النبات وأدويته ومنابته وكتب الحيوان التي تبحث أنواعه وتوزعها وطرائق معيشته وطباعه.

ويبدو طبيعيا لأمة تجاور الصين أن تفيد من تراثها، فلقد « كان العلم يثب علىٰ قدميه وثبا في كل موضع وطئته قدم الفاتح العربي»[(٢)] كما يقول جورج هربرت ويلز، وعمل البحث العلمي الإسلامي في انطلاقته علىٰ تتبع أبواب العلوم وفتح أسرار المجهول، فكثيرا ما وجد نفسه في الصين، فقدم عنها معلومات لم تكن معروفة.

---

(١) د. معين صادق، السابق.

(٢) هـ. ج. ويلز، **موجز تاريخ العالم**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م)، ص٢٠٦.

وقد نقل المسلمون عن الصين إلىٰ سائر العالم صناعة الورق، وأصلها من أسرىٰ صينيين بسمرقند[١]، وكانت قفزة كبرىٰ في الحركة العلمية، فبه تخلىٰ المسلمون ثم غيرهم عن ورق البردي للكتابة[٢]، حيث أمر أبو جعفر المنصور باستبدال الورق به[٣].

٣- الرحلة:

أقدم رحلة في المصادر المتاحة هي وصول المسلمين إلىٰ بلاد الصنف (فيتنام)، وهي داخلة في بلاد الصين عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإليها التجأ العلويون الفارون من سطوة الحجاج الثقفي في زمن الدولة الأموية[٤].

وكان الخليفة العباسي الواثق بالله من محبي الاستكشاف، فأرسل سلام الترجمان في رحلة ليستطلع له موضع السد الذي بناه ذو القرنين حاجزا علىٰ يأجوج ومأجوج، وكان المسلمون يظنون أنه بعد بلاد الصين، وكان سلام يجيد فيما يزعمون ثلاثين لغة، وزعم أنه وصل إلىٰ موضع السد ووصفه، والأغلب أنه وصف شيئًا رآه من حصون الممالك والحضارات القديمة علىٰ أنه السد المطلوب[٥]، إلا أن سلام في رحلته تلك لم يذكر شيئًا عن بلاد الصين، وإنما

---

(١) القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، (بيروت: دار صادر، بدون تاريخ)، ص٥٣٦.

(٢) القلقشندي، ٢/ ٥١٥.

(٣) زيجريد هونكه، **شمس العرب تسطع علىٰ الغرب**، ط١٠ ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٢م)، ص٤٦.

(٤) شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، ص١٦٨، ١٦٩.

(٥) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، (بيروت: دار صادر، ١٩٨٩م)، ص١٦٢ وما بعدها. ويرجح البعض أن حديثه عن السد إنما هو عن سور الصين الشمالي، فيما يرجح آخرون أنها حصون جبال القوقاز عند مدينة دربند. (انظر: زكي محمد حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ**، ص١٥؛ أحمد رمضان أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، ص٤٠)، والأول أقوىٰ وأولىٰ فالمسلمون وصلوا إلىٰ القوقاز مبكرا ويعرفونه جيدا ويتعذر أن يختلط =

انتهىٰ أمره في الذهاب إلىٰ بلاد الخزر، وابتدأ أمره في الإياب من خراسان، وهو ما يدل علىٰ أنه لم يصل إلىٰ بلاد الصين كما توهم من نقلوا عنه من المتقدمين وبعض المعاصرين.

ثم تبدأ صورة واضحة عن الصين برحلة ابن وهب القرشي، وكانت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وهو رجل ركب مع التجار إلىٰ الصين، وهناك أصر علىٰ لقاء ملكها متذرعا إلىٰ ذلك بأنه ابن عم نبي العرب، فتحقق ملك الصين من صدق ادعائه بسؤال التجار العرب في خانفو (كانتون)، ثم سمح له بلقائه، وجرت بينهما محاورة طويلة جرىٰ فيها ذكر الأنبياء وأخبارهم، ونقل ابن وهب براعة الصينيين في الرسم والتصوير حيث عرضوا عليه رسوما للأنبياء تصور أحوالهم: موسىٰ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وعصاه مع بني إسرائيل في البحر، وعيسىٰ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مع حوارييه علىٰ البغلة، ومحمد ﷺ في لباس العرب وعلىٰ الإبل. وكثير من تفاصيل رواية القرشي عضدتها الرحلات التالية[1].

وقد وصل الرحالة الأشهر ابن بطوطة إلىٰ الصين كسفير من سلطان الهند، ووصف كثيرا من أحوالها ومشاهدها، وبرغم قيمتها المهمة إلا أنه شوهها ما

= عليهم أمر دربند فيظنونها آخر المعمور، كما أن وصف السد أحرىٰ أن يكون وصفا لسور الصين، منه بحصون القوقاز، والله أعلم

(١) السيرافي، **رحلة السيرافي**، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩م)، ص٦٠ وما بعدها؛ المسعودي، ١/ ١١١ وما بعدها. ومن الجديد الذي يعضد تلك العناية الصينية بكتب الأديان ما نقله توماس أرنولد عن مؤرخ صيني بأن كتب المسلمين التي حملوها معهم في تجارتهم إلىٰ الصين وُضِعت في بهو بالقصر الإمبراطوري مخصص لكتب الأديان (الدعوة إلىٰ الإسلام ص٣٣٤)، وتحدث الأثري د. معين صادق في كلمته بمؤتمر العرب والصين (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢١ مايو ٢٠١٦) عن مصحف اكتشف حديثا أمر بكتابته ملك الصين ليهديه إلىٰ الخليفة المسلم، إلا أنه امتنع عن ذكر التفاصيل بحسب الاتفاق المعقود بينه وبين جهة الكشف.

وقع فيها من مبالغات وأساطير، وقد اختلف الباحثون حول كونها أساطير نَسَبَها ابن بطوطة لمشاهداته أو هو من خَلْط واختصار ابن جزي كاتب رحلته[١].

وثمة العديد من الرحلات لم يكتب لنا معرفة شيء عنها كرحلة الرحالة العماني أبو أبايضة الصغير في القرن الثالث الهجري[٢]، ورحلة الشريف السمرقندي التي أكثر ابن فضل الله العمري من النقل عنه فيها.

وأسهمت تلك الرحلات في تطور العلم والمعرفة فما من شك في أن المسلمين ساهموا في تعريف بالشرق الأقصىٰ وأفريقية، فضلا عن آفاق دولتهم المتراخية؛ فالرومان كانوا يتخيلون وجود الصين، ولكن الرحالة المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة العصور الوسطىٰ أخبارا أيدتها رحلة ماركوبولو البندقي في القرن الثالث عشر الميلادي»[٣].



(١) انظر في كلام الباحثين فيه: زكي محمد حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ**، ص١٠٣؛ حسين مؤنس، **ابن بطوطة ورحلاته: تحقيق ودراسة وتحليل**، (القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ)، ص١٩٦ وما بعدها.

(٢) د. حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة ١٣٨(الكويت، المجلس الأعلىٰ للثقافة والفنون والآداب، يونيو ١٩٨٩م)، ص٢٠٧.

(٣) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص١٢٧.



صورة الصين لدى المسلمين

قدمت رحلة سليمان التاجر، في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، صورة ممتازة عن الصين في ذلك الوقت المبكر. ورغم كونها مختصرة إلا أنها مكثفة واستوعبت الكثير من صورة الصين: في السياسة والاقتصاد والأخلاق والتقاليد والملابس والطعام والشراب، وهي أول أثر معروف يقدم تلك الصورة المتكاملة. بينما ظلت صورة الصين تتناثر وتجتمع في كتب العلوم المختلفة: المتخصصة والموسوعية.

وأبرز ما يلفت النظر في تلك البذور المبكرة نظامُ «الدولة الحديثة» التي تحصي البشر وأموالهم وتقوم علىٰ الحفاظ عليها وتراقب الطرق والبضائع وتشرف علىٰ التعليم وتستعمل التصوير، وهو ما يجعل فكرة الدولة الحديثة القائمة الآن لا تزيد عن أن تكون تطورا في التقنيات والأدوات فحسب. وهو أمر لا ريب سيُدْهِش من لم يكن يعرفه.

وسعيًا لجمع أجزاء الصورة بما يسمح به المقام فقد اخترنا منها عشرة عناصر فحسب:

١- العدل والسياسة:

احتفىٰ التراث الإسلامي بما لملوك الصين من قوة السياسية وما تحفل به بلادهم من العدل، ووصف أهل الصين بأن «الخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم»[١]، والعقوبة تشمل الجميع فلا ينجو منها أمير ولا صاحب سلطان، بل «ربما جار الملك الذي من تحت يد الملك الأكبر

(١) المسعودي، ١/ ١٠٦.

فيذبحونه ويأكلونه»[١].

ويلفت النظر وصف المؤرخين المسلمين لملك الصين «كو خان» الذي تسبب بالهزيمة الكبرىٰ للجيوش الإسلامية (٥٣١هـ) بالعدل والحكمة والسياسة وكراهية الخمر، إلا أنه لا ينهىٰ عن الزنا ولا يُقبحه[٢].

وحيث ذُكِرَ ملوك الصين في الكتب الإسلامية يتوقع المرء مباشرة فصلا من الحكمة والسياسة، والمحاورات التي سجلها التراث الإسلامي لملوك الصين تنضح بتلك الصورة، كمحاورة ملك الصين مع الإسكندر المقدوني[٣]، والحيلة التي نجت بها مملكة الصين من اجتياح شمَّر بجيوش اليمن[٤]، وأسباب امتناع ملك الصين عن إمداد يزدجرد بالجيوش[٥]، والمحاورة مع سفراء قتيبة بن مسلم[٦]، والمحاورة مع ابن وهب القرشي[٧]، ومحاولة تهدئة سنجر والتوسط عنده لدىٰ الترك[٨]، وغيرها.

ويرجع نظام الصين إلىٰ الملك المؤسس، المعروف في الرواية العربية باسم «توتال»، فهو الذي قرر أن «الملك لا يثبت إلا بالعدل، فإن العدل ميزان الرب»، وأنه أول من قرر أهمية اجتماع الناس علىٰ دين وشريعة فإنه أحكم للنظام وأعدل للمحكومين وألزم للحاكم «لجمع الشمل وتساوي النظام، فإنه

---

(١) سليمان التاجر، ص٥٦.

(٢) ابن الأثير، ٩/ ٣٢٣؛ ابن خلدون، ٤/ ٥٢٢.

(٣) القلقشندي، ١٥/ ٢٥١، ٢٥٢.

(٤) ابن هشام، **التيجان في ملوك حمير**، ط١ (صنعاء: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٩٧٩م)، ص٤٤٥.

(٥) الطبري ٤/ ١٧٢.

(٦) الطبري ٤/ ٣١، ٣٢.

(٧) المسعودي، ١/ ١١١ وما بعدها.

(٨) ابن الأثير ٩/ ٣٢١ وما بعدها؛ ابن خلدون ٤/ ٥٢١، ٥٢٢.

متىٰ عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ودخول الفساد والزلل»[١]، فكانت قوانينه ومبادئ شريعته هي بداية انتظام أمر أهل الصين وهي سر استمرارها.

ومن طريف وسائل إقامة العدل في الصين أن العامة يستطيعون إيصال شكاواهم إلىٰ الملوك عبر ما يشبه الآن شبكة الاتصالات أو شبكة إنذار، حيث تمتد شبكة من الحبال في سائر المدينة تنتهي بجرس في قاعة الحكم، فما علىٰ صاحب الشكوىٰ إلا أن يحرك الحبل فيدق الجرس عند رأس الملك في قصره فيؤذن له بالدخول وعرض شكايته[٢].

وقرر قانون الصين ألا يتولىٰ الملك إلا من بلغ الأربعين ليكون ممن حنكته التجارب، فإن تولىٰ الملك صغيرا كان في مجلسه من يقف وراءه فيصحح له ما يغلط فيه من الحُكم، ولا ينبغي أن يجلس الملك للفصل في المظالم إلا وقد أكل وشرب لئلا يغلط. ومن دلائل العدل وحسن السياسة أنه إن وقع الغلاء بالصين أخرج الملك الغذاء من خزائنه وباعه بأرخص الأسعار فيكثر المعروض وينتهي الغلاء[٣].

واستمر المسلمون الذين عاشوا في الصين في وضع مكرم محترم منذ البداية حتىٰ ما قبل عهد أسرة منج، بل تشير بعض الروايات إلىٰ ما لهم من امتيازات حتىٰ علىٰ أهل الصين، إذ يورد ابن فضل الله العمري رواية عن شيخه الشريف السمرقندي أنه رأىٰ بالصين احترام المسلمين، «متىٰ قَتَل أحدُ من الكفار مسلما، قُتِل الكافر القاتل، هو وأهل بيته، وتُنْهَب أموالهم، وإن قَتَلَ مسلم كافرا، لا يُقتل وإنما يطلب بالدية، ودية الكافر عندهم حمار، لا يطلب غير ذلك»، ولا ريب أن هذا من الظلم، إلا أن تلك الفترة كانت ذروة التميز

---

(١) المسعودي، ١/ ١٠٥ وما بعدها.

(٢) سليمان التاجر، ص٥١؛ السيرافي، ص٤٢، ٤٣؛ القزويني، ص٤٦.

(٣) سليمان التاجر، ص٥١؛ السيرافي، ص٤١.

الإسلامي في الصين لأن منهم عدد من أهم رجال الدولة ذوي المناصب الرفيعة في عهد قوبيلاي خان، وهو من سلالة المغول[١].

٢- النظام الإداري:

تسفر صورة الصين عن نظام إداري متقن وترتيبات محكمة، فالصينيون «لهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة»[٢]، «فأمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة»[٣]. ويبدأ النظام في شمول الصيني منذ لحظة مولده إلىٰ وفاته، فيُسَجَّل لدىٰ السلطة إحصاء المواليد، والوفيات، وتؤخذ من الشعب ضريبة علىٰ الرؤوس ما بين سن الثمانية عشرة والثمانين[٤]، وتجري الأمور وفق أنظمة مستقرة وموثقة؛ فصاحب المظلمة إن رفعها إلىٰ الملك فإنه يمر علىٰ كاتب يكتبها ثم يوقع باسمه، فالملك لا يعبأ إلا بالمكتوب، فإن عُثِر علىٰ خطأ بالمكتوب عوقب الكاتب[٥]. وفي الصين ما يشبه الساعة العظيمة، إلا أنها أبواق، يُنفخ فيها خمس مرات في اليوم فيُعلم بها المواقيت والساعات[٦].

٣- الأمـن:

والصيني إن شاء السفر حمل معه كتابين من الملك ومن الخصي، فكتاب الملك فيه اسمه وعمره وقبيلته ورفقته (ما يشبه الآن بطاقة الهوية) وكتاب الخصي فيه ما يحمله من الأموال والمتاع (يشبه الآن بطاقة البنك)، وتنتشر في الطرق نقاط شرطة تسجل بيانات من ورد عليها وتاريخ ورودهم وما معهم

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ص٣٣٥ وما بعدها.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ط٢ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م)، ٣/ ٤٤٤.

(٣) المسعودي، ١/ ١٠٦.

(٤) سليمان التاجر، ص٥٤؛ السيرافي ص٤٥؛ القزويني، آثار البلاد ص٤٦.

(٥) السيرافي، ص٤١.

(٦) سليمان التاجر، ص٤٩.

من الأملاك، فبهذا يُضمَن لكل واحد حقه، فإن فَقَدَ شيئا مما معه عُلِم أين فُقِد ومتىٰ ومن الجهة المسؤولة عن رده، فرُدَّ ما فُقِد عليه أو علىٰ ورثته من بعده[1]، فإن حلَّ الليل فإن الفنادق محروسة بقوات مسلحة فيحصي قائدها أسماء من فيها وممتلكات كل منهم قبل أن يغلقها، ثم يرسل معهم حال المسير من يحرسهم حتىٰ يأتيه بكتاب من عند القائد المشرف علىٰ المرحلة اللاحقة بتسلمهم وأماناتهم[2].

ويستعين جهاز الأمن بالرسامين في رسم صور الغرباء بحيث إذا فعل غريب شيئا يستوجب المعاقبة وهرب بُعث إلىٰ الأنحاء بصورته حتىٰ يُقبض عليه[3]. فما أشبه هذا ببطاقة الهوية ذات الصورة الشخصية.

والتاجر المسلم حين ينزل بالصين إما أن يدخل في ضمان تاجر مسلم مُعيَّن من قبل السلطة لتلك المهمة، فيتسلم من التاجر القادم أمواله وأمتعته وينفق عليه منها بالمعروف، فإن ضاع منها شيء فيضمنها التاجر الكافل. وإما أن ينزل بفندق فتكون مسؤوليته علىٰ صاحب الفندق الذي يتسلم منه أمواله وأمتعته ويحسن الإنفاق عليه ويعينه علىٰ ما يريد من الإتجار أو التسري أو الزواج[4].

وتتسلم السلطات من البحارة أسماء المسافرين القادمين مع السفن والراحلين إليها، ويوضع هذا في سجلات تُحفظ، فإن عادت سفينة بعد السفر صعد إليها رجال السلطة وقارنوا قائمة المسافرين بقائمة العائدين، فإن فُقِد أحد كان علىٰ صاحب المركب تقديم الدليل علىٰ أنه مات أو فر أو ما سوىٰ ذلك، وإلا كان

---

(١) السيرافي، ص٤٣.

(٢) سليمان التاجر، ص٥١، ٥٢؛ ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، (الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م)، ٤/ ١٣٤.

(٣) ابن بطوطة ٤/ ١٣٢.

(٤) ابن بطوطة ٤/ ١٣٣.

هو المتهم فيه. وعليه أن يقدم إحصاء بما في السفينة من البضائع، ثم يُنزل ما فيها تحت إشراف الشرطة فإن عُثِر علىٰ أنه كتم شيئا منها صودرت أمواله[١].

ويخضع الصناع التابعون للسلطة إلىٰ رقابة إضافية، وعددهم ألف وستمائة -في زمن ابن بطوطة- يعملون فيما يخص حاجة السلطة من الثياب وآلات الحرب، ولا يسمح لأحدهم بمغادرة العمل قبل عشر سنوات، ويُعرضون يوميا علىٰ الخان لإثبات عددهم، فإن مرت السنوات العشر خُير الصانع بين أن يواصل العمل أو يعمل حيث يشاء لكن لا يخرج من الصين[٢]. وأغلب الظن أن هذا لئلا ينقل أسرار السلطة أو أسرار عملها فهو من نوع الموضوع الأمني.

٤- الأخلاق:

لأهل الصين «آداب حسنة للرعية مع الملك وللولد مع الوالد: فإن الوالد لا يقعد في حضور أبيه ولا يمشي إلا خلفه ولا يأكل معه»[٣]، «والشيوخ بالصين يُعَظمون تعظيمًا كثيرًا»[٤].

«وليس في بلادهم خمر، ولا تُحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها»[٥]، والزنا ممنوع كما في قوانين «توتال» وعليه عقوبة حد، إلا للنساء اللواتي يُردن العمل بالبغاء فهؤلاء يحرم عليهن النكاح وتُعطىٰ كل منهن ما يشبه الرخصة والعلامة لمزاولة تلك المهنة مقابل ضريبة سنوية للخزانة، وما ولدوه من ذكور فهم جند للملك، وما ولدوه من إناث فلهن ويُلحقن بمهنتهن[٦]. وهذا التفصيل هو ما يفسر اختلاف المصادر الأخرىٰ في تلك المسألة، فبعضهم يورد أنه

---

(١) ابن بطوطة ٤/ ١٣٣.
(٢) ابن بطوطة ٤/ ١٤٦، ١٤٧.
(٣) القرزويني، ص٤٦.
(٤) ابن بطوطة ٤/ ١٤٧.
(٥) السيرافي، ص٣٢.
(٦) المسعودي، ١/ ١٠٦؛ السيرافي ص٥٧.



ممنوع وبعضهم يورد أنه مباح، وبعضهم يورد أنه مما يقترفه «سفلتهم لا عند أهل التمييز»[١]، واللواط مثل ذلك[٢].

وأما من يقدم عليهم من التجار المسلمين فلهم وضع مختلف، فإن سُنَّتَهم مع المسلمين أنه إن إراد التاجر المسلم التسري أعانه صاحب الفندق فاشترىٰ له جارية، وإن أراد الزواج تزوج، «وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه! ويقولون: لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنّها أرض فساد»[٣].

وعقوبة الزنا القتل للمحصن وغير المحصن وللرجل والمرأة، إلا أن اغتَصَبَ الرجلُ امرأةً فيُقتل وحده. وعقوبة السرقة القتل في القليل والكثير، ويتزوج الرجل ما شاء من النساء، ولا يختنون[٤].

٥- الاقتصاد:

لم تكن عملة الصين ذهبا أو فضة وإنما عملة ورق «كاغد» كالتي نستخدمها الآن، بينما الذهب والفضة واللؤلؤ وغيرها بضائع ومتاع[٥]، وحجم العملة الورقية حجم الكف وعليها طابع السلطان، ويستطيع من اهترأت عملته أن يستبدلها من دار السكة، ولا يستطيع صاحب الدرهم والدينار أو الذهب والفضة أن يشتري شيئا بها، وإنما يستبدلها بالعملة الورقية[٦]، والعملة الورقية متنوعة فمنها ما يقوم مقام الدرهم ومنها ما يقوم مقام الدينار إلىٰ مائة دينار[٧].

---

(١) ابن الفقيه، ص٦٩، ٧٠.
(٢) سليمان التاجر، ص٥٧.
(٣) ابن بطوطة ٤/ ١٣٤.
(٤) سليمان التاجر، ص٥٧.
(٥) سليمان التاجر، ص٤٩.
(٦) ابن بطوطة ٤/ ١٢٩.
(٧) ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: أحمد عبد القادر الشاذلي، ط١ (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣م)، ٣/ ١٣٤، ١٣٥.

والدولة تكفل الفقراء والصغار والكهول، فمن لم يجد سعر الدواء أخذه من بيت المال[١]؛ ولا تؤخذ الضريبة ممن قل عن ثمانية عشر عامًا أو زاد علىٰ الثمانين[٢]، وإن بلغ الصانع ستين سنة أُعفي من العمل وأنفقت الدولة عليه، واعتبروه كالصبي فلم تجرِ عليه الأحكام[٣].

ومن الصورة العامة للصين يمكن القول بأن الاقتصاد قائم علىٰ الزراعة والتجارة، وعلىٰ مهارات الصناع الفائقة.

٦- التعليم:

وينتشر التعليم في الصين، وهو تعليم نظامي يشمل الجميع وتشرف عليه الدولة ويُنفق عليه من بيت المال[٤]، ويكثر في أهل الصين الطب وعلم الفلك، ويبدو ازدهار الطب من وفور صحتهم، إذ «البلد معتدل الهواء قليل الأمراض، لا يكاد يوجد فيه أعمىٰ ولا أعور ولا صاحب عاهة»[٥].

ومن أبلغ الأدلة علىٰ ما بلغه أهل الصين من مهارة الطب ما رواه المؤرخ الجغرافي ابن فضل الله العمري، فقد سأل شيخه الشريف السمرقندي عن أهل الصين، وما يحكىٰ عنهم من رزانة العقل، وإتقان الأعمال، فقال: هم أكثر مما يقال، ثم حكىٰ له أنه اشتكىٰ من ضرس في فمه فعالجه منه صيني استطاع بمهارة أن يخلع له ضرسا ونصف الضرس دون أن يشعر لها بألم، ثم أخرج الصيني مما معه أضراسا وأنصافا وأثلاثا، ثم صار يقيس موضع الضرس المخلوع، ويلتمس له مما معه نفس المقاس، ثم وضع عليها مادة ودهانا التأمت به في وقتها، وأمره ألا يشرب عليها الماء ليوم كامل، فانتهىٰ ألمه. وقد رأىٰ الجلساء أضراسه الجديدة فإذا هي

---

(١) سليمان التاجر، ص٥٤.

(٢) سليمان التاجر، ص٥٤.

(٣) ابن بطوطة، ٤/ ١٤٧.

(٤) سليمان التاجر، ص٥٠، ٥٤؛ السيرافي ص٤٠، ٤٥.

(٥) سليمان التاجر، ص٥٩.



واضحة لكنها على أحسن ما يكون[١]. واللافت للنظر في تلك الرواية أن القائم بالعلاج هنا لم يكن طبيبا وإنما حطابٌ صينيٌّ، فلعله أن يكون من أثر انتشار التعليم، أو من توارثهم هذا النوع من العلاج جيلا بعد جيل.

٧- الثقافة:

يقرر النويري، صاحب موسوعة نهاية الأرب وفي مؤلفه اجتمع علم الكثير مما سبقه، أن «ملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلّا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضيّة العقل وسنن الحق في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواصّ والعوامّ الى ذلك»[٢]، وهم أهل عقول راجحة «جمة وترتيب حسن وفقهنة في الأمور»[٣]، ويصدورن في أمورهم ونظامهم عن «كتب يشتغلون بها»[٤].

ومن عاداتهم أنه «لا يتزوّج أهل كل فخذ إلا من فخذهم، ويزعمون أنّ في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنّ ذلك أصحّ للبقاء وأتمّ للعمر»[٥]، وهم أهل ملاهٍ، ويأكلون لحم من قُتل بالسيف من البشر، وهم أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب والهيئة والمواكب[٦].

٨- الصنائع:

وأما أمر الصنائع ومهارتهم فيها فهو الأمر الجاري المشتهر الذي تفنن كل واصف فيه، فقد أخرجت دقة الصينيين وإحسانهم في صناعاتهم أوصاف البلاغة

---

(١) ابن فضل الله العمري، ٣/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ط١ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٣م)، ١٤/ ٣٢٩.

(٣) ابن فضل الله العمري، ٣/ ١٣٦.

(٤) ابن الفقيه، ص٦٩.

(٥) النويري، ١٤/ ٣٢٩، وهو عند المسعودي أيضا.

(٦) سليمان التاجر، ص٥٦، ٥٩.

من المؤلفين العرب، حتىٰ إنهم ليضربون بهم المثل فيه، بل يضربون بهم المثل في الشأن كله، حتىٰ ليقال «نزلت الحكمة علىٰ رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين»[(١)]، ويصف الجاحظ الأتراك فيقول بأنهم «في الحرب كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات، والأعراب فيما عددنا ونزلنا، وكآل ساسان في الملك والرياسة»[(٢)].

فالصينيون «أحذق خلق الله كفًّا بنقشٍ وصَنْعَةٍ وكل عمل، لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم»[(٣)]، وهم «أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها؛ وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتدارًا عظيمًا»[(٤)].

وأسهب العرب في وصف مهارتهم بوصف ما يعملون من الصناعات، فمنها «أقداح في رقة القوارير، يُرىٰ ضوء الماء فيه»[(٥)]، ومنها «المماطِر التي لا تَبَل بالمطر، ولهم الستائر التي يستتر بها الفارس والفرس في الحرب ولا تؤثر السهام فيها ولا الجروح، ويكون زنة كل واحدة منها دون الرطل الشامي، ولهم مناديل الغمر التي إذا اتسخت ألقيت في النار فتعود جديدة ولم تحترق»[(٦)]، بل

---

(١) التوحيدي، **المقابسات**، تحقيق: حسن السندوبي، ط٢ (الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢م)، ص٢٦٠.

(٢) الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م)، ١/ ٧١.

(٣) المسعودي، ١/ ١١٣؛ وانظر: التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م)، ص٧٠؛ شيخ الربوة، ص١٨٠.

(٤) ابن بطوطة ٤/ ١٣٢.

(٥) سليمان التاجر، ص٤٩؛ ابن الفقيه، ص٦٩، ٧٠.

(٦) ابن الوردي (سراج الدين عمر بن المظفر)، **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، تحقيق: أنور محمود زناتي، ط١ (القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، ٢٠٠٨)، ص٣٧٧.

«إن العرب تقول لكل طُرفة من الأواني صينية»[(١)].

وكان الصينيون يعرفون ويقدرون مهارتهم تلك، وهم «يقولون الفرنج عور وباقي الناس عمي، يعني أن صنائعهم صناعة بصير العين وباقي الناس صناعتهم صناعة من هو أعمىٰ ما يبصر ما يعمل»[(٢)].

٩- الرسـوم:

ولا يكافئ مهارتهم في التصنيع إلا مهارتهم في الرسم والنقش، فلهم «الإبداع في خرط التماثيل وإتقانها، وعمل التصاوير والنقوش المدهشة كالأشجار والوحوش والطيور والأزهار والثمار وصور الإنسان علىٰ اختلاف الحالات والأشكال والهيئات، حتىٰ لا يعجزهم شيء إلا الروح والنطق، ثم لا يرضون بذلك حتىٰ إن مصورهم يفصل بين الشخص الضاحك من الغضب والضاحك من العجب والضاحك من سرور والضاحك من الخجل»[(٣)].

وقد اضطردت في تراث العرب قصة الملك الذي أهديت إليه لوحة مرسومة لطائر يقف علىٰ غصن، فاستحسنها هو ومن معه، حتىٰ مر بها رجل من العامة فأخرج منها عيبًا بسيطًا، أن الغصن لم يكن منحنيًا بل مستقيمًا، فصح عندهم قوله وصارت من العيوب التي منعت الملك من شرائها ومنعت صانعها من المقام الرفيع.

واستخدموا مواهبهم الفائقة في الرسم في رسم من يمرون بهم من الغرباء فيكون نوعا من التوثيق الفني والثقافي وهو في نفس الوقت جزء من النظام الأمني كما أسلفنا الحديث عنه في خبر ابن بطوطة، ومن قبله في خبر ابن وهب القرشي.

---

(١) النويري، ١/ ٣٦٦.

(٢) ابن فضل الله العمري، ٣/ ١٣٦؛ وانظر: القزويني، ص٥٤. وعند القزويني أهل بابل بدلا من الروم، وكُتبت بالخطأ كابل.

(٣) ابن الوردي، ص٣٧٦، ٣٧٧؛ القزويني، ص٥٤؛ النويري، ١/ ٣٦٦.

١٠- ما استُقْبِح من أهل الصين:

وأما ما عُرض في الرواية العربية علىٰ سبيل الاستنكار والرفض من أحوال الصين فهو ما تعارض مع الإسلام كعبادة الأوثان واعتناقهم تناسخ الأرواح وبيع الأولاد والبنات وشرعنة البغاء وأكل الميتة وتبرج النساء وإتيانهن في المحيض والتبول وقوفا وعدم الاستنجاء بالماء وبعض أمور أخرىٰ[١].



(١) سليمان التاجر، ص٤٣، ٥٧، ٥٨؛ ابن الفقيه، ص٦٩، ٧٠؛ المسعودي، ١/ ١٠٦ وما بعدها؛ انظر: السيرافي ص٥٧، ٧٧، ابن بطوطة، ٤/ ١٣٤.



خاتمة

كما رأينا في السطور السابقة، يمكن للعلاقة الإسلامية الصينية أن تُسْتأنف علىٰ قاعدة قوية من التعاون والتفاهم، فالتاريخ القائم بين الأمتين يهمين عليه جانب التعاون الحضاري والتبادل التجاري والتقدير الثقافي، وليس بينهما تاريخ عدائي، بل حتىٰ القضايا المثيرة للأزمات في واقعنا المعاصر يُستطاع بقليل من المجهود السياسي الصادق معالجتها، وأهمها الموقف من الثورة السورية، والوضع الداخلي لإقليم تركستان الشرقية وحقوق المسلمين فيه.

ويُستطاع في ظل التعاون المشترك لتحقيق المصالح المشتركة ومواجهة التحديات المشتركة أن يُزال كل ما من شأنه أن يعيق تأسيس علاقة راسخة بين الأمتين، فالأمة الإسلامية ليست مجرد مخزن للثورة والطاقة فحسب، وإنما هي قبل كل هذا وبعده مخزنا ضخما للطاقة الروحية والثروة الثقافية العميقة، والعالم الإسلامي هو الذي يقوم الآن في وجه المنظومة العالمية التي تريد فرض هيمنة ثقافية وحيدة علىٰ جميع العالم، وهو العالم الذي بإمكانه تقديم البديل الحضاري المتجاوز لمشكلات الحضارة المعاصرة التي أرهقت العالم وأثقلته. فالسابق إلىٰ العالم الإسلامي من باب التعاون الحضاري يستطيع أن يعزز موقعه في المعادلة الحضارية القادمة فوق تعزيز موقعه ضمن خريطة الثروة المادية.



الفصل الثالث

نهاية سلطنة سنار الإسلامية

بحث في روايات الحقبة العلوية المصرية لإسقاط سلطنة سنار الإسلامية[١]

لم تحظ سلطنة سنار بتأريخ لنهايتها برواية أهلها، لا سيما وقد كانت تلك النهاية علىٰ يد جيش محمد علي باشا مؤسس الدولة المركزية الحديثة في مصر والذي امتد نفوذه إلىٰ بلاد السودان، فصارت «المملكة المصرية» تشمل بلاد مصر والسودان حتىٰ جاء الاحتلال الإنجليزي فبقي الحال -ظاهريا- علىٰ ما هو عليه تحت سلطة الاحتلال إلىٰ أن انفصلت بلاد السودان في مطلع خمسينيات القرن الماضي، بعد أكثر من مائة وثلاثين سنة.

لئن زال محمد علي فقد بقيت أسرته من بعده لقرن ونصف، ولئن زالت أسرته فقد بقيت دولته المركزية حتىٰ اللحظة الحاضرة، وكان من الطبيعي أن تنتج السلطة روايتها عن فتح السودان وضم سلطنة سنار، تلك الرواية التي لا تزال معتمدة وراسخة في كتب التاريخ علىٰ اختلاف من كتبوها وتوجهاتهم.

تسعىٰ هذه الورقة البحثية لسبر غور «الرواية المصرية» لإسقاط سلطنة سنار، ونقدها من داخلها، والتحليل المقارن لأجزاء تلك الرواية في سياق زمانها ورواتها، لتقدم نموذجًا جديدًا في نظرية السلطة التي تنتج المعرفة، وهي النظرية

(١) بحث مقدم لمؤتمر «سنار في الماضي والحاضر والمستقبل»، أقيم في سنار بجمهورية السودان بمناسبة اختيار سنار عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٧م.

التي تُنازِعها وتُصاحِبها نظريةٌ أخرىٰ حول التاريخ الذي يحتفظ برواية التابع المغلوب مهما هيمنت رواية السلطة زمنا.

ونحن هنا إذ نناقش «الرواية المصرية» لسقوط سنار، فسنرىٰ علىٰ الحقيقة أنها لم تكن رواية مصرية خالصة، وإنما هي رواية السلطة المصرية والتي لم تكن مصرية، بل ولم يخطر ببالها معنىٰ القومية أو الوطنية المصرية، فإن ذلك لم يكن معروفا في وقتها. كما أن كُتَّاب الرواية المصرية ليسوا مصريين علىٰ الحقيقة بنفس المعنىٰ القومي، فمن خلال ثمانية مؤرخين سنناقش روايتهم سنجد ثلاثة من الشوام وتركي وسوداني. إلا أنهم جميعا نطقوا عن السلطة المصرية أو عن القومية المصرية لعوامل مختلفة، فاستعمالنا هنا للفظ «الرواية المصرية» ليس علىٰ حقيقته، وإنما هو جريا علىٰ العادة لاشتهارها.

أما المصريون كشعب فقد كانوا كالسودانيين تحت سلطة محمد علي وأسرته، وتحت الاحتلال الإنجليزي، مقهورين مغلوبين علىٰ أمرهم، وحيث كانت عاصمة تلك السلطة في القاهرة والإسكندرية، وحيث كانت ظروف الجغرافيا والتاريخ والسياسة مما تساعد علىٰ تكوين الحالة العلمية الثقافية في مصر بأسرع مما في السودان، لهذا بدا وكأن المصريين احتكروا وظيفة النخبة، فاحتكروا -بالتبعية- كتابة تاريخ السودان لأمد طويل.

وقد بدأت تلك الرواية السلطوية في التفكك لعدد من العوامل، منها ظهور المدارس التاريخية المهتمة بالرواية الشعبية ورواية المغلوبين كمدرسة التابع، والتزايد المضطرد في نقد الدولة الحديثة وإنتاجها المعرفي السلطوي، فيتدثر كل هذا بأدوات معرفية عديدة في صدرها: أداة التاريخ، وظهور الوثائق الرسمية بعد عقود بل وقرون من التكتم بما يمزق الرواية السلطوية ويصنع صورة أخرىٰ أكثر قربا من الحقيقة، ثم زمن الربيع العربي الذي وضع الشعوب والنخبة أمام خيارات فكرية مستقبلية اضطرت معه أن تُقَلِّب في انحيازاتها الفكرية وتكوناتها التاريخية.

وفي مسألة تاريخ محمد علي تحديدا نستطيع أن نؤرخ لتشقق كبير للرواية السلطوية بصدور الترجمة العربية لدراسة «كل رجال الباشا» للدكتور خالد فهمي (ليبرالي) والتي ترجمها شريف يونس (اشتراكي)، وهي رسالة دكتوراة قدمت لجامعة أكسفورد، وقد أتيح لصاحبها أن يطلع علىٰ الوثائق التي لا تزال سرية -يُمنع منها الباحثون في الجامعات المصرية- في أصلها التركي، وما يجمع كاتبها ومترجمها هو اهتمامهما برواية المغلوبين ونقد الدولة الحديثة، وقد أحدث صدور الكتاب هزة في البيئة العلمية المصرية لتصديه للرواية الرسمية السلطوية، ومع أن أفكار الكتاب لم تكن جديدة كليًّا بل بعضها في تاريخ الجبرتي -قبل قرنين- وبعضها أفاض فيه كثيرون من أصحاب التوجه الإسلامي، إلا أن قوة العمل واعتماده علىٰ الوثائق، وصدوره ممن لا يُتَّهم «بالإسلاموية» جعلا للكتاب قبولا لم يكن لغيره مما سبقه.

تمهد الورقة لموضوعها بمبحث عن معضلة تاريخ محمد علي في الرواية المصرية، وهو الأمر الذي يمثل مفتاحا لفهم الرحم التي تكونت فيها الرواية المصرية لتاريخ مصر والسودان، ومنها سنفهم كيف صيغ تاريخ سقوط سلطنة سنار الإسلامية. ثم تأخذ في التعريف بالمؤرخين الثمانية الذين اخترناهم للدراسة وسياقهم التاريخي والوظيفي وتوجههم الفكري، ثم تتبع مجريات الأحداث منذ نشوء الدافع لغزو سنار حتىٰ نهاية السلطنة الزرقاء.

معضلة محمد علي باشا والرواية التاريخية المصرية

تمثل شخصية «محمد علي باشا» حتىٰ اللحظة الحاضرة شخصية مركزية في التاريخ المصري، وتحظىٰ بهالة من التعظيم والتقدير، لقد اتفقت العديد من الأطراف المتباينة في توجهاتها وأفكارها علىٰ رمزية محمد علي وتقدير دوره في التاريخ، وقد انعكس هذا علىٰ تاريخه ووقائع عهده التي لا زالت تلقي بثقلها علىٰ الدارسين، ويرجع هذا لعدد من العوامل من أهمها[(١)]:

١- أن تاريخ محمد علي مصنوع في أروقة السلطة، ولقد كان هو حريصا علىٰ كتابة تاريخه في عصره، ومنح تلك الفرصة لبعض المستشرقين وقدَّم نفسه باعتباره الحاكم المستنير الذي يحكم شعبا من البهائم والمتخلفين، وهو الأولىٰ بالاعتماد عليه من العثمانيين المتعصبين دينيا، كذلك كان استكثاره من الفرنسيين والأقليات (اليهود والنصارىٰ) في بلاطه والعلاقات القوية مع الفرنسيين مما صنع له دعما فرنسيا قويا في تلميع شخصه وتاريخه. وعلىٰ جانب آخر فقد عملت مطبعة بولاق التي أنشأها -والتي كانت أول وسيلة إعلام مركزية سلطوية في مصر- لا تطبع سوىٰ الكتب التي تمجد الباشا وتعرض عما يناقض تلك الرواية. وهكذا بدأت كتابة تاريخ محمد علي منذ حقبته علىٰ النمط الذي أراد في بلاده وبلاد الأجانب أيضا.

٢- ولقد ترسخت تلك الصورة مع طول بقاء دولته التي امتدت لنحو قرن ونصف القرن، حيث ظلت أسرة محمد علي تحكم مصر حتىٰ وإن كانت تحت

---

(١) خير مصدر جمع تلك العوامل في سياق واحد هو: د. خالد فهمي، **كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة**، ترجمة: شريف يونس، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١)، ص٣٠ وما بعدها.

ظل الاحتلال الإنجليزي في النصف الأخير من تلك المدة، فعملت السلطة علىٰ ترسيخ صورة مؤسسها كشخصية عظمىٰ بدأت النهضة في مصر، فكان مؤرخو بلاط الأسرة العلوية ومن نشأوا في ظلالها يُعَمِّقون ويُرسِّخون تلك الرواية الرسمية رغبًا أو رهبًا أو حتىٰ بطبيعة النشأة والتعليم المدرسي النظامي (المكتوبةِ مناهجُه من قِبَل السلطة) والمعلومات المتوفرة، فضلا عن دفع السلطة لتعزيز تلك الصورة بدفع أموالٍ لمؤرخينَ لكتابة تاريخ محمد علي أو لجمع وثائقه وترتيبها وتنسيقها وإتاحتها للباحثين، وبهذا برزت مجموعة من الوثائق مرتبة ومفهرسة تسر الناظرين فكانت فخا وقع فيه الباحثون في الوثائق حيث لم ينتبهوا إلىٰ ما سواها مما لم يحظ بعناية السلطة أو مما حمل بعض ما يسيء للباشا. أسفر هذا كله عن كتابات تاريخية تعضد بعضها البعض في رسم شخصية موحدة لباني ومؤسس مصر الحديثة.

٣- تضافرت عدد من العوامل التاريخية الأخرىٰ علىٰ أن يكون محمد علي شخصية مُعَظَّمَة، ففي الحقبة التي فَشَتْ فيها أفكار الوطنية والقومية كان علىٰ النخبة المصرية أن تبحث عن «تاريخها القومي» بالمعنىٰ الأوروبي للقومية، فانبعثت حركة بحثية في تاريخ الفراعنة وما قبل الإسلام، وتوقفت تلك الحركة طويلا عند شخصية محمد علي باعتبارها «بطلا للقومية المصرية»، لا سيما وأن الإنجليز زعموا أن مصر قبلهم كانت خرابا وأنهم من عمَّروها كما زعموا أن المصريين لا يمكن لهم حكم أنفسهم بأنفسهم وأن جيشهم ضعيف، فكانت مقاومة الإنجليز تستلزم نفي تلك الأمور كلها وإثبات ضدها فاتجهت الأنظار لمحمد علي ونهضته العمرانية وتكوينه للجيش المصري الحديث (الذي هو رمز الفكرة الوطنية) صاحب الفتوحات والبطولات. كما كانت شخصية محمد علي ملجأ للقوميين العروبيين ضد العثمانيين باعتباره أقوىٰ من حكم الأرض العربية وسعىٰ في توحيدها تحت حكمه وأقوىٰ من هدد العثمانيين، ففي عصر

ازدهار القومية العربية كانت شخصية محمد علي تلبي حاجة العروبيين ضد الحكم التركي العثماني. ثم كانت شخصيته أيضًا ملجأ للعلمانيين ومؤيدي التحديث الغربي باعتباره أول من أدخل مظاهر التحديث والتغريب في مصر ومثَّل انقلابًا شاملًا علىٰ المجتمع التقليدي الإسلامي السابق عليه. وبعد هذا كله فقد كانت شخصيته أيضًا ملجأ للسلطويين العسكريين المؤمنين بأن الطريقة المثلىٰ للحكم هي المستبد القوي صاحب الإصلاحات وإن تخلل عمله قسوة واستبداد!

وهكذا كانت الرواية التاريخية المصرية لحملة «فتح السودان» مشبعة بوجهة النظر الرسمية المصرية، وقد زاد من رسوخها أن قضية وحدة وادي النيل كانت قضية وطنية ملتهبة ضد الاحتلال الإنجليزي الذي كان حريصا علىٰ فصل السودان عن مصر منذ إجباره القوات المصرية علىٰ الجلاء عن السودان في نهاية القرن التاسع عشر وحتىٰ تعثر مفاوضات الجلاء علىٰ صخرة وحدة وادي النيل والتاج المصري المتمسك بالسودان.

إن معالجة القضية التاريخية في ظرف كهذا يتطلب بطبيعته كل ما من شأنه الغض عما جرىٰ في حملة السودان من مذابح بسائر ما يمكن للمؤرخ أن يستعمله من ألفاظ التهوين أو وسائل التبرير أو تلوين الرواية، ولا يعني هذا بالضرورة أنهم ارتكبوا تزويرا أو اختلقوا وقائع أو نفوا ما هو ثابت تاريخيا، أو ما سوىٰ هذا من وسائل التزوير «الفجة»، إنما صاغوا الرواية التاريخية علىٰ وفق ما آمنوا به من أفكار أو ما احتاجوه في عصرهم من وسائل، والمؤرخ في النهاية إنسان ذو ميول وهو ابن عصره لا يملك أن ينفلت منه من كل وجه.

إلا أنه يجب تقرير أن مجموع رواياتهم معا تكمل بعضها بعضا، وهي إن نُظِر إليها بعين الفحص والنقد فإنها تكوِّن صورة واضحة وقريبة من الحقيقة التي تضر الصورة التي أرادت السلطة رسمها لنفسها، وهنا نجد أنفسنا إزاء

تَكَرُّر للمسألة التي يتنازع فيها فلاسفة التاريخ حول التاريخ الذي يكتبه المنتصر، والتاريخ الذي يمكن تكوينه لرواية المغلوبين!

وكانت سنار تمثل أهمية خاصة لقربها من النيل، حتىٰ إن اللورد دفرين كتب في تقريره ١٨٨٣ يقول: «بعض الأشخاص يميلون إلىٰ نصيحة مصر بأن تنسحب من السودان كله، ولكنه لا ينتظر منها أن تسلم بذلك فمصر التي تعيش من النيل يحق لها أن تمتلك مجرىٰ النيل كله، فيكفيها أن تنسحب من دارفور وكردوفان، وأن تظل الخرطوم وسنار في قبضتها»(١).



(١) داود بركات، **السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣م)، ص٥٣، ٥٤.



مؤرخو الحملة السودانية في الحقبة العلوية

من بين عديد من المؤرخين اخترنا ثمانية نرىٰ أنهم أهم من كتبوا في موضوع الحملة علىٰ السودان، وتمثل كتبهم مصادر أساسية مشتهرة، شكلت بمجموعها «الرواية المصرية» لسقوط سلطنة سنار أمام جيش محمد علي. أولئك هم:

عبد الرحمن الجبرتي (ت ١٨٢٢):

المؤرخ المصري المشهور المخضرم الذي أرخ لأواخر عصر المماليك وللحملة الفرنسية ثم لفترة من عهد محمد علي، وقد كان آخر مؤرخ في العصور الإسلامية قبل عصر الدولة الحديثة، وهو صاحب الفضل الأول في نقل تاريخ محمد علي الذي لم تصنعه السلطة، ولذا غضب عليه محمد علي فقتل ولده خليلا ثم قتله خنقا[١]، وإفادتنا منه في هذا البحث قليلة مع أهميتها، لأنه لم يعش بعد زمن حملة السودان فيسجل أخبارها، وكان في القاهرة منقطع الخبر عما يقع هنالك.

أحمد بن الحاج أبو علي «كاتب الشونة» (ت بعد ١٨٣٨):

مؤرخ سوداني معاصر للحملة علىٰ بلاد السودان، كانت نشأته في قلب الأحداث، ودخلت الحملة وهو في السادسة والثلاثين من عمره، التحق كاتبا بشونة الغلال في الخرطوم تحت الإدارة المصرية بين (١٨٢٤ - ١٨٣٤م)[٢]، ومخطوطته مصدر أساس عن تاريخ سنار وتاريخ الإدارة المصرية، وهي تاريخ

---

(١) الزركلي، **الأعلام**، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، ٣/ ٣٠٤؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ)، ٥/ ١٣٣.

(٢) انظر تقديم الشاطر بصيلي لتحقيق مخطوطة كاتب الشونة.

رجل منقسم المشاعر، فهو من جهة يكتب تاريخا تعظيميا لإسماعيل باشا بن محمد علي ويسبغ عليه أوصاف الإجلال، ومن ناحية أخرىٰ يورد الفظائع والمجازر ووسائل القتل المبتكرة التي جلبتها الحملة للسودان، وربما تجاور في كلامه التبجيل والسخط معا[1]، وعبارته كأنها تسير علىٰ شوك وحرص. ولهذا أدرجناه في جملة مؤرخي الحقبة العلوية المعبرين في الجملة عن رواية السلطة لتلك الحقبة.

نعوم شقير (ت ١٩٢٢):

وهو لبناني المولد والنشأة، ارتحل وهو دون العشرين إلىٰ مصر، والتحق كاتبا بالحكومة المصرية، ثم التحق بالمخابرات الحربية المصرية، وعمل بقسم التاريخ فيها ثم تولىٰ رئاسته فيما بعد، وظل في خدمة المخابرات حتىٰ توفي. وكانت مصر حينها تحت الاحتلال الإنجليزي المهيمن علىٰ عمل الحكومة ولا سيما الجيش ومخابراته. ولقد ساعده عمله في هذا الموقع علىٰ مطالعة كثير من الوثائق وسماع كثير من الموظفين بالسودان، واطلع علىٰ الكتب التي صدرت ضمن المجهود الاستشراقي الاستعماري عن السودان وتاريخه وواقعه، وكان هو نفسه مشاركا في حملات عسكرية مصرية إنجليزية علىٰ السودان. لهذا كله تميز تاريخه بوفرة غزيرة وتفاصيل وافية، وكان مع ولائه للحكم العلوي متحررا من كثير من مجاملاته، وذكر كثيرا من التفاصيل نحسب أنه ما كان ليذكرها لولا تدثره بالحماية الإنجليزية التي هي فوق السلطة المصرية، وحاجتها لكتابات

---

(١) من أمثلة ذلك قوله: «وأما ولي النعم (إسماعيل باشا) حاصر جبل تابي وتوجه إلىٰ بلاد أولاد أحمد، فأخذهم وتوجه بهم نحو فازوغلي ودار غبيش، وقبض أكابرها وأحضر كامل التجار الذين كانوا هناك، ونزل بهم وبأصحاب البلد ووضع عليهم الذهب فأما الأضراس منهم قلع منها الأنياب ليُري الناس قوته وشدة بأسه، وكما قال تعالىٰ «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون». أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة،** تحقيق: الشاطر بصيلي عبد الجليل، (القاهرة: وزارة الثقافة، بدون تاريخ)، ص٨٩.

دقيقة ضمن المجهود الاستشراقي الاستعماري المهتم بكل التفاصيل الممكنة. وبهذا صار كتاب نعوم شقير من أهم المصادر التاريخية للسودان[١].

محمد فريد (ت ١٩٢٣):

الزعيم المصري الكبير المعروف، وأصوله تركية، ووريث الحزب الوطني بعد زعيمه ومؤسسه مصطفىٰ كامل، وصاحب الدفاع الواسع عن السودان ومصر ضد الاحتلال الإنجليزي، والقائم بكل قوته علىٰ حماية وحدة وادي النيل، وعلىٰ بقائهما تحت النفوذ العثماني نكاية في الاحتلال الإنجليزي. والحزب الوطني منذ مصطفىٰ كامل كان متبنيا لمضادة الدعاية التي يروجها الإنجليز عن نهضتهم بمصر بالقول أن محمد علي باشا هو من بدأ النهضة من قبلهم، فلم تكن مصر خرابا بل كانت تنبض بالنهضة والعمران، وكانوا في نفس الوقت يحاولون بهذا اجتذاب الخديوية إلىٰ جانبهم ضد الإنجليز بتثبيت شرعية حكمهم لمناوأة الإنجليز، وقد بدا لبعض الوقت أن بعض الخديوية كعباس حلمي الثاني يحاول انتزاع نفوذه من الإنجليز ويقوي علاقته بالدولة العثمانية. بسبب من هذا كله كانت الرواية التاريخية له عن السودان منحازة لما يُصَوِّب عمل محمد علي ولما يُرَسِّخ وحدة وادي النيل، كما أنه في النهاية ابن دولة محمد علي فقد رُبِّي في مدارسها وعلىٰ مناهجها وتشرب روايتها الرسمية، وهو ابن عصره الذي هيمنت عليه أفكار «القومية الوطنية»[٢] مع أنهم -في الحزب

---

(١) انظر: نعوم شقير، **تاريخ السودان**، تحقيق وتقديم: د. محمد إبراهيم أبو سليم، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨١م)، ص٣، ٤ (مقدمة التحقيق).

(٢) من العبارات الكاشفة لمحمد فريد، والتي منها نفهم توجهه ورؤيته للتاريخ، قوله: «ورب معترض يعترض علينا في تسمية ابراهيم باشا بالمصري مع أنه لم يولد بها، فنجاوبه: إن إبراهيم باشا نشر الراية المصرية في بلاد العرب والشام وجنوب الأناضول والسودان، وانتصر بالمصريين لا بغيرهم، ولم يكن ذلك منه إلا لإعلاء شأن الوطن المصري واستقلاله في الداخل ونشر نفوذه في الخارج، ولذلك حق لنا ان نسميه المصري، بل المصري الوحيد بعد والده محمد علي باشا =

الوطني- فهموها ضمن الدائرة الإسلامية العثمانية، وجهادهم في هذا مشهور[1]. ورواياته التاريخية وإن لم تتعمد إغفال مساوئ ما حدث فإنها تفيض بحماسة ومبالغة تخرجه عن رصانة المؤرخ وأمانته العلمية.

إلياس الأيوبي (ت ١٩٢٧):

وهو من مشاهير مؤرخي الحقبة العلوية، واشتهر بكتابه الكبير عن «الخديوي إسماعيل»، وهو الكتاب الفائز بالجائزة الأولىٰ في مسابقة الملك فؤاد لكتابة تاريخ عن فترة الخديوي إسماعيل. وُلد في عكا ودرس بمدارس سورية وفرنسية وإيطالية، ثم انتقل إلىٰ مصر وعمل بوظائف الحكومة ورأس قسم الترجمة بمجلس الشيوخ المصري، وتوفي وهو في الثانية والخمسين من عمره[2]، وله كتاب مختصر عن تاريخ محمد علي، وبقية كتبه في حكم النادر المفقود، ولذا يصعب الحكم علىٰ توجهاته وأفكاره، فإن كتابيه هذين هما تأريخ لحساب السلطة يفيضان بالتمجيد والتعظيم، ومع شهرة كتابيه هذين فإن المعلومات المتوفرة عنه قليلة، ولسبب لا نعرفه كان يكتب في الصحف

= الكبير». محمد فريد، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق د. إحسان حقي، ط١ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١م)، ص٢٦٥.

هذا مع أن إبراهيم لم يكن له بلاء يذكر في السودان، ولم يكن الجيش الذي فتح السودان من المصريين، ولم يدر بخلده لا هو ولا أبوه مسألة القومية والوطن المصري، وإنما كانوا يؤسسون دولة لهم، فما إن بلغوا الهدف وانتزعوا من الدولة العثمانية حق وراثة الحكم بمصر في معاهدة لندن حتىٰ قبلوا بتقليص الجيش وعطلوا الترسانة البحرية وسرحوا الجنود المصريين، ورضوا بمصر والسودان فقط! ولذا فهذا الكلام -كما قلنا- لا يمكن فهمه إلا في سياق مقاومة الإنجليز دفاعا عن استقلال ووحدة وادي النيل.

(١) الزركلي، **الأعلام**، ٦/ ٣٢٨، ٣٢٩؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ١١/ ١٢٥.

(٢) الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ٩؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ٢/ ٣١١؛ زكي محمد مجاهد، **الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية**، ط٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤م)، ٢/ ٨٦٤، ٨٦٥.



المصرية بتوقيع «باحث مصري»، وله عنوان غريب لكتاب هو «صوت الحرية في الدفاع عن الأمة اليهودية»!

داود بركات (ت ١٩٣٣):

وهو صحافي مسيحي ورأس تحرير جريدة الأهرام لثلث قرن (١٨٩٩ - ١٩٣٣م)، واشتهرت مؤلفاته التاريخية لسلاسة أسلوبها، وله فيما يخص بحثنا كتابه «السودان المصري ومطامع السياسة الإنجليزية»، يلقب بشيخ الصحافة العربية، ويوصف بأنه «مرجع كل حدث وقع بمصر منذ احتلالها»، ولد في لبنان لكنه رحل إلىٰ مصر في وقت كانت فيه ملجأ للنصارىٰ الشوام لا سيما مناهضي العثمانيين، فهو قومي عروبي علىٰ شاكلة نصارىٰ الشام آنذاك، ثم إن كونه من أعضاء النخبة المصرية في زمن الاحتلال الإنجليزي والملكية جعل روايته التاريخية مصبوغة بالقومية والعلمانية ومعاداة الأتراك. وسيأتي معنا نماذج من آثار هذا علىٰ روايته.

وهكذا نجد من بين أبرز مؤرخي تلك الحقبة ثلاثة من الشوام المرتحلين إلىٰ مصر والعاملين في مواقع متقدمة من صفوف الحكومة المصرية تحت ظل الاحتلال الإنجليزي، وهو أمر ينبغي أن يوضع في الاعتبار ضمن تقييم رواياتهم.

عبد الرحمن الرافعي (ت ١٩٦٦):

أشهر مؤرخي مصر الحديثة قاطبة، فقد كتب تاريخ مصر مختصرا منذ فجر التاريخ وحتىٰ الحملة الفرنسية، ثم كتب تلك الفترة حتىٰ انقلاب يوليو ١٩٥٢، وهو رائد مدرسة القومية الوطنية في التاريخ، وتاريخه مكتوب بتلك الروح، وقد عاش حقبة الاحتلال الإنجليزي وكان من رجال الحزب الوطني، فيقال فيه مثلما قلنا من قبل في زعيمه محمد فريد، إلا أن النزعة الإسلامية أقوىٰ في مصطفىٰ كامل ومحمد فريد منها في الرافعي، ولهذا أسباب تتعلق بضعف ثم انهيار الدولة العثمانية وانحصار الصراع مع الإنجليز في الوطنية المصرية التي

انقطعت جذورها عن الرابطة الإسلامية بزوال دولة الخلافة، وكذلك لظهور حركات إسلامية خالصة في ساحة السياسة كالإخوان المسلمين أو أقل خلوصا كمصر الفتاة. ومع شدة الحماسة الوطنية لدىٰ الرافعي إلا أنه كان أكثر أولئك من جهة الأمانة العلمية، فغلبت عليه رصانة القانوني والمؤرخ.

الشاطر بصيلي عبد الجليل:

وهو من أبرز الباحثين في الشأن السوداني، قضىٰ ٣٣ سنة (١٩١٨ - ١٩٥١م) في الإدارة المدنية في السودان وشغف بتاريخه فجمع روايات كثيرة من أهله، ولما عاد إلىٰ مصر عمل أمينا لمكتبة معهد الدراسات السودانية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقد كتب كتابه «معالم تاريخ سودان وادي النيل» في أحرج لحظة بلغت فيها قضية وحدة وادي النيل ذروتها، في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات، وصدر كتابه لأول مرة (١٩٥٤م) بينما كان الرئيس المصري آنذاك هو محمد نجيب الذي كان أحد دوافع اختياره أنه نصف سوداني من جهة أمه. ومع غزارة علمه بالموضوع جاء كتابه موغلا في الدفاع عن الإدارة المصرية بما يتجاوز الحد حتىٰ إنه يحاول نفي ما هو ثابت من الوقائع كما سنرىٰ.

وقد استعنا بمصادر أخرىٰ غير تلك الثمانية لسد الفراغ ولمزيد من وضوح الصورة في مواضع نادرة، ولو يسر الله تعالىٰ مقاما أوسع فإنه ينبغي أن نضيف للرواية المصرية مؤرخين آخرين ممن سجلوا روايتهم من رجال السلطة المصرية كإبراهيم باشا فوزي وعبد القادر باشا حلمي وجرجي زيدان، فضلا عن الرواية الاستشراقية للأجانب المصاحبين لحملة إسماعيل أو للمستشرقين الذين تناولوا تلك الفترة بالبحث، فلهم فيها إنتاج غزير مهم.



غروب شمس سنار

جرت سنن الدول من قبل علىٰ سلطنة سنار وآلت شمسها إلىٰ المغيب، ويرىٰ عديد من الباحثين أن بداية الانكسار كانت عند خفوت شأن الأمراء وارتفاع شأن الوزراء أو القادة الذين يكونون من غير عصبة بيت الملك، وهي اللحظة التي تكررت كثيرا في تاريخ الممالك، مع العباسيين والعسكر الترك ثم البويهيين ثم السلاجقة، ومع العبيديين (الفاطميين) ووزراء التفويض الذين ابتدأ أمرهم بالوزير بدر الجمالي، وفي الأندلس مع الأمويين والعامريين... وهكذا!

أولئك الوزراء أو القادة الذين يتغلبون علىٰ الأمراء يمدون في عمر الدولة عقودا أو قرونا، بل ربما استطاع أمراء الدولة أن يستعيدوا بعض قوتهم في مراحل لاحقة لم يحفظ فيها الدولة سوىٰ أولئك الوزراء أو المتغلبون، وتلك هي مزية عصر الوزراء، إلا أن الدول تشيخ علىٰ كل حال فتمضي إلىٰ سنتها المؤكدة ومصيرها المحتوم ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن:٢٦] ليبقىٰ التاريخ شاهدًا علىٰ سنة الله في خلقه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

وفي سنار كان عصر الوزراء واحدا وستين سنة (١١٧٥ - ١٢٣٦هـ = ١٧٦٢ - ١٨٢٣م)[1] قبل أن تسقط سنار أمام جيش محمد علي، فقد تغلب علىٰ ملوك الفونج الشيخُ محمد بن أبي لكيلك شيخ الهمج (الهمق)، وهو قائد فرسان سنار في انتصارها الكبير علىٰ الحبشة (١٧٣٥م) وقائد انتصاراتها علىٰ كردوفان، ثم إنه عزل الملك بادي الذي ظهرت منه مساوئ ومظالم بعد موته الوزير المدبر الذي كان وصيا عليه صغيرا، ونَصَّب مكانه ابنه الملك ناصر (١٧٦٢م)، وصار الشيخ محمد هو الوزير وهو الحاكم علىٰ الحقيقة لا الملك

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٢٦.

ناصر، ولم تنقض سبع سنوات حتىٰ عَزَلَ الوزيرُ الشيخُ محمدٌ الملكَ ناصرا ونفاه، فحاول ناصر استرداد عرشه فقُتِل، وولىٰ الشيخُ محمد أخاه إسماعيل حاكما (١٧٦٩م)، فاستقام الحال بين إسماعيل ووزيره القوي محمد بن أبي لكيلك ست سنوات حتىٰ مات الوزير في عهده (١٧٧٧م)، فعندئذ حاول الملك إسماعيل وقومه الفونج استخلاص المُلْكِ من الهمج فاستطاع بادي بن رجب (ابن أخي الوزير القوي وخليفته في الوزراة) أن يعزل الملكَ إسماعيلَ وينفيه إلىٰ سواكن، ونَصَّب بدلا منه الملكَ عدلان الثاني (١٧٧٨م)، وفي ذلك العهد جرت كثير من الحروب والمنازعات قُتل فيها الوزير الشيخ بادي (١٧٨٠م)، فنَصَّب الهمجُ ابنَ أخيه وابنَ الوزير الأول «رجب بن محمد بن أبي اللكيلك» فاستأنف القتال في تلك المنازعات، فحاول الملك عدلان وقومه الفونج انتهاز الفرصة واستخلاص مُلك أجداده فاغتنم وقت خروج الوزير إلىٰ القتال فقتل وكيله واسترق بناته وفرقهم علىٰ عساكره (١٧٨٥م)، فعاد الوزير رجب من فوره فانتصبت حرب شديدة انتصر فيها الملك عدلان وقومُه الفونج، وقُتل فيها الوزير الشيخ رجب، فنصب قومه الهمج أخاه الشيخ ناصرا عليهم، فأعاد الكرة فانتصر علىٰ الفونج ودخل سنار، وها هنا انتهت كل سلطة الفونج إلا من مظاهر اسمية، وزادت وتيرة الفوضىٰ والضعف والمنازعات فصار الملوك لا يكملون شهورا في منصب الملك فإما يموت أو يقتل أو يهرب، حتىٰ انتهىٰ الأمر إلىٰ الملك بادي بن طبل وكان فتىٰ، فعليه تقلب وزراء الهمج وتنازعوا فيما بينهم ثم عليه جاءت حملة إسماعيل باشا بن محمد علي لتكتب نهاية سلطنة سنار علىٰ الجملة[1].

---

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٢١ وما بعدها؛ نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٠٨ وما بعدها؛ الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وادي النيل: من القرن العاشر إلىٰ القرن التاسع عشر الميلادي**، (الخرطوم: مكتبة الشريف الأكاديمية، ٢٠٠٩م)، ص١١٢ وما بعدها.

من المعهود أن تكون أحوال البلاد قبل سقوطها سيئة ويضرب فيها الضعف والتنازع والفساد والمظالم، وهو ما نجد -بطبيعة الحال- تركيزا عليه في «الرواية المصرية» لضرورات المقارنة مع الإدارة المصرية التي جاءت بالأمن بعد الفوضىٰ وبالنظام بعد الاضطراب(١)، ولا يخلو الأمر من تشويه شديد ومبالغات فجة عند بعضهم في شأن المظالم والمفاسد(٢) أو في شأن نشر لواء العلم والمدنية من أيام الفتح الأولىٰ وهو ما لم يكن بحال(٣)، وأقل ما يوجد في هذا فهو عند كاتب الشونة الذي يعبر عن اعتزاز بأحوال سنار قبل الحكم المصري وعن سخط بما حل بالبلاد معه، إلا أنه يوحي بذلك ما وسعه التلميح والإشارة، أما التصريح فهو منحاز للسلطة التي هو كاتب في شونة غلالها(٤).



---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٤٥؛ الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، ص١١٧.

(٢) إبراهيم باشا فوزي، **السودان بين يدي غردون وكتشنر**، (القاهرة: جريدة المؤيد، ١٣١٩ هـ = ١٩٠١م)، ١/ ٥٧ وما بعدها.

(٣) محمد فريد، **البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية**، تحقيق: د. أحمد زكريا الشلق، ط٢ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥)، ص١٠٥، ١١١.

(٤) من ذلك مدحه ورثاؤه الحار والوافر لوزراء الهمج، ومنه وصفه ما نزل ببلاد السودان أنها عقوبة لإيذائهم الولي الصالح محمد عثمان «أعجوبة أهل الزمان»، بل يبلغ أحيانا مبلغا طريفا كما في وصفه الحملة المصرية بأنها «جراد كثير» ضمن رؤيا لولي صالح ذي كرامات، والجراد علامة الخراب والهلاك. انظر: **مخطوطة كاتب الشونة** ص٦٦، ٦٧، ٧٤، ٨٠ وما بعدها.

دوافع الحملة على بلاد السودان

كانت أهم الدوافع كما تبرز من وثائق محمد علي: اختطاف السودانيين لتكوين جيش حديث علىٰ النمط الأوروبي، هذا ما يتضح من خطابات محمد علي لقادته العسكريين، فحين كتب إسماعيل باشا إلىٰ محمد علي يخبره بكمية الضرائب التي تمت جبايتها من المناطق المفتوحة رد عليه أبوه طالبا منه أن يولي انتباها أكبر لجمع الرجال لا المال «حيث إن سبب تكبد هذه النفقات وتجشم تلك المصاعب ليس جمع المال كما كتبت لك مرارا ولكن جمع الرجال الذين يناسبون مشاريعنا». وأضاف في خطاب آخر أن «قيمة العبيد الذين تثبت صلاحيتهم لخدمتنا أثمن من الجواهر. ولذلك أمرتك بأن تجمع ٦ آلاف من هؤلاء العبيد». وقد أضافت وثائق أخرىٰ أهدافا أقل أهمية هي: السيطرة علىٰ مناجم الذهب التي أشيع أنها متوفرة هناك، وتصفية بقية القوىٰ المملوكية بمطاردة المماليك الهاربين من وجهه إلىٰ الصعيد ثم إلىٰ بلاد السودان[1].

---

(١) د. خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٥، ١٤٦. وتواريخ خطاباته كالآتي:

- وثيقة أن الهدف الذهب: ٢ محرم ١٢٣٦ = ١٠ أكتوبر ١٨٢٠، ٧ شعبان ١٢٣٧ = ٢٩ إبريل ١٨٢٢
- وثيقة أن الهدف المماليك: ٢٥ محرم ١٢٣٦ = ٣ نوفمبر ١٨٢٠
- وثيقة أن الهدف جمع الرجال: ١ ذو القعدة ١٢٣٧ = ٢٠ يوليو ١٨٢٢، ١٩ ذو القعدة ١٢٣٧ = ٨ أغسطس ١٨٢٢، ١٩ محرم ١٢٣٩ = ٢٦ سبتمبر ١٨٢٣.

وانظر في تفصيل تلك الأسباب الثلاثة: نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٣، ١٩٤؛ محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠١؛ إلياس الأيوبي، **محمد علي: سيرته وأعماله وآثاره**، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م)، ص٨٦؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٥، ٣٦؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م)، ص١٥٦.

ويبدو من ملاحظة تاريخ الخطابات أن جمع الرجال برز وصار الهدف الأول الأهم بعدما صار مؤكدا أن المنطقة لا تفيض بالذهب كما كان يُشاع[١]، وهو ما يصرح به بعض المؤرخين «لما لم يجد مرغوبه استعاضه بأسر كل الشبان السودانيين القادرين علىٰ حمل السلاح وإرسالهم مصفدين بالسلاسل والأغلال إلىٰ أسوان ليندرجوا في سلك العساكر»[٢]، بل يصرح بعضهم أنه لولا تواتر الإشاعات بوجود الذهب ما فكر محمد علي فيه ولا اهتم به، بل هو بعدما امتلكه فلم يجد الذهب تحول إلىٰ اتخاذ الرجال لجيشه، ولولا أن من طبعه البخل بما ملكه لترك السودان ولم يحفل به[٣].

أما هدف المماليك فلا يعدو أن يكون ذريعة معلنة، فإن الوفد الذي أرسله إلىٰ ملك سنار (١٨١٢م) بطلب طرد المماليك لم يكن وفد سفارة بل كان وفد استطلاع حربي تمهيدا للحملة كما سيأتي، وقد بدا واضحا في السنوات الثماني بين زمن إرسال الوفد وزمن إرسال الحملة أن المماليك لا يمثلون أدنىٰ خطر علىٰ سلطة محمد علي، بل إن جملة ممن كانوا منهم في دنقلة أرسلوا إليه (١٨١٦م) ينزلون علىٰ حكمه وهم في غاية الذلة والضعف بعد خمس سنين فحسب من مذبحة المماليك (١٨١١م)[٤]، وكانت بعض بقاياهم بعد الهزائم المستمرة قد هُزِموا أمام الشايقية (يناير ١٨١٣م) وتحطمت آمال الغزو

---

(١) انظر طرفا مما كان يشاع عند: إبراهيم باشا فوزي، **السودان بين يدي غوردن وكتشنر**، ١/ ٥٧، ٥٨.

(٢) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٤.

(٣) إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا: من سنة ١٨٦٣ إلىٰ سنة ١٨٧**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م)، ٢/ ٥ وما بعدها. وتلك الصراحة لم تكن محض نزاهة علمية وإنما هي في سياق مدح الخديوي إسماعيل (والد الملك فؤاد الذي أطلق المسابقة لكتابة تاريخ والده) واهتمامه ببلاد السودان علىٰ عكس من سبقه، وأدل دليل أن المؤلف نفسه في كتابه عن محمد علي ساق أربعة أسباب فجعل سبب الذهب ثالثها والتجنيد رابعها!!

(٤) انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: شموئيل موريه، ط١ (القدس: الجامعة العبرية، ٢٠١٣م)، ٤/ ٢٨٨، ٢٨٩.

لديهم[١]، ثم إن الذي وقع فعلًا أن المماليك لم يواجهوا جيش إسماعيل، بل تفرقت فلولهم في البلاد وبين القبائل حتىٰ ليقال ماتوا جوعا وعطشا وصار السودانيون يسلبونهم السلاح والثياب[٢].

لكن هدف جمع الرجال وتكوين الجيش هو بحق أهم الأهداف قاطبة، وهو الهدف الذي صارت أهميته تقوىٰ بمرور السنين؛ فمصر من حيث كونها ولاية غنية أغرت -علىٰ مدار تاريخها- الولاة الأقوياء بالاستقلال، وكان الوالي القوي لا يحتاج سوىٰ إدارة حسنة للموارد وتكوين جيش ليصير علىٰ الحقيقة مستقلا وربما ناطَحَ الخلافة نفسها، هكذا جرىٰ الحال في مصر منذ أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية والذي استطاع أن يمد نفوذ حكمه إلىٰ الشام والحجاز وبعض الجزيرة الفراتية بل وتولىٰ الثغور وحمل عبء الجهاد ضد الروم البيزنطيين حين ضعفت الخلافة العباسية نفسها[٣]، وتكرر الأمر مع الإخشيديين ثم العبيديين (الفاطميين) الذين ما إن فتحوا مصر حتىٰ نقلوا عاصمتهم إليها فمدَّ هذا من عمر دولتهم قرونا، ثم الأيوبيين ثم المماليك. كل هؤلاء استطاعوا بالموارد المصرية أن يكونوا قوة عظمىٰ عالمية في وقتهم إن كان لهم جيش قوي، وقد كان الجيش عموما من غير العنصر المصري وإنما من العبيد المماليك الترك والشركس والزنج والمغاربة ونحوهم، فلم يكن مستغربا أن تنقدح الفكرة في رأس محمد علي صاحب الطموحات الواسعة والشغوف بمطالعة التواريخ.

وهكذا عزم محمد علي علىٰ تكوين جيش علىٰ النمط الحديث، وقد اتجه بصره إلىٰ السودان لعدد من العوامل من أهمها: قلة عدد الجند الألبان الذين بقوا معه بعد عشرين سنة من قدومه فضلا عمن أهلكتهم الحروب لا سيما

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٤٠.

(٢) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٢، ١٠٣؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦١.

(٣) محمد إلهامي، **رحلة الخلافة العباسية: العباسيون الضعفاء**، (القاهرة: مؤسسة اقرأ، ٢٠١٣م)، ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

حرب الوهابيين، ثم انقطاع مدد المماليك لأن الدولة العثمانية فرضت حظرا علىٰ تصدير العبيد من القوقاز كي تقطع إمكانية انبعاث المماليك من جديد، كما أنها لن تمد واليها الطموح بجيش بينما تخوض حروبها في الشمال والغرب[١]. كذلك فإن فكرة اتخاذ العنصر السوداني جندا كانت مطروقة في الممالك السالفة، وقد سرت الأخبار بأنهم عنصر مطواع لرؤسائهم شديد في القتال صلب في تحمل المشاق[٢]، فكانوا عين المطلوب بالنسبة للباشا بعدما فشل في تنظيم وضبط الجنود الألبان. لم ينصرف عقله في ذلك الوقت لتجنيد المصريين باعتبار تجنيدهم سيُنقص من إنتاجهم الزراعي، كما أنه لم تجرِ العادة سابقا باتخاذهم جندا. وهكذا ازدادت أهمية إيجاد عنصر بشري للتجنيد ضمن خطط الباشا مع مرور السنين وتوالي الأحداث منذ وفد (١٨١٢م) الاستطلاعي إلىٰ ملك سنار وحتىٰ لحظة الحملة العسكرية إلىٰ بلاد السودان.

بعد أن اجتمع قول مؤرخي الحقبة العلوية علىٰ إثبات تلك الأهداف الثلاثة من حملة السودان أضافوا أسبابا أخرىٰ كان بعضها انطلاقا من تحليل المكاسب المترتبة علىٰ فتح السودان، وكان بعضها ضمن فهمهم وتوجيههم لمشروع محمد علي، فمن تلك الأسباب:

١- السيطرة علىٰ تجارة البحر الأحمر بتوسيع نطاق التجارة المصرية والانتفاع بالموارد السودانية، وقد كان التجارة بين مصر والسودان ضعيفة لا يقصدها إلا المغامرون من التجار، وربما تعرضوا لمظالم ونهب من أدلاء الطريق ومن ملوك وحكام بعض الأنحاء في السودان[٣].

---

(١) يوجين روجان، **العرب: من الفتوحات العثمانية إلىٰ الحاضر**، ترجمة: محمد إبراهيم الجندي، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١١م)، ص٩٦.

(٢) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠١.

(٣) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٤؛ محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠١؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٥، ٣٦.

٢- مكافأة جنوده من الترك والألبان والمغاربة وتوسيع أرزاقهم بعد حروبهم معه في مصر والحجاز والتي صاروا من بعدها مصدر إزعاج وتعب حيث رفضوا أن يُنَظَّموا علىٰ النمط الحديث الذي أراده واستلهمه من جيش نابليون، فكانت رغبته التخلص من بقيتهم في السودان مع تحقيق فتح جديد، فكانت مكافأة لهم وتخلصا منهم وفتح جديد في وقت واحد[١].

٣- اكتشاف منابع النيل والسيطرة عليها لنفع العلم والزراعية المصرية[٢].

٤- توفير الموارد البشرية والأيادي العاملة التي يحتاجها في تعمير الجهات المصرية. وهو دافع انفرد به إلياس الأيوبي ضمن ميوله في تعظيم محمد علي وفيه أيضا لون من القومية المصرية[٣].

٥- الحيلولة دون المطامع الإنجليزية في السودان، والسبق إلىٰ تلك البلاد، باعتبار أن الإنجليز معادين لمحمد علي صاحب العلاقات القوية مع الفرنسيين[٤]، وهو سبب ضَخَّمَه بعض المؤرخين حتىٰ جعله حلفا عالميا يضم الإنجليز والوهابيين والمماليك والحبشة والإنجليز ضد محمد علي، وأنه ينوي إغلاق البحر الأحمر وتحويل مجرىٰ النيل[٥]! وذلك أمر يغني إيراده عن رده كما يقال!

٦- ضمان «سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية و**الاطمئنان** علىٰ منابع

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٤؛ محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠١؛ إلياس الأيوبي، **محمد علي**، ص٨٦؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٥، ٣٦.

(٢) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٤؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٥، ٣٦.

(٣) إلياس الأيوبي، **محمد علي**، ص٨٦.

(٤) إبراهيم فوزي باشا، **السودان بين يدي غوردن وكيتشنر**، ١/ ٥٨، ٥٩؛ الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٥٧.

(٥) الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، ص١٥٠، ١٥١.

النيل». وهو سبب انفرد به الرافعي وداود بركات، ويبدو واضحا أنه مصبوغ عند الرافعي بالرؤية الوطنية المصرية، بل يبلغ به الحال أن يقول عن حرب السودان أنها «حرب قومية بحتة» مثلها في هذا مثل حرب إنجلترا علىٰ اسكتلندا لتأليف وحدة المملكة البريطانية[1]، ولا ريب أن هذا هذر وسخف ليس فقط بالنظر إلىٰ سائر الحوادث، بل لأن فكرة القومية نفسها لم تكن مطروحة في عصر محمد علي ولا خطرت له علىٰ بال، والرافعي نفسه يعترف أنه لم ير هذا الدافع في كتب من سبقه من المؤرخين وإنما هو ما يلوح له. أما داود بركات فكانت عبارته أكثر قبولا إذ هي «إتمام تأليف المملكة المصرية بضم سوريا وبلاد العرب إليها بعد ضم السودان منبع النيل»[2] فهي إعادة بعث لما كانت عليه حال الديار المصرية في زمان الأيوبيين والمماليك، وهي توافق توجهه القومي العروبي المضاد للعثمانيين.

وفي تقديرنا أن سائر تلك الدوافع -ما عدا البحث عن الذهب ثم تجنيد الرجال- ما بين أن تكون هامشية وتابعة، أو أن تكون من تصورات المؤرخين التي تمليها عليهم توجهاتهم وأفكارهم.

وأيًا ما كان الأمر، وبطبيعة الحال فما كان لهذه الدوافع أن تبرز إلىٰ هذا الحد لولا سبب أصيل آخر، وهو ضعف مملكة سنار وما تشهده من الاختلال والتمزق وسيطرة الوزراء علىٰ السلاطين، وقد جاءته أنباء ذلك كله من التجار المصريين المترددين إليها، كما استقبل في بلاطه الملك نصر الدين (أبو حجل) ملك الميرفاب ببربر فشرح له حال سنار وما صارت إليه من الضعف والانحلال وهَوَّن عليه أمر افتتاحها، وذلك أن الهمج -حكام سنار- أساؤوا إليه فحرض عليهم انتقاما لنفسه، وجاءه أيضًا رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو

(١) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٥٧، ١٥٨.

(٢) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٥، ٣٦.

وأخبره بحال دنقلة وعيث المماليك فيها[١]، وجاءه أبو مدين المُطالِب بعرش دارفور والملك إدريس ود ناصر من البيت السناري ومعه زعماء من فازوغلي[٢].

وتذهب «الرواية المصرية» إلىٰ تفسير تلك الوفود علىٰ أنها جاءت تطلب الإنقاذ من فساد المماليك وتستنجد بمحمد علي وتطلب إليه ضم البلاد، وهذا بالرغم من أنها لا تورد شيئا من فساد المماليك هذا، بل وتدل روايتها هي علىٰ أن القادمين لمحمد علي إما منازعين علىٰ الحكم وأصحاب ثأر وإما ملوك مستنجدون بمحمد علي علىٰ منازعاتهم المحلية، فأحدهم «مُطالب بعرش دارفور» وأحدهم ملك «من البيت السناري» وأحدهم ملك يحرض علىٰ سنار انتقاما لنفسه! وبهذا أرادت الرواية «الرسمية» أن تجعل من الحملة علىٰ السودان استجابة لطلب أهل البلاد وإنقاذا لهم!



(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٣٨، ١٩٣.

(٢) الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وداي النيل**، ص١١٧، ١٥١.

انطلاق الحملة العسكرية على بلاد السودان

بدأ محمد علي حملته بإرسال وفد إلىٰ ملك سنار (١٨١٢م)، وكانت المهمة الرسمية للوفد أن يطلب إلىٰ ملك سنار طرد المماليك الذين التجأوا إليه، وقد وصل وهو يحمل الهدايا الفاخرة التي قدرت «بنحو ٤ آلاف ريال من شالات كشمير وأنسجة حريرية وأسلحة ونحوها. فأرسل إليه ملك سنار أربعة جوار وبضعة جلود نمر وقط زباد وقردين وأسدا صغيرا (مات في الطريق) وكلها لا تساوي في سنار ثمانين ريالا»، بينما كانت مهمة الوفد الحقيقة استطلاع البلاد واستحكاماتها وما يلزم لفتحها، ولهذا كان متكونا من خبراء ورجال حرب، وقد عاد إليه الوفد بتقارير ضافية وخطط للحملة العسكرية، فكان هذا مما قوىٰ عزمه[١].

جهز محمد علي جيشا من ٤ آلاف بقيادة ابنه إسماعيل الذي خرج بنفسه إلىٰ ما بعد أسوان في مهمة استطلاعية (١٨١٩م)[٢]، وكان أغلب القوات من الأتراك والألبان، معهم أربعة وعشرون مدفعا، بخلاف ألفين لأعمال الخدمات، مع ثلاثة آلاف جمل وثلاثة آلاف مركب[٣]، وخرج مع الجيش «ثلاثة أنفار من طلبة العلم»[٤] كما يصفهم الجبرتي، ثم يتحولون في الرواية المصرية المعتمدة إلىٰ «ثلاثة من نخبة العلماء» لإقناع أهل البلاد بالتسليم والدخول في طاعة الباشا والي السلطان العثماني خليفة المسلمين بلا حرب، إذ

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٥؛ وانظر: داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.
(٢) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٠.
(٣) انظر تفصيل القوات عند: نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٥، ١٩٦.
(٤) الجبرتي، **عجائب الآثار**، ٤/ ٣٦٢.

الخضوع له من الدين[١]، كما تتحول مهمتهم عند الرافعي إلىٰ إقناع الأهالي بالدخول في سلطان «الحكومة» (المصرية) لا سلطان الخليفة العثماني، فهكذا اقتضت «الوطنية المصرية» لدىٰ الرافعي[٢].

سارت الحملة العسكرية لا تكاد تجد مقاومة من أهل البلاد الذين فوجئوا بها وظنوا أنها تعود «بعد تشتت شمل المماليك، ولذلك لم يستعدوا للقائهم ولا محاربتهم»[٣]، كما أنهم لا يملكون من العدد والعتاد ما يؤهل للوقوف أمامها في حرب متكافئة[٤]، ولقد عملت أحوال الممالك المنقسمة والمتنازعة علىٰ إضعاف القوة الجمعية لأهل البلاد.

ولكن هذا التسليم تفسره الرواية المصرية عادة بأنه ترحيب من أهل البلاد ومن ملوك الأنحاء وأنه سياسة حسنة من إسماعيل وأنه «نجح نجاحا كبيرا»[٥]، فإن أريد وصفها علىٰ جهة القهر والقوة وإظهار الشجاعة فيُقال أن إسماعيل «مزق شملهم» وأن جيوشه «دوخت الأقطار الجنوبية تدويخا»[٦]، حتىٰ أخذه الرهائن ممن أطاعه أو إجبارهم علىٰ تقديم من يقاتل معه في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل يصاغ علىٰ شاكلة «يعزز جيشه بقوة من رجالهم»[٧]. وكل هذا تناقضه وقائع الثورات التي اندلعت بمجرد ما أشيع موت إسماعيل وما حل بأهل البلاد من مشاق وضرائب وإهانة للكبار والزعماء.

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٥، ١٩٦؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٠.

(٣) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٣؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٢.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٥٩.

(٥) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.

(٦) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٢؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦؛ إلياس الأيوبي، **محمد علي**، ص٨٦.

(٧) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.

لقد كانت سياسة الحملة تجريد البلاد من السلاح والخيل وإبقاءها بغير قدرة علىٰ مقاومة الباشا الجديد مهما كان حاله، وهي تتفق مع سياسة محمد علي التي فرضها بالقهر والقسر علىٰ المصريين، فضلا عما فيها من فرض ضرائب قاسية وجمعها بالعنف، وما اشتملت عليه من إهانة بالغة للزعماء والكبار، بل إنها أدخلت طرقا جديدة في التعذيب والقتل -كالخازوق والمشنقة[١]- لم تعرفها بلاد السودان.

هذا مع أن الذين يسلمون له ويدخلون في طاعته لا ينجون منه ولا يأمنون علىٰ أنفسهم بمجرد هذا، فقد «جاءه الكبابيش والحسانية والبشاريين من أهل البادية مقدمين الطاعة فسألهم تقديم الجمال للحملة، ولما لم يجيبوه أرسل عساكره فأخذوا الجمال منهم بالقوة»[٢].

كان إسماعيل إما يعين من قبله حاكما يكون فوق الحاكم، كما وقع في بلاد «سكوت» التي كان يحكمها الكاشف حسن وردي والذي استسلم لجيش إسماعيل فأقره في مركزه إلا أنه وضع ناظرا علىٰ البلاد فوقع الخلاف بينه وبين حسن وردي الذي «**عصىٰ** الناظر» وقتل بعض رجال الحامية، فأرسلت الحكومة المصرية جيشا لغَّم القلعة بالبارود وفجرها عليه وعلىٰ رجاله[٣]. أو ربما حمل إسماعيلُ الملكَ معه في حملته كي يضمن عدم انتقاضه، وربما أخذ أبناء الملوك رهائن، ولقد جاءه «الشيخ ناصر ود الأمين كبير العبدلاب مقدما له الطاعة فأمنه وكساه كسوة فاخرة، وتركه في بلده لأنه كان منحرف الصحة و**أخذ ابنه الأمين رهينة**»[٤].

---

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٧، ٨٨.

(٢) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٩.

(٣) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٦؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.

(٤) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٩.

تورد وثيقة مصرية بتاريخ (سبتمبر ١٨٢٠)، أي ما قبل دخول الحملة إلىٰ حدود سلطنة سنار أن تمردا وقع في جيش إسماعيل لسوء سياسته حيث تخلىٰ عنه «عدد ينذر بالخطر من رجال المدفعية حين كان في أشد الحاجة إليهم»[1].



(١) خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٧. (تاريخ الوثيقة: ١٦ ذو الحجة ١٢٣٥هـ = ٢٤ سبتمبر ١٨٢٠م، ١٨ ذو الحجة ١٢٣٥هـ = ٢٦ سبتمبر ١٨٢٠م)

أحداث الحملة على سنار

عند تخوم سنار أرسل إسماعيل رسالة للشايقية، وهم قوم كانوا في زمن القوة ضمن رعية سلطنة سنار أما في وقت الضعف فقد خرجوا عن سلطانهم[١]، وليس ثمة دليل علىٰ أن سلطنة سنار عملت علىٰ إنجادهم أمام الحملة، بل تُرِكوا وحدهم في مواجهتها مع فارق القوة الواضح.

كانت رسالة إسماعيل باشا تقول: «إن أبي يرغب إليكم أن تسلموا سلاحكم وخيولكم وتتركوا الحرب وتؤدوا الجزية»، ومثل تلك الرسالة لا يقبلها بحال إلا من عجز كلية عن المقاومة، فإنها تجريد من الملك كله علىٰ الحقيقة. فما كان جواب الشايقية إلا أن قالوا: «أما الجزية فنؤديها بلا حرب وأما خيولنا وسلاحنا فما نسلمها إلا بالحرب لعلنا نفوز وتبقىٰ لنا»[٢].

اتخذ الشايقية معسكرهم في محلة قرب «كورتي»، ونشبت الحرب بينهما عند عصر (٤ نوفمبر ١٨٢٠م)، واستطاع الشايقية تمزيق المقدمة المكونة من ١٠٠ فارس فلم يفلت منهم سوىٰ خمسة صحاح ومعهم عشرون جريحا، فاشتعلت المعركة وقاتل الشايقية قتالا باسلا إلا أن ضعف تسليحهم لم يقف أمام جيش إسماعيل، إذ كان عامتهم متسلحا بالسيوف والحراب، والقليل منهم من كان يحمل بنادق، وبرزت في صفوفهم مهيرة بنت الشيخ عبود تحرضهم علىٰ القتال فكان لها أثر كبير في اقتحامهم لمواضع الخطر والنيران، ثم انتهت المعركة بانتصار جيش إسماعيل وانسحاب قوات الشايقية، فتبعهم إسماعيل إلىٰ البر الشرقي من النيل، ووزع منشورا أن «كل من يأتي مسلما يسلم ومن

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٣٩.

(٢) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٧.

لم يأتِ يُعدّ عدوا، ويُحرق بيته»، ثم أحرق كورتي، وتحصن الشايقية في قلاع لهم فأطلق عليها المدافع فلم تصمد أمامه، فتفرق شمل الشايقية وأخذ رجاله يتبعونهم بالقتل والأسر، وقيل «كانوا كلما أسروا رجلا قطعوا أذنيه تشويها له»، وكانت في الأسرىٰ صفية بنت صبير -أحد زعماء الشايقية الثلاثة- فأكرمها إسماعيل وردها إلىٰ أبيها فعاد إليه معلنا الطاعة ثم تبعه الآخَرَيْن بإعلان الطاعة[1].

تلك الحوادث يسردها الرافعي إجمالا بما يزيدها «وطنية» و«التحاما قوميا»، فيروي أن إسماعيل أعجب ببسالة الشايقية فعرض عليهم بعد الهزيمة الانضمام إلىٰ جيشه فوافقوا «وبذلوا ولاءهم للحُكْمِ المصري، وظلوا محافظين علىٰ عهدهم علىٰ مدىٰ السنين»[2]!! هذا مع أنه ذكر بعدها بسطر واحد إحراق إسماعيل لكورتي عاصمة الشايقية، فلو كان ما قاله صحيحا ما كان ثمة مبرر لإحراقها، وهكذا أوقعته «الرواية الوطنية» في تناقض!

قبل واقعة الشايقية بيوم واحد سجلت وثيقة مصرية أن القوات التي أرسلت لفتح السودان قد تبين أنها لا تكفي[3]، فسعىٰ الباشا من جانبه لإرسال تعزيزات، وهذا أهم ما يفسر تلك المدة الطويلة التي بلغت سبعة أشهر بين انتصار إسماعيل علىٰ الشايقية ودخوله سنار.

ثم أرسل إسماعيل إلىٰ الملك بادي ملك سنار فأجابه برسالة تقول: «لا يغرنك انتصارك علىٰ الجعليين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية. أما بلغك أن سنار محروسة محمية بصوارم قواطع هندية وخيول جرد أدهمية ورجال صابرين علىٰ القتال بكرة وعشية»، ونقلت الرسل أن ملك سنار لديه

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٧، ١٩٨؛ محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٣.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٢.

(٣) خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٦. (وثيقة بتاريخ: ٢٥ محرم ١٢٣٦هـ = ٣ نوفمبر ١٨٢٠م).



ما بين ثمانية إلىٰ عشرة آلاف مقاتل وعنده سبعة مدافع جلبها المماليك عند قدومهم إليه[١].

وهكذا فلم يبق إلا الحرب، غير أن حادثة صغيرة في ذاتها وقعت في سنار قلبت موازين تاريخ المنطقة لعقود قادمة، فالحوادث الصغيرة في اللحظات الفارقة عظيمة الأثر. لقد قُتِل وزير سنار ورجلها الأول محمد عدلان!

كان الوزير محمد عدلان «فارسا مقداما ذا عزم وتدبير ولو بقي حيا لأتعب إسماعيل باشا ولم يُمَكِّنْه من سنار بالسهل»[٢]، وقد تهيأ لمقاتلة إسماعيل بما وسعه من الجهد فعهد إلىٰ رجال السلطنة أن يذهب كل منهم إلىٰ أرضه وإقطاعه فيجمع ما يستطيع من آلة القتال والمؤن، فلم يبق معه من الرجال حوله إلا الأرباب دفع الله ود[٣] أحمد وقليل من العساكر. وكان لحسن ود رجب ثأر علىٰ محمد عدلان لقتله أخاه محمدا سابع وزراء الهمج، فاغتنم تلك الفرصة واقتحم مع اثنين من رجاله هما عبد الله بخيت وإدريس عقيد وجماعة من حزبه بيت محمد عدلان فقتلوه بعد مقاومة باسلة (أواخر مايو ١٨٢١م) ثم انتصر حزبهم علىٰ حزب الوزير المقتول محمد عدلان (١ يونيو ١٨٢١م) غير أن النصر لم يكن حاسما بحيث يرثون به الملك، فانسحب القاتل صاحب الثأر مع ثلاثمائة من رجاله إلىٰ سنار، فخلت عاصمة السلطنة من رجلها القوي وفقدت سنار قائدها في أحرج لحظة. وهكذا لم يبق أمام رجال السلطنة بعد تلك الانقلابة المفاجئة إلا الاستسلام لجيش إسماعيل فخرج له «رجب ود عدلان والأرباب دفع الله أحمد بالطاعة فأمنهما وأخذهما معه. ولما قرب من سنار خرج إليه ملكها الملك بادي طائعا»[٤].

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٠؛ وانظر: داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦، ٣٧.

(٢) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٠.

(٣) وِلْد (= ابن).

(٤) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٧٩ وما بعدها؛ نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠١.

لكن ما يلاحظ هنا أن مؤرخي الحقبة العلوية -باستثناء كاتب الشونة ونعوم شقير- غضوا النظر تماما عن هذا الحادث الذي وقع في سنار فقلب الأحوال رأسا علىٰ عقب وأدىٰ مباشرة إلىٰ استسلام الملك بادي، فيُصاغ الحدث التاريخي بما يشير ويوحي بأن زحف إسماعيل ألقىٰ الرعب في قلوب رجال السلطنة فاستسلموا.

هكذا استسلم رجال السلطنة وخرجوا إلىٰ إسماعيل بمحطته في «حلة وحيدة قبالة المسلمية، فاجتمع ما هناك من الحكام والمراتب وغيرهم»[(١)].

دخل إسماعيل باشا عاصمة سنار سنار (١٢ رمضان ١٢٣٦هـ = ١٢ أكتوبر ١٨٢١م) في الموكب العسكري الظافر، وأطلق ٢١ طلقة مدفع احتفالا بالنصر[(٢)].

وهناك قابله العلماء والأعيان واستقبلهم بالمنح والعطايا علىٰ ترتيب منازلهم[(٣)]

أقر إسماعيل الملك بادي علىٰ ما بيده، وهو إقرار شكلي إذ نصب علىٰ سنار «ديوان أفندي» ومعه كاتب «حنا»، و«أجرىٰ له ولعائلته مرتبا من الدراهم والحبوب»[(٤)].

ثم أعلن العفو العام وسقوط جميع القضايا التي سبقت دخوله سنار[(٥)].

وكان أول ما اهتم به بعد فتح سنار القبض علىٰ حسن ود رجب في جبل فرنيس فجهز عليه الملك جاويش ورجاله الشايقية و٤٠٠ فارس من المغاربة بقيادة ديوان أفندي فصعدوا الجبل وقاتلوه وأسروه وأسروا معه قاتلي ود

---

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٧.

(٢) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠١؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.

(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٨؛ نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠١.

(٤) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠١.

(٥) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠١، ٢٠٢؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.

عدلان بعد أن نكلوا برجاله وعادوا إلىٰ إسماعيل باشا في سنار، فأمر بسجن حسن ود رجب وسلّم قاتلي عدلان إلىٰ ابنيه إدريس ورجب ليقتلاهما بثأر أبيهما، ففوضا أمر قتلهما إليه، فأمر برفعهما علىٰ خازوق، فراعهما القتل علىٰ هذه الصورة وطلبا سيفا يقتلان به نفسيهما، فلم يُسْمَع لهما، ولما قُدِّما للقتل أظهر أحدهما إدريس ود عقيد جزعا وخوفا فانتهره رفيقه بخيت وقال له «تشدد ومت موت الرجال» ثم أُنْفِذ أمر إسماعيل باشا فيهما وأشهرا في السوق يومين فكانا أول من رُفِع علىٰ خازوق في بلاد سنار[١].

أما حسن ود رجب فإنه بقي مسجونا مدة ثم أطلق سراحه برضىٰ ابني محمد عدلان اللذين سكنا جبال الفونج. وكان إسماعيل باشا لما نزل في أم درمان علىٰ ما مرّ قد كتب إلىٰ الملك إدريس المحينة ملك الجموعية يدعوه إلىٰ الطاعة فلم يجبه، ثم بعد فتح سنار بلغه أن الملك المذكور أطلق يده في نهب أموال الناس فأرسل محمد سعيد أفندي بجريدة من الفرسان ومعهم الشيخ رحمة ود داحالة فنزلوا عليه في منزله وقتلوه ورجعوا إلىٰ سنار، وبذلك تمهدت البلاد لإسماعيل باشا من أسوان إلىٰ سنار[٢].

وكان من أوائل عمله في إدارة سنار إجراؤه إحصاءا عاما للسكان والعبيد والمنازل -وصنفها إلىٰ: عال ووسط ودُون- والمواشي[٣]، وفيما قبل تمام الإحصاء لم يفرض ضريبة ولم يأخذ من الأهالي سوىٰ علف الخيول للجيش[٤].

عند تلك المرحلة ظهرت مشكلتان كبريان أمام إسماعيل: احتياجه لمزيد من القوات نظرا لأن بلاد السودان «بلاد شاسعة»، فأرسل محمد علي «المزيد

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٨؛ نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٢.
(٢) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٢.
(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٨؛ نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٢؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٦.
(٤) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٧؛ نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٢.

من عُربان الهوارة إلىٰ إسماعيل باشا لمساعدته في حفظ النظام في سنار»[١]، وكان الجيش قد توقف بعد سنار كي لا يتوغل في مجاهل البلاد وليربط المناطق التي فُتحت بالفعل وينتظر إمدادات جديدة من مصر[٢].

وأما المشكلة الثانية فهي تأخر المراكب التي كانت تحمل الزاد للعساكر، فظل إسماعيل يرسل سراياه شرقا وغربا إلا أنها لم تظفر بشيء كثير، حتىٰ اشتد الجوع بالعساكر وصاروا لا يأكلون غير الذرة، ومات عدد كثير من الخيل والجمال ولم تدفن، فأثر ذلك كله في صحة العساكر ففشت فيهم الحمىٰ والديزنتاريا وأمراض شتىٰ ولم يكن معهم إلا عدد قليل من الأطباء فمات منهم خلق كثير، حتىٰ لم يبق في الجيش من له قدرة علىٰ الخدمة سوىٰ ٥٠٠ شخص فحسب، ووقع التذمر والشكوىٰ بين الجنود ولم ينقذ الموقف إلا وصول مدد جديد من الجيش علىٰ رأسه إبراهيم باشا (٢٢ أكتوبر ١٨٢١م) ثم وصول ٢٦ مركبا من المراكب (٢٤، ٢٧ أكتوبر ١٨٢١م) التي تحمل الزاد بعد معاناة وصعوبة أسفرت عن غرق الكثير ولم يبق منها سوىٰ هذا العدد فكانت لهم نجدة وإنقاذا[٣]، ويتحمس محمد فريد فيجعل وصول إبراهيم سببا في أن يشفىٰ الجند من أمراضهم بلا علاج لانتعاش نفوسهم من جديد[٤]!!

من الملاحظ هنا إغفال الرواية المصرية لأحوال البلاد والأهالي في تلك المحنة من المجاعة والوباء، فلا يُتصور أن جيش إسماعيل عاش وحده مأساة الجوع والمرض والحرمان، بل لا بد أن تكون معاناة الناس أشد وأقسىٰ، لا سيما وسرايا إسماعيل العسكرية لم تستطع أن تظفر من البلاد بما يكفيها!

---

(١) خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٦. (وثيقة بتاريخ: ٤ ذو الحجة ١٢٣٦ = ٢ سبتمبر ١٨٢١)

(٢) خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٦. (وثيقة بتاريخ: ٣ صفر ١٢٣٧ = ٣٠ أكتوبر ١٨٢١).

(٣) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٤.

(٤) محمد فريد، **البهجة التوفيقة**، ص١٠٤، ١٠٥.

أُطْلِقَتْ ٢١ طلقة مدفع في سنار ترحيبا بوصول إبراهيم باشا، وبه ابتدأ من جديد مواصلة فتح المناطق السودانية، فاتفق إسماعيل وأخوه علىٰ اقتسام القوات، فتُرك «ديوان أفندي» محافظا لسنار وانطلق جيش إسماعيل نحو بلاد فازوغلي، كما انطلق جيش إبراهيم نحو بلاد الدنكا إلا أنه أصيب بالدوزنتاريا فقفل عائدا إلىٰ مصر وتولىٰ القيادة بعده سلاح داره طوسون[١].

هنالك اكتشف إسماعيل في بلاد فازوغلي أن الذهب لا يفيض، وكان مستشاره الفرنسي كايو قد استيأس وأيقن أن شنقول قليلة الذهب[٢].

عند تلك النقطة نستطيع القول بأن حملة إسماعيل باشا بلغت نهايتها، وقد أفاضت «الرواية المصرية» في إسباغ أوصاف العظمة والكفاءة عليه، بينما تكشف الوثائق في القاهرة أن محمد علي كان ساخطا علىٰ إسماعيل الذي أثبت «انعداما شنيعا في الكفاءة في قيادة الجيش، إذ كان عديم الخبرة وغير قادر علىٰ الحسم، وعنيدا ولا يتمتع بشخصية قيادية وكان أبوه يحثه باستمرار علىٰ طلب نصيحة الأكبر سنا من بين مرافقيه، إلا أن إسماعيل لم يستمع إلىٰ نصيحة أبيه»[٣].

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص٢٠٢؛ داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٧؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٥.

(٢) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٧؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٥.

(٣) خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٧. (تاريخ الوثيقة: ١٢ ربيع الأول ١٢٣٦ = ١٨ ديسمبر ١٨٢٠، ١٠ ربيع الأول ١٢٣٦ = ١٦ ديسمبر ١٨٢٠، ٩ ربيع الآخر ١٢٣٦ = ١٤ يناير ١٨٢١، ١٩ رجب ١٢٣٦ = ٢٢ إبريل ١٨٢١) وهي جميعا خطابات من محمد علي إلىٰ ابنه يشكو فيها من أسلوبه في القيادة، خصوصا تردده، وكان عمر إسماعيل آنذاك خمسة وعشرين عاما.

عوامل سقوط سنار

إن أردنا أن نجمل أهم عوامل سقوط سنار فسيبدو لنا ثلاثة عوامل بينات:

١- الضعف والفوضىٰ والنزاعات الداخلية، وهو الأمر الذي غلب علىٰ سنار قبل أمد من قدوم جيش محمد علي، وقد بلغت تلك النزاعات ذروتها في أحرج لحظة بقتل الوزير وقت استعداده للتصدي للحملة العسكرية، وقد استمر هذا التنازع والانقسام مهيمنا علىٰ الموقف حتىٰ بعد مقتل إسماعيل نفسه، فقد خاطر البعض بالثورة وفضل الآخرون البقاء علىٰ الطاعة!

٢- تفكك الممالك السودانية، حتىٰ إن بعضها كان محرضا لمحمد علي بافتتاح السودان كما فعل ملك الميرفاب نصر الدين، وهو التفكك الذي منع من اتخاذ موقف موحد أو حتىٰ تكوين حلف اضطراري ضد الغازي الجديد، بل إن بعض تلك الممالك بعد هزيمتها أمام إسماعيل انضمت إليه لتكون جزءا من الواقع الجديد، مثلما الملك جاويش -أحد ملوك الشايقية الثلاثة- بعد هزيمته فقد جاء إلىٰ إسماعيل «مسلما مع المئتي رجل الذين فر بهم من دار الشايقية وطلب إليه أن يرافقه برجاله إلىٰ سنار فقبله إسماعيل باشا وكساه وعينه علىٰ ١٤٠ من رجاله، وعين كلا من الشيخ الأزيرق والشيخ عبود شيخ بادية السوارب علىٰ خمسين رجلا وربط لهم مرتبات معينة، وكان هذا أول دخول الشايقية الباشبوزق في جيش الحكومة المصرية بالسودان»[1].

٣- ضعف التسليح والفارق الظاهر في القوة بين حملة الرماح والسيوف وقليل من حملة البنادق وبين جيش إسماعيل باشا.

---

(١) نعوم شقير، **تاريخ السودان**، ص١٩٩؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٢.

الثورة في سنار

حين طال الوقت بإسماعيل وهو يستكمل مسيرة حملته سارت بين الناس شائعة بأن إسماعيل قد مات قتيلًا، «فارتجت البلاد وقامت العباد، وظهر كل من في قلبه شيء من العناد فمن الناس من قتل العسكر ومنهم من تربص وانتظر»[(١)]، وهاجم الأهالي قوافل المخطوفين للتجنيد والمُرْسلين إلىٰ أسوان، ورجعوا فرحين مسرورين[(٢)].

وأما في سنار وما حولها فقد وضع حاكمها «ديوان أفندي» وكاتبه «المعلم حنا» نظاما قاسيا للضرائب المفروضة علىٰ الأهالي، فقد وضع علىٰ كل صاحب حمار أو شاة خمسة ريالات، وجُمِعت منهم بطرق شنيعة[(٣)]، ويقر الرافعي بأن «مساوئ الجنود وخاصة الأرناؤوط من أسباب هياج الأهلين وثورتهم»[(٤)]، وبهذا اشتعلت انتفاضة عارمة وصارت تتمدد في المنطقة.

وهكذا يُختلف في سبب الانتفاضة، هل هو شائعة القتل أم هو نظام الضرائب القاسية وتنكيل الجنود بالأهالي، ولا يبعد أن يكون قد اجتمع الأمران معا فتفاعلا وأوقد كل منهما الآخر، إلا أن الذي نميل إليه ونرجحه أن السبب الأكبر هو شائعة القتل، فإنها رواية مؤرخ محلي معاصر وهو كاتب الشونة، كما أنها تتفق مع طبيعة المجتمعات الإنسانية بُعيْد الهزيمة القاسية: لا يثورون لأجل الضرائب بقدر ما ينعش انتفاضتهم زوال الجبار نفسه.

---

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٩.

(٢) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٦؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٦.

(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٩، ٩٠؛ خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٧. (تاريخ الوثيقة: أول رجب ١٢٣٧ = ٢٤ مارس ١٨٢٢م).

(٤) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٦.

ما إن بلغت أنباء الثورة مسامع إسماعيل حتىٰ عاد مسرعا إلىٰ سنار، وتجتمع الآراء علىٰ أنه حلم وعفا عمن ثاروا عليه، إلا عبارة وحيدة وردت في مخطوطة كاتب الشونة تقول: «فكل من فعل بالعسكر معروف بانت كرامته، **ومن عكس ذلك طالت ندامته**، إلا أن ولي النعم كظم الغيظ وعفا وحلم ونظر في عمارة البلاد، ولم يؤاخذهم بأقوال الفساد»(١)، فنفهم منها أن العفو كان عاما إلا بعض من قتلوا العساكر أو كانوا في تمردهم أعنف وأشد.

ولما استقر الأمر بإسماعيل ارتفعت إليه شكاوىٰ الأهالي من الضرائب القاسية، «فحصلت له الراقة(٢) العقلية والرحمة الإسلامية فتجاوز عن ذلك، وعمل عليهم ريالين (بدلا من خمسة)، وأمرهم في الخلاص بالسهولة والمياسرة والرفق بالفلاحين»(٣).

لقد سعىٰ بعض مؤرخي تلك الحقبة إلىٰ المرور سريعا علىٰ هذه الانتفاضة الخطيرة في سنار، فنجد داود بركات يحكيها كلها في سطر ونصف فقط: «في أثناء غياب الأمير إسماعيل اتفق حاكمها ديوان أفندي وكاتبه المعلم حنا علىٰ ضرب الضرائب علىٰ الأهالي فهاجوا، ولما بلغ إسماعيل الخبر عاد مسرعا وأبطل الضرائب وعفا عن الثوار»(٤).



(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٨٩.

(٢) هكذا بالمتن، ولعلها: الرقة أو الرأفة.

(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٩٠.

(٤) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٧.

مقتل إسماعيل حرقًا!

خرج إسماعيل من سنار إلىٰ منطقة شندي التي يحكمها الملك نمر علىٰ البر الشرقي «لجباية المال وجمع الرجال»[١]، أو لأنه قد بلغه أن الملك نمرا «يتحفز للثورة»[٢] أو لأنه سبب للثورة التي اشتعلت[٣]، وهذان السببان الأخيران ينفرد بهما -علىٰ الترتيب- داود بركات صاحب أكثر نسخة تلطيفية من روايات مؤرخي الحقبة العلوية ومحمد فريد صاحب أكثر نسخة حماسية منها وعنه ينقلها الرافعي[٤]، بينما تسكت بقية المصادر عن ذكر السبب مما يُرَجِّح أنه كان مرورا لجباية المال وجمع الرجال وتثبيت النفوذ علىٰ ملوك المنطقة.

واستدعىٰ إسماعيل الملك نمرا فما إن وصل إليه حتىٰ ضرب عليه جزية عظيمة في وقت قصير علىٰ نحو تعجيزي، قال: «إني أريد أن تملأ مركبي هذه ذهبًا، وتقدم لي ألفي رجل لجيشي في ظرف خمسة أيام»! فجعل «فجعل الملك يستعطف إسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر، فقبل منه أخيرا عوضا عن الذهب مبلغ عشرين ألف ريال من الفضة، فأجابه إلىٰ ما أراد، ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب إليه تطويل الأجل فضربه إسماعيل

---

(١) جرجي زيدان، **تراجم مشاهير القرن التاسع عشر: الجزء الأول**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢)، ١/ ٢٨.

(٢) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٧.

(٣) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٦؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٦.

(٤) مقارنة كتاب الرافعي «عصر محمد علي» بكتاب محمد فريد «البهجة التوفيقية» تقرر أن البهجة كان مصدرا رئيسيا للرافعي، وإن توسع الرافعي في النقل عن غيره، لكن ما ينفرد به فريد نجده عادة عند الرافعي دون تصريح بالنقل عنه.

بالشبق (الغليون) علىٰ وجهه قائلا: لا. إن كنت لا تدفع المال فورا ليس لك غير الخازوق جزاء»[١].

كاد نمر أن ينتقم لتلك الإهانة البالغة إلا أن الملك المساعد خاطبه بلغة محلية فهدأ وسكن وأظهر الطاعة والخضوع للباشا، ثم عرض عليه أن ينزل بدار في شندي، وصار يرسل إليها التبن والهشيم كأنها علف لخيول الباشا، وصار أتباعه يضعونها بحيث تحيط بالدار، ثم لما جن المساء، حضر بعض الناس يقيمون حفلة علىٰ شرف إسماعيل فيزمرون ويطبلون ويرقصون، وأخذ الباشا ورجاله الطربُ، فلما تحقق نمر من اطمئنانهم هجم برجاله علىٰ إسماعيل وجنده فأدخلهم الدار عنوة وأشعلوا النار في الهشيم والحطب حول الدار، وفشلت محاولات إسماعيل وجنده في فتح طريق لهم أمام حراب رجال نمر، فاحترقت بهم الدار، وماتوا جميعا[٢]، واختلفوا في طبيعة موت إسماعيل هل مات حرقا بالنار أم خنقا بالدخان أم خنقا بتكالب رجاله عليه ومحاولاتهم فداءه بأنفسهم!

تلك الرواية التي تواطأت عليها المصادر التاريخية تدل بوضوح علىٰ أن رد فعل الملك نمر لم يكن إلا دفاعا عن نفسه وإنقاذا لها من موت محقق وبطريقة بشعة إذلالية لم تعرفها بلاد السودان وجاء بها جيش الغازي الجديد. والملمح العام في سردها لدىٰ مؤرخي الحقبة العلوية أنهم يمرون عليها دون إدانة لإسماعيل ولا تبرير لنمر.

ومع هذا فلسنا نعدم محاولات تلطيفية وتهوينية كما فعل داود بركات حين زعم أن نمرا كان يتحفز لثورة وأن هذا هو سبب قدوم إسماعيل إليه، ولو كان صحيحا ما أمن له إسماعيل ولارتاب في أمر الحطب والحفل والخضوع المفاجئ

(١) إلياس الأيوبي، **محمد علي**، ص٨٦؛ جرجي زيدان، **تراجم مشاهير القرن التاسع عشر**، ١/ ٢٨.

(٢) إلياس الأيوبي، **محمد علي**، ص٨٦؛ جرجي زيدان، **تراجم مشاهير القرن التاسع عشر**، ١/ ٢٨.

بعد أن أهانه، ثم سكت داود بركات عن فرض الجزية التعجيزية وسكت عن إهانة إسماعيل للملك نمر ولم يورد تهديده له بالخازوق، ثم لم يزد في وصف المذابح الهائلة والعامة التي ارتكبها الدفتردار انتقاما لإسماعيل على كونها تأديبا لمن ارتكبوا الجريمة ولشركائهم(١).

ثم نجد سردا وتفسيرا أعجب منه وأشد غرابة وإغرابا لدى الشاطر بصيلي عبد الجليل، حيث رفض تلك الرواية التي تواطأ عليها المؤرخون جميعا، ورأى أنها مختلقة وكان مستاءً ساخطا لكونها «خلقت جوًّا من التشكيك في الإدارة المصرية للسودان، كما أيقظت الشائعات المغرضة»، وذهب في تشكيكات وتحليلات عقلانية متكلفة متعسفة ليجعلها محض مؤامرة سبق ترتيبها قبل شهور من الملك نمر بتحريض ودعم من المماليك، ولا داعي لها من سياسات إسماعيل الذي «كان يتودد إليهم بشتى الوسائل ليدخل الطمأنينة في قلوبهم»، ومن غريب تناقضه أنه يصف الملك نمر بالتقوى والخوف من الله وكراهية الحروب(٢)، وحري بمثل هذا ألا يتواطأ ويتآمر مع المماليك أو غيرهم ضد إدارة حسنة السياسة تجاه الرعية كما يزعم!!



(١) داود بركات، **السودان المصري**، ص٣٧. وأما محمد فريد فقد أثبت سائر تلك الأمور ما عدا أن الجزية تعجيزية وأن إسماعيل هدد الملك نمرا بالخازوق. انظر: محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٧.

(٢) الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، ص١٥٦ وما بعدها.

مذابح الدفتردار

في تلك الأثناء كان جيش آخر قد أرسله محمد علي وخرج من مصر (٢٠ إبريل ١٨٢١م[١]) بقيادة صهره محمد بك الدفتردار، «المشتهر بقسوة لا حدّ لها»[٢]، كحملة عسكرية علىٰ مناطق غرب بلاد السودان في كردوفان ودارفور، وواجه مقاومة باسلة في كردوفان إلا أنه انتصر، ثم تقدم إلىٰ دارفور.

«فلما نمىٰ خبر ذلك إلىٰ الدفتردار أقسم بقتل عشرين ألف شخص؛ ثأرا لموت نسيبه، وزحف في الحال بجنده إلىٰ شندي، فلم يُبْقِ ولم يذر، وزاد عدد من قتل علىٰ عدد من أقسم بقتلهم»[٣]، «فأحرق القرىٰ بعد قتل سكانها بين رجال ونساء وأطفال ولم يترك النوبة وشندىٰ إلا بلقعًا لا يسكنه إلا بنات آوىٰ والوحوش الضارية والطيور الكاسرة لأكل جثث القتلىٰ التي أفسدت الهواء بما تصاعد منها من الروائح الكريهة»[٤]، لقد «أسرف في التنكيل والقسوة بما جعله مضرب الأمثال في الميل إلىٰ القتل وسفك الدماء، وقتل آلافا من الناس ليثأر لصهره، وسبىٰ من الصبيان والنساء آلافا أخرىٰ»[٥].

وتفصيل هذا نجده عند المؤرخ المحلي المعاصر كاتب الشونة الذي يقول: «وبمصيبته (أي: قتل إسماعيل) حصل هلاك العالم الكثير وفساد الجم الغزير وخرجت البلاد وتزلزلت العباد لأن من يوم وفاته لم ترىٰ إلا دماء تسفك

---

(١) الجبرتي، **عجائب الآثار**، ٤/ ٣٧٣.

(٢) إلياس الأيوبي، **محمد علي**، ص١٥.

(٣) السابق، ص٨٦.

(٤) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٩.

(٥) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص١٦٨.

وأموالا تنهب وتهلك وحرما تهتك»[١].

ويشعر المرء بالانقسام المشتعل في نفس كاتب الشونة وهو يروي تاريخ تلك الفترة، فهو من ناحية يدين مقتل إسماعيل بقوة ويترحم عليه بحرارة، ويُحمِّل نمرا ورجاله مسؤولية المذابح التي وقعت انتقاما لمقتله، وهو في نفس الوقت يتحدث بحرقة ومرارة علىٰ ما نزل بالبلاد من مجازر وما سرىٰ فيها من الخراب علىٰ يد الدفتردار وجيشه. وتدل روايته علىٰ أن الأهالي اشتعلوا في انتفاضة ثانية أرادوا بها التخلص من حكم إسماعيل وجيشه.

يورد كاتب الشونة أن الكيخيدار، الذي هو كوزير الداخلية بتعبيرنا المعاصر وهو الوكيل عن إسماعيل بعد خروجه، لما تأكد من الخبر أخذ في الاحتياط وتشديد الاحتراز حيث «صاحت البلاد وطمعوا في العسكر بالفساد، فقاتلت الكُشَّاف[٢] الفلاحين... واجتمعت الجموع من الفلاحين بعبود وطمعوا في نيل المراد والمقصود، وسول لهم الشيطان وغرَّهم بعض الفقراء ولم يكن إلا ما أراد الله فأقاموا بها مجتمعين وللأباعد مراسلين»، وانحازت القوات إلىٰ منطقة وادي مدني، ووقعت الاشتباكات في مناطق عدة، ولكن صارت وادي مدني مركز تجمع عساكر الحملة، ومنها تخرج السرايا، ويورد كاتب الشونة أن سرية خرجت ليلا من واد مدني «فأصبحوا معهم بالبلد، فهربوا منهم ولم تغن الجموع والعدد، فقُتِل منهم الولي الصالح الخليفة محمد ولد عبود ومن تمَّ أجله، ونهب العساكر الحلة وخربوها وأخذوا منها الأموال العديدة، ورجعوا إلىٰ واد مدني غانمين وبالنصر مسرورين»[٣].

ثم أخذ كاتب الشونة في سرد مذابح محمد بك الدفتردار في أهل السودان،

---

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٩١.
(٢) كان يُطلق علىٰ الحكام الأتراك في تلك المناطق لفظ «الكُشَّاف»
(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، **مخطوطة كاتب الشونة**، ص٩١.

وهي فظائع وخطايا ومخازي تَصِمُه وتَصِمُ كل إدارة حكمه، وفي القتلىٰ عشرات الآلاف بين الرجال والنساء والأطفال، وفيهم جمهرة من أهل الفضل والفقه والعلم والصلاح. ومن عباراته في وصفها:

«وضع يده بالقتل والخراب، وخرب تلك المداين، وعدم فيها القاطن والساكن، ولما وصل حد المتمة اجتمع إليه الناس، فمنهم من طلب الأمان فأمَّنهم. ثم إن واحدا من الحاضرين وثب علىٰ دفتردار بك بحربة فضربه بها في يده، فصاح عليهم بالهلاك، فوضعوا فيهم السلاح، وقُتِلَتْ خلايق كثيرة، ثم دخلوا مع الفقيه الريح في الخلوة فأحرقوهم بالنار جميعا، وصارت البلاد خرابا، وارتحل نمر ومن معه إلىٰ الخلا، وقطع محمد بك إلىٰ الشرق ووضع ثانيا يده بالخراب، فلا ترىٰ بها أنيسا ولا تسمع لها حسيسا من حد شندىٰ إلىٰ كترانج... وقتلوهم مقتلة عظيمة، ونهب الأموال والذراري وأحرق البيوت وسباهم إلىٰ نحو واد مدني فمنهم من مات بالطريق جوعا وعطشا...»[1].

وكان يشيع القتل بأهون الأسباب وبعد أن يعطي الأمان، فقد طلب بعض كبراء الجعليين الأمان منه فأمَّنَهم وأمر بردِّ مواشيهم التي غنموها واشترط عليهم شروطا، إلا أن عسكريا في جيشه طالب بقتل فقيه منهم يدعىٰ فضل الله ثأرا لأخيه، وهنا انقلب الحال، فأمر به أن يحضر، فلما لم يجدوه «أمر بحبس كل من حضر، فكانوا اثنين وسبعين رجلا، فقطع أيديهم جميعا، فمنهم من مات ومنهم من عاش، ومنهم أناس صالحون...»[2].

والملمح العام أن يذكر مؤرخو الحقبة العلوية تلك المذابح لكن بغير إدانة صريحة أو تجريم للدفتردار، فيما عدا الرافعي، كذلك فإنهم أسرعوا المرور عليها ولم يطيلوا في تفصيلها فيما عدا كاتب الشونة، ثم تأتي المأساة العلمية

---

(١) السابق، ص٩٢ وما بعدها.

(٢) السابق، ص٩٣.



والأخلاقية معا فيمن سعىٰ للتهوين مما فعله الدفتردار أو تبريره، فالشاطر بصيلي -رغم أنه محقق وناشر مخطوطة كاتب الشونة- اختزل كل ما وقع في محاولة الهجوم بحربة علىٰ الدفتردار وساق الأمر علىٰ هيئة تقول «أراد (الدفتردار) أن يعالج الأمر بالحكمة إلا أن أحد المتهوسين رماه بحربة... فاختلط الأمر وحصلت اشتباكات ذهب ضحيتها الأبرياء»، ثم ترك الأمر برمته لما قد يظهر من وثائق جديدة تزيد من وضوح تلك الفترة(١)!! وصياغة المذابح الهائلة بتلك الطريقة أمر مزعج ومشين!

منذ تلك اللحظة بدأت حقبة الإدارة المصرية لبلاد السودان، إلا أن الدولة العثمانية -التي كان الفتح يجري باسمها أول الأمر- لم توافق علىٰ هذه الولاية لنحو عشرين سنة، ثم صدر المنشور بالولاية لمحمد علي علىٰ بلاد السودان ضمن اتفاقية لندن (١٨٤١م)، علىٰ أن تكون البلاد له مدىٰ حياته ولا تكون لورثته من بعده كما هو حال ولاية مصر، وحرص المنشور علىٰ تكليف محمد علي بمنع إغارة جنده في السودان علىٰ الأهالي وخطف بناتهم وصبيانهم ليبيعونهم ويستولون علىٰ أثمانهم، وبمنع إخصاء الشباب لاستعمالهم حرسا علىٰ الحريم(٢).

---

(١) الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، ص١٦٠.

(٢) انظر نص المنشور عند: محمد فريد، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ص٤٧٣؛ **البهجة التوفيقية**، ص٢٠٩.

خاتمة

إذا نظرنا إلىٰ أهداف محمد علي الثلاث الرئيسة من الحملة علىٰ السودان فسنجد أنها جميعا قد فشلت؛ لقد اتضح أن المنطقة لا تفيض بالذهب كما كان يرجو، واتضح أن المماليك لا يمثلون عليه أدنىٰ خطر، كما اتضح أن السودانيين لم يتحملوا طول الرحلة وتغير المناخ والقسوة المصاحبة لاختطافهم واعتقالهم فانتشرت فيهم الأمراض والموت حتىٰ صارت تكلفة خطفهم أعلىٰ عند الباشا من مردود العناصر المجندة منهم، فأوقف هذه العملية، وشرع فيما بعد في تجنيد المصريين[١]، وكانت مأساة فقدت فيها بلاد السودان آلافا من شبابها، ويا ليت باحثا يتوفر لدراسة الآثار الاجتماعية لتلك الفترة. أما الأهداف التي نجحت فيها الحملة فهي تلك الأهداف التابعة أو التي أسبغها المؤرخون علىٰ الحملة، كالتخلص من الجند الألبان والسيطرة علىٰ التجارة وعلىٰ منابع النيل وزيادة الموارد ونحوها.

وكان طبيعيا والحال هكذا أن يكون تركيز المؤرخين الكاتبين للرواية الرسمية -علىٰ اختلاف أغراضهم وتوجهاتهم- مسرفا في الحديث عن الأهداف الهامشية، والتي تحول بعضها إلىٰ قضية وطنية ملتهبة (وحدة وادي النيل) لا يمكن التنازل عنها، بل كانت هي السبب في نهاية الحقبة العلوية حين اتضح أنه لا بد من إلغاء الملكية لإتمام فصل مصر عن السودان لأن الملك صاحب التاج علىٰ ضعفه وقلة حيلته أمام الإنجليز وخلفائهم الأمريكان لا يقبل التنازل عن السودان[٢].

---

(١) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٠٤؛ د. خالد فهمي، **كل رجال الباشا**، ص١٤٧ وما بعدها.

(٢) انظر: محمد جلال كشك، **ثورة يوليو الأمريكية: علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية**، ط٢ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨م)، ص٨١ وما بعدها.

إن وحدة السودان ومصر أمر تجتمع له دوافع الوطنيين والقوميين العروبيين والإسلاميين بطبيعة الحال، وكان من قدر محمد علي الذي لم يكن شيئا من هذا إطلاقا أن ينحاز له كل أولئك في شأن السودان، ولئن كان أكثرهم قد فعل هذا لا حبا في محمد علي لذاته بل إخلاصا لقضية نبيلة كبرىٰ فإن هذا الدافع النبيل دفع باتجاه رسم صورة خاطئة وشائهة لفتح بلاد السودان وإسقاط سلطناتها العريقة، وتأسيس نظام الدولة المركزية الحديثة الاستبدادية التي مهدت البلاد للاحتلال ثم انسحبت منها بطلب منه!

لئن كان المؤرخ لا ينفصل عن توجهه وقضاياه، فإن مهمته وأمانته العلمية تقضي عليه أن يرتفع ما وسعه الجهد فوق اللحظة الآنية ليقدم تاريخا أقرب إلىٰ الحقيقة الموضوعية، وإن كانت بعض فصوله لا تتفق مع غرضه وهواه. وذلك هو ما حاولنا بيانه في تلك الورقة البحثية التي نقدمها إحياء لذكر السلطنة الزرقاء: سلطنة سنار الإسلامية.





البَابُ الثَّالِث

في أروقة العلمـاء

في هذا الباب بحثان تناولا فكر اثنين من مشاهير العلماء، كان الأول بمناسبة مرور مائة عام على مولد الشيخ محمد الغزالي (٢٠١٧م)، وكان الثاني في مؤتمر ينعقد دوريا عن فكر الشيخ سعيد النورسي في تركيا.

- زعماء التغيير في فكر الشيخ الغزالي.
- العلاقة بين الإنسان والبيئة كما في رسائل النور للنورسي.



الفصل الأول

زعماء التغيير في فكر الشيخ الغزالي

لعل أحكم تعريف للتاريخ هو أنه «ما يحتاج الناس إلىٰ تذكره»[(١)]، وعند بعض المؤرخين والفلاسفة أن التاريخ كله «إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظماء، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور، وهم الأسوة والقدوة»[(٢)]، وفي زمن الثورات والمواجهات وافتقاد الزعماء الملهمين يحتاج الناس إلىٰ تذكر زعاماتهم الثورية، التي ودُّوا لو أنها كانت حاضرة تقودهم في المحنة وترشدهم في المعضلات، وهذا بعض معنىٰ قول النبي ﷺ: «**إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب**»[(٣)].

وقد ناهز الشيخ الغزالي ثمانين عاما وقعت فيها ثورتان في مصر، الأولىٰ (١٩١٩م) لم يدركها وإنما عاش آثارها إذ وقعت وعمره عامان فحسب، وأما الثانية (١٩٥٢م) فقد عاشها كلها منذ البذور وحتىٰ الثمار، وكان عقدا الخمسينيات والستينيات حافلا بالثورات في أنحاء العالم العربي والإسلامي، فكان حضور شأن الثورة وأبطالها واقعا في فكر كل مهموم بحال الأمة فضلا عمن كان في الصدر من دعاتها ومشايخها كالغزالي. فإن زدنا علىٰ هذا أن

---

(١) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة: ١٧٩٨ - ١٩٣٩**، ترجمة: كريم عزقول، (بيروت: دار النهار، ١٩٦٢م)، ص١٩.

(٢) توماس كارلايل، **الأبطال**، ترجمة: محمد السباعي، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ)، ص١٣.

(٣) الدارمي (٨٣)، والطبراني في الكبير (٦٧٣٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠٦).

الثورتين كلتيهما فشلتا وانتهتا إلىٰ عكس مقصودهما وعادتا علىٰ المسلمين بالوبال الذي كان سابقه خيرا منه فلا بد لمن كان مثل الغزالي أن تكون له في تلك الأمور نظرات وتأملات وآراء أنشأتها المعاناة ومرارة الحصاد.

١- بين زعماء التغيير والمجددين:

ولأن مادة الغزالي غزيرة في هذا الباب مما لا يستوعبه المقام هنا، آثرت أن يكون الحديث أيضا بحسب الحاجة الملحة الآن، وهو الحديث عن الزعامات الثورية وقادة الإصلاح والتغيير في فكر الشيخ الغزالي، فهو في تقديري أحوج ما تحتاجه الأمة في لحظتها الراهنة.

والحديث عن زعماء الثورات وقادة التغيير هو أحكم وأضيق من الحديث عن «المجددين»، فلفظ المجددين يشتمل علىٰ من كان لهم سهم في باب السياسة والتغيير كما يشتمل علىٰ من كان تجديده في أبواب العلم والفقه والتربية والأدب، وهو معنىٰ «المجددين» عند الغزالي[١] وغيره[٢]، بينما حديثنا في هذه الورقة محصور بقادة التغيير والثورات، ولهذا خرج منه عدد ممن احتفىٰ بهم الغزالي حفاوة شديدة كالشيخ محمد عبده، حيث انتهج محمد عبده سبيلا إصلاحيا غير ثوري بعد فشل الثورة العرابية وانحصر تجديده في باب التعليم والتربية والإصلاح الديني[٣] ولنفس السبب يخرج منه عبد الرحمن الكواكبي،

---

(١) يقول الغزالي: «أميل إلىٰ وصف الرجال الذين أدوا ذلكم الواجب الضخم بالمجددين. فالتجديد- في نظرىٰ- ليس صفة رجل واحد يبرز في عصر واحد». محمد الغزالي، **معركة المصحف في العالم الإسلامي**، ط٥ (القاهرة: دار نهضة مصر، أغسطس ٢٠٠٥م)، ص١٥٩.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي، **من أجل صحوة راشدة: تجدد الدين وتنهض بالدنيا**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م)، ص١١ وما بعدها.

(٣) يقر الغزالي بأن «الجانب السياسي في حياة الرجل (محمد عبده) موضع أَخْذٍ وردٍّ وأعرف أنه كان في وضع لا يُحسَد عليه بين محتل غاشم وقصر خائن»، فيتوقف الغزالي أحيانًا موكلا الأمر لله ومعترفًا بأنه ليست له دراسة مفصلة فيه، وأحيانًا ينحو إلىٰ التماس العذر له، معتبر أن البداية في =

بينما دخل فيه رجل كالشيخ رشيد رضا مع أن أغلب حفاوة الغزالي به في باب العلم والفقه، وذلك أن الحضور والمجهود السياسي للشيخ رشيد رضا يجعله في زعامات الثورة والتغيير، وإنما كان علمه وفقهه محشودا لنصرة القضايا الإسلامية وحاضرا في شأن السياسة والأحوال المعاصرة، وكذلك دخل في موضوعنا شخص أحمد عرابي قائد الثورة العرابية وهو مما لا يُنسب إلىٰ «المجددين» في باب من الأبواب.

٢- الزعماء المصريون:

وقد لاحظنا أن تركيز الغزالي في هذا الموضوع يكاد يقتصر علىٰ الشأن المصري، فإنه أعرف بتاريخه من بين تواريخ الأنحاء العربية، ومن ثَمَّ كانت مادته فيه ثرية وآراؤه فيه واضحة وأصيلة، بينما الزعامات الثورية في بلاد الشام والمغرب[١] وأطراف العالم الإسلامي لم تكن مادة الغزالي فيها كذلك، فإنها إما قليلة متفرقة وإما نقول عن آخرين وإما متابعات إعلامية، وهو مما لا يضير الشيخ بل ربما حُسب له أن لم يتكلم فيما لم يُحط بعلمه، وإنما نذكر ذلك هنا لفهم خريطة الغزالي في باب زعماء الثورات وضبط مصادر معرفته فيه. بينما كانت كل قضايا العالم الإسلامي حاضرة في هموم وإنتاج الشيخ من الصين

= بيئة غير ثورية لم يكن ممكنا فيها إلا التعامل مع القصر أو الإنجليز، يقول: «من أيسر الأمور علىٰ رجل مهزوم أن يفر إلىٰ بيته وينسحب من الحياة العامة، ولكن البطولة ليست في هذا الفرار السهل، لقد آثر الطريق الطويل طريق التربية ورفع المستويات النفسية والفكرية. ويفرض عليه ذلك السعىٰ لإصلاح الأزهر، وترقية اللغة والأدب والتدريس المتصل لعرض حقائق الدين وإنارة الطريق أمام التائهين، لقد فشلت الثورة العسكرية فليتخذ أسلوبًا آخر». الغزالي، **علل وأدوية: دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وُجِّه إلىٰ التاريخ الإسلامي من أخطاء**، ط٣ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م)، ص٧٥، ٩١، ٩٢.

(١) كعز الدين القسام وأمين الحسيني وعمر المختار والبشير الإبراهيمي وعبد الحميد بن باديس وعبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي.

والهند والصومال والحبشة إلىٰ البوسنة والبلقان والأقليات الإسلامية في شتىٰ العالم.

والمصرية هنا لا تعني العرق أو العنصرية، وإنما تعني المجال والأثر، فالأفغاني ورشيد رضا ليسا مصريين من جهة العرق والنشأة ولكنهما غرسا وأثمرا في مصر، بل نستطيع القول أنهما عُرفا بها وفيها، وحركة التاريخ المصري تأثرت بهما فوق ما تأثرت بهما حركة تاريخ بلد آخر.

وكان ينبغي أن نضع في هذه الورقة أيضًا حسن البنا، إلا أن غزارة كلام الغزالي فيه يجعله بحاجة إلىٰ دراسة مستقلة.

٣- خلاصة مشروع الغزالي:

يسوق الاستقراء العام لإنتاج الشيخ وتتبع مواضيعه المُلِحَّة إلىٰ نتيجة مفادها أن نكبة الأمة التي كانت علىٰ يد الاستعمار الحقود والاستبداد المظلم إنما ترجع إلىٰ سبب تخلف الأمة وضعفها، وضعفها هذا راجع إلىٰ أن أهل الدين فيها لم يقوموا بدورهم الواجب عليهم، وتقصيرهم هذا إما راجع إلىٰ الجهل وسوء الفهم أو إلىٰ الأمراض النفسية وسوء الخلق.

وهكذا نستبين أربعة أمور متضافرة تعمل علىٰ إنهاك الأمة وإضعافها وإبقائها في الضعف: الاستعمار، الاستبداد، والجهل، وسوء الخلق. ومن تلك الأربعة تنتج سائر الأمراض:

١- الاستعمار يهودي وصليبي وشيوعي ووثني وكله يفتك بالمسلمين شرقا وغربا، ويحاول تثبيت هيمنته بالغزو الفكري والثقافي الذي يقوىٰ ويتمدد في الفراغ الذي تحدثه الأسباب التالية

٢- والاستبداد وريث الاستعمار وهو من ثمرته إلا أن له جذورا في تاريخنا وتراثنا ينبغي التصدي له إلا أنه في حالتنا المعاصرة مدعوم بالاستعمار وخادم له ومنشيء لأمراض غير مسبوقة من الفساد والمظالم والجرائم.

٣- الجهل الذي يُمَكِّن للاستعمار والاستبداد في أرضنا، وأصله انحراف في الفهم الصحيح للدين يجعل المسلمين متعلقين بالوهم والخرافات أو لديهم تشوه في النظر الصحيح المعيق لفهم القرآن والسنة ومراتب الأدلة وطريقة الفقه والترجيح السليم، وهو ما يؤدي إلىٰ انحراف المجهود من مواجهة العلل الحقيقية والكبرىٰ إلىٰ قضايا هامشية فرعية، وقد يحرف الغاية إلىٰ حرب المصلحين أنفسهم

٤- سوء الأخلاق الذي ينتج من سائر الأسباب السابقة ثم هو يرسخها ويُمَكِّنُها، ويكون من وسائلها وأدواتها في مهاجمة المصلحين وتشويه رسالتهم وأغراضهم.

والحل الذي دندن حوله الغزالي يتلخص في معالجة تلك الأمور الأربعة، وتكون بدايته بمجدد أو مجموعة منهم تحقق فيهم رقي الخلق وحسن الفهم، تبث في الأمة أو في شبابها علىٰ الأخص روح الهمة العالية المتسلحة بالفقه الصحيح لتجاهد موروثات الجهل والضعف ودعائمها من الاستبداد والاستعمار. ونستطيع أن نضع كل إنتاج الشيخ الغزالي في واحدة من تلك الأربعة، وبتقدير عام نستطيع القول إن مؤلفات الغزالي انقسمت بين مواجهة الاستعمار والاستبداد من ناحية وإصلاح الجهل وسوء الخلق من ناحية أخرىٰ، مع زيادة ملحوظة في إنتاجه الموجهة نحو إصلاح الجهل وسوء الخلق.

زعماء الأمة عند الغزالي

علىٰ وفق مشروع الغزالي رُسِمت ملامح الزعماء في فكر الشيخ، فهو حفيٌّ بكل من انطلق من الإسلام[١] فضرب سهما في الاستعمار أو الاستبداد وجاهد أيا منهما، ثم هو شديد الحفاوة بكل من ضرب سهما في باب إصلاح الجهل وتحطيم الوهم والخرافة أو في باب إصلاح الخلق وتقويم السلوك وتقديم نموذج في العدل والإنصاف، ثم هو منزعج من كل تعطيل وتشويه وتحقير يطال أولئك المصلحين القائمين بتلك المهمة.

١- رؤية جامعة:

ولذلك يجتمع في عقل الغزالي وقلبه من يُنظر إليهم كاتجاهات متقابلة أو متوازية أو حتىٰ متضادة في وعي آخرين أو في التصنيف المعتمد علىٰ اعتبارات أخرىٰ، فالمصلحون الكبار عند الغزالي الذين تكرر منه ذكر أسمائهم هم «محمد بن عبد الوهاب، وابن إدريس السنوسىٰ، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وحسن البنا»[٢]، وأضاف إليهم في مواطن أخرىٰ أحمد عرابي[٣]، واجتمع لديه من الحركات الإصلاحية: «حركة جمعية العلماء في الجزائر، وحركة السنوسية في ليبيا، وحركة الإخوان المسلمين في مصر، والحركة السلفية في الجزيرة علىٰ يد المجتهد الشيخ محمد بن عبد

(١) الانطلاق من الإسلام هنا شرط أساسي في اعتبار الغزالي للزعماء، فإنه لا يلتفت لمن اعتمد علىٰ مناهج أخرىٰ في التغيير، ويتلخص موقفه المبدئي في قوله: «الإسلام وحده هو وجودنا المادىٰ والأدبىٰ، وهو العنوان المشترك بل الموضوع المشترك بين ماضينا ومستقبلنا، ولن نقبل أن يبتعد حاضرنا عن الإسلام قيد أنملة». الغزالي، **علل وأدوية**، ص٨٠.

(٢) الغزالي، **كيف نفهم الإسلام**، ط٣ (القاهرة: دار نهضة مصر، مارس ٢٠٠٥م)، ص٦٣.

(٣) الغزالي، **من هنا نعلم**، ط٥ (القاهرة: دار نهضة مصر، يناير ٢٠٠٥م)، ص٥٥.

الوهاب، وحركة توحيد الجزيرة العربية بقيادة الملك عبد العزيز.. السلفي العاقل والسياسىٰ المحنك رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[١].

ما يجمع بين هؤلاء عند الغزالي أنهم «نظروا إلىٰ المسلمين علىٰ أنهم أمة واحدة، وإلىٰ أسقامهم الموروثة علىٰ أنها علة مشتركة، وعالجوها بروح يستهدف كتاب الله وسنة رسوله مباشرة»[٢]، وأنهم كانوا «يحترقون دأبا في تعريف الجماهير الغافلة بالله وحده ويمسحون عن قلوبها الذليلة أرجاس العبودية للأوهام والأسماء»[٣].

ولا يضر بعدئذ أن تعددت طرقهم وتنوعت طرائقهم، «فجمال الدين الأفغاني كان مشغولا بالإصلاح السياسي، ونفخ روح الحياة في أمة خمدت أنفاسها تحت أقدام الطغاة. ومحمد عبده وصاحبه رشيد رضا كانا مَعْنِيَيْن بالإصلاح العلمىٰ ومحو الخرافات التي شلت التفكير الإسلامىٰ دهرا طويلا. ومحمد بن عبد الوهاب ركز اهتمامه في تطهير الإيمان من أدران الشرك والعودة بالأمة إلىٰ اليقين المصفىٰ الذي ورثته عن رسولها العظيم»[٤].

٢- حفاوة وتقدير:

وكان الغزالي محتفيا بإنجاز أولئك الرجال وحركاتهم أشد الاحتفاء، فهم الذين «أبقوا سرادق الإسلام منصوبًا، وشأنه مرموقا! علىٰ حين كان الساسة الحاكمون يخبطون في دنيا الغرور والهوىٰ ولا يهتدون سبيلا»[٥]، ويرىٰ أنهم

---

(١) الغزالي، **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ط٣ (القاهرة: دار نهضة مصر، أكتوبر ٢٠٠٥م)، ص٧ (مقدمة الطبعة الثانية).

(٢) الغزالي، **من هنا نعلم**، ص٥٥.

(٣) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ط٤ (القاهرة: دار نهضة مصر، أغسطس ٢٠٠٥م)، ص٩٥.

(٤) الغزالي، **مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة**، ط٦ (القاهرة: دار نهضة مصر، إبريل ٢٠٠٥)، ص١٤١.

(٥) الغزالي، **كيف نفهم الإسلام**، ص٦٣.

«قدموا للدعوة من الخير ما قدمه مثلا أبو حنيفة ومالك وسائر الأئمة الفقهاء في ميدان الفتوىٰ والتشريع، وما قدمه من قبل الخلفاء العدول والفاتحون العسكريون.. في ميدان السياسة الداخلية والخارجية»[1]، ولولاهم «لدرست معالم الدين»[2].

ولقد تحسر الغزالي علىٰ لحظات تاريخية فارقة أفلتت من الأمة لأنها لم تحظ فيها بقيادة واحد من أولئك الزعماء، وقد تساءل آسفا «لو أن جمال الدين (الأفغاني) عاصر مصطفىٰ كمال في تركيا، أكانت نهضة القائد المنتصر تميل عن الإسلام هذا الميل؟ أو لو كان محمد عبده العالم الثائر أو حسن البنا المربي النابه، لو أن أحدهما صاحَبَ الثورة الكبرىٰ سنة ١٩١٩، أكانت تأخذ اتجاهها المدني (العلماني) المحض مبتوتة الصلة بآلام الإسلام وآماله؟ إن القصور الشنيع في أفكار علماء الدين ورؤساء الجماعات الإسلامية يومئذ جر علىٰ الإسلام هزائم متلاحقة»[3].

٣- إنصاف وإعذار وحراسة:

ومن هنا نرىٰ الغزالي كثير التقدير لأولئك الزعماء، كثير الدعوة إلىٰ إنصافهم والاعتذار لهم والإغضاء عما قد يكون وقع من أخطاء في مسار حركتهم، شديد الحساسية تجاه من يحتقرهم أو يطعن فيهم، ولديه في هذا مادة غزيرة ومتكررة في إنتاجه، وهو يصرح بأن مسلك هدم الكبار قد يُحتمل حين تكون الأمة في عفية وسعة، «أما اليوم وهم غنائم باردة لما هبَّ ودبَّ فليغيروا من سلوكهم وليحسنوا أدبهم مع الله ومع أنفسهم.. فجمع الشمل أولىٰ والتلاقىٰ علىٰ أركان رسالتنا أهم من التخاصم علىٰ سفساف الأمور»[4].

---

(١) الغزالي، **مع الله**، ص١٤١.
(٢) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ص١٠.
(٣) نفس المصدر.
(٤) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٧٧.

بل لقد اعتبر الطعن فيهم خيانة عظمىٰ، يقول: «أدركت أننىٰ أمام خيانة عظمىٰ، وأن خصوم التوحيد وأعداء الله ورسوله قد نالوا من أمتنا منالا هائلا!! تحقير لأبي حنيفة في الأولين، وتحقير لحسن البنا في الآخرين، وتبقىٰ أمتنا بلا تاريخ. ثم ينطلق الأقزام والأمساخ يعرضون أفكارهم علىٰ الأمة اليتيمة، لتجري وراءهم إلىٰ الهاوية.. إنني أحذر من الثقافة المسمومة التي تقدم للشباب الغض»[1].

وما ذلك إلا لأن الطعن فيهم ليس مجرد طعن في شخص، فإن «شتم جمال الدين، ومحمد عبده، ورشيد رضا، لا يعنينا لو كان تجريحا شخصيا، إنه محاولة للقضاء علىٰ نهضة أمة ورسالة دين؟ ماذا قلت؟ لماذا لا يعنينىٰ تجريح رجالنا والنيل من مكانتهم؟ هذا خطأ كبير. إن الجهود المجنونة التي تستبيح قادتنا وكبراءنا في ميدان العلم والأدب والسياسة لها غاية يجب فضحها، والتحذير من مغبتها، إنها تريد القضاء علىٰ تاريخ أمة، وعندما تكون أمتنا بلا تاريخ، فلن تكون أمة، ما قيمة أمة ليس لها رجال؟ وما قيمة دين لم يصنع رجالا علىٰ تراخىٰ العصور؟ إنه لابد من استنقاذ تراثنا من أيدىٰ المسعورين والهدامين، والواقفين علىٰ مبعدة ينبحون القوافل المارة»[2].

ويبدو من تلك العبارات ضيق نفسه بهذا المسلك في هدم الرجال، وهو أضيق نفسا حينما يكون مدخل الطعن فيهم سوء فهم الدين واضطراب المعايير، فعندها ينقلب الحال ليكون الطعنُ فيهم أداءَ واجبٍ في الدين عند فاعله، ومسألة اضطراب المعايير وتشوه الأولويات تلك من أكثر الأبواب التي خاضها الغزالي مقاتلا فيها حتىٰ لربما اشتط أحيانا وخانته العبارة، وفي سياقنا هذا يستنكر الغزالي فهم السوء الذي جعل أمثال بعض أولئك الزعماء القادة

---

(١) الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م)، ص١٨١.

(٢) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٩٣.

ناطقين عن الغرب أو مخالبه في بلادنا، يقول: «وجمال الدين (الأفغاني) ومحمد عبده ورشيد رضا كانوا ينصرون الإسلام حين يذكِّرون بالشّورَىٰ، وكانوا يستمدّون من تعاليمه لإصلاح ما ساد عصرهم من اعوجاج، بل لقد كانوا يعالنون بسلفيتهم إذ أن السلفية فيما يعلم أولو الألباب شيء آخر فوق إحفاء الشوارب! إن الإسلام يضيره أَشَدّ الضير أن تختص أرضه وحدها بأجرأ الناس علىٰ اغتيال المال العام والخاص، وأجرأ الناس علىٰ تدويخ الشعوب وإذلال من أعز الله وإعزاز من أذلّ الله. وسيقال: طبيعة نظمه أوحت بذلك أو سكتت عليه. وهذه في نظرىٰ أقبح فِرْيَة بعد الشِّرْك بالله»[1].

ولا يستنكف هو نفسه أن يعود فيرجع ويعتذر عن تقييم خاطئ وقع فيه لزعيم مسلم أو حركة إسلامية، فقد صدَّر الطبعة الثالثة من كتابه «الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية» بقوله: «كنا قد وقفنا من بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قد وصَّلَّتْ إلينا الموقف الإسلامىٰ الذي أملاه علينا ضميرنا الإسلامىٰ.. لكن يبدو أن الأمر لم يكن كما وصلنا.. فقد كان هناك شطط في المصادر التي نقلت هذه الصور وبالغت في تشويهها..!! وقد أيقنت بعد تجارب كثيرة أن الحركات الإصلاحية السليمة تخضع لتشويه كبير من قبل أجهزة راصدة مشبوهة»[2].

٤- صفاتهم ومهمتهم:

يرىٰ الغزالي أنه لا بد لزعماء الأمة من صفات نفسية، وأجمع ما قاله في هذه المسألة قوله: «قادة الأمم، وزعماء الجماعات -وأعنىٰ من هؤلاء أصحاب الرسالات وحدهم- لابد أن تكون لديهم ثروات طائلة من المشاعر الجياشة، والعواطف الواسعة. إن الموظف الكبير- بما أوتىٰ من سلطة- قد يستطيع

(١) الغزالي، **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م)، ص٣٦.

(٢) الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص٧.

الاستحواذ علىٰ ألوف الرجال، وقد يملك ألسنتهم وأبدانهم، وقلوبهم أحيانا.. لكنه عندما يفقد هذه السلطة ربما لا يجد عينا ترمقه باحترام، بله فؤاد يخفق له بود. أما قادة الأمم فلهم علىٰ الناس دالة صنعوها بمواهبهم، ومكانة استحقوها بفضائلهم، فإذا لقوا حفاوة فهي حفاوة الإجلال لا الرهبة، وإذا تطامنت لهم النفوس فعن إعزاز لا عن سطوة»[1].

ويرىٰ أن مهمتهم منحصرة في العودة إلىٰ صحيح الدين، يقول: «أول ما يصنع المجددون (١) أن يرفضوا كل البدع التي استحدثتها الجماهير وعكفت عليها، وأن يقصروا نشاطهم علىٰ نشر الحق وحده وإماتة ما عداه. (٢) أخذ الدين كله دون تفريط في نص من نصوصه أو قاعدة من قواعده، فإن العدوان علىٰ الدين بالانتقاص من معالمه كالعدوان علىٰ الدين بالافتراء والتزيد»[2].

وليس لازما لكل مصلح أن يتحدث في كل شأن وجانب، إنما قد يفرض الواقع عليه جانبا بعينه، وهو ما ينبغي فهمه وتقديره كي لا نضيق الإسلام علىٰ ما جاء به المصلح في زمانه ومكانه، إن «اشتغال كل مصلح بلون من العلاج لا يعني أن الإسلام هو هذا اللون وحده»[3].

وبناء علىٰ هذا سيكون شأن الغزالي مع كل واحد ممن تناولهم من زعماء الأمة ورجالها الذين نتناولهم هنا بالترتيب الزمني، ونعتمد في اختيارهم علىٰ قدر حضورهم في إنتاج الشيخ الغزالي.



(١) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ص٢١٦.
(٢) الغزالي، **معركة المصحف**، ص١٠٩ وما بعدها.
(٣) نفس المصدر ص١٦٢.

محمد بن عبد الوهاب

احتفىٰ الشيخ الغزالي بالحركة الوهابية وزعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب حفاوة كبيرة، ورآها ردة فعل إسلامية علىٰ ما ساد الدولة العثمانية وقتها من ظروف الانحراف، وقدر لزعيمها محمد بن عبد الوهاب غيرته الشديدة علىٰ التوحيد، وإنفاق الحركة طاقتها ومجهودها في تنقية العقيدة وإزالة الخرافات والأوهام التي علقت بأذهان الناس وقلوبهم، ويُفهم من بعض عبارته أن أتباع محمد بن عبد الوهاب لو تخلوا عن التشدد والغلو لما كان للحركة أن تُهزم.

١- زمنه وبيئته:

يعدد الغزالي ظروف العالم الإسلامي المخيمة في تلك الفترة فيقول: «كان الجهل الغليظ يلف كل شيء، وكانت عجمة الدولة سببًا في تخلف المسلمين دينيا ومدنيا، وانتشرت البدع والخرافات، وتحول الإسلام إلىٰ رسوم ميتة، وأحاديث واهية أو موضوعة، وكَثُرَتْ صور الشرك الجلي والخفي، وأعلن التصوف الجاهل علىٰ هذا كله إذ أن طرقه دخلت كل مدينة وقرية. ومن الناحية المدنية العامة توقف الركب الإسلامي في مكانه، لا يدري وراء حدوده شيئا بينما العالم يفور ويمور بحركات وفلسفات جديدة غيرت نظم الحكم، وكشفت المجهول من القارات، واستعملت قوىٰ الكون وأسراره في تجديد حياتها وأسلحتها، وقد ورث الحكم العثماني سيئات الحكم الفردىٰ في الدول الإسلامية السابقة وضم إليها جديدا من الجبروت والاستعلاء، وربما قتل السلطان جميع إخوته حتىٰ لا ينازعوه السلطة، ومنح السلطان امتيازات أجنبية للطوائف النصرانية المختلفة جعلها دولة داخل الدولة، واستغل الأعداء ذلك

أسوأ استغلال. ومع أننا نعيب علىٰ العرب تقاعسهم في خدمة الثقافة الإسلامية الصحيحة إبان هذه القرون الهامدة من الحكم التركي، إلا أننا نذكر أن الحركة الوحيدة التي نهض بها العرب لإصلاح العقائد والعبادات ومحو ما شابها من زيغ وانحراف قاومتها الدولة بالسيف حتىٰ أجهزت عليها.. نعني حركة الإصلاح التي قام بها محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب»(١).

٢- صفاته:

في تلك الأجواء خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب، «وهو من هو غيرة علىٰ عقيدة التوحيد ودفاعا عنها»(٢)، وقد عُرف «بين الناس بأنه داعية غيور علىٰ عقيدة التوحيد، يحب أن يمحو من الأذهان أن هناك وساطة ما بين الخالق والمخلوق»(٣)، ولقد كان «يعلم أن الإسلام عقيدة ونظام. وأنه دين يتعامل مع النفس والمجتمع والدولة»(٤).

٣- كفاحه وآثاره:

من هنا بدأت «الحركة السلفية التي قادها في القرن الماضىٰ محمد بن عبد الوهاب، إن كل غيرة علىٰ التوحيد مشكورة، وكل جهد لتنقية العقائد من الشوائب والأقذاء مقدور! ونحن نأبىٰ الإغضاء عن مسالك أقوام يرهبون الأموات أو الأحياء أكثر مما يرهبون الله، ويطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله سبحانه.. وما أعرف مسلما ذا عقل يخاصم هذه الحقائق أو يعترض أصحابها»(٥)، وحيث كانت «الظروف التي يواجهها هي التي تحكم عليه بمنهج

---

(١) الغزالي، **الدعوة الإسلامية في القرن الحالي**، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ص٥٠ باختصار. وانظر: الغزالي، **معركة المصحف**، ص١٦٢ وما بعدها.

(٢) الغزالي، **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**، (القاهرة: دار الشروق)، ص٢٠.

(٣) الغزالي، **معركة المصحف**، ص١٦٢.

(٤) نفس المصدر

(٥) الغزالي، **مستقبل الإسلام خارج أرضه: كيف نفكر فيه**، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م)، ص٥٦.

معين يتخصص فيه ويُعرَف به. رفع محمد بن عبد الوهاب شعار التوحيد، وحُقَّ له أن يفعل؛ فقد وجد نفسه في بيئة تعبد القبور، وتطلب من موتاها ما لا يُطلَب إلا من الله سبحانه»[١].

ومن ثَمَّ «فليس معنىٰ هذا أنه استوعب تعاليم الإسلام كلها إيضاحا وتبيانا.. إن هناك مصلحين آخرين أمكنهم أن ينصفوا جوانب أخرىٰ من الدين نالها الغمط وغطاها الجهل. واهتمام ابن عبد الوهاب بأمر العقيدة ضرب من التخصص العلمىٰ أملىٰ به المزاج النفسىٰ وأوحت به ضروريات البيئة»[٢].

«الواقع أن حركة ابن عبد الوهاب من الناحية العلمية سليمة، وقد تكون الوسائل الرديئة[٣] هي التي هزمتها»[٤]، «ولو رزق محمد بن عبد الوهاب أتباعا ذوىٰ حكمة وبصيرة لكانت الأقطار التي انفتحت له أضعاف مساحتها الآن.. إن الدعاة المصابين بضيق الفطن، واصطياد التهم، وشهوة الغلب يضرون أكثر مما ينفعون»[٥].



---

(١) الغزالي، **مائة سؤال عن الإسلام**، ط٤ (القاهرة: دار نهضة مصر، يوليو ٢٠٠٥م)، ص٢٧٠؛ الغزالي، **معركة المصحف**، ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) الغزالي، **معركة المصحف**، ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) أغلب الظن، وهو ما يوحي به سياق العبارة، أن المقصود بالوسائل الرديئة هي ما استعملته الدولة العثمانية وجيش محمد علي في تحطيم الحركة الوهابية، وقد تُحمل العبارة بنوع تكلف علىٰ وسائل الحركة الوهابية نفسها في الانتشار.

(٤) الغزالي، **مائة سؤال عن الإسلام**، ص٢٩٥.

(٥) الغزالي، **مستقبل الإسلام خارج أرضه**، ص٥٦.

جمال الدين الأفغاني

قد أعطاه الغزالي لقبا فخما: «المجاهد الإسلامىٰ الضخم جمال الدين الأفغانىٰ»[١]، وتكررت منه الحفاوة به والتقدير الوافر له، فقد كان الأفغاني ممن ظهروا في لحظة قاسية من تاريخ الأمة، وتمتع بصفات العزة والأنفة والشخصية القيادية، وأشعل يقظة الشرق ضد الاحتلال الغربي وضد الحكومات المستبدة، ولهذا اجتمع علىٰ الطعن فيه صنائع الاحتلال ومن تشوهت موازينهم فليسوا يعرفون أقدار الرجال.

والأفغاني هو الثاني في ترتيب من احتفىٰ بهم الغزالي وكرر كلامه فيهم، بعد شيخه حسن البنا الذي احتل مرتبة الصدارة بين الزعماء في عقل الغزالي وقلبه وإنتاجه.

١- زمنه وبيئته:

كانت الأمة إبان ظهر جمال الدين الأفغاني في ضعف سياسي وديني وثقافي، كانت «تركة رجل مريض يوشك أن يلفظ روحه ويقتسم ميراثه، ولم تكن له في المحافل الدولية مهابة ولا رسالة، استطاع أعداؤها مع امتداد عصر الإحياء أن يجتازوا البارود إلىٰ البخار وأن يتهيئوا للكهرباء والذرة علىٰ حين جثم المسلمون علىٰ مكانتهم يبذرون الحب، ويرجون الثمار من الرب، ولا يدرون شيئا قل أو كثر عن الكون الذي يعيشون فيه. أما ثقافتها الدينية فاجترار غريب للنزاع بين الأشاعرة والمعتزلة أو قصص عقيم عن فكر السلف والخلف، ذاك في ميدان العقيدة. أما في ميدان الفقه فتشريح للفروع ودوران حولها يجعل من

---

(١) الغزالي، في موكب الدعوة، ص١٨٤.

الحبة قبة... لم تكن للثقافة الإسلامية موضوعات ذات بال، أو قضايا نفسية واجتماعية وسياسية مهمة»[(١)]، وكانت «الشورىٰ قد ماتت مبنىٰ ومعنىٰ، وكان الاجتهاد قد توقف وأمسىٰ ذكريات بائدة! كانت الطاقات الروحية والفكرية قد نفدت بين العامة والخاصة وسقط المسلمون من أعين البشر جميعا»[(٢)].

«وقبل أن تستسلم الخلافة العثمانية للموت أدركتها صحوة يائسة، فقد ولىٰ الأمر السلطان عبد الحميد، وهو من أذكىٰ وأقدر الخلفاء الأتراك، حاول الرجل أن يشد الأعصاب المسترخية، ويبعث في الأمة روحًا جديدا، فاستعان بالسيد جمال الدين الأفغاني علىٰ إحياء الجامعة الإسلامية، ورد المسلمين إلىٰ مصادر قوتهم الأولىٰ. ووقف بصلابة أمام أطماع الصليبية العالمية التي استعدت لاقتسام تركة الرجل المريض»[(٣)].

٢- صفاته:

هو «رجل حكيم حادّ البصر والبصيرة»[(٤)]، «حادّ الذكاء حادّ الطبع»[(٥)]، وأخص صفاته وأبرزها «عزة النفس وشموخ الأنف والتوكل علىٰ الله، عندما ذهب إلىٰ الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران، وأنصت جمال الدين دون أن يرد، فلما طال إلحاح السلطان عليه قال منهيا الحديث: قد عفوت عنه. وشده السلطان، وذعرت الحاشية! قد عفوت عنه؟ العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجدا ويشكرون الندىٰ. فما بال هذا الرجل يناصىٰ الملوك ويحاكم أخطاءهم؟ قال المؤرخون: ما كان جمال الدين يرىٰ نفسه دون الخليفة... هل هذا السمو خلق عميل

---

(١) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٧٩.

(٢) نفس المصدر

(٣) الغزالي، **الدعوة الإسلامية**، ص٥١.

(٤) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٧٩.

(٥) الغزالي، **الحق المر: الجزء الثالث**، ط٤ (القاهرة: دار نهضة مصر، أكتوبر ٢٠٠٥)، ص١٣٧.

للماسونية كما يقال؟ إنه خلق متوكل وثيق الصلة بربه، راسخ القدم في دينه»[١].

ويتعجب الغزالي من شدة أنف الأفغالي حتىٰ يقول: «لا أدرىٰ أكان المتنبىٰ يصف نفسه أو يصف جمال الدين الأفغانىٰ حين قال:

تغـرب لا مـستعظما غـير نفـسه — ولا قـابلا إلا لخالقـه حكمـا

ولا سـالكا إلا فـؤاد عجاجـة — ولا واجـدا إلا لمكرمـة طعمـا

يقولـون لي: مـا أنـت؟ في كل بـلدة — وماتبتغى؟ ما ابتغى جـل أن يـسمى

ومع التجهم الذي قوبل به من ذوىٰ السلطان، والمكايد التي دبرها له الحاقدون والحدة فإن الرجل بقىٰ علىٰ وفائه لدينه وانتصافه لأمته وجراءته علىٰ العدىٰ وتحمله للآلام.

كذا أنا يا دنيا! فإن شـئت فـاذهبى — ويا نفس زيدى في كرائههـا قـدما

فـلا عـبرت بى سـاعة لا تعـزنى — ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما»[٢]

ويتأسف محزونا: «لو كانت حظوظ المسلمين من الرقىٰ الاجتماعىٰ أرفع وأشرف لكان جمال الدين حاكما يُعَان، بدل أن يكون مصلحا يُطَارَد. وعالما يُقتدىٰ به، بدل أن يكون امرءا يَرُدُّه هذا ويصدُّه ذاك»[٣].

٣- كفاحه وآثاره:

جمع الأفغاني في كفاحه ومشروعه ثلاثة من الجوانب الأربعة التي يحتفي بها الغزالي: مقاومة الاستعمار، مقاومة الاستبداد، مقاومة الجهل. ومن أجل هذا تكرر في كتاباته التقدير لأثره وعمله. وقد جَمَع تلك الجوانب الثلاثة في

---

(١) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٧٦.

(٢) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٨٠، ٨١.

(٣) الغزالي، **معركة المصحف**، ص١١٨.

قوله عن الأفغاني: «وما سمعت قبله ولا في عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية وألب الجماهير ضدها وشن الغارات شعواء علىٰ المستبدين والظلمة، ونفخ من أنفته في الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها علىٰ العمل لدينها ودنياها، إن الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت»[١].

أدرك الأفغاني أصل الداء، وهو **الجهل والتخلف**، ذلك «إن المصلحين الكبار يترفعون عما يشغل العامة وأشباههم من قضايا. وهم يتجهون إلىٰ الإصلاح من المنبع لا من المصب.. وهذا ما فعله جمال الدين، ومن سار تحت رايته. إنه نظر في أحوال المسلمين علىٰ اختلاف العصور، وعرف الداء وبدأ العمل. وكان الرجل يتملكه إحساس لا ريب في صدقه، أن الفكر الإسلامىٰ متخلف عن الفكر العالمىٰ مسافة طويلة! بل متخلف عن الإسلام نفسه وتاريخه البعيد»[٢]، لقد «كان (الأفغاني) غاضبا للإسلام، ناقما علىٰ من حرفوه وأضعفوه. وكان يرفض بعنف شديد الفصل بين الإسلام والعقل، وبين الشورىٰ والحكم، وبين الإنسان والحرية، وكان حاسما في ربطه بين العبادات وزكاة الروح، والتوكل علىٰ الله والزهد في أعراض الدنيا وصحبة الكبراء»[٣].

ومن هنا «كان علىٰ جمال الدين ومن التف حوله من الرجال أن يستأصلوا علل التخلف، ويردوا الأمة إلىٰ الصراط المستقيم. وبديهىٰ أن تكون الجامعة الإسلامية أساسهم فلا تعصب لجنس، وأن يكون العقل الإسلامىٰ رائدهم أو باعثهم فلا تعصب لمذهب أو رأىٰ.. وقد أحس الأفغانىٰ بما يشيع في أجواء المسلمين المنهزمين من خرافات، وبما يصحب اليقظة الأوروبية من باطل وهوىٰ

---

(١) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٧٦.
(٢) نفس المصدر ص٨٣.
(٣) نفس المصدر ص٨١.

وظلم، فأخذ يعرض الإسلام على نحو يقمع المغرورين ويستنهض المقهورين»[١].

وأما **الاستعمار** فإن الغزالي يرى الأفغانيَّ «أولَ من أبصر الحقد التاريخى في ضمير الاستعمار الغربى، ونبه المسلمين إلى أن أوروبا لا تزال تحمل ضغائن بطرس الناسك في تعاملها مع المسلمين»[٢]، ولهذا كان «يحتقر التعصب الأوربي ويمارس إنقاذ الجماهير من غارته»[٣].

وأما **الاستبداد**، فقد كان الأفغاني «يرى أن الحكومات الإسلامية مصدر الداء وأصل البلاء فوجه إليها حملات منكرة ودخل معها في حرب حياة أو موت»[٤]، ومن ثَمَّ فقد «استجمع كل ما يملك من مواهب واشتبك في صراع وحشى مع الحكام الذين أذلوا الشعوب ومع الشعوب التي ذلت للحكام. وشرع يعرض الإسلام حركة عقل وإباء نفس، ويبرز خصائص الحضارة الإسلامية الأولى بما حوت من فكر نضير وجراءة على الحياة، وقدرة على التغيير»[٥]. وكانت طريقته أن يعمل على الجهتين: الحكام والمحكومين، «فحاول إسداء النصح إلى الحكام، وتعريفهم أنهم أجراء للشعوب وملزمون بالشورى، كما حاول استحياء الأمة الهامدة وتبديد الخمول العلمي والخلقي الذي ران عليها، وألغى وجوديها الأدبى والمادي في السباق العالمي. وكان إيمانه عميقا بقدرة الإسلام على استئناف رسالته وتجديد حضارته. وعندما أصدر هو وصاحبه محمد عبده مجلة العروة الوثقى لم يكن صحافيا مهموما بالطبع والنشر! كلا، لقد مهد لذلك بتأليف جماعات أو شعب تتواصى بنصرة

---

(١) نفس المصدر ص٧٩.

(٢) الغزالي، **الحق المر: الجزء الخامس**، ط٥ (القاهرة: دار نهضة مصر، أغسطس ٢٠٠٥)، ص٤.

(٣) الغزالي، **الحق المر: الجزء الثالث**، ص١٣٧.

(٤) نفس المصدر ص١٣٨.

(٥) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٧٩.

الإسلام وتقسم الأيمان المغلظة على جعل الولاء له فوق الولاء للأبوة والأمومة، وتتجمع على مدارسة المجلة كي تضع أسس الجامعة الإسلامية الجديدة وتعيد العافية للكيان المريض»[١].

ويتأسف الغزالي أن مجهود الأفغاني لم يحقق ما طلبه، لقد «ترك دَوِيًّا واسعا ولم يصنع شيئًا طائلًا»[٢]، لقد نجح حقًا «في تأليب الكثيرين على الاستعمار العالمى. ولا ريب أن مدرسة المنار في مصر ومدرسة ابن باديس في الجزائر، ومدرسة القاسمى والكواكبى في الشام ومدارس كثيرة في العالم الإسلامى كانت أثرًا مباشرًا لهذه الثورة الفكرية والتربوية التي بدأها جمال الدين»[٣]، إلا أنه لم يستطع شيئًا عمليًا يغير به من واقع الحياة الإسلامية.

ويتأسف الغزالي حين يعقد مقارنة أليمة: «إن جمال الدين الأفغانى وتيودور هرتزل متعاصرين، فأما الأول فجاهد ليدعم بتعليم الإسلام الصحيح دولة مريضة رأى ذئاب الأرض تتهيأ لنهش لحمها، وابتلاع كيانها، وأما الآخر فقد رأى الفرصة سانحة ليخلق من العدم دولة، ومن الوهم كيانا، وكانت اليهودية ورؤى العهد القديم هى الدعائم التي بنى عليها أمله الهائل. فأما جمال الدين فقد قتل دون غرضه وأما هوتزل فنحن اليوم نعانى المر من غرسه»[٤].

٤- الطاعنون في جمال الدين:

«إن الجريمة الأولى والأخيرة لجمال الدين الأفغانى أنه اكتشف الروح الصليبية في الاستعمار الغربى وحذر منها، ونبه إلى أن قلب بطرس الناسك لا يزال يخفق في صدور الساسة الأوروبيين. والجريمة التي تتبعها أنه قدم إسلاما

(١) نفس المصدر ص٨٣.
(٢) الغزالي، **الحق المر: الجزء الثالث**، ص١٣٨.
(٣) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٨١.
(٤) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ص١٨٥.

بلا مذاهب مُفَرِّقة، وداس بكبرياء ما انشغل به جلة علماء الدين من فروع الفقه وبحوث اللاهوت»[(١)].

ومن أجل هذا انقلب عليه وطعن فيه الطرفان كلاهما: أتباع الاستعمار وأتباع التعصب والمذاهب التفريقية، رغم أنهما «صنفين متباعدين جدا»[(٢)]، يقول الغزالي: «إني لأعجب من تَوَقُّح نفر من الكتاب[(٣)] علىٰ الإسلام وانكماشهم أمام أي دين آخر ولو كان الوثنية البرهمية، أو الوثنية البوذية. إن هؤلاء الكتاب الهازلين يغضون من مواقف رجل مثل جمال الدين الأفغاني له آلاؤه علىٰ النهضات الحديثة في ربوع الشرق أجمع، ولا يستحون من إبراز اسم نكرة لخائن انضم إلىٰ الفرنسيين وساعد علىٰ استبقائهم في مصر، ورحل معهم لما طردوا من هذه البلاد؛ لأنه كان يعلم يقينًا أن القتل جزاء أمثاله»[(٤)]. وعلىٰ الجانب الآخر يطعن فيه السلفيون بل يشنون الحملات عليه وعلىٰ مدرسته، يقول الغزالي «إن مدرسة جمال الدين الأفغانىٰ - محمد عبده - رشيد رضا من أجلّ المدارس الفكرية في تاريخ الإسلام! وهناك جهود مسعورة بين السلفيين (!) لتلويث سمعتهم واتهام عقائدهم وجعلهم جواسيس علىٰ الإسلام»[(٥)].

---

(١) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٨٤.

(٢) نفس المصدر ص٨١.

(٣) يقصد هنا لويس عوض الذي بذل جهده للطعن في جمال الدين الأفغاني وتشويهه، كما بذل جهده في تبرئة الخائن المعلم يعقوب القبطي الذي انضم للحملة الفرنسية وترأس فيلقا من النصارىٰ حارب به المسلمين معهم، ثم ارتحل معهم لما رحلوا عن مصر.

(٤) الغزالي، **حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي**، ط٣ (القاهرة: دار نهضة مصر، أكتوبر ٢٠٠٥م)، ص١٠.

(٥) الغزالي، **الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية: أزمة الشوري**، (القاهرة: دار نهضة مصر، يناير ٢٠٠٥م)، ص٨٠؛ الغزالي، **من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث**، ط٤ (القاهرة: دار نهضة مصر، يناير ٢٠٠٥)، ص١٨٨.

ثم يأخذ الغزالي في الدفاع عن الأفغاني، فيوجه جل اهتمامه لمطاعن السلفيين ويضرب صفحا عن مطاعن التغريبيين، إذ «لا عجب في موقف الدكتور، وإنما العجب في موقف الذين تلاقوا معه في ضرب رجل الإسلام! والجنون فنون»[(١)]، وقد اتخذ في دفاعه هذا منهجا يقوم علىٰ:

أولًا: تفنيد الشبهة: «قالوا: كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية، ولا أنفي هذا، وإنما أسأل: في أي كتاب إسلامي شُرِحَتْ آثام الماسونية وحُذِّر المسلمون منها قبل عصر الأفغاني؟ إنه خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم في المؤسسات العالمية الكثيرة، والمهم أنه منذ ظهر إلىٰ أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه إلا العمل علىٰ استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم.. وذاك حسبه من الشرف»[(٢)]، ويكرر في موطن آخر ذات الدفاع: «خطأ بولغ في تضخيمه! والماسونية نحلة ما كان أحد يدرىٰ خباياها، كانت تخادع بشعار الحرية والإخاء والمساواة، فلما دخلها جمال الدين وأحس أن أعضاءها مزورون شن عليهم الحرب وفض محفلهم وأسس محفلا آخر يقول فيه ما يريد»[(٣)].

ثانيًا: السخرية من الشبهة المتهافتة: «قلت لرجل يكره جمال الدين الأفغاني: ما قيمة التشكيك في انتماء جمال الدين لبلد ما؟ ليكن أفغانيا أو إيرانيا أو سودانيا! فهل يستمد الرجل شرفه من وطن ولد به! إنما يستمد عظمته من سيرته وتراثه والأصداء البعيدة التي تركها في العالم الإسلامىٰ فأيقظته من سبات. قال: إنه إيرانىٰ يستخفىٰ بنحلته الشيعية وراء نسب زائف! ومبدأ التقية عند الشيعة يتيح له ذلك! قلت: إن أصدقاء جمال الدين وأعداءه نقبوا في أقواله وأفعاله وخطبه

---

(١) الغزالي، **علل وأدية**، ص٨٥.

(٢) نفس المصدر ص٧٦.

(٣) نفس المصدر ص٨٩.

وكتبه فلم يروا ذرة من تشيع إلا للإسلام والسلف الصالح، ولم يروا نبرة من حماس إلا لاستعادة الحضارة الغاربة وإنعاش أمتها المسكينة. إن نفس الرجل تساقطت أنفسا وهو يكافح الذل والجهل والذهول والتفرق وسائر العلك التي أكلت كياننا. وما عرف عنه تعصب لمذهب كلامىٰ أو فقهىٰ أو جنسىٰ، كان الإسلام وحده شغله الشاغل حيث ولىٰ وجهه في آسيا أو إفريقية أو أوروبا. قال: هذا من إتقانه لتمثيل دوره، فقلت مقاطعا: هذا الكلام يشبه اتهام كارل ماركس بأنه رأسمالىٰ تخفىٰ وراء فلسفة صنعها أو صنعت له كىٰ يخدم الأغنياء وأرباب العمل. دع عنك هذا اللغو، ولننظر في عمل الرجل لا في نسبه»[١].

ثالثًا: النكير على صاحب الغرض: «وقد نظرت إلىٰ علماء الدين الذين تناولوا الافغانىٰ بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الاستعمار الشرقىٰ أو الغربىٰ، وأنهم في مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم. إن الهيابين لا يجوز أن يشتموا الشجعان»[٢].

رابعًا: التنبيه إلى خطورة هدم الأبطال: «أذكر أن (بابا روما) الأسبق مات عقب مرض ألم به فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الاجتماعية، وقد ألفت عشرات الكتب عن (نابليون) تنوه بأمجاده وتتواصىٰ بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته. القوم إن رأوا من عظمائهم خيرا أذاعوه وإن رأوا شرا دفنوه! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت، واختلاقها إن لم يكن لها وجود، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ»[٣]. «وطبيعىٰ أن تنطلق الأبواق لتطعن في شرف الرجل وعلمه، وقد تكون هذه الأبواق خادعة، أو مخدوعة! بيد أن

---

(١) نفس المصدر ص٧٨.

(٢) نفس المصدر ص٧٧.

(٣) نفس المصدر.

الاستماع إليها هزيمة إسلامية شائنة، ونصر مؤزر للصليبية الغازية وللسلطات العفنة التي عاشت وتعيش في كنفها»[1]، وإن «مما يؤلمنى أن أرىٰ بعض المتدينين يحب الهجاء أكثر مما يحب الثناء ويسارع إلىٰ خطأ ليفضحه أكثر مما يسارع إلىٰ جميل ليمدحه.. وهذا البعض مستهتر بتجريح الكبار وغمط فضلهم. وقد تلاقىٰ هذا البعض مع الدكتور لويس عوض في التهجم علىٰ جمال الدين الأفغانى»[2].



(١) نفس المصدر ص٨٤.

(٢) نفس المصدر ص٨٥.

أحمد عرابي

تَعَلَّقَ الشيخُ الغزالي بشخصية أحمد عرابي منذ مطلع شبابه، ففي ديوانه الذي كتبه وهو دون التاسعة عشرة من عمره (أي في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين) أنشأ قصيدة عن أحمد عرابي تفيض بمعاني التقدير والوفاء، ومعاني المضي علىٰ نفس طريق ثورته التي لم تنجح، وفي ذلك الوقت كان عرابي شخصية مضادة للأسرة الملكية الحاكمة، وكانت تُصادر الكتب التي تتحدث عنه[1]، ومما جاء في القصيدة:

حيتك من نفسى عواطفُ ثائر ... لا يستكين لسطوة من جائرِ

حيتك من نفسى عواطف مخلصٍ ... لا مأرب يلهيه شأن الفاجر

حيتك نفسى بل تحية أمة ... تحبوك تمجيد الجرىء الماهر

إن فاتك النصر الجميل فإنها ... كبوات جد في طريق واعر

إن فاتك النجح العزيز فإننا ... نسعى نحطم رغم جدّ عاثر

في ثورة كبرى سنسعرها لظًى ... يفنى أتون لهيبها المتطاير

قدِّست مهزوما تعفِّر في الثرى ... قدست مقهورا كسير الناظر

---

(١) يروي المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي أن كتابه عن أحمد عرابي صودر في فترة الملكية، ولم يسمح بنشره إلا بعد انقلاب يوليو ١٩٥٢ والذي كان محتاجا لكل ما من شأنه أن يضاد حكم الأسرة العلوية. انظر: عبد الرحمن الرافعي، **الزعيم الثائر أحمد عرابي**، (القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٨م)، ص٣.

١- صفاته:

وصفه الغزالي بأنه «قائد مسلم في أمة تسعة أعشارها مسلمون»[(١)]، وبأنه «رجل معروف بالإيمان والتقوىٰ. والرجال الذين عاونوه كانوا من أهل الذكاء والاستقامة، من مدرسة جمال الدين الأفغانىٰ وفيهم محمد عبده بلسانه وقلمه ورأيه»[(٢)]، ويعتز الغزالي بأن عرابي «كان أزهريا يستمد ثقافته العامة وحكمه علىٰ الأمور من تعليمه الديني»[(٣)]، وقد «أراد وضع حد لفوضىٰ الحكم الفردىٰ والمفاسد التي تنتشر تحت ستاره الداكن»[(٤)]، واستطاع أن يقود ثورة في مصر «هىٰ من ناحية الوزن التاريخىٰ لثورات المبادئ تشبه الثورة الفرنسية»[(٥)].

٢- كفاح الثورة العرابية:

كانت الثورة العرابية ثورة أصيلة، فلقد قامت «بدوافع إسلامية ضد طغيان ملك مستبد، وعصبيات جاهلية، ولذلك قادها علماء الأزهر، ودعوا لها، ودافعوا عنها وحوكموا من أجلها... وقد دعم الثورة العرابية الفريقان المتباينان من علماء الأزهر. رجال الفكر الحر وفي طليعتهم الشيخ محمد عبده ومدرسته. ورجال التربية والتصوف وفي طليعتهم الشيخ عليش والشيخ أبو عليان وسائر شيوخ الطرق. ومعنىٰ هذا أن رجالات الإسلام علىٰ اختلاف مشاربهم كانوا ظهيرا للثورة العسكرية الشعبية ضد مظالم الأسرة المالكة، والافتيات علىٰ الأمة.. وأن الإسلام كان موقد هذه المقاومة العامة، وباسط أدلتها، ومضرم مشاعرها. وأنه لم يستورد مبادئ من هنا أو من هناك لتشحن قلوب المصريين

---

(١) الغزالي، **التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام**، ط٦ (القاهرة: دار نهضة مصر، يناير ٢٠٠٥م)، ص٣١٥.

(٢) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠٠.

(٣) الغزالي، **حصاد الغرور**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ١٤٦.

(٤) الغزالي، **التعصب والتسامح**، ص٣١٥.

(٥) الغزالي، **حصاد الغرور**، ١٤٦.

الفارغة أو تعلمهم ما يجهلون»[١]. وقد اتفقت الكلمة فيها علىٰ «إقامة حكم دستوري تتجلىٰ فيه إرادة الأمة وتتعاون فيه الكفايات العظيمة وتنتفىٰ منه مصائب الاستبداد السياسي وما جره علىٰ المسلمين من بوار ومعرة»[٢].

لقد كانت «تصرفات إسماعيل وابنه، وأمثالهما من حكام الشرق الإسلامي تدور داخل الحدود التي يرسمها الاستعمار الأجنبي»[٣]، فمن ها هنا «شعرت الصليبية بأن الزمام يفلت منها إذا لم تسارع إلىٰ العمل. وتحركت إنجلترا تقف إلىٰ جانب الخديوىٰ ضد الشعب المطالب بحقوقه الدستورية. والمضحك المبكي أن الإنجليز والفرنسيين، وأمثالهم يحملون لنا- معشر المسلمين- حريات معينة، الحرية الشخصية التي تبيح لصاحبها دون قيد أن يتصرف كيف يشاء، يزني، يسكر، يكفر. أي حرية نبذ الإسلام واطراح تعاليمه وتعدىٰ حدوده!! أما الحريات السياسية والاجتماعية التي قام أحمد عرابي بترسيخها في وادينا هذا.. فإن الإنجليز لا يطيبون نفسا بحصولنا عليها، وهم يعلنون علينا الحرب كي نحرم منها»[٤].

«ومن هنا نلمح سفيرهم إلىٰ جانب الخديوي توفيق يشد أزره كىٰ يرفض مطالب الشعب، ويشترك معه في مجادلة القائد الباسل الذي ضاق ذرعا بالاستبداد والجور، وذلك في ساحة عابدين، والمرء يشعر بالعجب لمسلك هذا الإنجليزي المتطفل السمج !! ترىٰ لو أن السفير الإنجليزي في باريس انضم إلىٰ جانب الملك لويس ضد رجال الثورة وحاول إقناعهم بالحسنىٰ أو بالشدة أن يتراجعوا في مطالبهم وأن يدعوا هذه الشعارات التي جاءوا بها أكان يُتْرَك حيا؟ كلا، كان سيقتل. ويذهب دمه هدرا، ما يجرؤ أحد علىٰ ذكره.. وكان الفرنسيون

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠٠.

(٣) الغزالي، **ظلام من الغرب**، ط٤ (القاهرة: دار نهضة مصر، يناير ٢٠٠٥م)، ص٨٦.

(٤) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠٠.

يمضون في طريقهم محققين أهداف ثورتهم دون أن يشعروا إلا أن كلبا عوىٰ يعترض حقهم في الحياة فأخرس إلىٰ الأبد. لكن السفير الإنجليزىٰ في مصر يعترض حق أمة مسلمة في الحياة، وهذا- في منطق الصليبية- عمل مشروع. ولو أن أحدا مسه بسوء لقالوا: يسوع قتل مرة أخرىٰ، ولن ترضىٰ السماء فداء له إلا قتل أمة بأسرها»[1].

وهكذا «تدخل الإنجليز لقتل الثورة في مهدها، واستطاعوا بخبثهم الاستعماري أن يستصدروا فتوىٰ من الخليفة التركىٰ بأن عرابىٰ عاص، ثائر، لا تجوز مساندته. ولكن علماء الأزهر سارعوا فكذبوا الخليفة المضلل، وأصدروا فتوىٰ بأن عرابىٰ علىٰ حق، وأن العمل معه جهاد»[2]، ومن جهتها «أسرعت إنجلترا إلىٰ إنزال قواتها بأرضنا لإرغامنا علىٰ قبول هذا اللون من الحكم الفاسد»[3].

ولم يكن صعبا اصطناع ذريعة للاحتلال، فإن «حمارا (بتشديد الميم) مالطيا أحدث بعض الشغب، وناله بعض الأدب كان السبب المباشر لضرب الإسكندرية بقذائف الأسطول. وكان بداية الطريق المشئوم للاحتلال الإنجليزي المبيت»[4]، وقد «أرسل عرابىٰ إلىٰ غلادستون يهدده -قبيل قذف الإسكندرية- بإعلان الجهاد العام حسب تعاليم الإسلام. وكان هذا الإعلان كافيًا ليفض الأقباط من حوله وينفرهم من الدفاع عن البلاد!!»[5]، وسارت الأحداث بما لا تشتهي السفن حتىٰ دخلت إنجلترا «وادىٰ النيل لتطفئ حركة الإصلاح الشعبي

---

(١) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠١.

(٢) الغزالي، **حصاد الغرور**، ١٤٦.

(٣) الغزالي، **ظلام من الغرب**، ص٨٦.

(٤) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠١.

(٥) الغزالي، **التعصب والتسامح**، ص٣١٥.

التي قام بها أحمد عرابي، وتمكن للفساد السياسي والاجتماعي المنبعث من القصر الملكي يومئذ»[(١)].

علىٰ هذا النحو «فشلت الثورة العرابية، ودخل الإنجليز مصر، وما لبثوا حتىٰ أضاعوا السودان، ووضعوا سياسة فصله عن دولة النيل الكبرىٰ، ثم ضاعت أوغندة، وتبعتها إرتيريا، واطمأنت الصليبية إلىٰ موت هذه الدولة الكبرىٰ قبل أن تولد، ولعق الإسلام مرارة هذه الهزيمة في سكون!!»[(٢)].

٣- لم فشل عرابي؟ وما كان يحدث لو نجح؟

يرصد الغزالي ثلاثة أسباب لفشل الثورة العرابية نراها منثورة في كتابه؛ **الأول**: هو الضعف، فإن «عرابي -مهما كان مخلصا قويا- أعجز عن مقاومة القوىٰ الكثيرة التي كادت له في الداخل، وهجمت عليه من الخارج. ولكننا لا نزال ننظر بإعزاز وتكريم للمبادئ التي ناصرها. والتي جادل في ساحة عابدين عنها»[(٣)]، و**الثاني**: هو سوء فهم التدين، فمن «الأحداث الجديرة بالنظر أن أحمد عرابي باشا أقام مع رجاله قبيل موقعة التل الكبير حفل ذكر -رقص ديني بالتعبير الصريح- كي ينصره الله علىٰ الإنجليز وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة»[(٤)]، و**الثالث**: هو السذاجة، وذلك أن عرابي «وثق بكلمة الأفاق الفرنسي «دي لسبس» وترك القناة مفتوحة، فبعد أن دحر الإنجليز في كفر الدوار، وولوا مدبرين، جاءوا عن طريق القناة، وألحقوا بنا شر الهزائم، ولا يزالون معسكرين حول التل الكبير منذ هزمونا إلىٰ اليوم. وقد اعتبرنا وفاء عرابي لدي لسبس غفلة يلام عليها أشد اللوم. وأجمع

---

(١) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ص٢٠.

(٢) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الغزالي، **الدعوة الإسلامية**، ص٥٧.

النقاد علىٰ أن وفاءه هنا كان خطأ كبيرا»[١].

وما إن هُزِمت الثورة العرابية واحتل الإنجليز مصر حتىٰ «بدأت مأساة تزوير التاريخ فأهيل التراب علىٰ دور الإسلام والأزهر في كفاح المظالم السياسية والاقتصادية، وأطبق الصمت علىٰ ما فعله رجال عظام- ببواعث دينية خالصة- لإحقاق الحق وإبطال الباطل.. والغرض من هذا التآمر المريب غمر الدين وأهله، حتىٰ يبدو الإسلام وكأنه مخدر للشعوب!! وإنها لخسة محقورة منكورة أن يجرد الشريف من فضائله، ثم تطرح عليه معايب الآخرين.. ولكن ذلك ما وقع، فقد محيت الصبغة الدينية عن هذه الثورة وعرضت في الكتب المدرسية وغيرها مجردة من طابعها الإسلامىٰ، كما يجرد الدم من كراته الحمراء والبيضاء، فماذا يبقىٰ منه؟؟»[٢].

ويتحسر الغزالي علىٰ مصير تلك الثورة الواعدة، ويتأمل النتائج العظمىٰ التي كانت لتحدث لو نجحت الثورة:

«ماذا كان يتم لو أن ثورة الزعيم أحمد عرابي نجحت واستقر لها الأمر؟ كانت ستقوم دولة عربية إسلامية كبرىٰ تشمل وادىٰ النيل كله مصر والسودان وأوغندا وإرتيريا. فإن السلطان المصرىٰ كان يمتد حتىٰ منابع النيل ويشمل فيما يشمل هرر ومصوع. رقعة فيحاء متكاملة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا إذا واتتها ظروف الحياة الراشدة كونت دولة من أقوىٰ دول البحر الأبيض، وكان لها في العالم كله صوت مسموع... أىٰ مستقبل سعيد ينتظر الإسلام إذا قامت هذه الدولة؟ دولة سيشيع في ربوعها العدل الاجتماعىٰ، وتتوطد في أركانها الحريات السياسية»[٣].

---

(١) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ص٢٢٣.

(٢) الغزالي، **حصاد الغرور**، ١٤٦، ١٤٧.

(٣) الغزالي، **معركة المصحف**، ص٢٠٠.

محمد رشيد رضا

غلب الجانب العلمي والفكري في سيرة الشيخ رشيد رضا علىٰ كفاحه السياسي، فرغم كونه ظهر في وقت عصيب، هو وقت تمكن الاحتلال من الديار المصرية، حيث تمكن الاحتلال الإنجليزي من مصر ولم يزل رشيد رضا في السابعة عشرة من عمره، فكانت جريدة «العروة الوثقىٰ» التي يصدرها الأفغاني وعبده من أوائل ما حَرَّك همَّه إلىٰ السياسة وشؤون المسلمين، ثم التقىٰ بمحمد عبده وصار رفيقه، ورغم انصراف محمد عبده إلىٰ شأن التربية والتعليم والإصلاح بعد رجوعه إلىٰ مصر دون اشتباك بشأن السياسة إلا أن مجلة المنار -التي صدرت قبل سبع سنوات من وفاة محمد عبده، واستمرت سبعة وثلاثين عاما حتىٰ وفاة رشيد رضا- هي وثيقة تاريخية حافلة بالهم السياسي الواسع لرشيد رضا، والمتابعة الوافرة لشؤون المسلمين عبر العالم.

إلا أن شأنه لم يكن فقط الكتابة، فلقد شارك في المؤتمرين الإسلاميين المنعقدين في مكة (١٩٢٦م) والقدس (١٩٣١م)، ولعب دورا في كفاح سوريا السياسي، فقد كان في حزب اللامركزية قبل (١٩١٤م)، وفي المفاوضات التي جرت أثناء الحرب مع البريطانيين، ورأس المؤتمر السوري (١٩٢٠م)، وكان عضوا بالوفد السوري الفلسطيني إلىٰ جنيف (١٩٢١م)، وفي اللجنة السياسية في القاهرة عند وقوع الثورة السورية عامي (١٩٢٥و ١٩٢٦م)[١]. ولهذا النشاط السياسي وضعنا رشيد رضا ضمن زعماء التغيير في دراستنا هذه، مع أن الشيخ الغزالي لم يتناول إلا الجانب المشتهر منه، وهو الجانب العلمي الفكري، وهو كثيرا ما يتناوله ضمن موقعه من مدرسة الأفغاني ومحمد عبده.

---

(١) ألبرت حوراني، **الفكر العربي**، ص٢٧٣، ٢٧٤.

ولقد بلغ تقدير الغزالي لرشيد رضا أن يسبغ عليه وعلىٰ مدرسته هذا الوصف الكبير، يقول: «كان محمد رشيد رضا **ترجمان القرآن وشارة السلفية الصحيحة** والمفتىٰ العارف بأهداف الإسلام والمستوعب لآثاره»(١)، وإن «مدرسة المنار هىٰ **المهاد الأوحد للصحوة الإسلامية الحاضرة**، وعلىٰ الذين يرفعون القواعد من هذا المهاد أن يتجنبوا بعض الهنات التي فات فيها الصواب إمامنا الكبير، فما نزعم عصمة له أو لغيره»(٢).

كانت مجلة المنار النموذج الذي يرتضيه الغزالي للقيادة العلمية، ويقر بفضلها عليه، يقول: «أتردد علىٰ تفسير المنار بين الحين والحين لأتعلم منه ما لم أكن أعلم وهو في نظري موسوعة ثقافية موارة بالأبحاث التي تشمل الدين كله»(٣)، وذلك لأن رشيد رضا كان علامة كبيرًا فقد «استوعب مذهب المفسرين، من تفسير بالأثر إلىٰ تفسير فقهي، إلىٰ تفسير كلامي، ومن المختصرات إلىٰ المبسوطات، ثم ضم إلىٰ ذلك علمًا بآراء المذاهب الفقهية الكثيرة، إلىٰ تقعيدات الأصوليين الذين نبغوا في شتىٰ العصور، إلىٰ ما جد في العالم الإسلامي بعد احتكاكه بالمجتمعات الحديثة»(٤).

ويجمل الغزالي وصفه لمنهج رشيد رضا وطريقته في قوله: «بذلت مدرسة المنار جهودًا متصلة لتصحيح المعرفة الدينية، فحاربت التقليد المذهبي الجامد كما حاربت الأحاديث الضعيفة وضبطت داخل الهداية القرآنية الأحاديث الصحاح ، وطاردت قضايا كلامية، وتضليلات سياسية.. واستطاع محمد رشيد رضا أن يسوق توجيهات محمد عبده وسط حشد مِن الآثار المحررة. بَيْدَ أن

---

(١) الغزالي، **الحق المر: الجزء الخامس**، ص٤.

(٢) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٩١.

(٣) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٨٦.

(٤) نفس المصدر ص٩٠.



قوىٰ شريرة من الداخل والخارج اعترضت هذا الخير الدافق»[١].

وتكرر في كلام الغزالي إدراجه الشيخ رشيد مع أستاذه محمد عبده وأستاذ أستاذه الأفغاني، وهم عنده «من أعمدة اليقظة الإسلامية في العصر الحديث»[٢]، ومدرستهم «من أجلّ المدارس الفكرية في تاريخ الإسلام»[٣]، وهم «قادة الفكر الواعىٰ الذكي في القرن الأخير. والنقيق العالىٰ الذي يثور ضدهم هو من أشخاص علمهم بالإسلام سطحىٰ ودفاعهم عنه دفاع الدبة التي قتلت صاحبها»[٤].



(١) الغزالي، **الغزو الثقافي**، ص٣٧.
(٢) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٨٦.
(٣) الغزالي، **الفساد السياسي**، ص٨٠.
(٤) الغزالي، **علل وأدوية**، ص٩٠.

ما يؤخذ على الشيخ الغزالي

بعد هذا الجمع والتفكيك والتركيب الذي استخرجناه من كلام الغزالي المنتثر في سائر ما وصلت إليه أيدينا من الكتب نستطيع أن نبصر منهج الغزالي في تناول زعماء التغيير، وهو أن يبدأ بشرح الظروف السائدة في وقته، ثم يثني بصفاته الشخصية وأخلاقه ومواهبه، ثم يتحدث عن مجهوده وحركته وآثاره، ثم إن كان الأمر يحتاج إلىٰ اشتباك مع الطاعنين فيه فَعَل فدافع عنه.

لكن أبرز ما يؤخذ علىٰ الشيخ في هذا الباب أنه لم يكن له بحث محرر في تجربة من تلك التجارب، إنه يعترض لها في سياق الفكرة العامة التي يريد توصيلها، ولهذا يُرهق من يحاول أن يجمع وراءه كلامه في الرجل الواحد ويعيد بنائه، لكن الإشكال ليس في إرهاق من يجمع إنما في أنه لم تكن ثمة صورة كلية بناها الغزالي مرة واحدة فيُمكن محاكمتها إلىٰ معايير دراسة التجارب التاريخية وفهمها ونقدها. ولذلك يكثر في أحكامه ما لا يمكن فهم طريقة بنائه له، ولا المعلومات التي توفر عليها ليخرج بهذا الحكم. وهنا بطبيعة الحال لا نطلب من الشيخ أن يتحول إلىٰ مؤرخ محقق لتحرير وقائع تاريخية فليس هذا بابه، وإنما المقصود أن يكون حديثه عن تجارب زعماء التغيير حديثا واضحا مكتمل الصورة علمي العبارة لا أحاديث منتثرة تهيمن عليها اللغة الأدبية العاطفية، فإن الصورة وإن كانت واضحة لدىٰ الشيخ فلا تصل بنفس الوضوح لتلاميذه وقارئيه بتلك الوسيلة.

وقد انبنىٰ علىٰ هذا المأخذ الرئيسي ثلاثة مآخذ فرعية:

الأول: أنه لم يُبِن موقفه من إشكالات كبرىٰ في تلك التجارب كالمسوغات الشرعية للتوسعات الوهابية وتعاملها مع القبائل والبلدان التي وقعت في بعض مظاهر الشرك وما ينبني علىٰ هذا من التكييف الشرعي لقتالهم واستباحة

أموالهم وغنائمهم، وما رأيه في سواغ الخروج علىٰ الدولة العثمانية في مناطقها لأنها متخلفة أو متراجعة أو تعتنق بعض مظاهر الشرك في حين تقوم بمواجهات مع جبهات أعداء الإسلام. ومسألة الجانب السياسي من الشيخ محمد عبده وعلاقته بالإنجليز وبالنخبة المتكونة حولهم وما مدىٰ الاضطرار الحاصل في مسألة الإصلاح عبر سلطة غير شرعية فضلا عن أن تكون سلطة احتلال.

الثاني: أنه في غمرة تحمسه لبعض الزعماء قطع بأمور لم تكن صحيحة كمسألة أن العثمانيين كانوا لا يدرون شيئا عن العالم، أو أن سنتهم في الحكم كانت قتل الإخوة حتىٰ الرضع منهم، وهو ما لم يكن صحيحا بحال، ولا ريب أن البحث في أسباب التخلف يحتاج نقاشا أعمق ولا ينفع أن يُكتفىٰ فيه بعبارات موهمة غامضة.

الثالث: أنه لم يحلل أبدا تجربة فشل أولئك الزعماء، وكيف أخفق كل منهم في الوصول إلىٰ ما يصبو، فهو إن تناول الأمر تناوله بعبارات مقتضبة تهيمن عليها أيضا لغة أدبية عاطفية حارة، أو تكتفي بذكر سبب هامشي أو عرضي. نعم، لا ريب أن الاستعمار تآمر وقوىٰ الشر عملت علىٰ إجهاض عمل المصلحين لكن الشيخ الغزالي نفسه قد أفاض كثيرا في ضرورة دراسة الأسباب الذاتية في الإخفاق قبل دراسة الأسباب الخارجية، لكنه لم يطبق الأمر علىٰ الزعماء الذين احتفىٰ بهم، وكان ينبغي أن يكون له وقفة ودرس في تحليل نتائجهم: لم فشل كل أولئك فيما حاولوا.

قال مرة: «السبب في فشل جمال الدين وعجزه عن بلوغ غايته أن الاستعمار الفكرىٰ استطاع خلق عدد كبير من أمثال هذا الشرقاوىٰ[1] التافه يكره الإسلام،

---

(١) محمود الشرقاوي، من حملة الدكتوراة من الأزهر، كانت رسالته بعنوان «الدين والضمير» وفيه نعىٰ علىٰ جمال الدين الأفغاني أنه دعا إلىٰ تجديد الخلافة لأن الدولة الدينية لا يدعو إليها من كان لديه عقل وحرية وضمير، وأرجع سبب «ضلال» الأفغاني في دعوته إلىٰ الجامعة الإسلامية لقوة عاطفته الدينية!

يرىٰ عمق الإيمان به تهمة تشين صاحبها!! ولو كان جمال الدين من دعاة اليهودية أو النصرانية ما جرؤ أحد علىٰ تناوله بهذا الأسلوب! ولكنة من دعاة الإسلام المهيض الجناح، الذي يستنسر بأرضه البغاث»[1]، وهذا في النهاية كلام ينفع في معرض إدانة الغزو الفكري وعمل الاستعمار لكنه لا ينفع في فهم كيف أخفق جمال الدين، بل كان من شأن بحث الموضوع أن يفتح العلاقة بين السلطان عبد الحميد الثاني وجمال الدين الأفغاني وهو ما كنا سنفهم منه تقييما أوضح وأعمق لشخصية وتجربة عبد الحميد كما يراها الشيخ الغزالي.

وغني عن القول أن المآخذ علىٰ الكبار لا تنقص من قدرهم، بل إن الحرص علىٰ ذكر هذا النوع من الاعتذار ربما دل علىٰ مراهقة علمية، فلا زال الآخر يستدرك علىٰ الأول وإن لم يقاربه في علم ولا مقام، فلا يُنزل استدراكه من قدر الكبير ولا يرفع بالضرورة من قدر الصغير.



(١) الغزالي، **في موكب الدعوة**، ص١٨٥، ١٨٦.

الفصل الثاني

علاقة الإنسان بالبيئة بين الإسلام والعلمانية - من خلال رسائل النور

لم تكن بداية الإسلام بـ «لا إله إلا الله» شيئا يسيرا، بل كانت أصعب البدايات جميعا، إلا أنها كانت البداية الوحيدة الصحيحة، ذلك أن معالجة الأفكار الكبرىٰ هو ما يحل المشكلات الصغرىٰ إن في الأفكار أو في النظم والأشياء. وهذا أمر يكاد يُتَّفق عليه بين الفلاسفة والمؤرخين الذين يبحثون في شأن الحضارات[١].

وليست العلمانية إلا نوعا جديدا من الوثنية، إنما هي أفكار يخترعها البشر من عند أنفسهم أو يجدون عليها آباءهم، كما كان الوثنيون يصنعون أوثانهم بأيديهم أو يرثونها عن آبائهم، فالعلمانية ترفض وجود إله يدبر الحياة ويضع للبشر مناهجهم وسلوكهم، فهي تستبعد الإله لتضع مكانه الإنسان ليضع لنفسه بنفسه طرائق تفكيره وسلوكه.

هذا التناقض الكامل بين المنهجين أنتج آثارا هائلة، منها أثر كلا المنهجين علىٰ موضوع: البيئة والتأثير علىٰ المناخ، ذلك أن المسلم يمتلك تصورا

(١) قدمت هذه الورقة لمؤتمر «دور العمل الإيجابي في بناء عالم أفضل: مقاربة رسائل النور» والذي كان من المفترض انعقاده في صيف ٢٠١٦م لكنه ألغي للظروف التي مرت بها تركيا جراء محاولة الانقلاب العسكري الفاشلة (١٥ يوليو ٢٠١٦م).

مختلفا تمامًا عن الطبيعة وطريقة التعامل معها عن ذلك التصور الذي يعتنقه العلماني عنها.

يرىٰ المسلم أن البيئة من صنع الله وأنها مخلوقة باتزان وأنها مسخرة له وأنه مخلوق مستخلف فيها واجبه التعمير ومقاومة الإفساد وأنه سيحاسب عن ذلك يوم القيامة، بينما يرىٰ العلماني أن الطبيعة -سواء خلقها إله وتركها تدير نفسها، أو وُجدت بالتطور أو الصدفة أو بأي طريقة أخرىٰ- مادة استعمالية تنحصر علاقته بها بعلاقة المالك بالشيء المملوك، يتصرف فيها كما شاء وليس بمسؤول عن ذلك أمام أحد، بل إن ثمة تصورات غربية غريبة تدعو الإنسان لتدميرها.

هذا الفارق وآثاره ترصده الورقة البحثية معتمدة علىٰ رسائل النور للشيخ بديع الزمان النورسي كاجتهاد إسلامي مقارنة بتصورات عدد من الفلاسفة الغربيين.





بين حياة النور وحياة الظلام

قال الشيخ بديع الزمان في المكتوب السادس عشر: «عدم الإيمان لا يشبهه أمر، فلربما توجد لذة شيطانية منحوسة في ارتكاب الظلم والفسق والكبائر، إلا أن عدم الإيمان لا لذة فيه إطلاقًا، بل هو ألم في ألم، وعذاب في عذاب، وظلمات بعضها فوق بعض»[(١)].

ثم رسم لهذا المعنىٰ صورة بديعة رائقة في الكلمة الثالثة والعشرين:

«لقد رأيتُ في واقعةٍ خيالية أن هناك طودين شامخين متقابلين، نُصبَ علىٰ قمتيهما جسر عظيم مدهش، وتحته وادٍ عميق سحيق. وأنا واقف علىٰ ذلك الجسر، والدنيا يخيم عليها ظلام كثيف من كل جانب، فلا يكاد يرىٰ منها شئ. فنظرت الىٰ يميني فوجدت مقبرةً ضخمة تحت جنح ظلمات لانهاية لها، أي هكذا تخيلت، ثم نظرت الىٰ طرفي الأيسر فكأني وجدت أمواجَ ظلماتٍ عاتية تتدافع فيها الدواهي المذهلة والفواجع العظيمة وكأنها تتأهب للانقضاض، ونظرت إلىٰ أسفل الجسر فتراءت لعيني هوةٌ عميقةٌ لا قرار لها، وقد كنت لا أملك سوىٰ مصباحٍ يدوي خافتِ النور أمام كل هذا الهدير العظيم من الظلمات. فاستخدمته، فبدا لي وضع رهيب، اذ رأيت أُسودًا وضواري ووحوشًا وأشباحًا في كل مكان حتىٰ في نهايات وأطراف الجسر، فتمنيت أن لم أكن أملك هذا المصباح الذي كشف لي كلَّ هذه المخلوقات المخيفة؛ إذ إنني أينما وجَّهت نور المصباح شهدت المخاطر المدهشة نفسها، فتحسرت في ذات نفسي وتأوهت قائلًا: «إن هذا المصباح مصيبةٌ وبلاءٌ عليَّ». فاستشاط غيظي

---

(١) المكتوبات ص٧٨.

فالقيت المصباح الىٰ الأرض وتحطَّم، وكأن بتحطُّمه قد أصبتُ زرًّا لمصباح كهربائي هائل، فإذا به ينور الكائناتِ جميعًا فانقشعت تلك الظلمات، وانكشفت وزالت نهائيًا، وامتلأ كلُّ مكانٍ وكلُّ جهةٍ بذلك النور.

وبَدَتْ حقيقةُ كلّ شئ ناصعةً واضحة. فوجدت أن ذلك الجسر المعلّق الرهيب ما هو إلاّ شارع يمر من سهل منبسط. وتبيَّنتُ أن تلك المقبرةَ الهائلةَ التي رأيتها علىٰ جهة اليمين ليست إلاّ مجالس ذكرٍ وتهليلٍ وندوة كريمة لطيفة وخِدمة جليلة، وعبادة سامية تحت إمرة رجالٍ نورانيين فيٍ جنائن خُضرٍ جميلة تشعُّ بهجةً ونورًا وتبعث في القلب سعادةً وسرورًا. أما تلك الأودية السحيقةُ والدواهي المدهشةُ والحوادثُ الغامضةُ التي رأيتها عن يساري، فلم تكن الاّ جبالًا مشجرةً خضراء تسر الناظرين، ووراءَها مضيف عظيم ومروج رائعةٌ ومُتَنَزَّه رائع.. نعم، هكذا رأيتها بخيالي، أما تلك المخلوقات المخيفة والوحوش الضارية التي شاهدتها فلم تكن الاّ حيوانات أليفة أنيسة؛ كالجمل والثور والضأن والماعز، وعندها تلوت الآيةَ الكريمة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وبدأت أردد: الحمدالله علىٰ نور الايمان. ثَمَّ أفقتُ من تلك الواقعةِ.

وهكذا، فذاكما الجبلان هما: بدايةُ الحياةِ ومُنتهاها، أي هما عالمُ الأرض وعالمُ البرزخ، وذلك الجسر هو طريق الحياة.. والطرف الأيمن هو الماضي من الزمن، والطرف الأيسر هو المستقبلُ منه . أما المصباح اليدوي فهو أنانيةُ الانسان المعتدةُ بنفسها والمتباهيةُ بما لديها من علم، والتي لا تصغي الىٰ الوحي السماوي.. أما تلك الغيلانُ والوحوش الكاسرة فهي حوادثُ العالم العجيبة وموجوداته.

فالإنسانُ الذي يعتمد علىٰ أنانيته وغروره ويقع في شِراكِ ظلماتِ الغفلةِ ويُبْتَلَىٰ بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يشبه حالتي الأُولىٰ في تلك الواقعة الخيالية،

حيث يرىٰ الزمن الماضي بنور ذلك المصباح الناقص الذي هو معرفةُ ناقصةُ منحرفة للضلالة كمقبرةٍ عظيمة في ظلمات العدم، ويصوِّر الزمن من المستقبلِ موحشًا تعبثُ فيه الدواهي والخطوب محيلًا إياه الىٰ الصدفةِ العمياء. كماَ يصوِّر جميع الحوادث والموجودات - التي كل منها موظفةٌ مسخرةٌ من لدن رب رحيم حكيم - كأنها وحوش كاسرةٌ وفواتك ضارية. فيحقُّ عليه حُكمُ الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة:٢٥٧].

أما إذا أغاثت الانسانَ الهدايةُ الإلهيةُ، ووجد الايمانُ الىٰ قلبه سبيلًا، وانكسرت فرعونيةُ النفسِ وتحطّمت، وأصغىٰ إلىٰ كتاب االله، فيكونُ أشبه بحالتي الثانيةِ في تلك الواقعةِ الخيالية، فتصطبغُ الكائنات بالنهار وتمتلىٰءُ بالنور الإلهي، وينطق العالمُ برمته: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور:٣٥].

فليس الزمن الغابر إذ ذاك مقبرةً عظمىٰ كما يتوهم، بل كل عصرٍ من عصوره كما تشهده بصيرةُ القلب، زاخر بوظائف عبوديةٍ تحت قيادة نبي مرسلٍ، أو طائفةٍ من الأولياء الصالحين، يدير تلك الوظيفة السامية وينشرها ويرسِّخ أركانها في الرعية علىٰ أتمِّ وجهٍ وأكمل صورة. ومن بعد انتهاء هذه الجماعات الغفيرة من ذوي الأرواح الصافية من اداء وظائفها الحياتية وواجباتها الفطرية تحلّق مرتقيةً إلىٰ المقامات العالية مُردِّدَةً: «الله أكبر» مخترقةً حجاب المستقبل. وعندما يلتفت إلىٰ يساره يتراءىٰ له من بعيد -بمنظار نور الايمان- أن هناك وراءَ انقلاباتٍ برزخيةٍ وأُخروية -وهي بضخامة الجبال الشواهق- قصور سعادة الجنان، قد مدت فيها مضايف الرحمن مدًا لا أولَ لها ولا آخر. فيتيقن بأَن كلَّ حادثةٍ من حوادث الكون- كالأعاصير والزلازل والطاعون وأمثالها - إنما هي مُسخرات موظفات مأمورات، فيرىٰ أن عواصف الربيع والمطر وأمثالَها من الحوادث التي تبدو حزينةً سمجةً، ما هي في الحقيقة والمعنىٰ إلا

مدار الحِكَمِ اللطيفة، حتىٰ إنه يرىٰ الموت مقدمةً لحياةٍ أبديةٍ، ويرىٰ القبر باب سعادةٍ خالدة.. وقس علىٰ هذا المنوال سائر الجهاتِ بتطبيق الحقيقةِ علىٰ المثال».

إلىٰ هنا انتهىٰ النقل من الشيخ بديع الزمان، وهو بهذا الكلام يؤسس للقاعدة الكبرىٰ في العلاقة بين الإنسان والبيئة من حوله، وكيف تكون في ظلام الكفر (سواء أكان كفر الوثنية القديمة أم كفر العلمانية الحديثة) وكيف تكون في نور الوحي.



البيئة في الفكر العلماني

يقول الشيخ بديع الزمان في الكلمة الرابعة عشرة:

«إذا استند الإنسان إلىٰ أنانيته وغروره واتخذ الحياة الدنيا غاية آماله، وكان جهده وكدّه لأجل الحصول علىٰ لذات عاجلة في سعيه وراء معيشته. فسوف يغرق في دائرة ضيقة ويذهب سعيه أدراج الرياح، وستشهد عليه يوم الحشر جميع الأجهزة والجوارح واللطائف التي أودعت فيه شاكية ضده، ساخطة ثائرة عليه. أما إذا أدرك أنه ضيف عزيز وتحرك ضمن دائرة مرضاة من نزل عليه ضيفا وهو الكريم ذو الجلال، وصرف رأسمال عمره ضمن الدائرة المشروعة فسوف يكون نشاطه وعمله ضمن دائرة فسيحة رحبة جدا تمتد إلىٰ الحياة الأبدية الخالدة، وسيعيش سالما آمنا مطمئنا، ويتنفس تنفس الصعداء ويستروح، وبإمكانه الصعود والرقي إلىٰ أعلىٰ عليين. وستشهد له في الآخرة ما منحه الله من الأجهزة والجوارح واللطائف».

وإذا أردنا التدليل علىٰ كلام الشيخ الكبير فيمكننا أن ننظر في النموذج الحضاري الغربي وتصوره للبيئة من حوله، لا سيما والنموذج الغربي هو الحضارة المهيمنة في العصر الحاضر، وهو الحضارة التي التي أنتجت لنا مشكلة البيئة وتلوث المناخ، كما أن النموذج الغربي شهد عبر تاريخه ثلاث تقلبات فكرية كبرىٰ: بداية من الفلسفة الوثنية اليونانية القديمة، مرورا بالمسيحية المحرفة في العصور الوسطىٰ، وانتهاء بالعلمانية الحديثة والمعاصرة. هذه المراحل الثلاث ورغم كون كل منها انقلابا علىٰ ما سبقها فإنها تلتقي علىٰ افتراس البيئة، وذلك أنها ثلاث تجليات من الكفر لا نور فيه، لذلك سنجد أن أقسام الكفر علىٰ اختلافها قد اتفقت علىٰ افتراس البيئة، والتعامل معها

علىٰ أساس «السيطرة» و«التحكم» و«الاستعمال» بالمعنىٰ المادي السلبي لكل هذه الكلمات.

١- الفلسفة اليونانية:

فأما الفلسفة اليونانية فقد أسست لعلاقة منقطعة بين الإله وبين الكون والإنسان، فالإله عند أرسطو خلق الكون وتركه لأنه أعظم من أن يفكر في شيء أقل منه (!)، كصانع الساعة، أودع فيها القوانين التي تسيرها ثم لا يراعيها. كما أسست لطبقية وعنصرية عنيفة بين البشر أنفسهم؛ فيرىٰ أفلاطون وأرسطو أن الناس ثلاث طبقات؛ الطائفة الذهبية: وهم الفلاسفة الحكماء علىٰ رأس الهرم، ثم الطائفة الحديدية: وهم المحاربون والصناع الذين خُلِقوا للطاعة العمياء، ثم العبيد وهم البهائم العاقلة، ورأىٰ أفلاطون أنه لا يجوز لأحد في طبقة ما أن يطمح إلىٰ غيرها وألزمه بقبول حكم الطبيعة عليه ليكون سعيدا[1]. ولئن كان هذا تقسيم اليونان لأنفسهم فليس مستغربا أن يكون موقفهم من غير اليونانيين متلخصا في «عنصرية» تنفر منهم وتحتقرهم ولا ترىٰ بأسًا في قهرهم[2]، وسجل القانون الروماني «مدونة جوستنيان» هذه العبارات:

- بعض الرعايا ممن ليسوا رومانا بالسلالة ليست لهم حقوق الرومان، فهم كالعبيد يعملون لأجل الرومان ولتشبع بطونهم.
- إن العبيد لا يعاملون معاملة الآدميين.
- ليست للمرأة شخصية مستقلة بل هي في حكم المملوكة للرجل أبا كان أم زوجا.

---

(١) ول ديورانت، **قصة الفلسفة**، ص٢٣ وما بعدها، ماريا لويزا برنيري، **المدينة الفاضلة عبر التاريخ**، ص٢٦ وما بعدها، السيد محمد بدوي، **الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع**، ص٥٢.

(٢) مونتسكيو، **روح الشرائع**، ٢/ ١٤٦، برتراند رسل، **حكمة الغرب**، ١/ ١٠٠، ١٤٣، ١٥٧، أرنولد توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، ١/ ٩٣.

وبعد هذا يُعد من السذاجة أن نسأل عن الموقف من الطبيعة والبيئة والنبات والكائنات! إلا أن أخطر ما أسست له أساطير اليونان، كانت العلاقة بين الإله والإنسان، فهما في صراع مستمر؛ الإله يريد الاحتفاظ بالعلم ليحتفظ بهيمنته علىٰ البشر، والإنسان يريد العلم ليتحرر من تحكم الإله ويتأله بنفسه ويتحكم في الكون، فأي اكتشاف هو خصم من الإله وإضافة إلىٰ الإنسان حتىٰ تأتي اللحظة المنشودة: لحظة إزاحة الإله وتنصيب الإنسان إلها[1]. ولقد كان تاريخ الحضارات الغربية القديمة هو التطبيق العملي لهذا الوجه الفكري الفلسفي، فلقد استبدوا بالشعوب ونهبوا الثروات وافترسوا ما أمكنهم من بشر أو موارد.

٢- المسيحية:

وأما المسيحية فقد اختلطت بالوثنية حتىٰ كان أثر الوثنية في المسيحية أكبر من أثر المسيحية فيها، وظهر هذا في النصوص المحرفة التي صارت تنادي بالإخضاع، وتجعل العلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقة سيطرة وقهر وتحكم، فمن ذلك مثلا:

- «فَخَلَقَ الله الإنسان علىٰ صورته، وعلىٰ صورة الله خلقه ذكرًا وأنثىٰ، خلقهم وباركهم وقال لهم: انموا واكثروا **واملئوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا** علىٰ أسماك البحر وطيور السماء، وكل حيوان يدب علىٰ الأرض»[2].
- «اذهب، واضرب عماليق، وحَرِّموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلا وامراة، طفلا ورضيعا، **بقرا وغنما، جملا وحمارا**»[3].
- ومثله ما جاء في سفر يشوع: «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، **حتىٰ البقر والغنم والحمير**، بحد السيف»[4].

---

(١) محمد قطب، **واقعنا المعاصر**، ص٨٩.
(٢) سفر التكوين ١/ ٢٧.
(٣) سفر صموئيل الأول ١٥/ ٣.
(٤) سفر يشوع ٦/ ٢١.

وقد نتج عن مثل هذه النصوص «المقدسة» كثيرٌ من التفسيرات والمواقف العملية، ففي منتصف القرن التاسع عشر مَنَع البابا بيوس التاسع إنشاء فرع لجميعة الرفق بالحيوان في الفاتيكان لأن «الحيوانات مجردة من الروح، ومن ثَمَّ لا تصلح لأن تكون موضعًا لاعتبارات أخلاقية»، وفي عام ١٩٧٣م، قال رئيس أساقفة لوس أنجلوس: «من الأفضل الاحتفاظ بالرأي القائل بأن الطبيعة عدو للإنسان، فهي القوة الغريبة عنه، والتي ينبغي له أن يقهرها ويروضها بعزيمته»[(١)]. وصرح جيمس وات -وزير الداخلية الأمريكي في عهد ريجان- بأن «الحفاظ علىٰ المصادر الطبيعية غير مهم» إذ سيعود المسيح عندما تُقطع آخر شجرة، مستدلا علىٰ هذا بنص من إنجيل لوقا[(٢)]، وعلىٰ منواله نسج القس سبونك في كتابه (الذنوب في الكتاب المقدس Sins of the Scriptures) ورأىٰ بأنه طالما ستكون ثمة حياة آخرة فعلىٰ الناس «أن لا يركزوا علىٰ الأرض ولا أن تكون عليهم مسئولية في الاعتناء بها وبطبيعتها وتحولها... وأن الكوارث البيئية شيء لا بُدَّ منه»، وقرر الصحفي جلن سيثرر في كتابه «النبوة البيئية» أن الملايين من الأصوليين المسيحيين يؤمنون أن تدمير البيئة أمر ينبغي الترحيب به والتعجيل بحدوثه؛ إذ «الجفاف والفيضانات والمجاعات والأوبئة الناجمة من التدمير البيئي تأتي في سياق النبوات الواردة في الإنجيل، وَلِمَ القلق بشأن تقلبات المناخ ما دام الإنقاذ سيتم علىٰ يد المسيح؟»[(٣)].

---

(١) إيان ج. سيمونز، **البيئة والإنسان عبر العصور**، ص٢٢٦.

(٢) يقول النص: «وستظهر علامات في الشمس والقمر والنجوم، وينال الأمم كرب في الأرض ورهبة من عجيج البحر وأمواجه. وستزهق نفوس الناس من الخوف، ومن توقع ما ينزل في العالم؛ لأن أجرام السماء تتزعزع، وحينئذ يرىٰ الناس ابن الإنسان آتيًا في الغمام في تمام العزة والجلال. وإذا أخذت هذه الأمور تحدث فانتصبوا قائمين وارفعوا رءوسكم؛ لأن افتداءكم قد قرب». إنجيل لوقا ٢١/ ٢٥-٣٢.

(٣) انظر: جعفر هادي حسن، المسيحيون الصهيونيون ونظرتهم إلىٰ العالم، مجلة الحوار المتمدن، =

لهذه النصوص والتفسيرات والمواقف نجد كثيرا من علماء البيئة -لا سيما الملحدين منهم- يرون المشكلة البيئية كامنة أصلا في الدين الذي يعطي الإنسان حق السيطرة والقهر علىٰ ما حوله، إلىٰ درجة الترحيب بالتدمير البيئي[1]. وما كان هذا الظن ليثور لولا ما أصاب المسيحية من تحريف، إذن لعرفوا الفرق بين «الاستخلاف» بما يحمله من معنىٰ الأمانة والالتزام وحساب الله في الآخرة، وبين «السيطرة» التي تعني سلطة قهر وامتلاك وتصرف بلا حساب.

٣- فلسفات التنوير والحداثة:

وأما أقوىٰ الروافد وأوسعها تأثيرا في مسألة البيئة فهو فلسفات عصر التنوير والحداثة، وفي هذه الحقبة ظهرت مشكلة البيئة وتفاقمت حتىٰ بلغت حد الكارثة، وحتىٰ الآن ما تزال كل مجهودات إنقاذ البيئة تتحطم علىٰ صخرة هذه الأفكار وما أنتجته من سياسات وأنظمة.

كان من المحتم أن يقع الصدام بين الكنيسة والعلم لأكثر من سبب، منها أن بعض الاتجاهات المسيحية نظرت إلىٰ العلم باحتقار انطلاقا من قول بولس «ألم يصف الربُّ المعرفة الدنيويَّة بالغباوة؟»[2]، ومنها ما اعتنقته المسيحية كـ«حقائق علمية مقدسة» يجعل التشكيك فيها طعنا في المسيحية ذاتها، فمجرد اكتشاف أن الأرض ليست مركز الكون يضرب العقيدة المسيحية، إذ دامت الأرض مجرد كوكب عادي فكيف يصح «القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل ابنه ليموت علىٰ هذا الكوكب المتوسط الحجم، وبهذا واجه

= ٣/ ١١/ ٢٠٠٧م، ومقال بعنوان «ليس هناك غد» مترجم عن دورية ستار تريبيون ومنشور بموقع «إسلام ديلي» بتاريخ ٣٠/ ١/ ٢٠٠٥م.

(١) انظر: مايكل زيمر مان، **الفلسفة البيئية**، ص١٩، ٢٠، إيان ج. سيمونز، **البيئة والإنسان عبر العصور**، ص٢٢٥.

(٢) زيجريد هونكه، **شمس الله تسطع علىٰ الغرب**، ص٣٦٩.

اللاهوت أقوىٰ تحدٍّ في تاريخ الدين»[١]، وكان طبيعيا أن ترىٰ المسيحية أن هذا العلم خطرا عليها لا سيما وهو مقتبسٌ -آنذاك- من المسلمين، فلذلك كانت الكنيسة تفعل كل ما بوسعها لإنهاء هذه «الفتنة» وهذا «التهديد الوجودي»! وبدأت معركة صفرية ابتلعت الآلاف من العلماء في محارق الكنيسة وفنون تعذيبها، معركة لا يرضىٰ أحد أطرافها بحل وسط، وبطبيعة الحال كان صوت العلم أقوىٰ من سوط الخرافة، ووصلت الأمور إلىٰ العلمانية الكاملة وعزل الكنيسة عن الحياة.

ثمة محطات ثلاث يمكن التقاطها في هذا السياق؛ الأولىٰ: اكتشاف نيوتن قوانين الحركة والجاذبية، وبدلا من أن يكون رد الفعل «سبحان الله خالق هذه القوانين» طرحت أجواء المعركة مع الكنيسة ردة فعل معاكسة: الكون يسير وفق قوانين حتمية ولا وجود لإله يسيِّره ويرعاه، الثانية: طرح داروين نظرية النشوء والارتقاء، فكان كأنما ألقىٰ بحجر ينتظره الجميع ليعلن انتهاء الإله بشكل كامل وأن الكائنات تستطيع التكيف ويمكنها أن ترتقي وتغير من تشكلها وفق حاجتها[٢]، الثالثة: طرح ماركس نظريته المادية التي تفسر تاريخ الإنسان بالحاجات المادية (وبالذات المسألة الاقتصادية) فبها وصلت الفكرة إلىٰ نهايتها: لا إله، الحياة مادة، الدين أفيون الشعوب. وبين هذه المحطات الثلاثة غابة من المواقف والآراء والنظريات، تؤدي إلىٰ: الغرب يتخلص من الدين، ويعزل الكنيسة داخل جدرانها.

ونحن حين نقرأ نصوص تلك الفترة نشعر أن برومثيوس قد عاد إلىٰ الحياة

(١) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ٢٧/ ١٣٨، ١٣٩. بتصرف.

(٢) في نفس الوقت كان مندل يبحث في علم الوراثة، ولم يخرج بشيء أكثر من إمكانية تحسن السلالات عن طريق التهجيين، ورغم أن إثباتات مندل أقوىٰ كثيرا من نظرية دارون، إلا أن الأجواء الطموحة إلىٰ التخلص من الدين وإلهه طارت بأفكار دارون دون مندل.

بعد قرون، هذا إيريش فوندانكين يقول بصراحة: «السمة المشتركة لكل الأديان هي أنها وعدت بتقديم العون والخلاص للجنس البشري، فلماذا لم تفِ تلك الآلهة بوعودها؟ إن عالم الأفكار الذي نشأ وتضخم علىٰ مدىٰ ألف سنة في طريقه إلىٰ الانهيار، حيث إن سنوات قليلة من البحث العلمي الدقيق قد أدت إلىٰ تقويض ذلك الصرح الفكري»[١].

وحين تخلت أوروبا عن المسيحية اعتنقت المادية وأزاحت كل «ما وراء الطبيعة»، فكان طبيعيا أن ينفجر النهر الفياض من الشهوات واللذائذ، وأن يعب المرء من الحياة ما استطاع بكل ما استطاع، فخلاصة الحياة في ظلال المادية تلخصها عبارة ألبير كامي -فيلسوف العدمية الشهير- القائلة: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت»[٢]، وبهذا صارت الطبيعة «مادة استعمالية لا قداسة لها، توظَّف وتصنَّع وتستهلَك وتولَّد منها الطاقة من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة بمعدلات لا نظير لها في تاريخ الإنسان، ويؤدي هذا إلىٰ تلوث البحار والأرض والسماء (موت الطبيعة)»[٣]، وهذا بالنسبة لأي مرحلة تاريخية سابقة «مفهوم شاذ عن الطبيعة يعتبرها كما لو أنها ملكية خاصة لنا يحث لنا استخدامها والإفراط باستخدامها (كما يُعَرِّف الحق الروماني هذه الملكية) إلىٰ حد أنه لم يعد يُرىٰ فيها إلا مخزنا للثروات ومستودعا لنفاياتنا»[٤].

ومع نمو الرأسمالية تحولت قيم الاستهلاك نفسها إلىٰ «فلسفة مطلوبة؛ إذ إن تكاثر الإنتاج يقتضي ويريد تكاثرا في الاستهلاك، فيسعىٰ أصحاب الإنتاج أنفسهم إلىٰ خلق نوعيات جديدة للاحتياج عبر الدعاية والإعلان والتطوير

---

(١) إيريش فون دانكين، **عربات الآلهة**، ص٦.

(٢) علي عزت بيجوفيتش، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ص١٣٩.

(٣) د. عبد الوهاب المسيري، **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، ٢/ ١٢٠.

(٤) جارودي، **وعود الإسلام**، ص٢٠.

المستمر للمنتجات، والبحث عن أسواق جديدة، وتقصير عمر المنتج ليستهلك سريعا؛ ولهذا فإن السيارات الحديثة لا تتمتع بأعمار السيارات القديمة، وكذلك البنايات الحديثة لا تعيش أبدا كما عاشت البنايات الأقدم منها»، وهذا ما يسميه جان ماري بيليت -أحد علماء البيئة البارزين- بـ «مجتمع النفايات»، ويرمز لها بنهر «له منبع وهو الاقتصاد الذي يضخ عددا رهيبا من السلع والمنتجات لتلبية حاجات الاستهلاك المتزايدة، وله أيضا مصب وهو تراكم النفايات بعد انتهاء الاستهلاك، وهذا ما ينتج ثلاث مشكلات: مشكلة الطاقة، ومشكلة الموارد الأولية، ومشكلة تلوث البيئة»[1].

وقصة الغرب في عصره الحديث تكاد تكون واحدة، منذ إسبانيا التي كانت أول المتمتعين بثروات العالم الجديد[2]، مرورا ببريطانيا التي كانت لحقبة امبراطورية لا تغيب عنها الشمس فيما كانت عاصمتها لندن «أقرب شبها ببركان أو بضواحي جهنم، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات»[3]، وانتهاء بأمريكا التي لا تتورع عن أي جريمة في سبيل المصلحة المادية ولو كان قذف قنبلتين ذريتين علىٰ مدنيين في اليابان، أو حتىٰ رفض التوقيع علىٰ اتفاقية كيوتو التي تلزم بخفض نسب الغازات الملوثة برغم أن أمريكا وحدها تتسب في ثلث الغازات المنبعثة في العالم.

والأخطر من «الأفعال» الأمريكية «سياستها وفلسفتها»، ففي مايو ١٩٩٢م جرت لأول مرة عملية «التجارة بالتلوث»، وذلك أن وكالة «تينيسي فالي» دفعت إلىٰ شركة للطاقة في ولاية ويسكونسن، من أجل منحها «الحق» بقذف

---

(١) جان ماري بيلت، **عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة**، ص٤٨، ٥٠، ٥٦، ٥٩.

(٢) انظر: جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ص٥٨٤، ٥٨٥.

(٣) انظر: ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ٣٢/ ١٢٨، وتشيع صورة لندن البائسة الغارقة في الدخان والروائح الكريهة في الروايات الإنجليزية المكتوبة في هذه الفترة.

عدة أطنان من ثاني أكسيد الكبريت في الجو، فخفضت ويسكونين من تلوثها لموازنة تلوث تينيسي، سامحة بذلك للوكالة بتجاوز الحدود العليا للتلوث المحددة بواسطة القانون[1]، كما لم يعد مدهشا في ظل الفلسفة الرأسمالية أن نرىٰ مسارعة أعدىٰ أعداء الاتفاقيات البيئية إلىٰ ترؤس المؤسسات البيئية، كما فعل بويدن جراي -رئيس «مواطنون من أجل اقتصاد مستقر» وهي جماعة معادية لمعاهدة كيوتو- الذي ترأس بنفسه مؤسسة «اتحاد المصادر البيئية» التي تأسست أصلا لتنفيذ نظام التبادل التجاري لبروتوكول معاهدة كيوتو!! وفي خضم المفاوضات دسوا أسلوبا خطيرا، لكنه ابن شرعي طبيعي للرأسمالية المتوحشة، وهو شراء الحصص غير المستخدمة من الانبعاثات، بمعنىٰ أن المعاهدة تلزم بوضع حد للانبعاثات الملوثة للبيئة، وقامت بتوزيع ما تحت هذا الحد علىٰ الدول الصناعية بنسبة متوزعة أخذتها من حساب المساهمة لكل بلد في الانبعاثات في العام ١٩٩٠، فكان هذا الأسلوب يعتمد علىٰ أنه من حق مصنع أن يشتري نسبة التلويث المخصصة لمصنع آخر، وبالتالي يمكنه خرق القانون وزيادة دفق ما يرسله من انبعاثات بنفس النسبة التي اشتراها من المصنع الأول، وفي هذا الإطار جرىٰ شراء حصص الاتحاد السوفيتي المنهار بعد كساده الصناعي وانخفاض نسبة تلويثه للهواء لحساب الأمريكان، ويؤكد الصحفي الأمريكي جريج بالاست الذي تتبع هذا الموضوع بأن هذه الصفقات إنما هي صفقات وهمية، وأنه خلال بحثه لم يجد تبادلا تجاريا واحدا خلَّص الجو من أصغر نسبة تلوث، لأن باقي الالتفاف يكمن في المناورات القانونية، وهي الساحة التي يتحالف فيها الساسة مع رجال المال بحيث يبدو كل شيء طبيعيا وسليما[2].

---

(١) جريج بالاست، **أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها**، ص٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها ص٢٢٣ وما بعدها.

وهكذا كانت البيئة فريسة علىٰ مائدة الروافد الثلاثة المغذية للفكر الغربي منذ الفلسفة اليونانية وعصور اليونان والرومان، مرورا بهيمنة المسيحية وعصور الملوك والإقطاع، وحتىٰ فلسفات التنوير والحداثة في عصور القوميات والاستعمار والنظام العالمي. تختلف الظواهر ويبقىٰ العمق البعيد الغائر واحدا لكنه يغير ثوبه.



كيف ينظر المسلم إلى البيئة

علىٰ خلاف هذا الظلام الموحش والعلاقة العدائية بين الإنسان والبيئة في الرؤىٰ الكفرية نجد الإسلام يؤسس لرؤية متناقضة بين البيئة والإنسان، فلقد غرس الإسلام في ضمير المسلم عقيدة واضحة تجاه البيئة، هذه الرؤية لها ثلاث أركان؛ **الأول**: أنها من خلق الله ومظهر من مظاهر عظمته وقوته وقدرته وحكمته. و**الثاني**: أنها مخلوقة لنفع الإنسان ومتعته، وأنها مُسَخَّرة مُذَلَّلة له، فهي نعمة من الله. و**الثالث**: أنها تفنىٰ وتنضب، وقد تفسد بسوء استعمال الإنسان.

١- أنها من خلق الله:

يؤمن المسلم أن كل هذا الكون من حوله إنما هو من خلق الله العلي القدير ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:٢]، كما يؤمن بأن كل هذا الكون إنما يعبد الله ويسبحه ويطيع أمره ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

ثم هو يؤمن أن هذا الكون إنما هو من مظاهر قدرة الله تعالىٰ وقوته وعظمته وإحكامه لخلقه وحكمته البالغة في تدبير أمره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١]، والآيات في كل هذا كثيرة ومشهورة..

والمقصود أنه حين يستقر في ضمير المسلم هذه العقيدة نحن البيئة فإنه يقف منها -كما يقول الشهيد سيد قطب- «موقف التعرُّف والصداقة، لا موقف

التخوُّف والعداء؛ ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته، محكومتان بإرادة الله ومشيئته، متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه. إن عقيدة المسلم توحي إليه أن الله ربَّه قد خلق هذه القوىٰ كلها لتكون له صديقًا مساعدًا متعاونًا، وأن سبيله إلىٰ كسب هذه الصداقة أن يتأمَّل فيها، ويتعرَّف إليها، ويتعاون وإياها، ويَتَّجِهَ معها إلىٰ الله ربه وربها»[1].

وهو ذات المعنىٰ الذي عبر عنه الشيخ بديع الزمان النورسي في الشعاع الرابع بقوله: «لقد شعرت من بعيد بشعور الإيمان ببديع السموات والأرض وبرابطة الانتساب إليه. كم يكون الإنسان -لو كان ذا شعور- فخورا ومكرما، بأنه أثر من آثار ذلك الخالق القدير وأنه مصنوع مَنْ زيَّن اسموات بمصابيح النجوم وجمَّل الأرض بالأزاهير وببدائع المخلوقات، وأظهر مئات المعجزات في كل ما أبدعته قدرته. وكم يكون الإنسان مناط قيمة عظيمة وكرامة فائقة بالإيمان به والانتساب إليه والشعور به لا سيما إذا ما كتب -ذلك الصانع المعجز المطلق- كتاب السموات والأرض. ذلك الكتاب الضخم في نسخة مصغرة وهي الإنسان، وإذا ما جعل هذا الإنسان منتخبا وخلاصة كاملة لذلك الكتاب فإنه سيملك ذلك الشرف والكمال والقيمة العالية بالإيمان وبالشعور والانتساب»[2].

ويقول في الشعاع الثاني: «قد اكتسب في نظري كل كائن حي -من حيث انتسابه إلىٰ المالك الجليل وعبوديته له- ألوف الدرجات الراقية من الأهمية والقيمة، لأن كل أحد يفتخر ويزهو بشرف سيده وبمقام من ينتسب إليه ويعتز بشهرته وصيته»[3].

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ١/ ٢٥.

(٢) النورسي، **الشعاعات**، ص٨١.

(٣) السابق ص١٣.

٢- أنها مخلوقة للإنسان:

والمسلم يعرف من كتاب ربه وسنة نبيه أن هذا الكون من حوله إنما هو نعمة من الله له، فهو مُسَخَّرٌ له، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية:١٢، ١٣].

ولذلك يقول الشيخ بديع الزمان في اللمعة السابعة عشرة: «لا تجد أحدا إلا ويجري علىٰ قانون القدر الإلهي، ويظهر إلىٰ الوجود بالأمر التكويني الصادر من يد القدرة الإلهية والمتضمن العلم الإلهي وأمره وإرادته.. حتىٰ إن كل ذرة، وكل موجود، وكل ذي حياة، إنما هو كالجندي في الجيش، له علاقات متباينة ووظائف مختلفة، وارتباطات متنوعة مع كل دائرة من دوائره»[1].

لقد خُلِق كل هذا من أجل الإنسان، لينتفع منه ويتمتع به، ويشبع منه حاجاته الجسدية والروحية والعقلية أيضًا، قال تعالىٰ في آية جامعة: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا

(١) النورسي، **اللمعات**، ص١٩١.

ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل:٥- ١٨] ففي هذه الآية ذكر لأنواع كثيرة مما سخره الله تعالىٰ يقضي به الإنسان حاجات متعددة من النفع المادي والاستمتاع الروحي والنظر العقلي.

والنعمة هنا ليست في مجرد الإيجاد بل هي كذلك نعمة التسخير، فمجرد وجود النعمة لا يجعل الانتفاع منها ممكنا لو نزع منها ما أودعه الله فيها من الخضوع والاستجابة للإنسان، إن الجمل الكبير يقوده طفل صغير، وإن الشجرة العالية الضخمة تعطي ثمرتها بأضعف مجهود، وإن الكون منتظم في قوانين لا يخالفها، ولو أعملنا الخيال وتصورنا أن توضع في الجمال تمرد الذبابة أو توضع في الأشجار صعوبة موج البحر، أو كانت قوانين الكون غير منتظمة فربما كان الهواء أثقل من الحديد فجأة، أو صار البحر في لزوجة الزيت أو خرجت الأسماك تمشي علىٰ الأرض ونزلت الخيول تسبح في الماء، وصار الإنسان يتنفس الهواء يوما أو يتنفس الماء يوما.. إن مجرد تسخير الله لهذا الكون هو نعمة مستقلة عن نعمة إيجاده.

وفي هذا المعنىٰ يقول الشيخ بديع الزمان في الشعاع الثاني: «إنه بسر التوحيد تتحقق مزايا الكون وكمالاته، وتدرك الوظائف الراقية للموجودات، وتتقرر نتيجة خلق المخلوقات، وتُعرف أهمية المصنوعات. وتبرز ما في هذا العالم من مقاصد إلهية، وتظهر حكمة خلق ذوي الحياة وسر وجود ذوي المشاعر، وتبدو الوجوه المليحة البشوشة للرحمة والحكمة وراء السيماء الغاضبة الكالحة



لهذه الحوادث القاهرة المدمرة ضمن التحولات المثيرة للدهشة»[١].

وثمة أمر يجب أن نتوقف عنده في موضوع أن الكون مسخر للإنسان، وهو ما يكسو نفعها من جمال، فالأمر غير مقتصر علىٰ مجرد النفع والقيام بالوظيفة بل يعدوه إلىٰ نشر المتعة.

وهذا الجمال كم ألَحَّ الشيخ بديع الزمان في وصفه كثيرا، فمن ذلك قوله في الشعاع الرابع: «جميع أنواع الجمال المشاهدة علىٰ الكائنات كلها، تأتي من جميل لا منتهىٰ لجماله بحيث أن هذه الكائنات المتبدلة دوما والمتجددة باستمرار تصف جمال ذلك الجميل وتعرفه، بجميع موجوداتها وبألسنة أدائها لوظيفة مرآة عاكسة لذلك الجمال»[٢].

وقوله في الشعاع الثاني: «إن ثمرة واحدة، وزهرة واحدة، وضياء واحدا، كل منها يعكس كالمرآة الصغيرة رزقا بسيطا، ونعمة جزئية وإحسانا بسيطا. ولكن بسر التوحيد تتكاتف تلك المرايا الصغيرة مع مثيلاتها مباشرة، ويتصل بعضها بالبعض الآخر، حتىٰ يصبح ذلك النوع مرآة واسعة كبيرة جدا تعكس ضربا من جمال إلهي يتجلىٰ تجليا خاصا بذلك النوع. فيظهر سر التوحيد حسنا سرمديا باقيا من خلال ذلك الجمال الفاني الموقت... بينما إن لم يُنظر إلىٰ ذلك الجمال بنظر التوحيد، أي لولا سر التوحيد، لظلت تلك الثمرة الجزئية سائبة، وحيدة فريدة معزولة عن مثيلاتها، فلا يظهر ذلك الجمال المقدس، ولا يبين ذلك الكمال الرفيع، بل تنكسف حتىٰ تلك اللمعة الجزئية المتلمعة منها، وتضيع وتنتكس منقلبة علىٰ عقبيها من نفاسة الألماس الثمين إلىٰ خساسة قطع الزجاج المتكسر»[٣].

---

(١) النورسي، **الشعاعات**، ص١٤.

(٢) السابق ص٨٨.

(٣) السابق ص١٠، ١١.

٣- أنها تفنى وتنضب:

ويؤمن المسلم أن هذه البيئة، وهذا الكون كله، إنما يفنىٰ وينتهي، كسائر مخلوقات الله تبارك وتعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، فهذا الاستمتاع بها إنما هو إلىٰ أجل ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البقرة:٣٦] وهو مثلما يفنىٰ وينتهي فإنه يفسد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾ [الأعراف:٧٤]

فإذا أفسد الإنسان فيها كان فسادها من عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ له فيها، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم:٤١].

وهذا الأمر ظاهر معروف لكل أحد، فالأرض التي هي مصدر كل خير قد تنشق وتخسف وتدفع بالبراكين، والبحر الذي يحمل الناس في سفرهم ويحمل في جوفه طعامهم وزينتهم قد يهيج ويموج ويفيض فلا يبق أمامه شيء، وكذلك الريح التي تكون نسيما قد تكون أيضا أعاصير وعواصف وعذابا شديدا، ومثل هذا يقال في أصغر الأشياء وأكبرها، من حبة النبات الفاسدة لا ينتفع أحد بها ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

فالبيئة هي موضع نعمة الله وموضع عقابه أيضا، هذا في حال الشكر وهذا في حال الإفساد، فالمسلم مستحضر أن هذه البيئة من حوله إنما هي مادة قابلة للفساد بسوء الاستعمال ومخالفة أمر الله فيها. وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار الشيخ النورسي بقوله في ذيل الكلمة الرابعة العشرة إجابة علىٰ السؤال الخامس الذي يقول:



«إن الله سبحانه وتعالىٰ، وهو العادل الرحيم، والقدير الحكيم، لا يجازي الذنوب الخاصة بعقوبات خاصة، وإنما يسلط عنصرًا جسيمًا كالأرض، للتأديب والعقاب. فهل هذا يوافق شمول قدرته وجمال رحمته سبحانه؟

الجواب: لقد أعطىٰ القدير الجليل كل عنصر من العناصر وظائف كثيرة، ويُنْشِئ علىٰ كلٍ من تلك الوظائف نتائج كثيرة. فلو ظهرت نتيجة واحدة قبيحة -أي شر ومصيبةٍ وبلاء- من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفه الكثيرة، فإن سائر النتائج المترتبة علىٰ ذلك العنصر، تجعل هذه النتيجة الوخيمة في حكم الحسن والجميل، لأنها جميلة وحسنة، إذ لو مُنِع ذلك العنصر الغاضب علىٰ الإنسان من تلك الوظيفة للحيلولة دون مجئ تلك النتيجة الوحيدة البشعة للوجود لتُركت إذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيِّرة المترتبة علىٰ سائر وظائف ذلك العنصر. أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيرة، حيث إن عدم القيام بخير ضروري، إنما هو شر كما هو معلوم. كل ذلك للحيولة دون مجئ شر واحد! وما هذا إلاّ منافاةٌ للحكمة. وهو قبح واضح، ومجافاة للحقيقة، وقصور مشين. بينما الحكمة والقدرة والحقيقة منزّهة عن كل نقص وقصور.

ولما كان قسم من المفاسد هو عصيانًا شاملًا وتعديًا فاضحًا علىٰ حقوق كثير من المخلوقات وإهانة لها واستخفاف بها حتىٰ يستدعي غضب العناصر ولا سيما الأرض، فيثير غيظها، فلاشك أن الإيعاز إلىٰ عنصر عظيم بأن يؤدب أولئك العصاة، إظهارًا لبشاعة عصيانهم وجسامة جنايتهم، إنما هو عين الحكمة والعدالة، وعين الرحمة للمظلومين في الوقت نفسه».

العلاقة بين المسلم والبيئة

لقد ترتب علىٰ هذه الرؤية التي زرعها الإسلام في أبنائه إنشاء علاقة من نوع خاص بين المسلم والبيئة، فالأمر كما يقول الشيخ بديع الزمان في اللمعة الثالثة والعشرين:

«كل إنسان إنما ينظر إلىٰ الكون بمنظاره الخاص، وعلىٰ وفق ما تصوره له مرآته الخاصة، فلقد خلقه البارئ المصور سبحانه علىٰ صورة يستطيع قياس الكون عليها، ويزنه بميزانها. فمنحه عالما خاصا به من هذا العالم العظيم فيصطبغ عالمه الخاص بحسب ما يعتقده الإنسان من عقيدة في قلبه. فالإنسان الحزين اليائس الباكي يرىٰ الموجودات باكية بائسة، بينما السعيد الجذلان يراها مبتسمة ضاحكة ومسرورة. كذلك الذي يؤدي العبادة والأذكار بصورة جادة وبشعور تام وبتفكر وتأمل، فإنه يكشف شيئا من عبادة الموجودات وتسابيحها بل قد يراها وهي حقيقة موجودة ثابتة، أما الذي يترك العبادة غافلا أو منكرا لها فإنه يتوهم الموجودات توهما خاطئا جدا ومنافيا كليا ومخالفا مخالفة تامة لحقيقة كمالاتها، فيكون متعديا علىٰ حقوقها معنىٰ»[1].

فالرؤية الإسلامية تؤسس علاقة حب وصداقة واستخلاف بين الإنسان والبيئة، علىٰ عكس الرؤية العدائية الاستعمالية التي تؤسس علاقة استعباد وامتلاك. وقد عبَّر عن ذلك الشيخ بديع الزمان في اللمعة الخامسة والعشرين بقوله: «إن الذي لا يعرف الله يحمل فوق رأسه هموما وبلايا بسعة الدنيا وما فيها، ولكن الذي عرف ربه تمتلئ دنياه نورا وسرورا معنويا»[2].

---

(١) النورسي، **اللمعات**، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٢) السابق ص٣٢٢.

وخلاصة العلاقة التي يؤسسها الإسلام بين المسلم والبيئة هي «الاستخلاف»، ومعناه القيام بواجب الحياة في إطار أمانة الله المكلف بها، فهو تصرف على سبيل الأمانة التي سيحاسب عليها لا على سبيل التملك الذي يمنحه الحق في الاستعمال بلا رقيب ولا حسيب كما هو في النماذج الكفرية. ولذلك أمر الله المسلم بتعمير البيئة في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، ونهاه عن الإفساد فيها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. ومن ضرورات هذا الاستخلاف أن يكثر المسلم التأمل والتعلم من هذه البيئة ومن عجيب ما صنعه الله فيها من أمور متزنة منضبطة محكمة بديعة الخلق والتركيب والهداية.

وقد عرض الشيخ بديع الزمان لهذه العلاقة بين الإنسان والبيئة حوله في الكلمة الرابعة عشرة إذ يقول: «هذه «الإنسانية» يقذفها الكفر من صورتها الحية التي تفوقت بها على الأرض والجبال والسموات بما أخذت على عاتقها من الأمانة الكبرى وفُضِّلت على الملائكة وترجحت عليها حتى أصبحت صاحبة مرتبة خلافة الأرض- يقذفها من هذه القمة السامية العالية إلى دركات هي أذل وأدنى من أي مخلوق ذليل فان عاجز ضعيف فقير، بل يرديها إلى دركة أتفهِ الصور القبيحة الزائلة شريعا.

وخلاصة القول: أن النفس الأمارة بإمكانها اقتراف جناية لا نهاية لها في جهة الشر والتخريب، أما في الخير والإيجاد فإن طاقتها محدودة وجزئية؛ إذ الإنسان يستطيع هدم بيت في يوم واحد إلا أنه لا يستطيع أن يشيده في مائة يوم. أما إذا تخلى الإنسان عن الأنانية، وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي، وأرجع الأمر إليه، وابتعد عن الشر والتخريب، وترك اتباع هوى النفس، فاكتمل عبد الله تعالى تائبا مستغفرا ذاكرا له سبحانه. فسيكون مظهرا للآية الكريمة ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] فتنقلب القابلية العظمى عنده للشر إلى قابلية

عظمىٰ للخير. ويكتسب قيمة «أحسن تقويم» فيحلق عاليا إلىٰ أعلىٰ عليين».

ويقول في نفس الكلمة الرابعة عشرة: «إن الإنسان بعد مجيئه إلىٰ هذا العالم له عبوديةٌ من ناحيتين؛ الناحية الأولىٰ: عبوديةٌ وتفكر بصورة غيابية، الناحية الثانية: عبوديةٌ ومناجاةٌ بصورة مخاطبة حاضرة.

الناحية الأولى هي: تصديقُه بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون والنظر إلىٰ كماله سبحانه ومحاسنه بإعجاب وتعظيم. ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنىٰ القدسية وإعلانها ونشرها وإشاعتها. ثم وزنُ جواهر الأسماء الربانية ودررها - كلٌّ واحدٍ منها خزينة معنوية خفية - بميزان الإدراك والتبصر وتقييمها بأنوار التقدير والعظمة والرحمة النابعة من القلب. ثم التفكر بإعجاب عند مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة. ثم النظر باستحسان بالغ إلىٰ زينة الموجودات والصنائع الجميلة اللطيفة التي فيها والتحبب لمعرفة الفاطر ذي الجمال والتلهف إلىٰ الصعود إلىٰ مقام حضورٍ عند الصانع ذىٰ الكمال ونيل التفاته الرباني.

الناحية الثانية هي: مقام الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر الىٰ المؤثر، فيرىٰ أن صانعًا جليلًا يريد تعريف نفسه إليه بمعجزات صنعته، فيقابله هو بالإيمان والمعرفة. ثم يرىٰ أن ربًّا رحيما يريد أن يحبب نفسه إليه بالأثمار الحلوة اللذيذة لرحمته، فيقابله هو بجعل نفسه محبوبًا عنده بالمحبة الخالصة والتعبد الخالص لوجهه. ثم يرىٰ: أن منعمًا كريمًا يغرقه في لذائذ نِعمِه المادية والمعنوية، فيقابله هو بفعله وحاله وقوله بكل حواسه وأجهزته - إن استطاع - بالشكر والحمد والثناء عليه. ثم يرىٰ: أن جليلًا جميلًا يُظهر في مرآة هذه الموجودات كبرياءَه وعظمته وكمالَه ويبرز جلالَه وجمالَه فيها بحيث يجلب إليها الأنظار فيقابل هو ذلك كله: بترديد «الله اكبر.. سبحان الله».. ويسجد

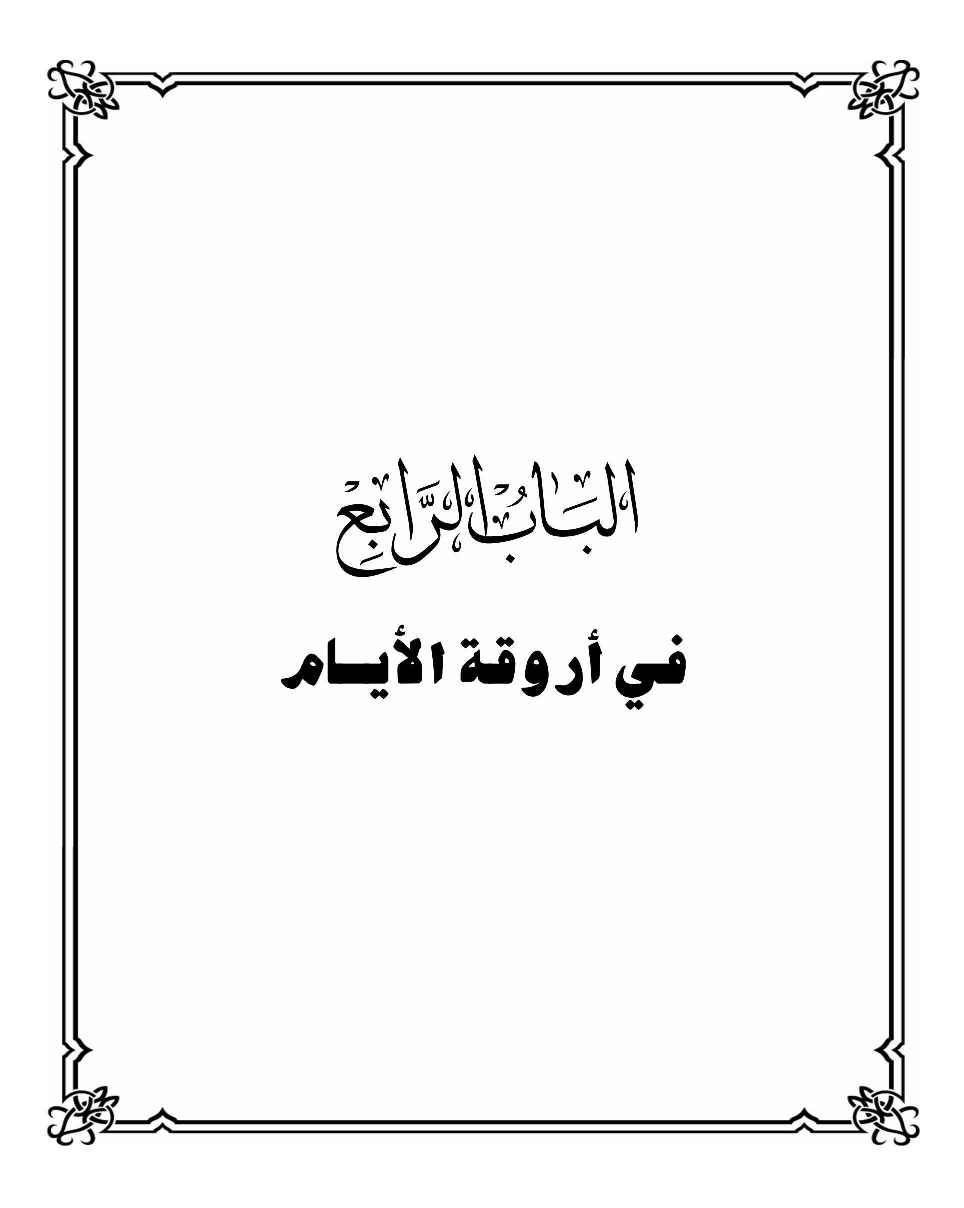
سجود من لا يمل بكل حيرة وإعجاب وبمحبة ذائبة في الفناء. ثم يرىٰ: أن غنيًا مطلقًا يعرض خزائنه وثروته الهائلة التي لا تنضب في سخاء مطلق، فيقابله هو بالسؤال والطلب بكمال الافتقار في تعظيم وثناء. ثم يرىٰ: أن ذلك الفاطر الجليل قد جعل الأرض معرضًا عجيبًا لعرض جميع الصنائع الغريبة النادرة فيقابل هو ذلك بقوله «ما شاء الله» مستحسنًا لها، وبقوله «بارك الله» مقدرًا لها، وبقوله «سبحان الله» معجبًا بها، وبقوله «الله اكبر» تعظيمًا لخالقها. ثم يرىٰ: أن واحدًا يختم علىٰ الموجودات كلها ختم التوحيد وسكّته التي لا تقلد وطغراءَه الخاصة به، وينقش عليها آيات التوحيد، وينصب رايةَ التوحيد في آفاق العالم معلنًا ربوبيته، فيقابله هو بالتصديق والايمان والتوحيد والاذعان والشهادة والعبودية. فالإنسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح انسانًا حقًا ويُظهر نفسه أنه في «أحسن تقويم» فيصير بيُمْن الإيمان وبركته لائقًا للأمانة الكبرىٰ وخليفة أمينًا علىٰ الأرض».



خاتمة

في هذه الصفحات المحدودة المتاحة ألقينا النظر علىٰ الفارق الكبير الذي نتج عن التناقض في التصور والرؤية بين الإسلام والكفر في مسألة النظر إلىٰ البيئة والعلاقة معها، ورأينا كيف كانت الرؤية الإسلامية (التي اخترنا للتعبير عنها: رسائل النور للشيخ الكبير العلَم بديع الزمان سعيد النورسي) تنشئ علاقة سوية أليفة مع البيئة لا يمكن معها صدور الإفساد من المسلم، علىٰ خلاف ما أُسِّس له نظريا ثم صدقه الواقع والعمل في المناهج الكفرية الغربية، وإن اختلفت في التفاصيل.





البَابُ الرَّابِعُ

في أروقة الأيـام

قال تعالىٰ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾ [الذاريات:٥٥].

في هذا الباب نثير ذكريات وأمور ينبغي ألا تُنْسىٰ، ولقد جعل الله دوران الأيام لحكم عدة من بينها أن نتذكر ما كان في مثل هذا اليوم من العام الماضي أو قبل عشر سنين أو حتىٰ قبل ألف سنة. كان من الممكن أن يسير الزمن في خط مستقيم، لا يتكرر الأسبوع ولا الشهر ولا السنة، إنما نسمي كل يوم وكل شهر وكل سنة بما نشاء فيمتنع التكرار ويمتنع التذكر.

وفي هذا الباب سنفتح باب الذكريات.. فجعلناها ثلاثة فصول، فصل يتحدث عن أثر متغلغل متسلسل عبر الأيام لا يمكن ضبطه بتاريخ محدد، وهو أثر الإسلام في احتضان واحتواء غير المسلمين وكيف استطاع جذبهم إليه بما يسمىٰ: الجاذبية الاجتماعية. والفصل الثاني يتوقف مع رمضان ويعيش بعضا من ذكرياته وما وقع في أيامه، والفصل الثالث يقف مع التواريخ والأيام ليتذكر بعضا مما جرىٰ فيها مما ينفعنا تذكره في حاضرنا وواقعنا. علىٰ النحو التالي:

- **الفصل الأول**: احتضان الإسلام لغير المسلمين.
- **الفصل الثاني**: ذكريات رمضانية.
- **الفصل الثالث**: من ذاكرة الأيام.





الفصل الأول

احتضان الإسلام لغير المسلمين

مهما حاولنا الفصل بين الإسلام كدين مطلق وبين المسلمين كبشر يصيبون ويخطئون فسيظل واقع المسلمين هو المؤثر الأكبر في تلقي الناس للإسلام وتعرفهم عليه، ونحن لا نقصد بواقع المسلمين هنا واقعهم السياسي -وإن كان هذا مؤثرا بلا شك- وإنما نقصد واقعهم الاجتماعي وتفاصيل حياتهم الطبيعية.

إن حياة المسلمين التي تبدو لهم طبيعية ليست كذلك عند غير المسلمين، إن كثيرا من هؤلاء إنما أسلموا ودخلوا في دين الله -أو علىٰ الأقل: تغيرت قناعتهم عن الإسلام- بأشياء بسيطة للغاية يفعلها المسلم وهو لا يلقي لها بالا.. هذه الأمور التي يفعلها المسلم بتلقائية سواء أكانت من العبادات والشعائر أو كانت من العادات والأخلاق الإسلامية هي ما نعنيه بقولنا «جاذبية الإسلام الاجتماعية».

نتناول في هذا الفصل[١] طرفا من قيم الإسلام وتعالميه التي توفر للمسلمين جاذبية اجتماعية تُمَكنهم من أن يكونوا خير دعاة لخير دين، وبه يتمكنون من جذب الناس إلىٰ دين الله سواء أكانوا في عصر قوتهم أم في عصور ضعفهم، وسواء أكانوا تحت سلطة إسلامية عاملة للدين أم كان الوضع بخلاف هذا. ونحن هنا نتناول هذه القيم والتعاليم من جهة مدىٰ إمكان القيام بها في بلداننا

---

(١) نشرت تلك المقالات في مجلة البشرىٰ الكويتية في عام ٢٠١٤م.

العربية والإسلامية، فتكون مجتمعاتنا محضنا اجتماعيا لقاصديها من غير المسلمين مهما تنوعت واختلفت حاجاتهم وأغراضهم.

وذلك عبر ستة مباحث:

- **المبحث الأول**: جاذبية الإسلام الاجتماعية.
- **المبحث الثاني**: احتضان الإسلام للسائحين.
- **المبحث الثالث**: احتضان الإسلام للخدم.
- **المبحث الرابع**: احتضان الإسلام للعمال.
- **المبحث الخامس**: احتضان الإسلام للموسرين.
- **المبحث السادس**: احتضان الإسلام للمنكوبين.



جاذبية الإسلام الاجتماعية

منهج عرض الحياة الإسلامية:

لقد كان من فقه النبي ﷺ أن يُعرِّض بعض المعاندين لرؤية الحياة الإسلامية، وكان ذلك سببا في دخولهم الإسلام.

١- فهذا ثمامة بن آثال من زعماء بني حنيفة في اليمامة، وقد كان من أعداء النبي ﷺ، ورد عنه أنه عزم علىٰ قتل رسول الله أو حاول قتل مبعوث له، ثم وقع أسيرا بيد سرية من سرايا المسلمين، فجاءوا به إلىٰ المدينة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، ثم خرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمد؛ إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم علىٰ شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فظل مأسورا في المسجد ثلاثة أيام ثم أمر النبي بإطلاقه، وإذا بثمامة ينطلق فيغتسل ثم يعود إلىٰ المسجد يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، يا محمد والله ما كان علىٰ الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب دين إلي والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي»[١].

ففي هذه القصة ظل ثمامة بن آثال ثلاثة أيام في المسجد يرىٰ سلوك الصحابة الإسلامي، ثم تمت النعمة بالعفو النبوي الكريم، فلهذا أسلم ثم قاد حملة مقاطعة لمكة فمنع عنهم كل ما كان يصلهم من اليمامة من الغلال

---

(١) البخاري (٤١١٤)، وانظر: ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ ٥/ ٥٤٩، ٥٥٠، وابن حجر: الإصابة ١/ ٤١٠، ٤١١.

والحبوب ثم كان ممن ثبت على إسلامه أيام مسيلمة الكذاب وانحاز إلى الجيش الإسلامي في حرب المرتدين.

وقد صار هذا من السنن التي استنَّ بها بعض الصحابة كعلي بن أبي طالب، والقضاة كشريح، أن يحبسوا الغريم في المسجد(١).

٢- وهذه هند بنت عتبة التي ظلت تعادي الدين والنبي ﷺ منذ اللحظة الأولى، وهي التي خططت لقتل حمزة بن عبد المطلب، وظلت على بغضها حتى تم فتح مكة وبعد أن أسلم زوجها أبو سفيان بن حرب، أصبحت في اليوم الثاني للفتح تقول لزوجها «إني أريد أن أتابع محمدا. قال: قد رأيتك تكرهين هذا الحديث أمس. قالت: إني والله ما رأيت الله عُبِدَ حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا»(٢).

أخلاق الفاتحين:

وسار هذا المسلك عبر التاريخ الإسلامي، فإذا نظرنا في تاريخ الفتوحات والممالك الإسلامية رأينا أن الناس إنما دخلت في دين الله أفواجا لما عاينته من حياة الفاتحين وأخلاقهم ومعاملاتهم مع بعضهم أو مع شعوب البلدان المفتوحة، فلقد كان الدليل الحي المتمثل في المسلمين أقوى وأوسع أثرا من الدليل العلمي العقلي الناشيء عن مقارنة الأديان ومطالعة الفروق ودراستها.

والحديث عن الفتوحات الإسلامية وأثر الفاتحين في إسلام الشعوب يتسع جدا والأمثلة كثيرة جدًا، ولكن ربما كان من المناسب أن نضرب مثالا بانتشار الإسلام بين الزنوج الأفارقة، ففي قصة هؤلاء يتبدى الفارق واضحا تمام الوضوح بين التعامل الإسلامي الذي قدم عليهم بالدين والرحمة وبين التعامل المسيحي الأوروبي والأمريكي الذي قدم عليه بالمذابح والاستعباد ونهب

---

(١) ابن رجب الحنبلي: فتح الباري ٣/ ٣٦٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧٠/ ١٧٧، وابن حجر: الإصابة ٨/ ١٥٦.

الثروات، وسنأخذ شهادة مؤرخ إنجليزي هو توماس أرنولد الذي رصد انتشار الإسلام في إفريقيا فكتب يقول:

«لا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في إفريقية الزنجية تقدما جوهريا بسبب انعدام كل إحساس باحتقار الأسود، وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط علىٰ أنه من طبقة منحطة، كما كان الحال لسوء الحظ -في كثير من الأحيان- في العالم المسيحي... إن الأسود المُتَنَصِّر يميل إلىٰ الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلىٰ لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة، علىٰ حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقا به واطمئنانا إليه، وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة التالية: إن الإسلام لا يتطلب من أهل نيجيريا، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول في الإسلام، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية يستحيل تحقيقها في المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجيريا، ولا هو يقوض نفوذ الأسرة وسلطة الجماعة، وليست هناك هوة بين الداعي إلىٰ الإسلام والمتحول إليه؛ فكلاهما متساو أحدهما مع الآخر -لا نظريا بل عمليا- أمام الله، وكلاهما إفريقي، وهما من أبناء أرض واحدة، وينفذ مبدأ التآخي الإنساني تنفيذا عمليا، ولا يعني الدخول في الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين... وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيري ووقاره -بل بسلوك مسلمي إفريقية الغربية عامة، وإن هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس، يخيل إليك أنه يقول: إن كلا منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعا بشر»، وضرب مثالا علىٰ مُنَصِّر تزوج من زنجية فواجه مشاعر عدائية من إخوانه المسيحيين إلىٰ الحد الذي اضطر فيه إلىٰ ترك المستعمرة، بينما لا يتأثر الداعية المسلم بمثل هذه العوائق[١].

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ الإسلام ص٣٩٤، ٣٩٥.

وفي حين عاش العبيد الأفارقة قرونا من الذل والاستعباد تحت قهر الأوروبيين ولم يحصلوا حقوق البشر إلا بعد معارك ومذابح، كان العبيد الأفارقة لدىٰ المسلمين علىٰ نقيض ذلك، يذكر الرحالة داوتي ذلك فيقول: «لا يوجد في نفوس أولئك الإفريقيين أي حقد من أنهم صيروا عبيدا... حتىٰ ولو أن سُرَّاق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم، وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم يتخذونهم في بيوتهم ويختتن الذكور منهم، وإن الذي حرر أرواحهم من الحنين الطويل إلىٰ أوطانهم، هو أن الله قد تفقدهم في ملمتهم؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا: إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلوا بفضلها في الدين المنقذ. لذلك يرون أنهم في بلد خير من بلادهم، فهم في ذلك عتقاء الله، وهم في بقاع تحيا حياة أكثر مدنية، وهم في تربة الحرمين الشريفين، وفي بلد محمد ﷺ؛ لذلك يشكرون الله أن بيعت أجسادهم يوما ما بين الرقيق»[(١)].

والخلاصة -كما يقولها المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون- أن «ما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتىٰ بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم»[(٢)].

فتح بلا سيف ولا خيل:

وحتىٰ البلدان التي دخلها الإسلام دون فتح عسكري وصلت إليها هذه الجاذبية الاجتماعية للإسلام فدخلت فيه، وقد كتب المؤرخ المعروف د. حسين مؤنس كتابا يرصد فيه المناطق التي دخلها الإسلام دون أن يوجف عليه بخيل ولا ركاب ثم انتهىٰ إلىٰ أن قال: «أعدت النظر في المصور الجغرافي

---

(١) من كتابه (Arabia Deserta)، نقلا عن: توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ الإسلام ص٤٥٨.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٦٠٥.

(للأرض) لأرىٰ ما فتحنا بجهادنا وما فتح الإسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة فخشعت نفسي، لأنني وجدت أن الإسلام فتح بنفسه أضعاف ما فتحنا، وأن دعوة الحق في تاريخنا كانت أمضىٰ من كل سلاح، حتىٰ البلاد التي خضنا المعارك لندخلها كان الإسلام هو الذي فتح قلوب أهلها واستقر فيها»، وكان تقديره أن مساحة الأرض التي بلغتها الفتوحات ليست إلا ثلث مساحة الأرض التي دخلها الإسلام[١].

ولقد كان أبطال هذه القصة هم التجار المسلمون الذين كانت حياتهم وأخلاقهم هي سيوفهم الناعمة، ومما ينبغي أن يلفت النظر أن بلاد العرب الصحراوية والمتباعدة اضطرتهم من قديم إلىٰ أن تكون رحلاتهم التجارية في قوافل كبيرة وعليها حراسة للتعامل مع قطاع الطرق أو وحوش الصحراء أو التعاون علىٰ مهالكها، مما جعل قوافل العرب أشبه بالمجتمعات المصغرة التي تبدو فيها الحياة الاجتماعية الإسلامية أكثر مما يبدو فيها أخلاق المسلم الفردية.

ولئن كان التجار هم فاتحة الخير لأهل هذه البلاد التي لم يصلها الإسلام، فإن ترسخ الإسلام وتعمقه كان برحلة تعبدية اجتماعية عالمية، وهي الحج، ففيه يرىٰ المسلمون بعضهم بعضا من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المغرب، وينشأ من جراء ذلك من المواقف والتعاملات والعلاقات والتأثير المتبادل ما لا يُحصىٰ.

جاذبية في عصور الضعف:

بل إنه وفي عصور ضعف المسلمين ووقوعهم تحت الاحتلال الأجنبي، ظلت جاذبية الإسلام الاجتماعية الباب الأوسع لدخول الناس في الإسلام أو – علىٰ الأقل– تغير انطباعهم عنه:

١- فمنذ نحو قرن ونصف، كتب الفيلسوف الفرنسي الشهير إرنست رينان

---

(١) د. حسين مؤنس: الإسلام الفاتح ص٤، ١٨.

يقول: «ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، وبعبارة أخرىٰ، دون أن يصيبني أسف محقق علىٰ أنني لم أكن مسلمًا»(١).

٢- ومنذ نحو قرن كتب الكولونيل الإنجليزي رونالد فيكتور بودلي عن حياته بين البدو في صحراء المغرب يقول:

«قضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتىٰ أنني ألفت كتابًا عن محمد ﷺ عنوانه «الرسول» وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحل من أمتع سِنيّ حياتي وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضىٰ بالحياة. وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب علىٰ القلق، فهم -بوصفهم مسلمين- يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان علىٰ العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذا سهلًا هينًا. فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق علىٰ أمر، إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له، وليس معنىٰ ذلك أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا، ودعني أضرب مثلًا لما أعنيه: هبت ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصحراء، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتىٰ أحسست كأن شعر رأس ينتزع من منابته، لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلىٰ الجنون، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقا، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء مكتوب). ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتىٰ اندفعوا إلىٰ العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل إن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلىٰ الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ الإسلام ص٤٥٩.

تبدو من أحدهم شكوىٰ... قال رئيس القبيلة: لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا لله وشكرًا، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد»[١].

وإن قصص إسلام المفكرين والمستشرقين حافلة بهذه المعاني وهي من الكثرة والغزارة بحيث صارت تكتب فيها المؤلفات المطولة، والسلاسل ذات الأجزاء.

وليس الماضي بأقل وضوحا من الحاضر في جانب «جاذبية الإسلام الاجتماعية»، فالمراكز الإسلامية المعنية بالدعوة إلىٰ الإسلام، خصوصا تلك التي في البلاد العربية وتتعامل يوميا مع الجاليات غير المسلمة، تشهد بأن هذا هو الباب الأوسع للدخول في الإسلام.

ولذا فقد ابتكرت بعض المراكز الإسلامية برنامجا لغير المسلمين لقضاء شهر في الحياة كأنهم من المسلمين، يقضون فيه أياما بلا طعام حتىٰ صلاة المغرب كنوع من معايشة الصيام، ويستمعون لخطيب الجمعة، وترتدي النساء الحجاب... وهكذا.

ونحن إذ قد علمنا هذا، كان لا بد أن نسأل أنفسنا: فما هو دورنا؟

وهذا -إن شاء الله تعالىٰ وقدر- يكون حديثنا في المقالات القادمة: الرعاية الاجتماعية لغير المسلمين.



---

(١) من كتابه (wind in the saharaa). نقلا عن: ديل كارنيجي: دع القلق وابدأ الحياة، ص٣٠٣: ٣٠٥.

الاحتضان الإسلامي لغير المسلمين (السائحين)

ذكرنا في المقال الماضي «جاذبية الإسلام الاجتماعية» لقطات من صفحات التاريخ، تظهر كيف كانت حياة المسلمين الطبيعية وأخلاقهم غير المتكلفة هي الباب الأكبر الذي دخلت منه الشعوب في دين الله أفواجا، ورأينا كيف أن هذا الباب لا يُغلق أبدا، فهو يؤتي ثماره في عصر القوة والازدهار ويؤتي ثماره كذلك حتىٰ في عصور الضعف والاحتلال.

غير المسلمين في بلادنا نوعان: مقيمون فيها أو زائرون لها، وتختلف أغراض الزيارة ما بين السياحة القصيرة وأغراض العمل الطويلة التي قد تمتد إلىٰ عقود متصلة، ولربما لا تبدو الفرصة واضحة في شأن السائحين لمدة أيام أو لأسابيع إلا أنها فرصة كاملة وجاهزة بالنسبة لأولئك المقيمين لأغراض العمل والتكسب، لا سيما في دول الخليج، التي تعتمد علىٰ العمالة الأجنبية من أول العامل الفقير وحتىٰ أصحاب المشاريع العملاقة والاستثمارات الضخمة.

ونبدأ في تلك السطور مع: السائحين..

ونعني بهم جميع من يرد بلادنا لمدد قصيرة، سواء للسياحة أو لعمل أو لغيره، ونحن إذا تدبرنا في حال من أسلم من هؤلاء -أو علىٰ الأقل تغيرت قناعاته عن الإسلام- سنفهم ماذا ينبغي لنا أن نفعل كي نجتذب هذه الشريحة إلىٰ دين الله تعالىٰ.

شعائر الإسلام:

أول ما ينبغي أن نفهمه أن الإسلام هو أمر «مختلف» بالنسبة إلىٰ هؤلاء، أي أنه لا يجذبهم في بلادنا ما نحاول أن نشابههم به من أنماط البناء والأزياء

والمأكل والمشرب والترفيه، بل يجذبهم عندنا ما لا يجدوه عندهم. وقد نستغرب حين نعرف قصة إسلام المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس التي بدأت من صورة في مجلة هذا وصفها «منظر خشبي رأيت فيه منازل ذات سُقُف منبسطة تبرز من بينها هنا وهناك قباب مستديرة يزينها الخلال وسط سماء مظلمة، كما شاهدت رجالا يجلسون القرفصاء علىٰ السطح وعليهم حُلل غريبة وقد انتشرت ظلالهم في صفوف غامضة.. لقد ابتهج خيالي بهذه الصورة تبعا لاختلافها الشديد عن المناظر الطبيعية المعتادة في أوروبا، فقد كانت منظرا شرقيا»[1].

وإن أهم وأعظم ما لا يجدوه عندهم هو مظاهر الإسلام وشعائره، وهذه عوامل جذب إلهية لسنا ندري سرها ربما لأننا نشأنا فيها واعتدناها، غير أنها تؤثر فيهم تأثيرا كبيرا، ويستوي في ذلك عامتهم وخاصتهم من المفكرين والفلاسفة والباحثين.

ومن ذلك ما عرضته قناة الجزيرة[2] عن فتاتين أمريكيتين، إحداهما يهودية ومات من عائلتها ثمانية في أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت تزور المغرب، والأخرىٰ نصرانية كانت تزور تركيا، وكلاهما كان سماعهما للآذان هو أول ما طرق قلوبهما وأدخلهما في الإسلام، ذلك الآذان الذي نسمعه يوميا خمس مرات ولا نكاد نتأثر به علىٰ الإطلاق. ومن ذلك ما نشرته صحيفة الرياض[3] عن سائحة كندية فوجئت بمشهد العمال المسلمين وهم يصلون في بهو الفندق، فدخلت في موجة من التساؤلات، فقرأت ما كان في مكتبة الفندق من كتب عن الإسلام في ليلة واحدة، وبعد يومين كانت في عداد المسلمين،

---

(١) د. عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ٢/ ١٦١.

(٢) برنامج من واشنطن، بتاريخ ١١/ ٩/ ٢٠٠٦. (الرابط)

(٣) بتاريخ ٥/ ١٢/ ٢٠٠٨.

واتخذت اسم «سلطانة». هذا وإن أول قصة تطالعك في سلسلة كتب «رجال ونساء أسلموا» هي قصة المسلم الألماني محمد صديق الذي كانت بداية إسلامه رؤيته لصلاة الجماعة[١].

ومن أراد الاستزادة فعليه بالكتب التي تقصص حال من أسلموا ففيها مادة غزيرة عن التأثر بالشعائر الإسلامية.

وقد لا يبلغ الأثر حد الدخول في الإسلام، وهذا الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان يقول: «ما دخلت مسجدا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، وبعبارة أخرىٰ، دون أن يصيبني أسف محقق علىٰ أنني لم أكن مسلما»[٢]، هذا وهو من المتحاملين علىٰ الإسلام.

وشعائر الإسلام كثيرة إلىٰ الحد الذي لا يكاد يفلت منها نظر زائر لبلاد المسلمين، فالصلوات تشمل مساحة اليوم ويؤديها المسلمون في كل مكان، ثم صلاة الجمعة التي تؤدي كل أسبوع، ثم صيام رمضان الذي يشغل شهرا في السنة، ثم أيام الحج المشهودة، وارتباط المسلمين بها أمر ظاهر ملموس في كل بلدانهم، وهو ما يفسره الفيلسوف الفرنسي الشهير مونتسكيو بقوله: «إن المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأي دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائما علىٰ تفكيره»[٣].

ولربما يحاول البعض تفسير هذا التحول لمجرد رؤية الشعائر الإسلامية بأن فيها من المساواة والبساطة ومظاهر وحدة المسلمين ما هو جدير بجذب القادمين من مجتمعات رأسمالية طبقية أو مجتمعات عنصرية أو مجتمعات

(١) د. عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ١/ ١٥ وما بعدها.
(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ الإسلام ص٤٥٩.
(٣) السابق ص٤٥٨.

تعاني من الخلافات الأهلية، ولا ريب أن هذا صحيح، لكنه لا يصلح وحده لتفسير هذا التحول الكبير والأثر المباشر، ويبقىٰ في الأمر سر إلهي رباني يخاطب الروح والنفس مما لا ندرك كنهه علىٰ الحقيقة.

ومما يتبع هذا ضرورةُ أن تكون الكتب والمواد التي تشرح الإسلام موجودة دائمًا أمام أعين السائحين والزائرين أينما حلوا، في الفنادق والمجمعات التجارية (المولات) والمطاعم والمكتبات والأماكن السياحية والأثرية ووسائل المواصلات بحيث تكون جاهزة للإجابة عن الأسئلة وإدراك لحظة التأثر في أي مكان كان.. إذ نحن لا ندري من أي شيء وفي أي موطن ستبدأ لحظة الهداية.

آثار المسلمين:

بداية، فإن الإسلام يبيح دخول غير المسلمين إلىٰ المساجد -ما عدا المسجد الحرام- شريطة الالتزام بالثوب المحتشم وتوقير المسجد وعدم إتيان المخالفات فيه[(١)]، وهذا أمر يتقبله ٩٩٪ من السائحين ويلتزمون به، بحسب تصريح لنقيبة المرشدين السياحيين في مصر ليلىٰ قنديل[(٢)].

ولا ريب أن هذه الأماكن التي عُبِد فيها الله، وقُرِيء فيها القرآن وصُلِّيَت فيها الصلوات، لها تأثير روحي كبير علىٰ القادمين من بلاد تشكو من الضغط العنيف للمادية، هذا الضغط الذي يجعل البوذية أحد أكثر الأفكار رواجا في الغرب لأنها متطرفة في الجانب الروحي الذي يقابل التطرف المادي هناك.

تروي ليلىٰ قنديل قصة أستاذ جامعي بلجيكي أسلم بعد زيارة إلىٰ مساجد القاهرة القديمة وحصوله علىٰ نسخة مترجمة لمعاني القرآن الكريم[(٣)]، ونحن

---

(١) انظر فتوىٰ الشيخ عبد العزيز بن باز علىٰ صفحة الشيخ

(٢) تحقيق صحفي: المساجد الأثرية مراكز لدعوة غير المسلمين، موقع الشبكة الإسلامية، ١٠/ ٦/ ٢٠٠٢.

(٣) تحقيق الشبكة الإسلامية.

حين نطالع قصص من أسلموا نجد الأسفار إلىٰ بلاد المسلمين تمثل جزءا بارزا منها، بل نجد بعض القصص ليست إلا فصولا من التأثر بآثار المسلمين وبلادهم، كقصة الشاب المجري جوليوس ووفر بدأت بتأثره بآثار العثمانيين في المجر ثم لم يجد الراحة والقرار إلا في بلاد المسلمين التي تنقل فيها أو عبر بها فتعلق بها قلبه حتىٰ أسلم[(١)].

ومما يتبع الاهتمامَ بحضارة المسلمين، الاهتمامُ بإعداد المرشد السياحي، فذلك هو الذي سيلتقط لحظة التأثر فيضرب علىٰ الحديد وهو ساخن، فإن كان أكثر كفاءة فباستطاعته صناعة هذا التأثر وإنشائه، ومما يذكر في هذا الشأن ما رواه المرشد السياحي المصري عز الدين أحمد سالم أن وفدا سياحيا كاملا تأثر بالإسلام بعد أن حدثهم عن بعض جوانب إعجاز القرآن أثناء زيارتهم لأحد المساجد الأثرية بالقاهرة، ثم رَتَّب لهم لقاء مع أساتذة من كلية أصول الدين استغرق ٤ ساعات، ولم ينته هذا الاجتماع إلا بعد أن أعلن عدد كبير من هؤلاء عن رغبتهم في اعتناق الإسلام[(٢)]. فهذا مجرد نموذج لما يمكن أن يصنعه مرشد سياحي مؤهل للحديث لا عن الإسلام، ولكن عن لفتة إسلامية مؤثرة في ثنايا شرحه للمعالم السياحية، ثم يمكن للمختصين أو المراكز المختصة أن تقدم المعلومة الأفضل والأكمل لمن أراد أن يتوسع أو أن يسأل.

ومما يتبع الاهتمامَ بحضارة المسلمين أيضا، الاهتمامُ بالملصقات والمطبوعات الإرشادية للآثار الإسلامية، إذ ينبغي ألا تكتفي المادة التعريفية بعرض تاريخ إنشاء الأثر وعصره، بل تضيف إليه نبذة عن صاحبه وعصره والغرض من بنائه وما إذا كانت ثمة مواقف ذات أثر أو قيمة إسلامية حدثت عنده، فهذا ما يعطي المكان قيمته الروحية والحضارية فضلا عن قيمته المادية

---

(١) د. كمال العشي: رجال ونساء أسلموا ٢/ ١٦٧ وما بعدها.

(٢) تحقيق الشبكة الإسلامية.

والفنية والمعمارية، وإذا تحقق هذا في المطبوع الإرشادي لكل أثر فنكون قد حكينا للسائح -دون أن نشعر نحن ولا هو- تاريخ البلد وحضارته، وأعطيناه رحيق وخلاصة روح البلد وثقافته، وهذا يعمق الارتباط النفسي والروحي بين السائح والبلد، وهو في حد ذاته قيمة اقتصادية بحتة، ولو لم نهدف إلىٰ التعريف بالإسلام.

وربما لا يبلغ التأثر حد الدخول في الإسلام، ولكنه يساهم في كسر الصورة المشوهة عنه في بعض النفوس، فها هي الكاتبة البريطانية المعروفة كارين أرمسترونج التي كانت راهبة كاثوليكية وصارت الآن من وجوه الدفاع عن الإسلام في أوروبا والدفاع عن قضايا المسلمين مثل القدس، كانت بداية تعرفها علىٰ الإسلام رحلة إلىٰ سمرقند حيث تأثرت بالروحانية التي تفيض من العمارة الإسلامية[1].

أخلاق المسلمين:

وهو الباب الأوسع للدخول في الإسلام، إذ هو يحدث في كل موقف وكل لحظة، ويكون بغير تكلف من المسلمين، وهذا الباب يؤتي ثماره في القديم كما في الحديث، فغالب من أسلموا من غير المسلمين إنما كان إسلامهم من هذا الباب، ومن نَظَر في الكتب التي تقصص قصص من أسلموا وجد ذلك واضحا لا يحتاج إلىٰ إثبات.

وهذا الباب مستمر معنا في كل ما يخص غير المسلمين، سواء أكانوا سائحين أم مقيمين أم من أهل البلد أم كان المسلم في بلاد غير المسلمين، فلا نطيل الحديث فيه الآن، وربما أفردناه بمجموعة مقالات في نهاية هذه السلسلة.

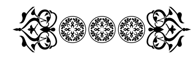
وكل ما أوردناه من اقتراحات وأفكار يستطيع المجتمع أن يقوم بها بدون

---

(١) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ﷺ ص٢٢.

السلطة، أو في أكثر الأحوال لا يحتاج الأمر إلا مجرد «السماح» من السلطة، فالمتطوعون من الدعاة والمراكز الإسلامية يرحبون بأن يضعوا هم جداول الزيارات السياحية وإعداد مواد الإرشادات والمطبوعات وإقامة دورات التأهيل للمرشدين السياحيين واستقبال كل راغب في الاستزادة من المعرفة عن الإسلام وغير ذلك مما يتطلبه الأمر.

والخلاصة أننا نحاول اقتناص كل فرصة ممكنة -مهما كانت سريعة وبسيطة- في هذه الزيارة القصيرة التي يقوم بها غير المسلم لبلادنا الإسلامية، وهو أمر سيجد في نفسه موضع قبول وترحيب لأنه جديد عليه لا يجد مثله في بلاده وهو بطبيعة الحال متشوق للمعرفة والاطلاع علىٰ ما في بلادنا من أسرار وكنوز، فأرض الشرق ما تزال تمثل عند كثيرين -وخصوصا الغربيين- أرض الأسرار والكنوز والشمس والسحر واللبن والعسل، وهو من آثار التاريخ الطويل بين الغرب والشرق منذ الأندلس والحروب الصليبية وقصص ألف ليلة وليلة.





الاحتضان الإسلامي لغير المسلمين (الخدم)

تحدثنا في المقال الأول من هذه السلسلة عن «جاذبية الإسلام الاجتماعية» لنثبت أن الحياة الاجتماعية للمسلمين ظلت الباب المفتوح للدخول في الإسلام، سواء أكانت الأمة عزيزة مكنة أو ضعيفة محتلة، وسواء أكان الداخلون في الإسلام من البلاد المفتوحة أو من البلاد التي لم تصل إليها جيوش الفاتحين، وسواء أكان الذي يسلم حرا أو عبدا أو أسيرا.

وبدأنا في المثال الثاني الحديث عن «الاحتضان الاجتماعي لغير المسلمين»، وقسمنا غير المسلمين -في بلاد المسلمين- إلىٰ زائرين ومُقِيمين؛ وتحدثنا في المقال الماضي عن الزائرين لمدد قصيرة كالسائحين وكيف ينبغي أن نكون لهم، ونبدأ في هذا المقال والذي يليه في الحديث عن المقيمين في بلادنا، ونختار في هذه المرة الحديث عن شريحة الخَدَم.

ونحن نخصص الحديث عن الجانب الاجتماعي لأنه المساحة التي تقوم بها الأمة -أفرادا ومجموعات وهيئات- بغض النظر عن السلطة السياسية قوة وضعفا، سواءًا أكانت داعمة أو لا مبالية.

فرصةٌ نادرةٌ:

لعل شريحة الخدم هي أسهل الشرائح في إدخالها إلىٰ الإسلام، إذ هو في مكانة الضعف والفقر والحاجة كالأرض الخصبة تؤثر فيه أدنىٰ معاملة حسنة وأقل خلق كريم كما تنبت الأرض بأقل قطرات مطر، وتلك من المواضع القليلة التي يكون فيها المسلم -في هذا الزمان- في موضع الأعلىٰ ويكون غيره في الموضع الأدنىٰ من حيث القوة والمال والاحتياج.

وفقه التعامل مع الخدم مما ينبغي أن ينتشر في أوساط من أنعم الله عليهم بالغنىٰ والثراء، خصوصا في منطقة الخليج التي تمثل شريحة الخدم ظاهرة واضحة ويمثل الخدم عنصرا أساسيا في تلك البلاد.

وقبل كل شيء، فإن أخلاق المسلم في معاملاته هي الداعية الدائم الذي يجذب القلوب والعقول، وليس من موطن تظهر فيه الأخلاق بحق سوىٰ موطن كهذا، لا يكون الإنسان مضطرا فيه لحسن المعاملة فلا خوف من عاقبة ولا رجاء لمطمع، بل لا يلزمه بهذا إلا الدين.

وقد ألزم الإسلام أهله بأخلاق في معاملة الخدم، تبدأ من استشعار المسؤولية، إذ صاحب البيت مسؤول عن الخادم كما في حديث النبي ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»، واستعمال النبي لفظ «الرعاية» يوحي بالمعاني الإنسانية الراقية والرقيقة للتعاملات داخل نطاق هذه المسؤولية.

إكرامٌ ورعايةٌ ورحمةٌ:

إذا نظرنا في النصوص التي تتحدث عن معاملة الخدم فسنجد أنها تعاملهم كأنهم من الأهل أو علىٰ الأقل كأنهم من الأصدقاء المقربين، الذين هم أولىٰ الناس بالإكرام والرعاية والعفو والرحمة.

يقول النبي ﷺ: «**هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس...**»[1]، ومثل هذا حديث آخر يقول: «**ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**»[2]، وحين سُئل النبي ﷺ في أمر الصدقة عن الأولويات، قيل: يا رسول،

(١) البخاري (٥٧٠٣).

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٨٢)، أحمد (١٧٢١٨)، والنسائي (٩١٨٥)، وحسنه شعيب الأرناؤوط وصححه الألباني.

عندي دينار، قال: «**أنفقه علىٰ نفسك**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنفقه علىٰ زوجتك**»، قال: عندي آخر، فقال: «**أنفقه علىٰ خادمك، ثم أنت أبصر**»[١]. فتأمل كيف كان الخادم في درجة بعد النفس والأهل.

ومن المعاني الرقيقة في معاملة الخدم ما أوصىٰ به النبي ﷺ: أن يدعو المرء خادمه ليشاركه الأكل، وهذا مقام فضل واستحباب، يقول: «**إذا جاء أحدَكَم خادُمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكله أو أكلتين، فإنه وَلِيَ عِلاجه**»[٢]، ومعنىٰ ولي علاجه أي أعَدَّه فلربما اشتهاه وأحب أن يأكل منه، وقد أخبر النبي ﷺ أن الأكل مع الخادم علاج للكبر ودليل علىٰ التواضع، فقال: «**ما استكبر من أكل معه خادمه**»[٣].

وأوصىٰ النبي ﷺ بالرفق بالخادم، ففي الحديث الذي مرَّ معنا: «**فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يُكَلِّفُه من العمل ما يغلبه، فإن كَلَّفَه ما يغلبه فلْيُعِنْه عليه**»، وفي رواية أخرىٰ: «**ولا يُكَلَّف من العمل إلا ما يطيق**»[٤]، ويُروىٰ عنه ﷺ أنه قال: «**ما خَفَّفْتَ عن خادمك من عمله كان لك أجرًا في موازينك**»[٥].

وإذا أخطأ الخادم فليكن سلوك المسلم هو العفو، ولقد أجاب النبي إجابة عجيبة حين سأله رجل يبدو من كلامه الضجر والغضب من خادمه: «يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟»، فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال: «**اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة**»[٦]، والمقصود ليس العدد ولكن

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (١٩٧)، وحسنه الألباني.

(٢) البخاري (٢٤١٨).

(٣) البخاري في الأدب المفرد (٥٥٠)، وحسنه الألباني.

(٤) البخاري (٥٧٠٣)، مسلم (١٦٦٢).

(٥) ابن حبان (٤٣١٤)، وأبو يعلىٰ (١٤٧٢)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات.

(٦) أبو داود (٥١٦٤)، وصححه الألباني.

كثرة العفو وأن يكون هو الأصل في التعامل مع الخدم.

أكرم مثال:

ولقد ضرب لنا النبي مثالا بنفسه في تعامله مع خدمه، فقد كان يهتم بحالهم وأمورهم، فمن ذلك أنه:

١- كان يدعو لخادمه أنس بن مالك -الذي خدمه عشر سنين- مثلما قال أنس: «فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به، قال: «اللهم ارزقه مالا، وولدا، وبارك له»[(١)].

٢- وهو الذي سعىٰ في زواج خادمه ربيعة بن كعب الأسلمي، رغم فقره وحاجته، وألَحَّ عليه فيه، يروىٰ ربيعة: كنتُ أخدم النبي فقال لي النبي: يا ربيعة، ألا تتزوج؟ قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج؛ ما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. قال: فأعرض عني، ثم قال لي بعد ذلك: ياربيعة، ألا تتزوج؟ قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج، وما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. فأعرض عنِّي. وقال: ثم راجعتُ نفسي، فقلتُ: والله يا رسول الله أنت أعلم بما يُصلحني في الدنيا والآخرة. قال: وأنا أقول في نفسي: لئن قال لي الثالثة لأقولن: نعم. قال: فقال لي الثالثة: يا ربيعة، ألا تتزوج؟ قال: فقلتُ: بلىٰ يا رسول الله، مُرْنِي بما شئتَ، أو بما أحببت. قال: «انطلق إلىٰ آل فلان». إلىٰ حيٍّ من الأنصار...[(٢)].

٣- وحرص النبي علىٰ عيادة خادمه الغلام اليهودي في مرضه، وحرص علىٰ إسلامه، قال أنس بن مالك: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلىٰ أبيه وهو عنده، فقال:

---

(١) البخاري (١٨٨١).

(٢) أحمد (١٦٦٢٧)، والحاكم (٢٧١٨) وقال: علىٰ شرط مسلم.

أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار»[١].

وبالعموم فقد كان النبي ﷺ خير رجل لخادمه من الرفق به والعفو عن أخطائه وعدم التضييق عليه حتىٰ لفظة: «أف» لم يكن يقولها؛ قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أُفٍ قط، ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا وهلّا فعلت كذا؟»[٢].

وعيدٌ وتشديدٌ وتهديدٌ:

وقد نهىٰ الإسلام عن ظلم الخادم أو هضمه حقه أو الاعتداء عليه، ومن ينظر في نصوص النهي عن هذا يشعر لأول وهلة بالمفاجأة من شدة العبارات والألفاظ.

فلا يجوز ظلم الخادم في أجره، فهذا من أسباب خصومة الله يوم القيامة كما قال النبي ﷺ: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطىٰ بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفىٰ منه ولم يعطه أجره**»[٣]، وكأنما في الحديث ردٌّ علىٰ هذه النفس التي قد يغويها ويغريها ظلم الخادم أن لا سند له ولا ظهر ولا قوم يُخشىٰ منهم، فكان الله تبارك وتعالىٰ هو صاحب الخصومة للخادم.

ونهىٰ الإسلام عن ضرب الخادم، خصوصا علىٰ وجهه، وقد أمر النبي ﷺ بعتق جارية لطمها سيدها، فتعلم أصحابه القصاص للخدم من أنفسهم وأبنائهم وصار ضرب الخادم مما يخشىٰ منه المرء فيهرب، من بعد ما كان الخادم ملكا

---

(١) البخاري (١٢٩٠).

(٢) البخاري (٢٦١٦)، مسلم (٢٣٠٩).

(٣) البخاري (٢١١٤).

لسيده كما هو الحال في الجاهلية الأولىٰ وفي جاهليتنا المعاصرة[1]، يروي معاوية بن سويد بن مقرن المزني: «لَطَمْتُ مولىٰ لنا فهربتُ، ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبي فدعاه ودعاني، ثم قال: امتثل منه (يعني: اقتص منه)، فعفا (الخادم)، ثم قال: كنا بني مُقرن علىٰ عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**أعتقوها**»، قالوا: ليس لهم خادم غيرها، قال: «**فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها**»[2].

ومثل ذلك ما جرىٰ لأبي مسعود البدري الذي قال: كنت أضرب غلاما لي. فسَمِعْتُ من خلفي صوتًا: «اعلم، أبا مسعود.. لله أقدر عليك منك عليه»، فالتَفَتُّ فإذا هو رسول الله، فقلت: «يا رسول الله، هو حر لوجه الله»، فقال: «أما لو لم تفعل، لَلَفَحَتْك النار، أو لَمَسَّتْك النار»[3].

وكان نبينا قدوة في هذا، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عَزَّوَجَلَّ»[4].

بل ولقد نهىٰ النبي عن الدعاء علىٰ الخادم، وجعله بعد النفس والأهل، قال ﷺ: «**لا تدعوا علىٰ أنفسكم، ولا تدعوا علىٰ أولادكم، ولا تدعوا علىٰ خدمكم،**

---

(١) تحمل لنا الصحف والأخبار أنباء في غاية الغرابة والدهشة عن معاملة أقوام لخدمهم، بالضرب والتعذيب والكي، ومما هو مشهور أن بعضهم تسبب في عاهات دائمة كالعمىٰ والصمم مما ينزله بخادمه، وبعضهم اكتشف أنه حبس خادمه في بيته أو مزرعته لسنين وصلت إلىٰ ثماني أو عشر سنين، ولعل ما خفي يكون أعظم.. وهذا غير الاستعباد الذي يجري علىٰ العمال والفقراء الذين تستغل حاجتهم وفقرهم في إذلالهم وامتصاص مجهوداتهم وربما دمائهم في الأعمال الشاقة ولوقت طويل بلا رحمة ولا شفقة.

(٢) مسلم (١٦٥٨).

(٣) مسلم (١٦٥٩).

(٤) مسلم (٢٣٢٨).

ولا تدعوا علىٰ أموالكم، لا توافقوا من الله تبارك وتعالىٰ ساعة نيل فيها عطاء فيستجيب لكم»[١].

وبالجملة فإن الخدم ممن ينبغي أن يُعامَلوا بالرحمة، لما هم فيه من الحاجة والفقر والغربة أحيانا، وفي الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء**»[٢]، ولقد توعد النبي ﷺ أولئك الجفاة ذوي الغلظة فقال: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»[٣].

أبواب تفنن:

ولقد سمعت من أصحاب الدين ممن أنعم الله عليهم كثيرا من التفنن في معاملة الخدم، كاستقبالهم من المطار، وإشعارهم بالألفة وتخفيف الغربة عنهم والرفق في تعليمهم عادات البلد واستعمال أجهزة الطبخ والتنظيف والغسيل مما لا يعرفون استعماله، والإغداق عليهم في الأعياد، ومساعدتهم في أعمال الخدمة، والتخفيف عنهم، والتلطف بهم حال ضيقهم وغضبهم ومرضهم، والإحسان إليهم وإلىٰ ذويهم سواء أكانوا في ذات البلد أو في غيرها، وتمكينهم من زيارة ذويهم والاتصال معهم، وسمعت في هذا قصصا عجيبا والعديد منها انتهىٰ بإسلام هؤلاء الخدم حتىٰ من كان يفعل هذا غافلا عن نية الدعوة إلىٰ الله وإدخالهم في الدين.

ولو تذكر المرء نعمة الله عليه إذ جعله صاحب غنىٰ ومال وقد كان يمكن أن يكون مكان هذا الخادم، بل لو تذكر أن أحدا لا يضمن تحول نعمة الله عنه وأن يصير فعلا في مستقبل الأيام مثله.. لو تذكر هذا لشكر نعمة الله عليه وعامل ذلك الخادم بما يحب أن يُعامل به، وكم في التاريخ من ملوك تحولوا إلىٰ فقراء

---

(١) أبو داود (١٥٣٢)، وصححه الألباني.

(٢) أحمد (٦٤٩٤) أبو داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤)، وصححه الألباني.

(٣) البخاري (٦٩٤١)، مسلم (٢٣١٩).

متسولين يتكففون الناس ولم يجد أولادهم -بعد العز والملك- نعلا يلبسونه فصاروا حفاة، ولا طعاما سوىٰ كسرات خبز يابسة!!

فالبرُّ بهؤلاء إنما هو شكر لنعمة الله واتقاء لتحولات الأيام التي لا تدوم علىٰ حال.





الاحتضان الإسلامي لغير المسلمين (العمال)

لم يزل الحديث موصولا عن الجاذبية الاجتماعية للإسلام، وقد تحدثنا قبل مقالين عن هذه الجاذبية واستعرضنا شذرات من فصولها عبر التاريخ لكي نثبت أنها الباب الأوسع والأكبر للدخول في الإسلام، سواء أكان المسلمون في حال قوة أو ضعف أو حتىٰ تحت الاحتلال، وسواء أكان غير المسلم في بلد فتحه الإسلام أو في قوم غزوا هم ديار المسلمين واحتلوها. ثم أخذنا في تفصيل هذا الأمر، فتحدثنا عن الرعاية الاجتماعية الإسلامية لغير المسلمين، فتحدثنا عن شريحة السائحين ثم عن شريحة الخدم، وفي هذه السطور نتحدث عن شريحة العمال.

وإن مما أنعم الله به علىٰ بعض بلادنا الإسلامية -خصوصا في منطقة الخليج العربي- هو مرحلة النمو والانفتاح الاقتصادي وجذب الاستثمارات، والتي من مقتضياتها وجود عدد كبير من العمال المجلوبين من سائر أنحاء العالم، من أول الفقراء الذين يمثلون الأيدي العاملة ويتحملون المهمات الشاقة وحتىٰ الخبراء العالميين الذين يديرون المشاريع الكبرىٰ، فكل هؤلاء أقوام يعيشون في بلادنا، فلا يصح ولا يليق أن يخرجوا من بلادنا كما دخلوها، بل كم تكرر في تاريخنا من آثر أن يبقىٰ في حكم المسلمين وبلادهم وسلطانهم ولو ظل محتفظا بدينه، وهذا فضلا عمن دخلوا في دين الله أفواجا.

وحقًا إن الله لا يحاسبنا علىٰ الهداية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:٥٦] إلا أنه يحاسبنا علىٰ العمل وبذل المجهود في دعوة الناس.

الطائفة المسحوقة:

من عصور الملكيات والامبراطوريات والإقطاعيات ووصولا إلىٰ عصر الرأسمالية العالمية، كانت فئة العمال هم الأكثر معاناة ورهقا، ولم يتغير هذا حتىٰ في العصور الشيوعية التي بُنِيَت نظريتها واشتعلت ثورتها من رحم معاناة الطبقة العاملة!!

وعلىٰ كثرة ما كتب العالَم من وثائق واتفاقيات لحفظ حقوق العمال وحفظ حقوق الإنسان، إلا أن كل هذا لم يتحول إلىٰ واقع، وإنما المعادلة علىٰ ما كانت عليه: صاحب المال أعلىٰ يدا وأسع سلطة ونفوذا والعامل -صاحب الفقر والحاجة- هو اليد السفلىٰ والطرف الضعيف المهيض المهضوم.

وفي ظل آلة مالية لا ترحم في عالم لا يعرف سوىٰ لغة القوة والمال، لم يعد الأمر مقصورا علىٰ الطبقات الفقيرة، بل صار يشمل كل من يُسمَّىٰ عاملا أو موظفا، إذ لم يعد ضروريًّا أن يضحي أصحاب الشركات بالعمَّال؛ لأن الأرباح تتراجع، بل يمكن اتخاذ قرار تسريح الآلاف ببساطة حين يظهر عمال آخرون أقل كلفة، فشركة نوكيا المنتجة للهواتف المحمولة أغلقت مصانعها في مدينة بوخوم الألمانية بين ليلة وضحاها علىٰ الرغم من أنها حققت ربحًا زاد علىٰ السبعة مليارات يورو، فخسر ٢٣٠٠ عامل فرص عملهم لا لشيء إلا لأن الشركة فضَّلت نقل الإنتاج إلىٰ رومانيا؛ حيث الأجور أدنىٰ، وألغت شركة بي إم دبليو ثلاثة آلاف فرصة عمل وسرحت خمسة آلاف عامل، وبرَّر رئيس شركة سيمينز التخلص من ٦٤٠٠ وظيفة بحجة مفادها أن الشركة قررت التخلص من «طبقة الوحل» المتراكمة لديها[1]. وفي البلاد التي تنخفض فيها الأجور يتجسد معنىٰ التوحش الرأسمالي وسحق الإنسانية وامتصاص طاقات العمال ودمائهم في ظروف بالغة القسوة والبشاعة.

---

(١) أولريش شيفر: انهيار الرأسمالية ص١٦، ١٧.

وإنه ليس من الإسلام أن تتحول بلادنا إلىٰ قطيع في ركاب الرأسمالية العالمية التي تستعبد الناس وتسحقهم، لا سيما وبلادنا التي تشهد طفرة في الموارد حديثة عهد بغنىٰ ومال، وما تزال لا تنسىٰ كيف كانت أحوالها قبل وقت قريب، كما لا يضمن أحد تقلبات الدهر، فنحن بين قول الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٩٤] وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

إن ديننا لا يجيز لنا أن نكون إمَّعة، إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، وملف العمالة هذا -في وقتنا الحاضر- من أوسع أبواب الدعوة إلىٰ الله واجتذاب الناس إلىٰ الإسلام، إذ لو طبقنا حقا ما أوصانا به ديننا لصارت بلادنا مهوىٰ القلوب والأفئدة، ودوحة ساحرة في ساحة الظلم العالمية الجليدية.

الحد الأدنى:

أول ما يدعو طائفة العمال للإسلام هو التزام المسلمين بما أمرهم به الإسلام وانتهاؤهم عما نهاه عنهم في شأن العمل، إذ هذا الشأن هو الذي حرك العامل من بلاده حتىٰ أسكنه في بلادنا التي هي بالنسبة له دار غربة وبعد عن الأهل والزوج والولد، وسائر الآداب والأخلاق الأخرىٰ إنما هي أمور هامشية وفرعية لا تقوم مقام الدعوة إذا ضاع الأصل.

وفي شأن العمل، نرىٰ الإسلام ألزم أهله بحقوق للعمال يجب أن تؤدىٰ لهم، وهذه الحقوق تعود في الأصل إلىٰ رؤية وقاعدة تخالف الرؤية والقاعدة التي ينبني عليها النظام الرأسمالي المعاصر؛ ففي الإسلام يُقَدَّم الإنسان علىٰ المادة ولا يجوز أن يكون المال سببا في سحق كرامة الإنسان أو إذلاله باستغلال فقره وحاجته، أو سببا في تحميله ما لا يطيق من الجهد والمشقة لتوفير النفقات.

هذا هو الحد الأدنىٰ، ثم يتفاضل الناس بمراتب الإحسان وهم يسمعون قول نبيهم ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم**

من في السماء»[1]، وقوله: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما رُفع من شيء إلا شانه»**[2].

العدل والإنصاف هو الحد الأدنىٰ الذي لا يجوز للمسلم أن يتجاوزه، فالظلم كله حرام، وما أحسن أن يستمع أصحاب الأعمال لقول النبي ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم علي أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[3]، وتأمل كيف جمع الحديث بين الظلم وبين الشُحَّ، فكلاهما يظهر كأوضح ما يكون في صاحب المال والعمل الذي يتوق لتثمير أمواله فيحمله هذا علىٰ إرهاق العمال وإنقاصهم حقوقهم، ومن بديع ما قاله العلماء قول ابن الجوزي: «الظلم يشتمل علىٰ معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الآمر بالعدل بالمخالفة، وهذه أدهىٰ، لأنه لا يكاد يقع الظلم إلا للضعيف الذي لا ناصر له غير الله»[4].

والظلم مفسد للأعمال الصالحة، ومهما كان صاحب العمل والمال ملتزما بالشعائر والهدي الظاهر فلا ينجو يوم القيامة إلا بالبراءة من حقوق الناس، والمرء حين ينظر في حديث المفلس يشعر كأنما هو لأصحاب الأموال والأعمال دون غيرهم، قال رسول الله ﷺ: «**أتدرون مَنِ المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: «**المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا.. فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أُخذ من**

---

(١) أحمد (٦٤٩٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) وصححه الألباني.

(٢) مسلم (٢٥٩٤).

(٣) مسلم (٢٥٧٨).

(٤) العيني: عمدة القاري ١٢/ ٢٩٣.

خطاياهم فطُرح عليه ثم طرح في النار»[١].

فمن العدل أن يُبَيَّن للعامل أجره قبل بدء العمل، كما رُوي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعثمان بن عفان قولهم «من استأجر أجيرا فليبين له أجره»[٢]، قال المناوي: «أَي يبين له قدر أجرته وقدر العمل والمدّة ليصير علىٰ بصيرة ويكون العقد صحيحًا، والإبهام غرر مُبْطل»[٣] أي: الغموض في العقد حرام وباطل.

فإذا انقضىٰ العمل فليُوَفَّ أجره غير منقوص ولا مؤجل، كما قال الله تعالىٰ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥]، وكما قال نبينا ﷺ: «**أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه**»[٤].

بل توعد النبي بخصومته يوم القيامة لمن يحرم العامل أجره، قال ﷺ: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطىٰ بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفىٰ منه ولم يعطه أجره**»[٥].

وكانت توفية الأجر من الأعمال التي أنقذت صاحبها حين أغلقت عليهم الصخرة في الحديث المعروف: «**وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتىٰ كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له كل ما ترىٰ من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت**

---

(١) مسلم (٢٥٨١).

(٢) رواه موقوفا النسائي (٤٦٧٣)، وابن أبي شيبة (٢١١٠٩)، ورواه مرفوعا إلىٰ النبي أحمد (١١٥٦٥)، والبيهقي (١١٤٣١)، وقال شعيب الأرناؤوط في التعليق علىٰ المسند: صحيح لغيره.

(٣) المناوي: التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٧٠.

(٤) ابن ماجه (٢٤٤٣)، وصححه الألباني.

(٥) البخاري (٢١١٤).

ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة»[١].

ومن العدل ألا يكلف العامل ما لا يطيق، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ [القصص:٢٧] وفي حديث النبي: «**ولا يُكَلَّف من العمل إلا ما يطيق**»[٢].

ومن العدل إنصافهم والانتصاف لهم من خصومهم، مهما كانت منزلة الخصوم وقدرهم في بلادنا، بل إن هضم حقوق هؤلاء سبب للهلاك كما قال نبينا: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[٣].

ولا يكون إنصافهم والانتصاف لهم، إلا إن مُكِّنوا من الشكوىٰ ويُسِّر لهم سبيل رفع المظلمة وأحيطوا بالأمن فلا يُخافون ولا يُرَوَّعون إذا اشتكوا.

وأما مراتب الإحسان فأمرٌ لا حدّ له، ويأتي كل امرئ منه بحسب ما وفقه الله فيه، ولقد كان رسول الله قدوة للمسلمين، فقد كان قريبا من البسطاء والفقراء متواضعا معهم، فكان «يأكل مع الخادم. ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو إلىٰ أيسر شيء»[٤]، حتىٰ إنه ليجيب دعوة المملوك إلىٰ الطعام ولو كان خبز الشعير[٥]، ولما ارتجف منه أعرابي قال له: «هوِّن عليك نفسك فإني لستُ

---

(١) البخاري (٢١٥٢).

(٢) البخاري (٥٧٠٣)، مسلم (١٦٦٢).

(٣) البخاري (٣٢٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

(٤) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣١٣.

(٥) ورد من ثمانية طرق عند الطبراني في الكبير وابن سعد في الطبقات والترمذي في الشمائل وأبي الشيخ في أخلاق النبي، انظر الألباني: السلسلة الصحيحة (٢١٢٥).

بِمَلِكٍ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»[١].

أبواب تفنن:

فإذا وجد العامل في بلادنا إقامة الحق ثم الإحسان، فهو أحرىٰ أن يدخل في الإسلام، فإن لم يدخل فيه فهو يقف علىٰ الباب، ويوشك هذا الواقف أن يدخل إن شاء الله.

ويكون هذا بكثير من الأفكار، وبعض أهل الفضل والصلاح يتفنون في جذب العمال لديهم إلىٰ الدين:

فمنهم من يجعل الدين قريبا من العامل في مكان عمله -سواء مزرعة أو مصنع أو مكتب- سواء أكان ذلك بالكتيبات أو بتوفر نسخ مترجمة من القرآن الكريم باللغات المطلوبة، أو بغير ذلك من وسائط المواد المسموعة والمرئية، وهي قد صارت متوفرة في عصر الانترنت ومن خلال المراكز الإسلامية المهتمة بدعوة غير المسلمين، فهم يطالعونها في أوقات الراحة والفراغ والأوقات البينية، وقد وفق الله بعض بلدان الخليج لإنشاء إذاعات بلغات آسيوية يستفيد منها طوائف العمال في المزارع والبيوت وسائقي سيارات الأجرة وغيرهم.

ومنهم من يجعل الأعياد والمناسبات الإسلامية فرصة للإغداق عليهم فيها بأموال أو مكافآت أو ساعات راحة، ويستثمر الفرصة في تحديثهم عن هذه المناسبة -بنفسه أو من خلال إقامة برنامج تعريفي متميز ومحترف- ومعانيها ودلالاتها ولماذا يهتم بها المسلمون.. ويجد صاحب العمل في هذا من يساعده سواء من المتخصصين في المراكز الإسلامية أو من العمال المسلمين أنفسهم،

---

(١) ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٣٧٣٣) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

لا سيما وأن كل دين باطل فيه جزء من الحق، وكثير من الأديان الشرقية تتشابه في أمور كثيرة مع الإسلام، فيُؤمل إذا نُفِّذت البرامج التعريفية بكفاءة أن تؤتي ثمارها إن شاء الله تعالىٰ.

ومنهم من يقيم احتفالات وفاعليات إسلامية بشكل دوري، فيجعل لمن يحضرها من العمال مميزات ومكافآت، فيحضرون أول الأمر لغرض الدنيا ثم قد ينعم الله عليهم فينعم عليهم بخيري الدنيا والآخرة، وكم في الناس من كان هذا هو المدخل إلىٰ نفسه، فلهؤلاء كان مصرف «المؤلفة قلوبهم»، ثم اصطفىٰ الله منهم من نصر الإسلام في مواقف فاصلة.



الاحتضان الإسلامي لغير المسلمين (الموسرين)

بدأ حديثنا قبل أشهر عن «جاذبية الإسلام الاجتماعية»، تلك التي تمثل الباب الدائم للدخول في الإسلام سواء أكانت دولة الإسلام قوية عزيزة أو ضعيفة مقهورة، تلك الجاذبية التي تفتح بلادا لم تصلها جيوش الفاتحين، والتي تجذب حتىٰ المحتلين لتدخلهم في دين المسلمين. ذلك أنه أمر يمارسه المسلمون بطبيعتهم وسجيتهم، ولهذا فالخطاب متوجه فيها لكل مسلم إذ العطاء فيه لا يتوقف علىٰ قرار رسمي أو حكومي إلا فيما ندر.

وقد تناولنا في المقالات الماضية شرائح من غير المسلمين الذين يحتكون بالمجتمع الإسلامي، فتحدثنا عن السائحين وعن الخدم وعن العمال، وحديثنا في هذه السطور عن الموسرين من السفراء والدبلوماسيين وأرباب الصنائع والأعمال والمهارات العلمية الذين يعملون في بلادنا في جوانب الصناعة والتعليم والمستثمرين، واخترنا لفظ «الموسرين» لأنه يشمل من استغنىٰ عن الناس ومن فاض عنده المال.

المهمة الصعبة:

والموسرون شريحة أصعب من سابقيها، فأولئك لهم حاجات تفتح لنا أبواب قلوبهم؛ فالسائح متشوق لمعرفة ما لدينا من جديد وغريب عليه، والخادم والعامل محتاج إلىٰ ما يسد حاجته، بينما ذلك الموسر مطلوبٌ لا طالب، ولعله في كثير من الأحيان يكون متعاليا مترفعا قدم من بلاد أغنىٰ وأفضل تقدما فهو ينظر إلينا وإلىٰ بلادنا وثقافتنا من علٍّ.

إلا أنهم وإن كانوا أصعب فهم كذلك أقوىٰ أثرا وأكثر فاعلية من غيرهم إن

كتب الله لهم الهداية، فإنهم أبواب أقوام ذوي علم وغنىٰ ونفوذ، ودوائر تأثيرهم من السعة والانتشار لا تقارن بغيرهم، ثم إنهم -بعد كل هذا- فيهم بعضٌ من نفسية السائح الذي يتعرف علىٰ بلاد وأفكار وأناسي غريبة، وبعض من روح العامل فيما يرجوه من مكسب وأموال، فيصح في حقه بعض ما قلناه في المقالات الماضية من وسائل وأفكار.

والمدخل إلىٰ جميع الناس هو الأخلاق، فهي أمر مضطرد في حالات من أسلموا من جميع الشرائح والمستويات، وأمر الأخلاق لا مجال له إلا المعاملة ولا ينفع فيه التنظير، ومدخل الأخلاق واسع فسيح من أول البسمة العابرة إلىٰ الإغاثة في الملمات والمصائب، وأهم ما فيه المعاملات المالية التي هي المحك الحقيقي لأخلاق الصدق والأمانة والعدل والإحسان والزهد والاستقامة، مما تنطبع النفوس بفطرتها علىٰ توقيره والتأثر به. والأخلاق كالكنانة كثيرة السهام، لا تدري أي السهام ستصيب فتفتح القلوب، حتىٰ الذي أسلم قد لا يتذكر أي موقف ذلك الذي بدأ في فتح قلبه للإسلام، لكنه يتذكر ذلك الشعور الذي يبدأ صغيرا ثم يسيطر عليه للتعرف علىٰ الإسلام، وهو شعور تراكمي ناتج لا ريب عن مواقف صغيرة متتابعة وإن كانت متباعدة.

في رحلتنا لتتبع قصص من أسلموا من شريحة الموسرين لنحاول استكناه ما يميز هذه الشريحة واستكناه أفضل المداخل لها وجدنا ما يلي:

الفراغ الروحي:

وذلك أن الإنسان مهما تحققت له مطالب الجسد لم تغنه عن مطالب الروح، وهذا القلق الروحي يقوم مقام الجوع للجسد فلا بد له من إشباع، ومن هنا نجد كثيرا من هؤلاء يُسلمون لأقل سبب مثل سماع الأذان أو سماع القرآن حتىٰ وهو لا يفهمه، وبعضهم يرىٰ شيئا من حياة المسلمين فتمثل له لغزا محيرا حتىٰ يجد السر في الإسلام، فيقبل عليه، وبعضهم يحقق كافة النجاحات التي

طلبها في الدنيا ثم يجد نفسه ما زالت تطلب شيئا مجهولا.

ولنأخذ مثالا علىٰ هؤلاء السفير الألماني مراد هوفمان والذي اعتنق الإسلام لما رآه من شعب الجزائر -الذي كان آنئذ تحت الاحتلال والقتل اليومي- من إيمان ويقين والتزام، ولما رآه من مواقف أخلاقية نادرة مثل السائق الجزائري الذي عرض أن يتبرع بدمه لزوجته المريضة، وترىٰ في قصته شوقا روحيا قاهرا لا يشبعه إلا القرآن الكريم وفيضان الفن الإسلامي، يقول: «بدأت أقرأ «كتابهم» القرآن في ترجمته الفرنسية، ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين حتىٰ الآن... إنني محاط في المنزل الآن بفن تجريدي، ومن ثَمَّ بفن إسلامي فقط. وأدركها أيضًا عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزًا عن مجرد تعريف الفن الإسلامي. ويبدو أن سره يكمن في حضور الإسلام في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن، كما في الخط، والأرابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إنني أفكر كثيرًا في أسرار إضاءة المساجد، وفي بناء القصور الإسلامية، الذي يُوحي بحركة متجهة إلىٰ الداخل، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة، وينابيعها ومجاريها المائية، وفي الهيكل الاجتماعي - الوظيفي الباهر للمدن الإسلامية القديمة».

وفي عام ٢٠٠٠م أسلم السفير الإيطالي لدىٰ السعودية توركواتو كارديللي، وذكر أن إسلامه إنما هو تتويج لرحلة بحث استمرت عشر سنوات في التعرف علىٰ الإسلام وأهله وطبائعهم، وأعلن الرجل إسلامه عام ٢٠٠١ الذي يعد وقت الذروة في الهجوم علىٰ الإسلام ووصمه بالإرهاب وإعلان الحرب العالمية عليه. فما كان أغناه عن الإسلام في هذا الوقت وهذا الظرف لولا أن أشواق الروح لا مسكن لها إلا ذلك الاطمئنان إلىٰ ما وقر فيها.

الأسئلة الكبرى:

وهي من لوازم الفراغ الروحي إلا أنها تظهر فيمن حقق أحلامه ومن لم

يحققها أو من يبحث عن حلم ومعنىٰ وغاية، وتلك الأسئلة الكبرىٰ تكثر لدىٰ أصحاب الرأي والفكر والنظر، وأهل العلم والثقافة والأدب، فأولئك القوم أقدر علىٰ تحديد المشكلة وطرح الأسئلة وتكوين الأفكار.

وينتشر عند أهل كل فنٍّ نوعٌ من الأسئلة الملتصقة بفنونهم، فعامة أسئلة الأحبار والكهنة والقساوسة هي فيما يتعلق بصدق النبي محمد والمقارنة بين الإسلام والمسيحية والشبهات الشهيرة في هذا الموضوع، بينما يتعلق الفلاسفة والمفكرون بأسئلة الحياة والموت والمصير، أسئلة الخير والشر والعدالة والظلم والسعادة والتعاسة، ويكون الأدباء والفنانون والشعراء أكثر فردية ومباشرة إذ يدور بحثهم عن الإنسان والرغبات والشهوات والسعادة والتعاسة ونحو هذا.

فإذا تيسر لهم من أجاد (أولا) استيعابهم إنسانيا ثم (ثانيا) محاورتهم علميا وبأدب فالمظنون أنه يفلح معهم إن شاء الله، لا سيما إن قدَّم لهم منظورا مختلفا للحياة، أو لامس جوابه حيرة قائمة ملتهبة لم تحصل علىٰ جواب شافٍ بعد.

وعامة ما يحدث حينئذ لا يكون الدخول في الإسلام مباشرة، بل أولئك قوم يستكملون طريق البحث والمعرفة بأنفسهم، فيتأملون ويختبرون ما قيل لهم، ثم تأتي لحظة دخولهم في الإسلام كثمرة نهائية، لكنها تكون في ذات الوقت انطلاقة أخرىٰ، وثمرة تأتي بعدها بثمرات خالدات، وغالبا ما يتحول هؤلاء إلىٰ دعاة متميزين للإسلام ويكون إنتاجهم الفكري فتحا في بابه.

ولنأخذ مثالا علىٰ هذا الداعية العالمي الشهير يوسف استس، والذي أسلم علىٰ يد رجل مسلم اجتذبه بالأخلاق الطيبة ثم بالإجابات البسيطة عن الإسلام والمسيحية فصار من الدعاة العالميين، ولقد وصف يوسف استس أخلاق الرجل الذي اهتدىٰ علىٰ يديه بقوله: «مثل هذا الرجل ينقصه جناحان ويصبح

كالملائكة يطير بهما»، وبعد مناقشات امتدت لشهور كانت هذه الليلة التي يصفها بقوله: «مشينا وتكلمنا طوال تلك الليلة، وحان وقت صلاة الفجر.. عندها أيقنت أن الحقيقة قد جاءت أخيرًا، وأصبحت الفرصة مهيئة أمامي... أذن الفجر، ثم استلقيت علىٰ لوح خشبي ووضعت رأسي علىٰ الأرض، وسألت إلهي إن كان هناك أن يرشدني... وبعد فترة رفعت رأسي إلىٰ أعلىٰ فلم ألحظ شيئًا، ولم أر طيورًا أو ملائكة تنزل من السماء، ولم أسمع أصواتًا أو موسيقىٰ، ولم أر أضواء... أدركت أن الأمر الآن أصبح مواتيًا والتوقيت مناسبًا، لكي أتوقف عن خداع نفسي، وأنه ينبغي أن أصبح مستقيمًا مسلمًا... عرفت الآن ما يجب علي فعله».

أبواب تفنن!

ومن هنا ندرك أنه ينبغي أن يكون لهذه الشرائح من يتوجه لها من الدعاة والعلماء، خصوصا وبعض منها مهمته هو التواصل والتعرف -كالسفراء والدبلوماسيين والإعلاميين والأدباء والشعراء والرسامين- وأن تكون هذه الفرقة من الدعاة متسلحة بحد مقبول من العلوم والمعارف التي تمثل قاعدة مشتركة لإنشاء اتصال مع هذه الشرائح.

ولربما بدا الأمر صعبا مع الأوروبيين والأمريكان لما بينهم وبين المسلمين من عداوة، لا سيما وسفاراتهم ووسائلهم الإعلامية إما ركن أصيل في الصراع السياسي أو علىٰ الأقل ليست بريئة منه، علىٰ أن الأمر يستحق المحاولة في كل حين ومع كل أحد، ولكن يبقىٰ السؤال عن إسهامنا في التواصل مع سفراء وجاليات الدول الإفريقية والآسيوية ودول أمريكا الجنوبية، فأولئك أقرب منالا وأوطأ منزلا.

ومن الوسائل التي ينبغي طرقها هو فتح الأبواب لما يسمىٰ بـ «الدبلوماسية الشعبية» التي تفتح الباب أمام الدعاة والمراكز الإسلامية والمتطوعين للتواصل

مع ممثلي هذه الدول وجالياتها وإمكانية الاستفادة منهم في تمتين أواصر العلاقة بين بلادنا وبلادهم ونشر الدعوة فيها.

وإن اعتبار هؤلاء من المؤلفة قلوبهم سيجعل لهم نصيبا في مصارف الزكاة، ولقد كان نبينا ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم العطاء الكبير، حتىٰ ليأخذ الواحد منهم ما بين جبلين من الغنم فيذهب إلىٰ قومه قائلا «أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفقر»، وكم دخل الإسلامَ أقوامٌ لما فيه من حظ الدنيا ثم صار الإسلام أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم والناس أجمعين. فمن كان يملك العطاء فلا يبخل به.

ومن الوسائل الجديدة ما ابتكرته بعض المراكز الإسلامية من جمع بعض هذه الجاليات ليعيشوا يوما في حياة المسلمين، فيدخلون المسجد ويمارسون الصلاة وربما الصيام وترتدي النساء الحجاب، ومنها كذلك فكرة الاحتضان العائلي بالإقامة لدىٰ عائلة مسلمة ما تيسر لها من أيام أو أسابيع.

تنبيهٌ مهم:

لكن ينبغي التنبه إلىٰ أمر مهم، وهو أن هذا العطاء بالمال وهذا الاحتضان الاجتماعي إنما يجب فيه أن يكون من موضع القوة والعزة والوعي والانتباه، وألا يشوبه من الأمور ما قد يُفسَّر علىٰ أنه بلاهة وسذاجة وإعجاب وتودد نابع من موقع المنهزم نفسيا أمام خصمه الحضاري. فكم حملت إلينا مذكرات المستشرقين والرحالة والجواسيس من هذه الأنباء حسرات، فما إن يظن أولئك القوم أنهم في موضع الرغبة والرهبة والتفوق الحضاري والعلو النفسي حتىٰ تنقلب الأمور، وإن قصص لورنس العرب وأضرابه أشهر من أن تُحْكىٰ.

إن هذا المعنىٰ خفي في قصص من أسلموا لكنه مضطرد فيها، معنىٰ الاعتزاز بالإسلام والزهد فيما عندهم، ومن المواقف العجيبة التي يمكن إيرادها هنا قصة القس المصري إسحاق هلال مسيحة والذي كان يركب إحدىٰ

المواصلات العامة في القاهرة، فصعد إليها طفل صغير يبيع كتيِّبات دينية، فأعطىٰ جميع الركاب ولم يعطه منها، يقول: «قلت له: «يا بنيّ لماذا أعطيت الجميع بالحافلة إلا أنا». فقال: «لا يا أبونا أنت قسيس». وهنا شعرت وكأنّني لست أهلًا لحمل هذه الكتيّبات مع صغر حجمها ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾. ألححت عليه ليبيعني منهم فقال: «لا دي كتب إسلاميّة» ونزل، وبنزول هذا الصّبي من الحافلة شعرت وكأنّني جوعان وفي هذه الكتب شبعي وكأنّني عطشان وفيها شربي. نزلت خلفه فجرىٰ خائفًا منّي فنسيت من أنا وجريت وراءه حتّىٰ حصلت علىٰ كتابين. عندما وصلت إلىٰ الكنيسة الكبرىٰ بالعبّاسيّة (الكاتدرائيّة المرقسيّة) ودخلت إلىٰ غرفة النّوم المخصّصة بالمدعوّين رسميًّا كنت مرهقًا من السفر، ولكن عندما أخرجت أحد الكتابين وهو (جزء عم) وفتحته وقع بصري علىٰ سورة الإخلاص فأيقظت عقلي وهزت كياني. بدأت أرددها حتىٰ حفظتها وكنت أجد في قراءتها راحة نفسية واطمئنانًا قلبيًا وسعادة روحية».

لقد كان ذهن هذا القس يمور بالأسئلة والشكوك قبل هذا الموقف، لكن الشاهد منه أن الفتىٰ الصغير كانت لديه هذه العزة الفطرية والتي جعلته ينزه بيع تلك الكتب لقسٍّ مهما بذل له فيها من المال، ومقام الدعوة لا ينفصل عن مقام الاعتزاز، كما أن مقام الكرم والعطاء لا يتنافىٰ مع مقام الوعي واليقظة.

الاحتضان الإسلامي للمنكوبين

لقد صاغ الإسلام أبناءه علىٰ مثال يجعل ديارهم ديار فضل وخير وأخلاق، لا يستوحش فيه الغريب ولا يُضام فيه الضعيف، ولم يسمح الإسلام أن تنتشر بين أبنائه أخلاق الطمع والجشع والاحتكار وما إلىٰ ذلك مما يمزق الروابط ويبذر فيها الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، ومن هنا كانت ديار المسلمين خير ديار كما كانت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس.. وهذه هي خلاصة ما نورده في هذه السلسلة عن «جاذبية الإسلام الاجتماعية» تلك التي تنبع من المجتمع نفسه بغض النظر عن أحوال السياسة والسلطة، فتظل تؤتي ثمرتها في حال القوة والضعف، فيدخل الناس في دين الله أفواجا.

وقد تحدثنا فيما سبق عن هذا الاحتضان الإسلامي الاجتماعي لغير المسلمين بالنسبة لشرائح كثيرة مثل: السائحين، والخدم، والعمال، والموسرين، ونتناول في هذه السطور شريحة أخرىٰ هي «المنكوبين»، وهم أولئك الذين أصابهم الدهر ببعض سهامه من نقص مال أو نقص أمن أو ظلم ظالم أو مرض أو حاجة.

فقه الإسلام في الإنفاق:

لقد فرض الله علىٰ المسلمين الزكاة وجعل لها مصارف: الفقراء، المساكين، العاملين عليها، المؤلفة قلوبهم، تحرير الأرقاء، الغارمين، ابن السبيل، في سبيل الله.. ثم حض المسلمين علىٰ الصدقة والإنفاق بآيات كثيرة محفوظة وأحاديث كثيرة مشهورة، ثم أنشأ الإسلام نظاما بديعا هو الوقف الخيري الذي يفتح المجال للأمة لينفق كل صاحب مال من ماله علىٰ هيئة تجعلها صدقة جارية مستمرة، ثم هي صدقة مستقلة محفوظة لأنها «حبس»

موقوف لله تعالىٰ، فلا يهيمن عليها سلطان ولا يحق لوارث منها شيء، وكان للوقف آثار عظيمة واسعة علىٰ الحضارة الإسلامية وعلىٰ الأمة ونهضتها الشاملة التي لم تعرفها أمة من الأمم.

ثم أوجب الله علىٰ المسلمين تمتين العلاقات فيما بينهم، فأوجب الله علىٰ عباده صلة الأرحام حتىٰ لو لم يكونوا مسلمين، وأوجب عليهم الإحسان إلىٰ الجيران ولو لم يكونوا مسلمين بل جعل للجار حقا عظيما حتىٰ ظن النبي ﷺ أنه قد يرث من جاره، ثم جعل رابطة الإسلام بين المسلمين هي أوثق الروابط فلا تعلوها رابطة، ثم حث علىٰ إكرام الضيف وحسن استقبال الغريب وإعانة المنقطع حتىٰ يبلغ حاجته، وأمر بإجارة المستجير حتىٰ يبلغ مأمنه، وحث علىٰ تفريج الكروب وإعانة المحتاج والسعي في قضاء حوائج الناس.

وبالجملة فقد تأسس المجتمع الإسلامي علىٰ نحو يجعل العلاقات تبلغ حدا متينا مترابطا، تهيمن عليه حالة من العطاء المستمر التي يساهم فيها أهل السراء وأهل الضراء، ولقد كان من العجيب أن يأمر الله من يجد ما يفيض علىٰ حاجة يومه بأن يخرج صدقة الفطر التي يتعلق عليها صيام الفريضة في شهر كامل.. وهكذا انطلقت الأمة في أرض الله تبعث في الناس روحا جديدة، ويرىٰ منها الناس ما لم يألفوه، فدخلوا في دين الله أفواجا، ولو كان قبل قليل قوما محاربين، ولو كانوا هم المنتصرين كما كان حال المغول عموما والصليبيين أحيانا.

من صفحات التاريخ:

ولو أردنا أن نضرب الأمثلة لطال بنا الحديث جدا، بل ولو اقتصرنا علىٰ التقاط أمثلة لطبيعة المجتمع الإسلامي التي احتضنت المنكوبين من غير المسلمين وهو في حال الضعف والفقر والاحتلال لاحتجنا إلىٰ سجل طويل، ولكن لا بأس من شذرات سريعة متنوعة الزمان والموضوع:

١- انتشرت ظاهرة في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية بين الجنود الألمان الذين يأسرهم الإنجليز في مصر، فإذا بأولئك الألمان ما إن يتمكنوا من الهرب -وأحيانًا بمساعدة المصريين- حتىٰ يدخلوا في الإسلام ويعمدون إلىٰ أحدىٰ القرىٰ المصرية فيندمجون بها ويتزوجون ويعملون عمل الفلاحين ويتسمون بأسماء المسلمين، وذلك بأثر ما لاقوه وعرفوه من أخلاق القرويين المصريين.. ومثل ذلك تكرر في كل ديار الإسلام -التي هي مقهورة محتلة- من إندونيسيا والهند شرقا حتىٰ الجزائر غربا، وكان هذا يتم بطريقة طبيعية لا تلفت نظر كثير من المؤرخين وإنما نلتقطه سراعا بين سطور مذكرات بعض من عاشوا وقتها.

٢- وقبل عصر الاحتلال سنجد أن الدولة العثمانية -التي يراها البعض أسوأ تمثيل للحكم الإسلامي- تسجل صفحات فخار طويلة في احتضانها للمنكوبين المضطهدين في أوروبا التي كانت تطحنها الصراعات الدينية في ذلك الوقت بين الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت، ولكم نادىٰ بعض الناس في ممالكهم علىٰ العثمانيين أن يحكموا بلادهم لينقذوهم مما هم فيه من مظالم، ولكم احتفظ التاريخ بوثائق يشهد فيها الأحبار والرهبان والقساوسة بأن حكم المسلمين أحب إليهم من حكم بني جلدتهم، يقول توماس أرنولد: «وطالما دعا الأهلون الأتراك في عهد ميخائيل الثامن إلىٰ الاستيلاء علىٰ مدنهم الصغيرة في داخل آسيا الصغرىٰ؛ تخلصا من استبداد الدولة، وكثيرا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلىٰ الولايات التركية»[1]، ومن ذا ينسىٰ أنه حين اشتعلت أكبر جريمة إبادة عرقية ودينية في التاريخ، وهي محاكم التفتيش في إسبانيا الأوروبية، لم يتسع صدر العثمانيين لإنقاذ ولا لاحتضان المسلمين فحسب، بل وسع معهم اليهود كذلك.. أولئك اليهود الذين كان تحالف أحفادهم مع أحفاد من

(١) يرجىٰ النظر في الفصل الذي كتبه توماس أرنولد عن العثمانيين في كتابه «الدعوة إلىٰ الإسلام» ففيه شهادات كثيرة ونصوص وثائق ودلائل قاطعة، والاقتباس في المتن من ص١١٦، ١١٧.

أحرقوهم لإسقاط الدولة العثمانية بعد أربعة قرون، ولسنا من النادمين علىٰ خير فعلناه، وإن كان لهذا حديث آخر.

٣- وفي عصر الأيوبيين ضرب صلاح الدين المثل السامي في التعامل مع المهزومين، فكان أحسن لهم من ملوكهم وأحبارهم ورهبانهم، فمنَّ عليهم بإطلاق الأسرىٰ وعلاج الجرحىٰ وإكرام الأمراء المهزومين وتوفير الدابة التي تنقلهم إلىٰ حيث يأمنون، حتىٰ لم يكد الصليبيون يصدقون مثل هذه الأخلاق، حتىٰ لم يجد بعضهم إلا الزعم بأن أصوله تعود «إلىٰ الأسرة المسيحية، فأمه هي الكونتيسة بونثيو التي تحطمت سفينتها علىٰ الساحل المصري، وأنه هو نفسه اعتنق المسيحية وهو علىٰ فراش الموت»[١]، ولقد أثمرت هذه الأخلاق موجة من إسلام الفرسان وعموم الصليبيين، لا سيما وقد كانوا يتوقعون أن يفعل بهم مثلما فعل آباؤهم بالمسلمين حين اقتحموا بيت المقدس حين خاضت الخيول في الدماء.. ولا يستطيع مؤرخ لديه الحد الأدنىٰ من النزاهة العلمية أن يؤرخ لفترة الحروب الصليبية دون أن يتوقف عند أخلاق صلاح الدين، حتىٰ إنه لواحد من أكثر من ألفت عنه مؤلفات بكافة اللغات، وكفىٰ بهذا سفيرا حسنا للدين ومقولة صدق في الآخرين.

٤- وفي أيام العباسيين نجد المستشفيات الإسلامية تفتح أبوابها لكل مريض فيقيم فيها إقامة كاملة مع خدمة دائمة حتىٰ يستكمل علاجه، بغير اشتراط أن يكون من المسلمين أو من أهل البلد أو ممن يستحقون التأمين الصحي للمواطنين[٢]، ولقد عرضت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه رسالة مريض أوروبي لأهله عن المستشفىٰ العضدي لبيان ما تمتعت به المستشفيات الإسلامية

---

(١) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية، منشور في «تراث الإسلام» بإشراف شاخت وبوزوروث، ص٤١، ٤٢.

(٢) كما هو في بعض البلاد التي تزعم الإنسانية ولا يحرك إنسانيتها أن يموت مريض لا يملك الجنسية أو لا يستحق خدمة التأمين الصحي!!!

من تطور ومن رحمة بالمنكوبين[١]، وكانت القوافل الطبية التي تسيرها «وزارة الصحة العباسية» -إذا استعملنا مصطلح العصر- لمن لا يحصلون علىٰ الخدمة الطبية لكونهم في الأطراف والأدغال تعالج كل أحد مسلما أو غير مسلم، ومن لطيف ما حفظه التاريخ -في شأن المنكوبين- كلمة الوزير علي بن عيسىٰ بن الجراح إلىٰ سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد في سنة وباء يقول له: «فكرت -مد الله فِي عمرك- فِي أمر من فِي الحبوس وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقين من التصرف فِي منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فِي أمراضهم فينبغي أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم فِي كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وَمَا يحتاجون إِلَيْهِ من المزورات وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فِيهَا من المرضىٰ ويريحوا عالمهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالىٰ» ثم أصدر قرارا آخر بتسيير قوافل طبية لمناطق الأدغال والأطراف التي تعاني نقص المستشفيات، علىٰ أن تجهز القافلة بما يكفي من الأطباء والأدوية فتمر علىٰ القرىٰ وتمكث في كل منها حتىٰ تستكمل مهمتها ثم تجوزها إلىٰ غيرها، وكانت القافلة تعالج المسلمين وغير المسلمين بل وما استطاعت من الحيوانات والبهائم[٢].

٥- وفي عهد الخلافة الراشدة، نجد الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمر ذات يوم بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلىٰ ما أرىٰ؟! قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيده، وذهب به إلىٰ منزله؛ فرضخ له بشيء مما في منزله، ثم أرسل إلىٰ خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه،

---

(١) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع علىٰ الغرب ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) ابن القفطي: إخبار العلماء بأخيار الحكماء ص١٥٠، ١٥١.

فوالله ما أنصفناه، أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم؛ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]. والفقراء: هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية، وعن ضربائه[1].

في الأمر متسع وعن السلطة مندوحة:

لقد اقتصدنا كثيرا في ذكر أمثلة تاريخية لضيق المقام، لكن الخلاصة من كل ما سبق أن بلادنا ينبغي أن تكون زاخرة بالمؤسسات التي تعين المنكوبين، من المسلمين وغير المسلمين، في كافة المجالات من أول التوسع في تيسير اللجوء السياسي للمظلومين والمضطهدين مرورا بالخدمات العابرة كالعلاج وإعانات البطالة وانتهاء بتيسير السفر إلىٰ حيث يبلغ المحتاج مأمنه ومطلوبه.

فإن كان بعض هذه الأمور مما لا تقوم به إلا السلطة فينبغي حثها علىٰ هذا وبيان الأثر الجميل له في الدنيا عند الناس وفي الآخرة عند رب الناس، فإن امتنعوا ففيما بقي من الخدمات والأمور متسع يقوم به الصالحون وذوي العطاء وأهل الدثور فيفرجون عن عباد الله الكروب ويكونون بابهم إلىٰ الدخول في دين الله تبارك وتعالىٰ.

ومن المهم الذي ينبغي قوله في موضوع «الاحتضان الإسلامي للمنكوبين» هو ما يفعله من جمعتهم النكبة الواحدة، فيكون المسلم داعية إلىٰ الله يدعو غير المسلم الذي جمعته به نكبة واحدة، وقدوتنا في هذا نبينا ﷺ الذي كان داعية في أصعب لحظة مرت عليه: لحظة الطائف، إذ لم يهمل دعوة عداس الخادم الذي قدم له قطفة عنب، ومن قبله سيدنا يوسف الذي جمعه السجن بصاحبين فكان أول كلامه معهما أن يدعوهما إلىٰ الله، وكم اضطرد هذا في تاريخ الإسلام حتىٰ العصر الحاضر، فكم من سجين التقىٰ في السجن بداعية مظلوم فلم يزل

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص١٣٦، وابن زنجويه: الأموال، ١/ ١٦٢، ١٦٣.

يحوطه ويرعاه ويتعهده بالتربية والتعليم حتىٰ خرج شخصا جديدا، وكم من شرطي اهتدىٰ بعد ظلمه لما رآه من قوم كان يعذبهم أو قوم اهتدىٰ حين رأىٰ ثباتهم وبشارة الله لهم لحظة إعدامهم، وهي أمور مشهورة يعرفها كل قارئ لقصص التائبين وقصص من أسلموا، ولعل من أشهر الأمثلة التي يعرفها القراء مثال مالكوم إكس الزعيم الأمريكي المعروف الذي كان لحظة فارقة في مسار المسلمين والسود في أمريكا، وكذلك مثال الملاكم المعروف محمد علي كلاي والذي أسلم في سجنه.

إن المنكوبين أحوج الناس إلىٰ خلق حسن، وإن رسالة الإسلام إنما هي تتميم لمكارم الأخلاق، وليس يُنتظر من الغيث النافع حين يقع علىٰ الأرض العطشىٰ إلا ثمرة يانعة تغذي الآكلين وتسر الناظرين.



الفصل الثاني

ذكريات رمضانية

- الاستعداد لرمضان.. قراءة جديدة.
- رمضان الأول.. بشائر وتكاليف.
- معاني رمضان.. بأقلام مستشرقين.
- طغاة أهلكهم الله في رمضان.
- في ذكرى مولد ابن خلدون: عشرة حكم في السياسة.
- في ذكرى وفاة الحاجب المنصور: دروس في السياسة والإدارة.
- في ذكرى وفاة عرابي: دروس من الثورة المهزومة.



الاستعداد لرمضان.. قراءة جديدة

لئن كان محذورًا أن نمدح أحدًا بما ليس أهله أو نضع أحدًا فوق مكانه، فمن المحذور كذلك أن نغمط أقدار الرجال وأن نحط من مكانتهم!

وعلىٰ طول ما كتبت عن الشيخ حازم أبو إسماعيل من مدح إلا أن المستقر في يقيني، والله يعلم، أني لم أوفيه حقه، فلم يزل الرجل في ظني ورغم ما بلغه من شهرة طبقت الآفاق وما حازه من إعجاب غير مسبوق لا سيما بعدما صحت نظرته في العسكر ومآل الثورة.. أقول: لم يزل مجهولا لا يقدر حق قدره.

للشيخ حازم وجهان قليل من رآهما: وجهه كشيخ يسوق ويشرح معاني الدين وأفكاره، ووجهه كسياسي ظهر بعد الثورة فكان أحدَّ الناس بصرا وفهما بما حدث ويحدث، وها هي الحوادث قد صدَّقت ما يقول.

لقد عرفت الشيخ شيخا قبل أن أعرفه سياسيا، وكنت شديد الإعجاب به، أفكاره مبتكرة لم أسمعها من غيره، وتوجيهاته عميقة ومتقدمة، وقد دُهِشت حين عرفت أنه ينوي الترشح للرئاسة وظننته يريد مجرد رفع السقف من بعد ما كان المطروح حينها: أبو الفتوح وسليم العوا فقط، لكنني منذ سمعت لقاءه الأول (كان مع عمرو أديب ومحمد شردي) إلا وأيقنت أن فهم الرجل في السياسة كفهمه في أمر الدين والشريعة.

❁❁❁

لنأخذ علىٰ هذا مثالًا بسيطًا واضحًا ومتكررًا وكم أفاض الدعاة من الكلام فيه، وهو: الاستعداد لرمضان!

عادة ما يقوله الدعاة في هذا المقام وقبل حلول الشهر الكريم هو ضرورة



الاستعداد له، الاستعداد بالإكثار من الصلاة والصيام والصدقة كي تتعود النفس علىٰ العبادة فتستطيع أن تبلغ في رمضان أقصىٰ حالاتها دون أن يصيبها التعب أو الفتور.

أما الشيخ حازم فقد جاء بالجديد.. ومختصر ما جاء به هو الآتي:

إن الاستعداد لرمضان لا يكون أساسًا بكثرة الصلاة والصيام وعبادات الجوارح، وذلك أن الإنسان إذا فعل ذلك فهو إنما يُحمِّل القلب عبئًا مضافًا، والقلب لن يحتمل هذا العبء إن لم يكن مستعدًا ومنفتحًا لهداية الله، فأما إذا لم يكن كذلك فإنه يسقط وينهار مع الإكثار من عبادات الجوارح التي لا يطيقها، ومن هنا يصاب المرء بالفتور بعد أيام أو حتىٰ بعد انتهاء رمضان، حتىٰ لتجد إنسانا قد اجتهد في العبادة في رمضان ثم يفوته صلاة الصبح لأول أيام شوال! وقد يحرص علىٰ صلاة العيد -وهي سنة- أكثر من صلاة الصبح وهي فرض.

لهذا، فإن الحل لا يكون في الإكثار من عبادات الجوارح، بل لا بد من إيقاظ القلب.. ذلك أن القلب الغافل، أو القلب المشغول بأمور الدنيا: الرزق، درجة في مجموع الدراسة، النظر إلىٰ الآخرين، مطالب الأهل، مشكلات العمل، التعلق بالدنيا (والتعلق بالدنيا هو كل ما يهتم به المرء ويشغل باله، ولو كان قميصًا يريد شراءه أو نوع أثاث يريده لبيته).. هذا القلب بهذا الانشغال ليس فيه متسع، ليس مستعدًا ولا مهيئًا ولا صالحًا لتحمل عبادات الجوارح.

والمسألة علىٰ الحقيقة ليست تهيئة الجوارح بل تهيئة القلب.. إيقاظ القلب!

وإيقاظ القلب لا يكون إلا بحلٍّ: فكري قلبي، أو بلفظ آخر: حل عقدي عبادي!

والحل الفكري هو أن أعلم يقينًا أن كل ما في هذه الدنيا هي أمور بيد الله، يرسلها أو يقبضها، يعطيها أو يمنعها، وقد أخبر الله بوضوح أن هذا امتحان، فإذا

رأيت جارا ثريا أو صديقا غنيا علمت أن هذا امتحان، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠]، فإن الله ينزل ما يشاء ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجر:٢١]، ولله في الرزق والعطاء وتقديره بين الناس عجائب ولطائف كثيرة.

لكن الحل الفكري وحده لن يكون مفيدا، لأن مجرد المعرفة العقلية الذهنية لا تغني شيئًا، لا ينقذ الإنسان مجرد وجود المعلومة، بل ينقذه أن «يذوق» معناها، إن ثمة أناس يعرفون الإسلام ويستطيعون أن يتحدثوا عنه بفهم في منتهىٰ الدقة، وهم مع ذلك لا يصلون لله ركعة!

ولهذا فينبغي أن تفعل الآتي:

١- انزل غدا إلىٰ المستشفيات وانظر إلىٰ أهل الابتلاء، أولئك كانوا يمتلئون تنافسا علىٰ الدنيا، ويحرصون علىٰ الكسب ويتابعون الأموال ويراقبون مؤشرات البورصة.. انظر حين يسقط هذا المرء في قسم العناية المركزة حين لا يملك من أمر نفسه شيئا وتتصل به الأنابيب والخراطيم.. هذه النظرة إلىٰ هذا الإنسان هي التي تفرغ القلب من الانشغال بالدنيا وتوسع فيه مكانا لاستقبال العبادة.

٢- انزل بعد غد واشهد واقعة «الدفن»، وتأمل كيف ترعىٰ الحشرات في تراب القبور، وبينما تبكي الأم أو الزوجة أو الابنة فإنهم يدخلون هذا الميت إلىٰ القبر الذي يرون الحشرات تسعىٰ فيه ويغلقون عليه ويتركونه وهم يعلمون أنه معرض لهذا.. هؤلاء المقبورين كانوا ملء السمع والبصر، كانوا سادة بين الناس.

٣- انظر بعد بعد غد إلىٰ المآلات، تأمل فيمن فرغ من الجمال أو من الصحة، تأمل في حال ممثلة ذهب جمالها وصارت قعيدة في بيتها من بعد ما كانت تملأ الشاشات، أو إلىٰ رجل ذهب عنه النفوذ فتغير حاله، ولقد رأيتُ

(والكلام للشيخ حازم) رجلا يصفع بوابا لأنه لم يقم له حين مرَّ به، ثم رأيته بعد عشرين أو ثلاثين سنة وهو مقعد يسير علىٰ كرسي متحرك لا يؤبه له وهو يوزع الابتسامات علىٰ الناس يستجدي بها ودهم.

إن النظر إلىٰ المآلات يُعَرِّف العبد أن كل ما في هذه الدنيا إنما هي عوارض كاذبة، أرسلها الله تعالىٰ للعبد لفترة ليختبره بها ثم قبضها.

٤- لقد أوصانا النبي بأمور لإيقاظ القلب، في ذات الوقت الذي كان منشغلًا فيه بالجهاد وإقامة أمر الأمة ورفع شأن الدين وغيرها من الأمور الكبيرة، من هذه الأمور مثلًا:

- تغسيل الموتىٰ: لأن معالجة الجسد الخاوي موعظة بليغة!
- زيارة المبتلىٰ والمريض والمحتاج
- النظر إلىٰ الفقير والمسكين واليتيم

بهذه الأعمال يفرغ القلب ويتسع لاستقبال وتحمل العبادات في رمضان.

٥- معايشة أنباء الآخرة تفصيلا، أن يعرف المرء من فعل كذا فدخل الجنة ومن فعل كذا فدخل النار ومن الذي زلت قدمه من علىٰ الصراط ومن الذي أوشك أن يلقىٰ به في النار فجاء عمل من أعماله فأنقذه، من الذي كاد أن يشرب من يد النبي فحالت الملائكة بينه وبين النبي، من الذي كادت تلفحه النار فأنقذه عمل، من الذي أوشك أن يدخل الجنة فأغلقت دونه.. ذلك أن الانشغال بتفاصيل ما يحدث في شأن الآخرة هو الذي يفرغ القلب من شؤون الدنيا فيُوجَد في القلب متسع لاستقبال رمضان.

٦- معايشة أنباء الصالحين، كي يخلص المرء من ضغط بيئته التي ليس فيها أحد سوىٰ أصحابه وجيرانه الذين هم علىٰ ذات الشاكلة، ويكون هذا بقراءة الكتب أو بسماع الدروس عنهم.

مهما حاول الإنسان أن يكثر من العبادة والقلب ممتلئ بالتورمات فلن يفلح في هذا!

وسيواجهك في هذه المسيرة عدوّان:

- الأهل والأولاد ومطالبهم التي تذكر بالدنيا، فلا بد أن تذيق من حولك ما تذوقه حتىٰ لا تسير في طريق مُصَادَم.

- أن ترتب كيف ستنفذ هذا البرنامج، ترتيبا واضحا ومفصلا وبالمواعيد، لكي لا يتوه الأمر في ظل برنامجك الدنيوي الثابت والمستقر.

❁❁❁

انتهىٰ مجمل ما قاله الشيخ حفظه الله وفك أسره.

والفائدة المقصودة هي بيان تعمقه في النظر والبحث عن المشكلة، ثم سبقه في وصف الحل، ثم حرصه علىٰ صياغة هذا الحل في خطوات عملية، وهو في كل ذلك لم يهاجم أحدا ممن قال بالإكثار من العبادات ولم يعب عليه وإنما صاغ فكرته كأنها إكمال لما يُقال وتنبيه علىٰ ما فات منه!

وهذا شأن الشيخ في كافة أموره، ولئن بدت لهجته الرفيقة الرقيقة كأنها لهجة شيخ درويش فإن من عاين وعانىٰ صياغة المعاني الدعوية إنما يدرك ما فيها من نفاسة وجِدَّة وابتكار.. وعلىٰ كل حال فهذا أمر لا حاجة للإطالة فيه، خصوصا بعدما ظهر منه في شأن السياسة وبعد الثورة.

إن الذي يسمع سلسلة السيرة النبوية للشيخ حازم أبو إسماعيل ليبهره ما فيها من معانٍ جديدة ونظر سديد، ثم إنه سيدهش أكثر وأكثر حين يعلم أنه شرح هذه السلسلة وهو في أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات من عمره!!

وها هو الشيخ يمضي في زنزانته الانفرادية رمضانه الثالث علىٰ التوالي، محققا بذلك لمرة جديدة قول الأمريكي روبير جاكسون قبل سبعين عامًا: «هذا الشرق، لا يستطيع أن يحتفظ كثيرًا بالكنز الذي يقع بين يديه».

رمضان الأول.. بشائر وتكاليف

اندفعت جيوش الفرس تجتاح الإمبراطورية الرومانية وتنتقم من هزيمتها الساحقة أيام الإسكندر الأكبر قبل تسعة قرون، وأوقعت بها هزيمة كاسحة إذ اجتاحت الشام ومصر وآسيا الصغرىٰ وتوقفت الجيوش أمام أسوار العاصمة العتيقة «القسطنطينية»، وبدا أنه الغروب الكبير، لا سيما وإمبراطور بيزنطة حينئذ شاب نشأ في الدعة والترف وقاد قبل قليل انقلابا علىٰ الإمبراطور السابق، وفشلت محاولاته في هدنة مع كسرىٰ أبرويز الذي لم يرض بأقل من أن يترك هرقل المسيحية ليعبد الشمس!

علىٰ هامش التاريخ -حينئذ- كانت مكة منقسمة علىٰ نفسها، فرح المشركون بانتصار الفرس الوثنيين وحزن المسلمون علىٰ هزيمة الروم النصارىٰ لأنهم من أهل الكتاب، لا سيما وأن الفرس اجتاحوا بيت المقدس -الذي كان قبلة المسلمين وقتها- وأحرقوا المدينة وخربوا كنائسها واستولوا علىٰ الصليب الأعظم لدىٰ النصارىٰ وحملوه إلىٰ بلادهم.

وفي مفاجأة غير متوقعة أعلن محمد ﷺ أن الله أخبره خبرًا عجيبًا ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٢- ٥] وهو الخبر الذي لا يمكن تصديقه بحال، حتىٰ إن إدوارد جيبون - مؤرخ الإمبراطورية البيزنطية- يقول بدهشة: «إن محمدًا تنبأ في خضم الانتصارات الفارسية بأن رايات الرومان ستعود ترفرف مرة أخرىٰ، وفي ذلك الوقت لم يكن شيء أبعد من تحقق هذه النبوءة، فقد كانت الاثنا عشر سنة الأولىٰ لهرقل

تعلن انحلال الإمبراطورية»[١].

في ذلك الوقت انطلق أبو بكر ونادىٰ في قريش أن الروم سينتصرون في بضع سنين، فراهنه أبي بن كعب -قبل أن يُحرَّم الرهان- ولم يكن أحدٌ في ذلك الوقت يدري أنه سيكون نصران لا نصرٌ واحد!

أولًا: بشائر:

نفَّذ هرقل خطة غير مسبوقة في التاريخ العسكري، لم يدافع عن القسطنطينية، بل تسلل بقطعة من جيوشه خارجها وظل يثخن في الجيوش الفارسية المسترخية بعيدًا في آسيا الصغرىٰ والقوقاز حتىٰ أُجْبِرت الجيوش المحاصرة علىٰ فكِّ الحصار، ودارت معارك هائلة كان النصر فيها للروم الذين وصلوا إلىٰ قلب الإمبراطورية الفارسية، وكان الزمن بين ذروة الهزيمة (اجتياح بيت المقدس ٦١٤م) وبدايات النصر (٦٢٣م) تسع سنين، ثم استكمل الروم انتصاراتهم حتىٰ هزموا الفرس في قلب معاقلهم في العراق.

إلا أن مكة في ذلك الوقت لم تكن تنتظر تلك النتيجة، فلقد تغير الواقع وتبدلت الأمور، كانت مكة تتشح بالسواد لهزيمتها أمام المسلمين في بدر، وكان المؤمنون يفرحون بنصر الله الذي ما ظنوا أنه سيكون لهم علىٰ قريش، وإنما كان غاية ظنهم أن فرحتهم ستكون لانتصار الروم علىٰ الفرس.

لقد كان نصر بدر من معارك التاريخ الفاصلة، وكان زلزالا سياسيا في جزيرة العرب، إذ لم يعد الأمر مجرد خلاف داخل قريش كما هو داخل أي قبيلة، بل إن رجل قريش هذا صارت له دولة في المدينة وقد أوقع بعض رجاله -ولم يكونوا يستعدون لقتال- بجيش فيه كبار قريش وصناديدها، حتىٰ إن الحيسمان بن عبد الله الخزاعي الذي نقل خبر مقتل كل أولئك الزعماء توقع

---

(١) Edward Gibbon: The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1857. p. 390.

الناس أنه مجنون لا يعقل ما يقول.

بهذا النصر صار المسلمون جزءًا من معادلة القوة والنفوذ في الجزيرة العربية، وحق لمكة لا أن تخشىٰ علىٰ تجارتها فقط بل علىٰ نفوذها نفسه، وتضعضع حال المشركين في المدينة فقد أسلم أكثرهم بعد بدر، ثم أتم المسلمون نصرهم بنصر آخر علىٰ أقوىٰ أحزاب اليهود في المدينة: بني قينقاع، فتضعضع حال اليهود.

وهذا فضلًا عن إسلام كثير من المشركين تبعا لصدق نبوءة هزيمة الفرس في بضع سنين(١).

كان هذا النصر العظيم في أول رمضان فُرِض علىٰ المسلمين صيامه، فارتبط هذا الشهر بالنصر والفتح، وهو ما سيتكرر كثيرًا فيما بعد في معارك كثيرة منها: فتح مكة، معركة البويب، فتح الأندلس، كسر التتار في عين جالوت، فهو بشرىٰ للمؤمنين.

ثانيًا: تكاليف:

لكن لا ينبغي لنا أن نقف عند جانب البشائر وننسىٰ التكاليف؛ فذلك النصر العظيم في بدر إنما نزل علىٰ نفوس بذلوا من أنفسهم طاعة لله ورسوله لا سؤال معها، فهذه السنة الثانية للهجرة كانت كأنها سنة التكاليف الكبرىٰ.

- ففيها فُرِض القِتال وخرج فيها الصحابة في عشر معارك: غزوتين وثماني سرايا، وفيها حُوِّلت القبلة من مكة إلىٰ بيت المقدس، وكان ذلك اختبارا شديدا لثبات المؤمنين وتسليمهم بصدق النبي وطاعته ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣] خصوصًا فيما أثاره من كلام السفهاء من اليهود والمشركين حوله.

(١) أحمد (٢٧٧٠) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين، والترمذي (٣١٩٤) وحسنه الألباني.

▪ وفيها فُرِضت الزكاة التي أوجبت علىٰ الأغنياء إخراج بعض أموالهم للفقراء، وكان ذلك من أقسىٰ الأشياء علىٰ نفسية العربي الذي كان إعطاء المال يساوي الذلة والمهانة

▪ وفيها فُرِضت زكاة الفطر التي أوجبت علىٰ كل من يملك قوت يومه أن يدفع من ماله لكفّ الفقراء عن السؤال يوم العيد.

▪ وفيها شُرعت صلاة العيد.

▪ وفيها شُرِعت الأضحية

▪ واختلف في بعض التكاليف هل كانت في السنة الثانية أم غيرها كالزيادة في صلاة الحضر وشرع الأذان

فنحن أمام قوم تغير نظام حياتهم فاستسلموا لهذا التغيير واجتهدوا في تنفيذه، وكانوا قبله قد صبروا وهاجروا وتركوا الأهل والديار ومراتع الصبا، فكانوا يقابلون كل هذا بالسمع والطاعة والتسليم.

وهذا فضلا عن ذلك العتاب الشديد الذي نزل لهم بعد النصر ينزع منهم الغنائم ويجعلها لله والرسول، ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم بنصره وسوء تقديرهم بكراهية القتال وسوء تصرفهم في شأن الغنائم، ويعظهم بالخوف من الله والطاعة له ولرسوله والحرص علىٰ الترابط والتماسك فيما بينهم والترفع عن أمر الدنيا والزهد فيها إلىٰ سائر ما أوردته سورة الأنفال من خطاب قوي، فتلقىٰ المؤمنون كل ذلك بالطاعة والإنابة.

في هذه الأجواء كان أول رمضان تعبدي حلَّ علىٰ المسلمين، فشتان بين ما كانوا ينتظرونه وهم في مكة من فرحة، وبين ما صاروا إليه في المدينة من عزة وتمكين.. ثم ما وصلوا إليه فيما بعد من الانتصار علىٰ الفرس والروم كليهما في واحدة من أسرع وأعجب انتصارات التاريخ.

ولا ينبغي لنا إن أردنا النصر حقا أن نتمسك بالبشائر وننسىٰ التكاليف،

بل تأتي البشائر بتنفيذ التكاليف إن شاء الله، ومن يدري: لعل الله أن يرينا في هذا الشهر ما تقر به أعيننا من نصر علىٰ أعدائه وأعداء دينه، فهو المستعان وعليه التكلان.



معاني رمضان.. بأقلام مستشرقين

يشيع في كتابات المستشرقين والمؤرخين الغربيين، المنصفين علىٰ وجه الخصوص، نفي ما شاع عن الإسلام من صور شائهة في العقلية الغربية(١)، ومن أبرز عناصر هذه الصورة كونه دينا شهوانيا يجتذب الناس بمداعبة غرائزهم، وهي الشبهة التي تسقط بأيسر نظر وأدنىٰ تعمق، وهذا ما فعله بعضهم علىٰ نحو ما سنراه في هذه السطور.

توماس كارلايل: دليل على براءة الإسلام من الميل إلى الشهوات:

يقول الفيلسوف البريطاني المعروف في كتابه (الأبطال) في سياق حديثه عن نبينا محمد ﷺ وتعالميه:

«أي دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلىٰ الملاذ من شهر رمضان تلجم فيه الشهوات، وتزجر النفس عن غاياتها، وتقرع عن مآربها؟ وهذا هو منتهىٰ العقل والحزم. فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر. وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات، وتنقاد لحادئ الأوطار والرغبات. ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه علىٰ نفسه سلطان، وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه وتعتاص عليه إذا هم أن يصدعها، بل حُلِيًّا وزخارف متىٰ شاء فلا أهون عليه من خلعها، ولا أسهل من نزعها. وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينًا، أو كان وحي الغريزة وإلهامًا فطريًّا فهو والله نعم الأمر»(٢).

---

(١) انظر موجزا عن الاستشراق وحصاده في: محمد إلهامي، **نحو تأصيل إسلامي لعلم الاستغراب**، ط١ (القاهرة: دار التقوىٰ، ٢٠١٥)، ص١٥٠ وما بعدها.

(٢) توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، كتاب الهلال، العدد (٣٢٦)، ١٩٧٨م. ص٨١.

جوستاف لوبون: دليل على سلطان الدين على النفوس:

ويقول المستشرق الفرنسي وعالم الاجتماع المعروف جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب:

«تأثيرُ دِينِ محمَّد في النفوس أعظمُ من تأثير أي دِين آخر، ولا تزال العروقُ المختلفة التي اتَّخذت القرآن مُرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذُ ثلاثة عشر قرنًا، أجَل قد تجد بين المسلمين عددًا قليلًا من الزنادقة والأخلياء، ولكنَّك لن ترىٰ مَن يجرؤ منهم علىٰ انتهاك حُرمة الإسلام في عدمِ الامتثال لتعاليمه الأساسيَّة كالصلاة في المساجد وصوم رمضان الذي يُراعي جميع المسلمين أحكامَه بدقَّة مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به بعض النصارىٰ كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وإفريقيا... وعلىٰ من يرغب في فهم حقيقة أُمم الشرق التي لم يدركِ الأوروبيُّون أمرَها إلا قليلًا أن يتمثَّل سلطان الدين الكبير علىٰ نفوس أبنائها»[(١)].

توماس أرنولد: دليل ثابت يدحض نظرية كاذبة:

ويقول المستشرق البريطاني المعروف توماس أرنولد في خلاصة وختام حديثه عن انتشار الإسلام في كافة أرجاء العالم:

«إن معارف الإسلام التي عرفها الناس علىٰ هذا النحو قد تجذب أحيانًا فردا يدخل في الإسلام، كان من الممكن أن ينصرف عنه لو أنه قدم إليه علىٰ صورة لا يرغب فيها، باعتبارها هبة حرة. ولا حاجة إلىٰ القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذاتهم الشخصية، وكما قيل كارلايل:

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م. ص٤١٧.

«إن دينه ليس بالدين السهل: فإنه بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح في أن يكون دينًا سهلا». ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية. ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقىٰ دون انقطاع، تعبيرًا ظاهرًا في حياة المؤمن؛ ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكًا لا سبيل إلىٰ الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إمامًا ومعلمًا لعقيدته، أكثر، إلىٰ حد بعيد، مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرىٰ»[1].

جاك ريسلر: لتماسك المؤمنين وتكافلهم:

ويقول المستشرق الفرنسي جاك ريسلر، في كتابه «الحضارة العربية» والذي نال عليه جائزة الأكاديمية الفرنسية:

«علىٰ امتداد شهر رمضان، من الشفق إلىٰ الغسق، يتوجب علىٰ المؤمن الامتناع عن تناول أي مأكل ومشرب. يمكن اعتبار إماتة الجسد القاسية هذه فعل رحمة واسترحام، نوعا من التكفير عن الأخطاء، وبالتالي فعلا تَشَفُّعِيًّا يتقرب به الصائم من ربه، ولكنه يرمي أيضا إلىٰ توطيد الضبط الاجتماعي وجعل المؤمنين يشعرون بتماسكهم وتكافلهم»[2].

آي. م. لويس: يجانس بين الشعوب المختلفة:

ويقول المستشرق البريطاني المتخصص في الشأن الإفريقي إيوان ميردين لويس، وهو يستعرض تأثير انتشار الإسلام في الشعوب الإفريقية:

«لقد أدىٰ اعتناق الإسلام، بالإضافة إلىٰ تأثيره علىٰ عادات اللباس والنواحي

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م. ص٤٦٠.

(٢) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات للطباعة والنشر. ص٤١.

الأخرىٰ للثقافة المادية، وبصورة خاصة علىٰ الهندسة المعمارية، إلىٰ إعطاء طابع إسلامي قوي للطقوس الحياتية الأساسية التي يتميز بها مجرىٰ حياة الفرد من المهد إلىٰ اللحد. ذلك لأن هذه الطقوس متشابهة إلىٰ درجة كبيرة لدىٰ الجماعات المسلمة الكائنة في جنوب الصحراء الكبرىٰ، بالرغم من التنويعات المحلية التي تعكس عناصر سابقة للإسلام. وبالطريقة نفسها نجد أن التقويم الإسلامي بطقوسه الشعبية، وخصوصًا في رمضان، شهر الصيام، يعطي طابعا متجانسا لتنظيم الحياة في جماعات كانت بينها في الماضي فروق كبيرة»[١].



(١) آي. م. لويس: الحدود القصوىٰ للإسلام في إفريقيا وآسيا، ضمن «تراث الإسلام، بإشراف: شاخت وبوزوروث، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٧٨م. ١/ ١٣٥.

طغاة أهلكهم الله في رمضان

يتذكر الناس عند قدوم رمضان بشائره وانتصارات المسلمين فيه، وهذا حق، ولكن ثمة بشائر أخرىٰ تغيب، وهي إهلاك الله للظالمين في رمضان.. اخترنا منهم في هذه السطور خمسة.

(١) أبو جهل عمرو بن هشام:

فرعون هذه الأمة، والمحرض الأول علىٰ نبي الله محمد ﷺ، ولم يُبْنَ موقفه علىٰ جهل أو التباس، بل كانت قضيته: كيف يخرج من بني هاشم نبي؟! إنه أمر يحسم المنافسة بينهم وبين بني مخزوم، وهكذا سيطرت عليه التنافسية القبلية العصبية الجاهلية حتىٰ كان أشد الناس وأخبثهم وأشرسهم في عداوة هذا الدين، فكان اللسان السليط والسوط المديد، أشرف بنفسه علىٰ تعذيب من آمنوا من بني مخزوم ومواليهم ومن استطاع من الضعفاء في مكة.

ولما جاء الخبر بأن قافلة قريش في خطر نهض يجمع لحرب المسلمين دفاعا عن القافلة، فمن رأىٰ منه ضعفًا أو تكاسلًا في الخروج عيَّره وأهانه حتىٰ يلزمه الخروج، ثم لما وصل الخبر بأن القافلة قد نجت ومال القوم إلىٰ السكوت أجج من جديد نار الحرب وقال: لا والله، حتىٰ نأتي بدرًا فننحر الجزور وتغني القينات فلا تزال العرب تهابنا. ولشدة تهييجه وحميته لم يستطع أحد من كبار قريش أن يحجزه عن رأيه ولا أن يمنع وقوع الحرب.

ولقد طمس الله علىٰ قلبه حتىٰ دعا علىٰ نفسه قبل بدر، يقول: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة (فاهزمه غدا)، وقد كان.. وأسفرت معركة بدر عن مقتلة هائلة حصدت الصف الأول من زعماء قريش، من رضي

منهم بالخروج ومن لم يرض، ومن سعىٰ في منع الحرب ومن لم يسع، وهكذا أورد الرجل قومه موارد الهلاك.

وشاء الله تعالىٰ أن تكون ميتته علىٰ يد غلامين صغيرين من الأنصار ترصدًا له حتىٰ رمياه، ثم أجهز عليه الرجل القليل النحيف الضعيف: عبد الله بن مسعود، وكان ممن ناله أذاه من قبل، فجزَّ رأسه ولم يستطع حملها، وقتله وأبو جهل يقول له: لقد ارتقيت مرتقىٰ صعبًا يا رويعي الغنم! فلم يترك الكبر ولا السبَّ حتىٰ في لحظته الأخيرة.

(٢) أبو طاهر القرمطي:

الرجل الخبيث، وصاحب الجريمة العظمىٰ في تاريخ الإسلام: اقتحام الحرم وقتل أهله ونزع الحجر الأسود، وقد نشط وبرز أمره صغيرًا ومات صغيرا كذلك، فقد هلك أبوه أبو سعيد الجنابي -مؤسس جناح القرامطة في الأحساء- فجأة فانتزع أبو طاهر هذا زعامة القرامطة من أخيه الأكبر، ثم لم يلبث إلا قليلا في ترتيب أمر أتباعه حتىٰ بدأ الإفساد في الأرض فهاجم البصرة وأقام فيها مذبحة كبرىٰ لسبعة عشر يوما في (ربيع الآخر ٣١١هـ)، وهاجم قافلة الحجاج العائدة من مكة (المحرم ٣١٢هـ) فقتل ما شاء وأسر ألفين وترك الباقي في الصحراء حتىٰ ماتوا جوعًا وعطشًا، ثم هاجم الكوفة، ثم هاجم الأنبار واستولىٰ عليها، وصار يعترض طريق الحجاج حتىٰ امتنع الحج من جهة العراق، ثم هاجم مكة نفسها فامتنع الحج جملة وذعر أهلها وفرَّ بعضهم إلىٰ الطائف، واستطاع في كل مرة هزيمة جيوش الخلافة العباسية -التي كانت حينئذ تعاني فوضىٰ ونزاعا بين أجنحتها- هزائم قبيحة رغم تفوقهم في العدد والعدة، حتىٰ إن جيشها الرئيسي اعتصم خلف نهر فقطع الجسور ولم يجسر علىٰ مواجهته.

وفي واحدة من أضعف لحظات الخلافة العباسية، حيث جرىٰ انقلاب عسكري فاشل علىٰ الخليفة المقتدر بالله (٣١٧هـ) هاجم أبو طاهر القرمطي

مكة المكرمة يوم التروية (٨ ذي الحجة ٣١٧هـ) فدخل الحرم وارتكب فيه مذبحة شنيعة، فلم ينجُ أحد ولو تعلق بأستار الكعبة، فقتل خلقًا كثيرًا وألقىٰ الجثث في بئر زمزم، وصاح من فجوره «أنا الله وبالله، أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا»، ونزع كسوة الكعبة ومزقها ونزع باب الكعبة وهدم القبة المبنية علىٰ زمزم، وأمر باقتلاع الحجر الأسود فكان الذي اقتلعه يصيح «أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟» ثم أخذوا الحجر إلىٰ بلادهم ونهبوا ديار المكيين وقتلوا منهم نحو ثلاثين ألفًا.

واستمر إفسادهم وهجومهم علىٰ البلاد في ظل عجز من الخلافة العباسية، وتناحر قادتها، حتىٰ أنعم الله علىٰ الأمة بهلاك زعيمهم أبي طاهر هذا (رمضان ٣٣٢هـ) وعمره ثمانية وثلاثون عامًا فقط، وتضعضع من بعده أمر القرامطة، وزاد حال الخلافة العباسية سوءًا، فالحمد لله أنه لم يعمِّر!

وانقضت بموته عشرون عاما عصيبة لم يكن في تاريخ الإسلام مثلها!

(٣) جنكيز خان:

الطاغية المشهور الذي جعل للمغول مكانا في التاريخ، وواحد من أطغىٰ الجبابرة في تاريخ البشر، الذي هلكت علىٰ يديه ملايين النفوس وخربت علىٰ يديه المدائن الزاهرة الناضرة المتفجرة بالعلم والحضارة، والذي يُضرب به المثل في إنشاء أمة كما يضرب به المثل في إهلاك أمم.

وبرغم صعوبة نشأته بين يُتْم وسجن، إلا أنه برز وفاق أقرانه، واستطاع بما أبداه من شجاعة وجلد توحيد أمر قبيلته المغولية في يده، ثم بمزيج من السياسة والقوة وحَّد القبائل المغولية تحت سلطانه بعد حروب أهلية داخلية خرج منها بلقبه الذي غلب اسمه: جنكيز خان، أي: سلطان العالم.

ومنذ هذه اللحظة بدأ الإعصار المغولي في اكتساح الممالك، فقد استولىٰ علىٰ أجزاء واسعة من شمال الصين ودمَّر الإمبراطورية العريقة، ثم زحف إلىٰ

البلاد الإسلامية فاكتسحت جيوشه بلاد ما وراء النهر (بلاد آسيا الوسطىٰ) ومنها إلىٰ بلاد الصقالبة والروس، وفي الجنوب اكتسحت جيوشه أفغانستان وشمال الهند وفارس، وسقطت الحواضر الكبرىٰ في كل هذه الأنحاء.

وأكمل أبناؤه من بعده الطريق فدخل في سلطان المغول: الصين وكوريا والهند ومعظم جنوب آسيا وكل وسط آسيا وأجزاء من شرق أوروبا حتىٰ أوكرانيا وبولندا، ووصل ابنه هولاكو إلىٰ عاصمة الدولة الإسلامية، بغداد التي تفيض بالحضارة منذ خمسمائة عام، فدمَّرها وخربها، وواصل مسيره نحو الشام علىٰ سواحل المتوسط الشرقية.. فتحولت ساحة الدنيا في أيامه إلىٰ ساحة دم واسعة!

واشتهر في التاريخ وصف ابن الأثير لهم لما قال: «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلًا وأؤخر أخرىٰ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًا، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء علىٰ تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمىٰ، والمصيبة الكبرىٰ التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالىٰ آدم، إلىٰ الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلىٰ ما خرب هؤلاء الملاعن من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلىٰ من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلىٰ أن

ينقرض العالم، وتفنىٰ الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجال فإنه يبقي علىٰ من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا علىٰ أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح».

وقد هلك هذا الطاغية بالصين في شهر رمضان (٦٢٤هـ)، ففرغت الأرض من أحد أكثر من وطأها شرا ودموية.

(٤) محمد علي باشا الكبير:

وهو الطاغية الجبار المشهور، والرجل الذي حقق للغرب في مصر ما فشل فيه نابليون نفسه بجيش الحملة الفرنسية، بشهادة مؤرخي الغرب أنفسهم كأرنولد توينبي الذي قال: «كان محمد علي ديكتاتورًا أمكنه تحويل الآراء النابليونية الىٰ حقائق فعالة في مصر»[١]، وقال توينبي بأن محاولة محمد علي لصبغ مصر بالصبغة الغربية «أكثر شمولا من أي محاولة سعىٰ إليها أو أنجزها السلاطين الأتراك»[٢]. بل لم يجد المؤرخ والمستشرق الألماني كارل بروكلمان بُدًّا من أن يقول «ليس من شك في أن الفضل يرجع إليه، دون غيره، في فتح أبواب مصر لمؤثرات الحضارة الأوروبية»[٣].

لقد كان محمد علي نكبة هائلة علىٰ مصر، وغاية ما يُقال في إنجازاته أنه أنشأ البنيان ودمَّر الإنسان، واستطاع أن ينتزع الأوقاف فيجعلها تحت سيطرة السلطة وهو ما لم ينجح فيه الظاهر بيبرس في أوج الدولة المملوكية ولا الظاهر

---

(١) د. زكريا سليمان بيومي: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص١٨٢، وهو ينقل عن: أرنولد توينبي: عبد الرحمن الجبرتي وعصره ص١٤، ضمن «عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث».

(٢) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ ٣/ ٣١٣.

(٣) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٥٤٦.

برقوق من بعده، ولا استطاعه الولاة العثمانيون في عهد قوة الدولة. لقد حطم محمد علي أشراف مصر وزعمائها وعلمائها وكبار الرجال فيها، وفتح البلاد للأجانب حتىٰ هيمنوا عليها اقتصاديا ثم احتلوها عسكريا في عهد حفيده، وهذا فضلا عما فعله بسائر المصريين الذين ساقهم بالسوط والتعذيب إلىٰ معسكرات الجيوش، وحرمهم من حمل السلاح فصيَّرهم عبيدا، وحرمهم من امتلاك الأراضي فصيَّرهم خدما وفلاحين.

وفي عهد محمد علي فقط بدأ خراب المساجد ومدارس التعليم الديني، واستوردت البلاد أفكار الأجانب المحتلين، وللمرة الأولىٰ في تاريخ مصر منذ دخلها الإسلام، يمكن أن تُقْرأ هذه العبارة التي كتبها المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول: «مساجد القاهرة لم يلحقها هدم أو تخريب في أيام حكم البكوات (المماليك) والباشوات (العثمانيين)، بل علىٰ العكس من ذلك رأينا أن العناية بها كانت بالغة. وإنما بدأ عهد التهدم بمجيء محمد علي باشا»[(١)].

ولا يجد المرء في تقييم عصر محمد علي أدق ولا أبلغ من مقال الأستاذ الإمام محمد عبده، والذي نشره باسم مجهول «مؤرخ» في ذكرىٰ وفاة محمد علي

وقد مات محمد علي في (١٣ رمضان سنة ١٢٦٥هـ) بعد أعوام من الخرف لم يعد يستوعب فيها من أمر نفسه وأمر البلاد شيئًا.

(٥) مصطفى كمال أتاتورك:

وهو صاحب الجريمة الأعظم في تاريخ المسلمين: إلغاء الخلافة الإسلامية، ومطاردة الإسلام في تركيا كأعنف ما تكون المطاردة، وشن حرب الإبادة علىٰ الإسلام كأشرس ما تكون الحرب.

---

(١) ستانلي لين بول: سيرة القاهرة ص٢٥٢.

ومثلما يُعزىٰ لمحمد علي بناء مصر الحديثة يعزىٰ لأتاتورك تحرير تركيا وتحديثها، فيما الواقع أنه مؤسس للحكم العسكري المستبد العلماني، الذي يجعل العسكر فوق الشعب وحامي العلمانية وذراعها الذي يفرضها قهرا وقسرا!

ومهما يُقال في استبداد المماليك فإن استبداد محمد علي أضخم منه بما لا يُقارَن، وكذلك: مهما قيل في استبداد العثمانيين فإن دولة أتاتورك أبشع منها بما لا يُقَارن، إذ بعدما كانت الدولة العثمانية ملجأ المضطهدين دينيا في أوروبا صارت أوروبا ملجأ المضطهدين المسلمين من الأتراك!!

وفي تطورات درامية مثيرة تحول العسكري الفاشل -ضمن جنود الدولة العثمانية- الذي عجز عن تحقيق أي نصر في الشام أو ليبيا أو حتىٰ تركيا أول أمره رغم ضعف أعدائه، إلىٰ قائد حركة المقاومة الذي يحقق انتصارات متتالية علىٰ اليونان وغيرها من الدول الكبرىٰ وهو يرفع لواء الإسلام ويلبس ثياب علماء الدين ويحارب الخمر ومظاهر الفجور، ثم إذا به يوافق علىٰ شروط مهينة لم يكن يتوقعها أحد ممن دعموه علىٰ رأسها: إلغاء الخلافة!!!

وعندما أعلنت الجمهورية التركية (٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م) كان أتاتورك هو رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس حزب الشعب الجمهوري والقائد العام للجيش!! ثم ليس إلا شهور حتىٰ ألغىٰ الخلافة في ذكرىٰ الإسراء والمعراج (٢٧ رجب ١٣٤٢هـ = ٣ مارس ١٩٢٤م) ودشَّن حملته لإزالة الإسلام فنفىٰ آخر الخلفاء (عبد المجيد الثاني) من البلاد، ثم كتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدًلا من العربية فأسس بذلك لقطيعة علمية ثقافية عميقة الأثر دفعت الأجيال التركية ثمنها مرًّا مريرًا، وأمر أن يؤذن الآذان بالتركية، واعتمد التقويم الغربي بدلًا من التقويم الهجري، وجعل العطلة يوم الأحد بدلًا من يوم الجمعة، واستولىٰ علىٰ الأوقاف ثم ألغىٰ المحاكم الشرعية وبدأ في

إزاحة القوانين الإسلامية مستبدلًا بها القوانين الغربية، والانتقال عن عاصمة الخلافة إلىٰ أنقرة، وكانت دولة أتاتورك شرخا ضخما في العلاقات العربية التركية وفي العلاقات التركية الكردية لم تتعاف الأمة منها حتىٰ الآن.

وبرغم كل ما قيل عن وحشية بطرس الأكبر في تغيير وجه الحياة الروسية إلا أن ذلك -وكما يقول إيان بوروما وأفيشاي مرجليت- «لم يكن شيئًا بالمقارنة مع كمال أتاتورك الذي تعهد في العام ١٩١٧ أنه إذا ما وصل إلىٰ السلطة يوما فسوف يغير الحياة الاجتماعية في تركيا دفعة واحدة، وهذا ما فعله علىٰ وجه التحديد منذ العام ١٩٢٣»، بل يضربان به المثل الحسن (!!) في التغيير، فقد «أقام نظامًا تعليميًّا علمانيًّا وأغلق جميع المؤسسات التي تقوم علىٰ الشرع الإسلامي. وغدت العلمانية -في ظل أتاتورك- نمطًا آخر من الإيمان العقائدي الجامد»[1].

وقد جرىٰ كل هذا فوق جثث الأتراك ومذابح أوقعها بالعلماء وطلاب العلوم الشرعية وشرائح واسعة من الشعب التركي المسلم الذي قاوم ما استطاع لكن فارق القوىٰ واتجاه الزمن لم يكن في صالحه علىٰ الإطلاق.

هلك أتاتورك في (١٧ رمضان ١٣٥٧هـ = ١٠ نوفمبر ١٩٣٨م) بعد مرض في الكبد قضىٰ عليه.

ومثلما كتب محمد عبده مقاله عن محمد علي ممهورا باسم مجهول «مؤرخ»، كتب ضابط تركي مجهول كتابًا عنه سماه «الرجل الصنم».



(١) إيان بوروما وأفيشاي مرجليت: الاستغراب ص١٢٤، ١٢٥.

في ذكرى مولد ابن خلدون:
عشرة حكم في التاريخ والسياسة

ولد ابن خلدون في شهر رمضان (٧٣٢ هـ)، أي قبل خمسة أعوام وسبعمائة عام، لأسرة أصلها البعيد عربي يمني إلا أن أجداده نشأوا بالأندلس فتحرف اسم الجد (خالد) إلىٰ (خلدون) علىٰ الطريقة الأندلسية، ثم رحل أجداده عن الأندلس في زمن نكباتها فولد في تونس، ثم نبغ واشتهر وصار رجل دولة فعمل سفيرًا وكاتبًا ووزيرًا في أكثر من دولة، في بلاط دولة بني مرين في المغرب ثم بني الأحمر في غرناطة ثم المماليك في مصر التي ختم فيها حياته.

وقد اشتهر بمقدمته البديعة التي طالما أثارت الإعجاب حتىٰ قال فيها المؤرخ الإنجليزي المشهور أرنولد توينبي أنها أفضل ما كتبه بشر. ونحن في هذه السطور نحيي ذكراه بإيراد عشرة من حِكَمه السياسية العميقة، التي لو أدركها قادة الرأي فينا لما وصلنا إلىٰ هذا الحال أبدا، ثم إنهم إذا لم يدركوها الآن فلن يكون حالنا غدا إلا أسوأ من حالنا اليوم.

(١) السلطة تُنتزع بالحرب:

«المُلْك قَلَّ أن يسلّمه أحد لصاحبه إلّا إذا غُلِب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلىٰ الحرب والقتال والمغالبة، وشيء منها لا يقع إلّا بالعصبيّة، وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له، لأنّهم نسوا عهد تمهيد الدّولة منذ أوّلها وطال أمد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل».

(٢) أدركوا اللحظة الفارقة قبل أن يترسخ الحكم فيمن غلب:

«الدّول العامّة في أوّلها يصعب علىٰ النّفوس الانقياد لها إلّا بقوّة قويّة من

الغلب للغرابة وأنّ النّاس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه، فإذا استقرّت الرّئاسة في أهل النّصاب المخصوص بالملك في الدّولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النّفوس شأن الأوّليّة واستحكمت لأهل ذلك النّصاب صبغة الرّئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم».

(٣) حتى الأنبياء احتاجوا إلى القوة:

«الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، وهذا لأنّ كلّ أمر تُحمل عليه الكافّة فلا بدّ له من العصبيّة وفي الحديث الصّحيح: «**ما بعث الله نبيّا إلّا في منعة من قومه**» وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولىٰ النّاس بخرق العوائد فما ظنّك بغيرهم؟!».

(٤) تأسيس الدول بالقوة لا بالإقناع:

«اعلم أنّ السّيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدّولة يستعين بها علىٰ أمره إلّا أنّ الحاجة في أوّل الدّولة إلىٰ السّيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشدّ من الحاجة إلىٰ القلم لأنّ القلم في تلك الحال خادم فقط منفّذ للحكم السّلطانيّ والسّيف شريك في المعونة».

(٥) الشعوب المقهورة تسوء أخلاقها:

«إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم، لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة».

«إن الملك إذا كان قاهرًا، باطشًا بالعقوبات، منقبًا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا علىٰ قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية، وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية. وإذا كان رفيقًا بهم متجاوزًا عن

سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب».

«من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق علىٰ النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلىٰ الكسل وحمل علىٰ الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره، خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله، وصار عيالًا علىٰ غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدىٰ انسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين. وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف».

(٦) زمن تغيير الجيل أربعون سنة:

«فعاقبهم الله بالتيه، وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران، ولا نزلوا مصرًا ولا خالطوا بشرًا، كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه. ويظهرمن مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتىٰ نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت لهم ذلك عصبية أخرىٰ اقتدروا بها علي المطالبة والتغلب. ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر. سبحان الحكيم العليم».

(٧) مصير الأمم المغلوبة:

«الأمة إذا غُلِبَت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء والسبب في ذلك،

والله أعلم، ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل، والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوىٰ الحيوانية. فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، بما خضد الغلب من شوكتهم، فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل»

(٨) ترف السلطة يؤذن بخراب الدولة:

«يكثر خراج السلطان خصوصًا كثرة بالغة بنفقته في خاصته، وكثرة عطائه، ولا تفي بذلك الجباية. فتحتاج الدولة إلىٰ الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية، ويدرك الدولة الهرم، وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية، فتقل الجباية وتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم. فيستحدث صاحب الدولة أنواعًا من الجباية يضربها علىٰ البيعات، ويفوض لها قدرًا معلومًا علىٰ الأثمان في الأسواق، وعلىٰ أعيان السلع في أموال المدينة. وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية. وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة، فتكسد الأسواق لفساد الأمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود علىٰ الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلىٰ أن تضمحل».

(٩) الظلم مؤذن بخراب العمران:

«اعلم أن العمران علىٰ الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا

ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك. وعلىٰ قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرًا عامًا في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالأمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيرًا كان الانقباض عن الكسب علىٰ نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران».

(١٠) الذوبان في الغالب:

«ترىٰ المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلىٰ كل قطر من الأقطار كيف يغلب علىٰ أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم، حتىٰ إنه إذا كانت أمة تجاور أخرىٰ، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير».





في ذكرى الحاجب المنصور:
دروس في الحكم والسياسة

في مثل هذا اليوم (٢٧ رمضان ٣٩٣هـ) توفي رجل من أعظم رجال الإسلام في كل تاريخه، الرجل الذي كان عهده هو ذروة التاريخ الأندلسي وقمته، ذلك هو: الحاجب المنصور: محمد بن أبي عامر المعافري، رجل السياسة والحرب، ورجل العلم والحضارة، والفاتح الذي بلغت فتوحاته حيث لم يصل أحد قبله من الفاتحين، والبطل الذي استمرت هيبته بعد موته في قبره تثير رعدة أعدائه!

مات وهو عائد من الجهاد، عند مدينة سالم، وكانت عادته أنه إذا عاد من معركة نفض تراب ثيابه، ثم جعله في قارورة، لكي تدفن معه فتشهد له بالجهاد في قبره وعند ربه، ولما دُفِن كتبوا علىٰ قبره بيتان من الشعر فيهما خلاصة حياته:

آثاره تُنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعِيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله ... أبدا، ولا يحمي الثغور سواه

ولعل الشاعر الذي أنشد البيتين كان ذا نظر سياسي ثاقب، فما هي إلا سنوات سبع بعد موت المنصور بن أبي عامر إلا وبدأت الأندلس رحلة انحدارها وهبوطها من القمة، ولم يتكرر المنصور منذ ذلك الوقت وحتىٰ هذه اللحظة، ولستُ أعرف شبيها للمنصور في مواهبه في كل التاريخ الإسلامي من بعد عصر الأمويين!

وقد بلغ المنصور هذه المكانة، رغم أن بدايته كانت غاية البساطة، فقد نشأ شابًا عاديًا في ريف الجزيرة الخضراء أقصىٰ جنوب غربي الأندلس، لذا فإن قصة نجاحه هي قصة ملهمة لكل شاب طموح، ولكل سياسي في مقتبل العمر..

ونحن في هذه السطور نقتبس بعضا من دروس سيرته الثرية.

(١) المنفرد بنفسه:

ينحدر محمد بن أبي عامر من قبيلة معافر، وهي من القبائل التي اعتزلت السياسة منذ وقت طويل، فلم يكن له عشيرة قوية ترفعه، ولا ظهر يستند إليه في قرطبة، لكنه بالرغم من هذا خرج من ريف الجزيرة الخضراء حتىٰ قصد إلىٰ قرطبة، وهناك أقبل علىٰ العلم والدروس، ثم اتخذ دكانًا قريبًا من قصر الزهراء (قصر الحكم الأموي) يكتب فيه العرائض لذوي الحاجات، ثم ما لبث أن لفت الأنظار ببلاغته وفصاحته، فأنشأ علاقة مع الفتيان الصقالبة (كأنهم: الحرس الجمهوري الآن)، وأحيا علاقة قديمة مع وزير كان صديقًا لأبيه، وبهذين الطريقين استطاع أن يدخل في سلك القضاء معاونا لقاضي قرطبة، فلفت إليه النظر بذكائه وقوة علمه، فأوصىٰ به عند الحاجب المصحفي) رئيس الوزراء في النظم الرئاسية(، فاتخذه عاملا عنده مشرفا علىٰ أملاك ولي العهد الصغير، ومن هنا نشأت علاقاته داخل قصر الحكم في قرطبة!

أُعجب به الخليفة الحكم المستنصر لقوة علمه وذكائه وفطنته وتعدد مواهبه، ولم تزل الأيام تكشف عن مجهوده في الأعمال التي تولاها وبرع فيها حتىٰ أنسىٰ بها من كان قبله ممن هم أكبر سنًا وأوسع خبرة، فتولىٰ القضاء والحسبة وإدارة الشرطة الوسطىٰ (الأمن العام) والعليا (الأمن القومي) ودار السكة (وزارة المالية) ثم بعث في سفارة ومهمة دبلوماسية، وما إن مات الخليفة الحكم المستنصر حتىٰ كان محمد بن أبي عامر هو المؤتمن علىٰ ولده الصغير ولي العهد والقائم بشؤونه.

وهنا قام بالمناورات السياسية الكبرىٰ التي أسفرت عن تفوقه جميعا ضد مراكز القوىٰ الكبرىٰ في قصر الحكم، فلعب علىٰ التناقضات بينهم، وخاض معاركه المتتالية معهم رغم خطورة كل منها ولم يخسر واحدة منها؛ فاستعان أولا

بالمصحفيين (أتباع الحاجب المصحفي) علىٰ الصقالبة، ثم بغالب الناصري (فارس الأندلس وشيخ الموالي) علىٰ الصقالبة، ثم بجعفر بن حمدون (شيخ المقاتلين المغاربة) علىٰ غالب، ثم بأبي يحيىٰ التجيبي (والي سرقسطة وشيخ التجيبيين) علىٰ جعفر، حتىٰ اختتم المشهد وليس في الأندلس إلا المنصور.

وتلك سيرة كل من ارتقىٰ إلىٰ الحكم بمواهبه، بغير اعتماد علىٰ عشيرة، وهي سيرة حري بكل طارئ علىٰ نظام حكم أن يفقهها ويستوعبها ويهضمها كي لا يأكله النظام القديم!

والمنصور في كل معاركه هذه، صاحب حجة قوية، ومنطق سديد، ويقظة تامة، وليس فيها معركة يمكن أن يُطعن بها عليه دون خلاف ونظر وأخذ وردّ!! فياله من داهية عجيب فعل كل هذا وليس ثمة ما يُسلم لخصمه فيه!

(٢) اصطناع الأتباع:

في كل مرحلة ارتقاء، كان المنصور يصطنع الأتباع ويتألف القلوب، وهو ذو فراسة يعرف بها من أن يُدخل علىٰ المرء، فمنهم من بهرهم بعلمه، ومنهم من بهره بحضور ذهنه، ومنهم من بهره بسداد رأيه وحسن مشورته، ومنهم من بهره بالأموال والكرم، ومنهم من بهره بالشجاعة والإقدام!

لا يتسع المقام هنا لذكر التفاصيل، ولكن ابن أبي عامر كان في مجلس العلم حاضر الذهن، وفي ساحة الحرب مقداما، وفي مجال السياسة حكيما، وعند الشدائد والحاجات كريما معطاء، فالتقت عليه القلوب وتعلقت به، ونفرت عن غيره.

وما كان يمكن له أن يفعل هذا لولا ذكاء بالغ، وفهم للنفوس، وحسن إدارة للأموال، وقد اتُّهِم ذات يوم عند الخليفة بالسرقة من بيت المال، وتعرض لمحاسبة ظهر فيها كذب الاتهام ووفور ما في الخزانة من أموال، فزادت مكانته وزاد حسد حاسديه.

وقد بلغ اصطناعه للأتباع أن تنقسم الفئة الواحدة، فيكون منها قسم معه علىٰ فئتهم، فلقد صار له قسم من الصقالبة ضد قسم آخر، ثم ظل معه جل المغاربة رغم نكبة شيخهم جعفر بن حمدون، وبعد أن انتهت دولته صار له أتباع يُعرفون بالعامريين كان لهم شأن في سياسة الأندلس من بعده!

(٣) امتلاك القوة:

نفذ المنصور إلىٰ رؤوس قبائل العرب التي كانت قوة مهملة فأعاد إحياء آمالهم وتجميعهم خلفه ليكونوا قوته ومركز ثقله، ثم التفت إلىٰ جيش الحضرة (القسم العسكري المخصص للدفاع عن قرطبة من الجيش الأندلسي) فأعاد إحياءه وتجهيزه ليكون قوته العسكرية، ثم استقدم من المغرب فرقا من الأمازيغ في إطار تفاهمات السياسة لكنه استفاد من وجودهم في تعديل الميزان العسكري المائل لصالح الصقالبة (الحرس الجمهوري) وجيش الثغور (قوات الحدود)، فصار له بهؤلاء شوكة عسكرية، إذ رفعهم من الخمول والنسيان إلىٰ المكانة والأثر وحسَّن أوضاعهم المالية والمعنوية!

وبهذه الشوكة العسكرية التي تكونت تحت سمع وبصر الجميع، ودون اعتراض لا من الخليفة ولا من حاجبه المصحفي ولا من الصقالبة، تمكن شأنه في بلاط الحكم وصار مركز قوة جديد، وبها نفسها انتهىٰ من الصقالبة ثم من المصحفيين ثم نافس بها القادة العسكريين الذين توانوا في صد جيوش الجلالقة رجاء تحسين وضعهم في مراتب الدولة، فلما ثبت أنه يمكن الاستغناء عنهم تغير حالهم كي لا يتغير الحال عليهم.

ومن قبل هذا وكله كان يعتمد علىٰ ثقة الخليفة، وثقة أم ولده صبح البشكنسية، فيثبت نفسه بالإنجازات عند الأول، وبحسن إدارة الأملاك والهدايا عند الثانية. وما يُثار عن قصة حب بينه وبين البشكنسية لا دليل عليه!

(٤) المغامرة في مواطن الشرف:

ليس شيء يصنع حب الناس كالبطولة، حتىٰ إن الطغاة الفاشلين يحاولون اصطناع الإنجازات واختراعها ليحوزوا مثل هذا، أما محمد بن أبي عامر فقد فخر بنفسه ذات يوم فقال قصيدة عصماء نلتقط منها قوله:

رميتُ بنفسي هول كل عظيمة — وغامرتُ، والحر الكريم يغامر

وما صاحبي إلا جنان مشيع — وأسمر خطي، وأبيض باتر

فسُدْتُ بنفسي أهل كل سيادة — وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر

ومن ذلك نعرف كيف صنع ابن أبي عامر كل تلك المحبة التي نراها حتىٰ الآن في كتب المؤرخين، فقد غزا بنفسه أكثر من خمسين غزوة (بمعدل غزوتين في السنة الواحدة) لم يُكسر له جيش ولم تُهزم له راية، وبلغ في الفتح ما لم يبلغه أحد قبله، واقتحم ليون عاصمة الصليبيين، وشانت ياقب (سانت يعقوب) في أقصىٰ غرب شبه الجزيرة.. والكلام في بطولته يطول!

لكن القصد أن السياسي لا بد له من بطولة وإقدام، والتاريخ يُقدر البطل وإن هُزِم ولا يقدر الخامل المتردد وإن سلم، وقليل من أبطال حركات المقاومة من انتصروا لكنهم جميعا يسكنون القلوب ويُكتبون في صفحات الشرف، بينما المتمسكين بالواقعية والبراجماتية والمترددون والمتهيبون قليل منهم من يسكن القلوب ويثير الخيال ويلهم الطموح!

وليس أولىٰ بهذا من أمة منكوبة تشتاق للبطولة.. وها نحن نرىٰ كيف تستثير الحركة مهما كانت متطرفة أحلام الشباب (داعش مثالا).. بل لا يزال هتلر في قبره مثيرًا وملهمًا برغم ما أنزله من نكبة بألمانيا بينما لا يكاد يتذكر أحد أسماء من خلفوه.

(٥) اليقظة التامة:

لا يستقيم السياسي بغير اليقظة التامة، ولقد سبق عبد الرحمن الداخل في وصف هذا فقال:

إن الملـوك مـع الزمـان كواكـبٌ   نجـم يطالعنـا ونجـم آفـل

والحـزم كل الحـزم ألا يـأفلوا   أيـروم تـدبيرَ البريـة غافـل؟!

إن رجلا صعد من ريف الجزيرة الخضراء ليحكم الأندلس قد مرَّ في رحلته بمئات التحديات التي تستوجب منه يقظة وانتباها تاما، يعرف بها عدوه من صديقه ويحدد به خطوته القادمة، ثم إن رجلا قضىٰ علىٰ مراكز القوىٰ وصار في منصب الملك قد واجه من المؤامرات التي حاولت أن تزيله ما لا يمكن التغلب عليه إلا بيقظة تامة.. وهكذا كان المنصور بن أبي عامر!

لم يسبق إليه عدو ثم لا يجده قد سبق هو إليه، ولم تكتمل عليه مؤامرة إلا وكان قد أحبطها، ولم يرتب أحد ضده أمرا إلا وجد ترتيبه قد قضىٰ عليه، ولقد وصفه الحاجب المصحفي بالثعلب بعدما نُكب علىٰ يديه، وقال في ذلك بيته المشهور:

لا تـأمنن مـن الزمـان تقلبـا   إن الزمـان بأهلـه يتقلـب

ولقـد رآني والليـوث تهـابني   وأخـافني مـن بعـد ذاك الثعلـب

(٦) احترام الشرعية:

برغم كل ما صنع محمد بن أبي عامر للأندلس وأهلها، إلا أنه كان يعرف حدَّه، ولما فكَّر يوما في تنحية الخليفة الصغير الضعيف والتسمي بالخلافة نهاه أهل مشورته فانتهىٰ ولم يعد إلىٰ ذلك، إن للشرعية قوة معنوية في النفوس لا يمكن اختراقها وانتهاكها، حتىٰ لو كان المنصور وحتىٰ لو كان الخليفة صغيرا ضعيفا.. فالخليفة أموي، وتلك هي شرعية الوقت!

والمؤرخون رغم اتفاقهم علىٰ عظمة ابن أبي عامر وحسن أثره يختلفون في موقفهم من سياسته مع الخليفة الأموي، وهذا يعطيك معنىٰ الشرعية كقوة معنوية في الصراع السياسي! ومن المثير للانتباه أن الدولة العامرية انتهت وانهارت حين حاول ابنه الصغير «عبد الرحمن بن المنصور» أن يحمل الخليفة علىٰ التنازل له عن الخلافة، وهو الأمر الذي تردد فيه أبوه ثم أعرض عنه، فكانت تلك بداية الاضطرابات التي ذهبت بالدولة العامرية، وأدخلت الأندلس في عصرها البائس: عصر ملوك الطوائف!

هذه ستة دروس في السياسة التقطناها من سيرة المنصور بن أبي عامر، نحسب أننا نحتاج إليها في مسيرتنا الثورية الحاضرة.



في ذكرى وفاة عرابي: دروس الثورة العرابية

في هذا اليوم (١٧ رمضان) قبل مائة عام تقريبًا (١٣٢٩هـ = ١٩١١م) توفي الزعيم المصري أحمد عرابي، قائد الثورة المهزومة -ولا أقول: الفاشلة- بعد حياة حافلة شاقة تقلب فيها بين النعيم والجحيم، بين الزعامة والنفي، بين النصر والهزيمة، بين البطولة والاستسلام.. فكان هو وكانت ثورته حدثًا جليلًا جديرًا بالنظر والاعتبار!

ومختصر الثورة في جملة واحدة: أن حركة بدأت كتمرد في الجيش علىٰ القيادات الشركسية لمطالب محدودة، سرعان ما حولتها الصفوة المصرية إلىٰ ثورة شعبية بمطالب عامة، وبلغ الوضع من القوة والارتباك في صف السلطة حدَّ الخضوع لمطالب الثورة وتشكيل حكومة وطنية ومجلس نواب ودستور، وهنا نزل الإنجليز بجيوشهم في الإسكندرية بدعوىٰ حماية الأجانب الذين تعرضوا لعملية مدبرة في الإسكندرية تقول بأنهم في خطر، وتم الاحتلال ودَعَمَهُ الخديوي وحدثت خيانات أدت إلىٰ هزيمة الجيش المصري في معركة التل الكبير ثم قُبِض علىٰ عرابي وزعماء الثورة وكان جزاؤهم النفي ولم يسمح لهم بالعودة إلا محطمين بعد أن أهلكهم الزمن والمرض!

إن في هذا الثورة دروسًا لو أننا فقهناها لما جرىٰ علينا الذي جرىٰ، ولكن علىٰ كل حال لم يفت الوقت كله، وما زال في الثورة متسع، وما تزال الميادين تغص بالبواسل والأبطال!

هذه عشرة دروس تهديها لنا قصة عرابي من قبره!

(١) الثورة.. إسلامية:

ثورات الشرق تؤول إلىٰ الإسلام، فالإسلام روح الشرق ومزاجه وسمته،

وفي حين كانت الأسباب المباشرة لثورة عرابي تبدو وكأنها حركة تمرد عسكرية تطالب بالمساواة بين المصريين والأجانب في الرتب العسكرية، إلا أنها وجدت نفسها تحمل مطالب الأمة كلها، في ورطة ربما لم تكن محسوبة منذ أول الأمر، ولكن هكذا تجري الأمور في بلادنا: ما تلبس الثورات أن تكون إسلامية في كل شيء، وأن ترفع الإسلام شعارًا ومطلبًا.

ما إن جهر عرابي بمطالب المساواة حتىٰ وجد نفسه في وجه الخديو توفيق الذي رفع في وجهه عنوان الشرعية «إنه سليل محمد علي وقد ورث هذه البلاد عن آبائه وأجداده»، وحينئذ خرجت الروح الإسلامية مستدعية قول عمر بن الخطاب لتقول: «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا، ووالله لا نورث بعد اليوم»، وردَّ عليه عنوان الشرعية ليذكره بأنه ليس إلا وكيلًا عن السلطان: الخليفة العثماني، وكتب في مذكراته: «.. وبذلك علم الصغير والكبير أن لنا سلطانًا شرعيًّا هو صاحب السيادة العظمىٰ علىٰ البلاد المصرية، وأن الخديو هو نائب عن جلالته فقط من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكمًا شرعيًّا غير الخديو»، وكتابات عرابي تفيض بتعظيم الشريعة وطاعة السلطان العثماني والتنديد بالخديوي الذي خالف الشريعة واحتمىٰ بالأجانب وملكهم البلاد.

وكان زعماء الثورة العرابية ورجالها إما أزهريون وإما ممن تلقىٰ العلوم الدينية، وخرجت الفتاوىٰ تدعم عرابي ضد الخديوي وتحرم تسليم البلاد للإنجليز وتحض علىٰ الجهاد، وكان هؤلاء جميعًا ضمن من حوكموا بعد هزيمة الثورة.

فخلاصة الدرس: الثورات في الشرق إسلامية الهوىٰ والطابع والشعار، أما الاحتلالات والانقلابات فهي تؤول إلىٰ الأجانب.

(٢) الأنظمة تابعة للأجنبي وهو يحميها:

منذ أدخل محمد علي الأجانب إلىٰ مصر وقد صار لهم فيها نفوذ كبير، هذا النفوذ تعرض للضعف في أيام خليفته الخديوي عباس، لكنه عاد للازدهار مرة

أخرىٰ في عهد سعيد ثم بلغ ذروته في عهد إسماعيل الذي كان من التبذير والإسراف بحيث قبل خضوع المالية المصرية لمراقبين أجانب بل وتولىٰ الوزارة في عهده ممثلين عن إنجلترا وفرنسا، وصارت للقناصل كلمة عليا في السياسة المصرية، وصارت للأجانب محاكم خاصة «المحاكم القنصلية» ثم محاكم مختلطة (وهي في الحقيقة أجنبية النفوذ) بل إن الخديوي إسماعيل نفسه حين أعلن إفلاسه حكمت عليه هذه المحاكم بمصادرة أمواله وضياعه لتسديد ديون البنوك والمصارف الأجنبية.

بلغ نفوذ الأجانب حدًّ أن عرابي حين سار بمظاهرته العسكرية إلىٰ قصر عابدين لرفع مطالب الجيش والشعب حرص علىٰ إبلاغ القناصل بها وتطمينهم أن الأمر لا علاقة له بسلامة الأجانب! وكانت سلامة الأجانب هذه هي المبرر الذي أعلنته بريطانيا لتنزل بجيوشها إلىٰ مصر، كذلك كانت سلامة الأجانب هي الحجة التي يسوقها الخديوي توفيق للإنجليز تحذيرا لهم من عرابي بدعوىٰ أنه «وطني متطرف، يكره الأجانب، يريد طردهم من مصر»!

تقول برقية بريطانية عن بدايات حركة عرابي بأن هؤلاء الضباط أغرار لا يقدرون خطورة ما يقومون به، تشير إلىٰ سذاجتهم وعدم انتباههم للبُعد الدولي ولا حجم النفوذ الأجنبي. وتبدو دهشة عرابي نفسه حين يأتي الأسطول الإنجليزي قبالة شواطئ الإسكندرية ثم يحتج علىٰ الإصلاحات والتحصينات الحربية فيكتب «وكنا نتعجب، كيف أن الترميمات في الطوابي العادية تعد تهديدا وحضور المراكب الحربية وإحاطتها بالثغور المصرية لا تعد تهديدا؟!!»

فخلاصة الدرس: أن هذه الأنظمة التابعة للغرب حين توشك علىٰ السقوط يتدخل الغرب بنفسه لإنقاذها، فينزل الاحتلال الأصيل عند فشل الاحتلال الوكيل، ثم يرحل الاحتلال الأصيل بعد أن ينصب عملاءه ليكونوا هم البديل (كما فعلوا في انقلاب يوليو ١٩٥٢م).



(٣) درس الشرعية الدولية والقانون الدولي:

أراد عرابي ردم قناة السويس لمنع الإنجليز من عبورها والتقاء قواتهم القادمة من الهند عبر البحر الأحمر مع القادمة من البحر المتوسط. وساعتها ستعاني القوات القادمة من الهند صعوبات الصحراء الشرقية فيم ستعاني القوات القادمة من الدلتا صعوبة كثرة الجسور لا سيما والوقت وقت فيضان. إلا أن ديليسبس (الفرنسي، والمفترض أنه عدو الإنكليز للعداء التاريخي بين الطرفين) أكد لعرابي أن القانون الدولي يمنع إنجلترا من استعمال القناة، وأن القناة ممر مائي محايد، وأن أحدًا لا يستطيع خرق هذا القانون. وصدَّق عرابي هذا الكلام ثم استفاق وقد دخل الإنجليز عبر القناة، ومع دخولهم رسالة من ديليسبس تقول: بأن الإنجليز خرقوا القانون الدولي واستعملوا القناة وأن لعرابي أن يفعل ما يشاء!!

كذلك فإن من عيوب الحركة العرابية اطمئنانهم إلىٰ أن المشكلة قد تحل سلميا عبر مؤتمر الآستانة الذي عقدته الدول الأوروبية وأوحت نتائجه بأنه لن يحدث تدخل أجنبي في مصر، وفيه أصرت بريطانيا علىٰ إضافة «ما لم تلزم الحالة القهرية» وهي الإضافة التي تفرغ من كل مضمون، وحسب العرابيون أن الأزمة ستنتهي بخلع توفيق وتولية الأمير حليم باشا مكانه.

ثم أسفرت الأيام عن مصير من لم يستعد للحرب واستند إلىٰ «الشرعية الدولية» و«القانون الدولي» وانتظر نتائج «المؤتمرات الدولية»!

(٤) لا يغني مع المجرم سحب الذرائع:

لقد نزل الاحتلال الإنجليزي بذريعة حماية الأجانب، وقد بذل عرابي كل جهد ممكن لإقرار الأمن وحماية الأجانب، إلا أن معركة نشبت واشتعلت وتطورت بشكل غريب في الإسكندرية، بين يوناني وعربجي، تحوم حولها شبهات كثيرة في إمداد السفارات الأجنبية لرعاياها بالسلاح. وعلىٰ قدر ما

حاولت الحكومة إنهاء الأمر علىٰ قدر ما فشلت في ذلك، وكانت تلك الذريعة.

علىٰ أن الإنجليز حين قصفوا الإسكندرية لم يبالوا لا بأرواح الأجانب ولا بمصالحهم، واستمر قصفهم العشوائي ومات الأجانب مع المصريين كما تضررت مصالح الأجانب كمصالح المصريين، وذلك درس للأقليات المغرورة، وهو رغم تكرره إلا أن قليلا من يعقلون!

(٥) متى يُعدم قائد الثورة ومتى يبقى سجينا؟

حُكم علىٰ عرابي -ومعه قادة الثورة- بالإعدام، ثم خفف الحكم إلىٰ النفي المؤبد، فنفوا إلىٰ جزيرة سيلان وظلوا هنالك نحو عشرين سنة حتىٰ حطمهم الزمن، فمنهم من فقد بصره ومنهم من أهلكه المرض وجميعهم أصابته الشيخوخة، وفي منفاهم ثم بعد عودتهم درس بليغ سنعرض له فيما بعد.

لكن الدرس المستفاد هنا هو: لماذا لم ينفذوا فيه حكم الإعدام؟!

والإجابة هي أن الإنجليز، وقد سار علىٰ نهجهم غالب الساسة الغربيين فيما بعد، إذا تحققوا من النصر لم يقدموا علىٰ إعدام قادة المقاومة، بل يتركونهم للسجن الطويل أو النفي الطويل حتىٰ يتحطموا، وغالبا ما ينجحون في هذا، فيحرمونهم بهذا من شرف الشهادة التي تلهب الزعامة وتخلد الصورة ويبدلونهم بها صورة المهزوم المحطم التي قد خلت من بريق البطولة ولمعان الأسطورة!

أما إذا لم يكن النصر محققا، وكانت القيادة ذات أثر، فالقتل هو الحل، سواء أكان قتلا بعد محاكمة صورية أو كان قتلا بغير محاكمة!

(٦) جيل الثورة وجيل الذل:

في زمن الثورة يأتي الناس بالعجائب، وفي زمن الذل كذلك! وإن الرجل نفسه يكون في غاية البسالة والبطولة والبذل والتضحية في وقت الثورة ثم إذا نزلت الهزيمة وفشا الإحباط يكون علىٰ النقيض من هذا، وإن استيعاب هذا

الدرس يجعلنا نفهم قيمة الزمن في اقتناص الفرصة واستثمار الثورة ويجعلنا نخشىٰ أكثر ما نخشىٰ من طول الوقت والحلول المؤجلة والتخطيط البعيد المدىٰ، فالزمن قيمة لا تُعوَّض.

وقد جرت هذه السنة علىٰ الثورة العرابية، من أول السلطان عبد الحميد الثاني الذي انتعشت كل آماله فدعم الثورة بشكل سري وكانت بينه وبين عرابي مراسلات تحرض علىٰ التخلص من حكم أسرة محمد علي كلها، ورفض أي تدخل عسكري ضد عرابي. فلما أن صارت هزيمة الثورة محققة أصدر عبد الحميد منشورا يعتبر عرابي عاصيًا وينفض يده منه، وكان لهذا أسوأ الأثر علىٰ وضع عرابي الذي صار محتاجًا لأن ينفي عن نفسه تهمة العصيان والخروج علىٰ الخلافة!

ثم جرىٰ هذا علىٰ عرابي نفسه، الرجل الزعيم الذي قاد أحلام الجماهير وصار معقد رجائهم، لما هُزِم وقُضِي عليه ونُفِي عشرين سنة، عاد بعدها شيخا هرمًا محطمًا، وأصدر تصريحات سيئة تتحدث عن صداقة الإنجليز وأيد فيها سياستهم ووجودهم بمصر!

وجرىٰ هذا علىٰ سائر رجال الثورة فكان أحسنهم حالا من إذا عاد إلىٰ مصر بعد المنفىٰ ظل في بيته ولم يتكلم بالسياسة كمحمود سامي البارودي (رئيس حكومة الثورة قديمًا، ورب السيف والقلم)، وقد جرىٰ في المنفىٰ نزاعات بين رجال الثورة تبادلوا فيها إلقاء مسؤولية الفشل علىٰ بعضهم وتنافروا من بعد ما كانوا علىٰ قلب رجل واحد!

وظل خطيب الثورة وزعيمها السياسي عبد الله النديم مطاردا تسع سنوات، متخفيًا شريدًا، وكان منتهىٰ أمله أن يظل هكذا بعيدًا عن يد الإنجليز، من بعد ما كان -في زمن الثورة- يخطط لإسقاط نظام وإنشاء نظام!!

إن الهزيمة تقتل النفوس وتهدم الأبطال! وإن الاستسلام والتراجع بدعوىٰ

حقن الدماء إنما يُثمر خسرانا علىٰ مستوىٰ القيم والمبادئ والتاريخ ومكانة الرجال، وأسوأ منه أنه يؤسس لجيل يتعايش مع الذل والظلم أو مع الاحتلال، فلا يكون ثمة أمل في ثورة إلا بعد جيل آخر علىٰ الأقل.

(٧) مأساة احتكار الجيوش للسلاح:

لقد حاولت فرنسا احتلال مصر (١٧٩٨م) فوجدت مقاومة عنيفة لثلاث سنوات، ثم حاولت بريطانيا (١٨٠٧م) فردَّها الأهالي بلا أي دعم من الدولة. وكان من أعظم جرائم محمد علي أنه نزع السلاح من الجماهير وجعل القوة المسلحة حكرا علىٰ الجيش النظامي.. ومنذ تلك اللحظة والجيش المصري لم يحقق نصرا قط، وأسوأ من ذلك أن هزيمة هذا الجيش الرسمي كانت تساوي سقوط البلد في قبضة الاحتلال، وكان الحال من قبل هذا أن سقوط الجيش النظامي يعني بدء المقاومة الشعبية.

بمجرد ما سقط جيش عرابي سقطت مصر في قبضة الاحتلال، ولم يجد الاحتلال مقاومة إلا في الأقاليم التي لم تكن تشبعت بعد بـ «تحديثات» محمد علي، أما المدن الكبرىٰ فلم يجد الإنجليز فيها مقاومة، بل واستسلم عرابي نفسه ولم يخطر بباله أن يقود مقاومة شعبية، ولعله -لطبيعته العسكرية- لم يتصور إمكان القيام بمقاومة شعبية.

إن احتكار الجيوش النظامية للسلاح مأساة وكارثة علىٰ البلاد من وجهين؛ الأول: أن الشعوب تكون في حكم الأسير لا تستطيع فعل شيء ضد الاستبداد إلا إن كان لها ذراع في الجيش أو انحاز الجيش لها، فإن لم يكن لها ذراع فيه وكان الجيش تابعا للمستبد أو المحتل فلا أمل في التغيير إلا بثمن ضخم وفادح. والوجه الثاني: أن الجيوش حين تنهزم أمام العدو يتسلم العدو البلد بلا مقاومة، وقد تكون هذه الجيوش ذراعا للعدو نفسه وحامية لمصالحه وجزءًا عضويًا منه. وكلا الوجهين تعاني منه شعوبنا اليوم في مصر وسوريا واليمن وليبيا وتدفع

ثمن تصحيحه من دماء أبنائها بالآلاف والملايين.

ولهذا فإن من أبرز أخطاء الثورة العرابية أنها لم تسلح الجماهير، وكانت قادرة علىٰ ذلك لو أرادت، وهو خطأ ينبغي أن تستوعبه الثورات جيدا، إذ لا نصير للثورة إلا الشعب، وخلوّ الشعب من القوة يعني أن الثورة صارت ضعيفة يتيمة مرهونة بموازنات وحسابات واتفاقات الأقوياء المسلحين.

(٨) القضاء الشامخ والإعلام الحر!

القضاء والإعلام ليسا إلا صورة لنفوذ القوىٰ الغالبة، وأي هوامش عدالة أو حرية يتمتع بها القضاء أو الإعلام إنما تكون في ظل سلطة عادلة أو في ظل سلطة مستبدة متمكنة ولكنها ذكية، فتترك من الهوامش ما لا يؤثر علىٰ وضعها كسلطة، أحيانًا كنوع من التنفيس وأحيانا كنوع من إدارة التناقضات والخلافات بين أجنحة قائمة في المجتمع. أما في أوقات المعارك الحقيقية أو الثورات المهددة للنظام أو اهتزاز النظام فلا حرية ولا عدالة، ولا يُقبل من الإعلام أو القضاء إلا أن يكون خادمًا طيعًا ووسيلة من وسائل النظام.

لقد حاول الخديوي والإنجليز احتواء الثورة فجاءوا برجل قانون معروف بوطنيته هو محمد شريف باشا، ورجال القانون بطبيعتهم إصلاحيون وهم لذلك متناقضون مع المرحلة الثورية، ذلك أنهم يتفانون في إصلاح النظام ولا يفكرون في إسقاطه، وهكذا أنجز شريف باشا بعض الإجراءات التي قصد منها إنهاء الثورة، فمنها ما كان إصلاحًا حقيقيًّا طالبت به الثورة ومنها ما كان إجراءات لقتل الثورة مثل نقل عرابي إلىٰ الشرقية وزميله عبد العال حلمي إلىٰ دمياط ثم أصدر قانون المطبوعات ليتخلص من الصحف التي تمثل صوت الثورة المضاد للأجانب (فهو في النهاية حريص علىٰ ودّ الأجانب وحفظ مصالحهم).

وبعد فشل الثورة العرابية حوكم زعماء الثورة أمام «محكمة عسكرية مصرية» لا إنجليزية، وبتهمة «عصيان أمر الخديو» لا بتهمة مقاومة الإنجليز

ولا بتهمة التسبب في «مذبحة» الإسكندرية التي كانت ذريعة التدخل الأجنبي أساسًا! واستغرقت المحكمة حوالي ربع الساعة: تُلِي الاتهام علىٰ عرابي وأقر به ثم رفعت للمداولة وأعيدت لتلاوة الحكم بالإعدام وتخفيفه!

ومنذ قُبِض علىٰ عرابي والصحف الصادرة مبتهجة بالخبر، وصدرت الأهرام تبشر قراءها بالقبض علىٰ العاصي عرابي وصحبه البغاة الذين نشروا الفتنة في البلاد، وصار كل ذي صوت إعلامي ينافق ويشمت حتىٰ لقد صدرت جريدة الوطن تعترض علىٰ تخفيف حكم الإعدام عن عرابي، وبلغت في اعتراضها حدًّا أغضب الإنجليز أنفسهم فاعتذرت وقالت: «قد رأينا أن ندفع ما علق بأوهام البعض من أننا نددنا علىٰ انجلترا في مصر والحال أننا لم نأتِ شيئًا إدّا ولم نخرج عن الحد أبدًا ولم نستعمل حدة ولا شدة في كلامنا علىٰ نتيجة محاكمة البغاة بل إن جريدة الوطن دون غيرها طالما دافعت عن سياسة إنجلترا ونشرت مآثر أهلها ومكارم أخلاقهم. ولما اشتد كرب تلك الفئة الباغية كنا نتمنىٰ لو أتت دولة البرابرة لتنقذنا من مخالبها فما بالك بدولة بريطانيا المتمدنة المشهورة بحسن السياسة ومزيد الكياسة ودهاء الرجال وسداد الأعمال فهل يظن أن يقابل معروفها بالغمط والكفران»!!

وإن ما جرىٰ علينا في الثورة المصرية لدرس بليغ بليغ في شأن الإعلام والقضاء!! درس لا ينساه إلا من اختار الضلالة علىٰ الهدىٰ.

(٩) سطوة الثقافة الغالبة:

هُزِمت الثورة العرابية، التي كانت ثورة علىٰ الاستبداد الخديوي والنفوذ الأجنبي المهيمن علىٰ البلد، ونزل الجيش الإنجليزي بنفسه لكي يحمي إمبراطورية الأجانب ومصالحهم في مصر، فما إن تم ذلك حتىٰ انقلب شأن التاريخ!

لقد اعْتُبِر عرابي هو السبب في الاحتلال الإنجليزي، وأنه لو كان أكثر مرونة لما وصلت البلاد إلىٰ الاحتلال، بل تمنىٰ الرافعي (والرافعي ممن أنصف



عرابي إلىٰ حد كبير، ولكن غَلَبَه طبعه القانوني وتوجهه القومي في التحليل والتأريخ) أن لو استجاب عرابي لمطلب الإنجليز والفرنسيين بمغادرة مصر. وظل عرابي منذ هزيمته ملوثا مذموما تنشأ الأجيال علىٰ أنه السبب في الاحتلال لا علىٰ أنه محاولة تحرر مجيدة!!

ومن المؤسف أن ممن ساهموا في تلويث عرابي وحركته أناس لا يُتَهَمون في إخلاص ولا وطنية ولا حمية علىٰ الدين والناس، ولكن عصر الهزيمة هو البيئة التي تنبت فيها بذور الأفكار الضالة، ومن أولئك الشيخ محمد عبده الذي اعتنق فكرة التربية والتعليم قبل أي شيء، وسار في فكرته هذه حتىٰ كان صديقا لكرومر وهجَر أستاذه الأفغاني ولم يكتب حتىٰ رثاء فيه! ثم لم يحقق شيئا ومات والاحتلال ممكن مستقر. ومنهم مصطفىٰ كامل ومنهم محمد فريد الذي كان يسميها «الثورة المشئومة». وظل عرابي مشتوما ملوثا طوال عصر أسرة محمد علي حتىٰ إن كتاب عبد الرحمن الرافعي عنه صودر، ولم يُنشر إلا بعد انقلاب يوليو ١٩٥٢ حين احتاج العسكر إلىٰ كل ما يطعن في أسرة محمد علي فرُفِع الإصر عن سيرة عرابي وثورته.

وعليه، فيجب أن نعلم أن انتصار الانقلاب العسكري هو انتصار لكل القيم المنحطة والوضيعة، وهو تلويث لكل الشخصيات الشريفة والقِيَم النبيلة.

(١٠) نقص الإنسان وتدبير الله:

ليس ثمة نظام كامل لا ثغرة فيه، لم يبلغ البشر بعد شأن الكمال، بل إن الإسلام -وهو المنهج الكامل- يعتري النقصُ تطبيقه لأن القائم علىٰ التطبيق بشر، ومن هنا نفهم أن العدو بشر وأنه مهما حرص علىٰ السيطرة علينا وصمم أنظمته ومؤسساته علىٰ قهرنا فإنه يخطئ وإن نظامه ناقص، ولا يخلو من ثغرات يجب أن تستفيد منها الثورة والمقاومة، بل إن كل نظام يحمل داخله بذور فنائه!

برغم توصية محمد علي لأولاده ألا يترقىٰ المصريون في سلك الجندية

وإلا ستكون نهاية أسرتهم إلا أن حفيده سعيدا فعلها فخرج من الجيش زعماء ثورة كادت تنهي حكم أسرتهم فعلًا. وقد أنشأ إسماعيل البرلمان ليكون سندا له أمام القوىٰ الأوروبية فصار بعدئذ مطلبًا ثوريًا يقيد حركته وحركة ابنه توفيق ويفتح الطريق لرقابة الشعب علىٰ السلطة. وقد أضعف الإنجليز الأزهر ليقضوا علىٰ جذور المقاومة فانبثقت مقاومتهم من فئة الأفندية لا الأزاهرة (لم يكن حسن البنا ولا معظم جماعة الإخوان أزاهرة)... وهكذا! وما من نظام يغلق طريقًا ويفتح طريقًا حتىٰ يكون الطريق الذي فتحه باب شر عليه، فالديمقراطية التي ينشرها الغرب تأتي له بالإسلاميين.

ومثلما ينبغي علىٰ الثورة والمقاومة أن تفكر خارج إطار النظام والمنظومة وبطريقة ثورية تتجاوز السقوف المفروضة عليها، مثلما ينبغي عليها أن تستفيد من كل خلل وتنفذ من كل نقص وتستثمر كل فرصة في الأنظمة القائمة، وهكذا فعلت كل ثورة ناجحة فلم توجد حركة انفلتت من واقعها من كل وجه وبدأت من الصفر تمامًا ثم نجحت.



الفصل الثالث

من ذاكرة الأيام

- في ذكرى هلاك فرعون: عشر عبر من عاشوراء.
- في ذكرى المولد: من عجائب البشارات بخاتم الأنبياء.
- في ذكرى سقوط صقلية الإسلامية.
- في ذكرى الهزيمة: قصة حرب السويس ١٩٥٦.
- في وفاته: التاريخ في فكر الشيخ محمد قطب.



في ذكرى هلاك فرعون:
عشر عبر من عاشوراء

كان يومًا واحدًا، ولكنه يوم فارق في تاريخ الإنسانية، ذلك يوم عاشوراء.. يوم هلاك الطاغية الذي ضربه الله مثلًا لكل الطغاة، ونجاة المظلومين المقهورين الذين ما كان يتوقع أحد أن يأتي لهم فرج أبدًا!

وكم في قصة هذا اليوم من الدروس والعبر، قد التقطنا منها عشرة، فالله المستعان!

١- **طبيعة الطاغية:** الذي جاءته الآيات تترىٰ فلم تؤثر فيه ولم يحفل بها، تسع آيات بينات لا يستطيع لها ردًّا ولا دفعا، ولكنه مع هذا لا يؤمن، حتىٰ جاءته الآية الهائلة الهادرة الضخمة، المعجزة الكونية الكبرىٰ؛ لقد انشق البحر أمامه فتحول إلىٰ طريق عبر عليه القوم، قد كان أحرىٰ به أن يتوقف، فلئن لم يتوقف ليؤمن فليتوقف ليفكر ويعيد النظر في هذا التغير الكوني الرهيب.. لكن الطاغية إذا بلغ حدَّ الفجور انغلق علىٰ عقله وخُتِم علىٰ قلبه، فسارع إلىٰ حتفه.. ثم لا يعود له شيء من العقل إلا بعد فوات الأوان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس:٩٠].

٢- **طبيعة العسكر:** وهم جنود الطاغية الذين كانوا ينفذون أوامره بلا نقاش ولا حتىٰ تفكير، فيقتلون ويعذبون ويضربون، هؤلاء كذلك ينغلق علىٰ فكرهم ويُخْتَم علىٰ قلوبهم، فيلحقون بسيدهم دون أن يتوقفوا أمام الدروس والعبر، ولو كانت هذه الدروس معجزة كونية هائلة تحول فيها البحر إلىٰ طريق يابس!!

ولذلك نهىٰ رسول الله ﷺ عن خدمة الظالمين وقال في الحديث الحسن: «**ليأتين علىٰ الناس زمان يكون عليكم أمراء سفهاء، يقدمون شرار الناس ويظهرون بخيارهم ويؤخرون الصلاة عن مواقتيها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفًا ولا شرطيًّا ولا جابيًا ولا خازنًا**».. لأن الظلم المؤسسي يطبع علىٰ قلوب أصحابه وينشئهم نشأة أخرىٰ تجعلهم يحسبون الأوامر دينا فلا يخالفونها بل ولا يفكرون فيها.

وهذا درس لجميع الناس أن يخافوا علىٰ أنفسهم هذا المصير مهما كانت إغراءات ومزايا هذا الصنف في الدنيا، وهو درس للمصلحين كذلك.. ليعلموا أن أبعد الناس عن صلاح الحال من كان عريقا في جوار الظالمين، وهذا درس لو فقهوه لتغير كثير من طرق تفكيرهم ووسائل دعوتهم ومناهج جهادهم.

٣- طبيعة الاستبداد: وكيف يصنع بالشعوب، فأولئك القوم من بني إسرائيل الذين عاشوا تحت ظل فرعون لم يستطيعوا التخلص من آثار الاستبداد في نفوسهم، لقد سحقهم الاستبداد وقهرهم، حتىٰ أنهم لم يرحبوا بالمنقذ المخلص ولو كان نبيا وقالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩]، وهم برغم ما رأوه من المعجزة الهائلة الكبرىٰ أتعبوا نبيهم غاية التعب، حتىٰ أنهم بعدما عبروا رأوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، ولما غاب عنهم عبدوا العجل، ولما أنزل الله عليهم المن والسلوىٰ قالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة:٦١] وبلغوا أن قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] وهم الذين لم يجرؤوا علىٰ التفكير في أن يروا فرعون جهرة قبل أن يخضعوا لجنوده!! ورفضوا الجهاد مع الوعد بالنصر بل فجروا فقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤]، حتىٰ قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آخر الأمر: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة:٢٥].

وذلك درس كبير: إن الشعوب التي طحنها الاستبداد لا تنطاع لمنقذ ولو كان نبيًّا، ولا تؤمن ولو شهدت المعجزات.. ولهذا فيجب علىٰ الدعاة أن يجعلوا كل مجهودهم منصبا علىٰ أن لا يكون استبداد، فإن الاستبداد يجعل كل عملهم هباءًا منثورًا، وربما جعلهم هم أنفسهم علىٰ هذه الشاكلة.

٤- طبيعة الشعوب: فقد تُعَظِّم الناس الأيام وتنسىٰ دلالتها، كذلك فعلت قريش فقد كانت تعظم عاشوراء لكنها لا تستوعب دروسه، وكذلك فعل اليهود فكانوا يصومونه، ولكنهم لم يؤمنوا لنبي الله محمد ﷺ، ومنهم من جاء بأخلاق الفراعين من جديد وكانت سيرته مع المصلحين كسيرة فرعون مع موسىٰ وهارون.

٥- طبيعة المصلحين: فهم يعاملون نسيان الشعوب بالتذكير والتكرار، ويأخذون بأيديهم بالصبر والرفق والحلم والأناة، يستخرجونهم من تحت سلطان الباطل وإن لم يكونوا طوعا لهم، ويصبرون علىٰ هدايتهم للحق وإن عاندوهم وخالفوهم، ويواجهون في سبيل استنقاذهم جبروت الطغاة الظالمين، ثم هم لا يرجون بعد ذلك أجرا ولا شكورا.

٦- طبيعة الأمة الإسلامية: فهي تأخذ الحكمة من حيث وجدتها، وتحتفي بالحق من أي طريق جاء، ولو كان من طريق عدوها، وبهذا تحتفظ الأمة بالنظر المستقل والنفس المطمئنة التي لا تتخوف من فحص ومطالعة ما عند غيرها، بل تتعامل معه تعامل الواثق بنفسه وبربه، وترىٰ نفسها أحق بكل حق وأولىٰ بكل خير، بل هي الأمة التي تصر علىٰ التفوق، وذلك قول نبينا ﷺ: «**نحن أولىٰ بموسىٰ منهم**»، ولقد كانت هذه الولاية ولاية عملية بمزيد صيام واحتفاء لا بمجرد الشعارات والهتافات، فندب النبي صيام تاسوعاء مع عاشوراء زيادة علىٰ ما يفعل اليهود. ذلك أن الأمة الإسلامية قد ورثت وحملت الرسالة من بعد ما ضيعتها بنو إسرائيل.

٧- قد ينزل نصر على من لا يستحق: كما نزل نصر الله علىٰ بني إسرائيل وأنجاهم من فرعون وهم لا يستحقون نصرا. ولكن تظل منظومة الباطل إن لم يكن ثمة أهل حق؛ فإن الحق لا يسود إلا إن نهض له من كان أهلا لحمل الرسالة، فعندئذ يزول الباطل ليأتي الحق، وإلا فإن الباطل الذي يهلك يعقبه باطل آخر يبدأ دورة أخرىٰ. فهكذا نجا بنو إسرائيل لكنهم لم يكونوا أهلا لتأسيس دولة حق، وهلك فرعون لكن خلفه في مصر فرعون آخر يقيم علىٰ مسيرة الباطل.

وهنا ينبغي أن ينتبه المصلحون ويتبصروا، فإن نزول النصر علىٰ قوم لا يعني أنهم استحقوه، بل لئن جاء نصر بغير استحقاق فعليهم أن ينتبهوا لما في صفوف هؤلاء من الأتباع فلا يعتمدون عليهم ولا يطمئنون إليهم، بل ليعلموا أن هذا فرج من الله علىٰ هيئة اختبار كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩] فيكون همُّهم أن يستكملوا مهمة الدعوة والإصلاح والتربية والإعداد والتكوين بعد أن منَّ الله عليهم بهلاك طاغية وزوال بطشه.

٨- تظل العبرة ولكن تحجبها الغفلة: فهذه جثة فرعون ملقاة في المتحف المصري، ولكن كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢]، وقد فحصها الطبيب والمستشرق الفرنسي موريس بوكاي، وكانت من أسباب إيمانه، وسجل هذا كله في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم»، ولكن كم من الناس من يهتم بها أو يهتم بالنظر إليها وأخذ العظة منها؟!.. وكم في هذه الدنيا من دروس وعبر تفيض من مشاهد الكون أو آثار السابقين أو تاريخ اللاحقين أو واقع المعاصرين، ولكن تحجبها الغفلة! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذه جثة فرعون.. ولكن كم في الأرض من فراعين!

٩- **ختام المعجزات وافتتاح الجهاد:** فإن يوم عاشوراء كان آخر يوم لتدخل السماء في إهلاك الأقوام المكذبين، لقد انتقلت هذه المهمة إلىٰ الأمة التي حملت الرسالة، كانت بنو إسرائيل أول الأمر، ثم صارت الرسالة والمهمة إلىٰ أمة محمد ﷺ، كما قال أبو سعيد الخدري: «إن الله تعالىٰ بعد إنزاله التوراة لم يُهْلِك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم؛ بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين».

وهكذا ينبغي أن تكون الأمة لكل مظلوم عاشوراء، وعلىٰ كل ظالم عاشوراء.



في ذكرى المولد:
من عجائب البشارات بخاتم الأنبياء

إن الله عدل حق، لا يظلم مثقال ذرة، ولا يعذب أحدًا حتىٰ تقوم عليه الحجة، وقد عرض الله في هذه الحياة من صميم آياته ودلائله وبراهنه ما يجعل المعرض عنها مستحقًا لعذاب أليم، فكلما انتقل الإنسان من صفحة في الكون إلىٰ أخرىٰ، أو من صفحة في التاريخ إلىٰ أخرىٰ، أو من صفحة في نفسه إلىٰ صفحة أخرىٰ، كلما طالعته الدلائل والبراهين والآيات، مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣].

وكان من سنة الله في التاريخ أن كان النبي المرسل في قومه يبشر بالنبي اللاحق، والنبي اللاحق يصدق النبي السابق[١]، ومما ينبغي أن يُعلم أن كثيرًا من النصارىٰ إنما يعتمدون في النبوات علىٰ بشارة الأنبياء بمن يأتي بعدهم، فيقولون: المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشرت به الأنبياء قبله[٢].

وقد كان أنبياء بني إسرائيل ينذرونهم سخط الله عليهم وعقابه علىٰ كفرهم وتركهم لوصاياه، وكذلك كانوا يبشرونهم برفع عذابه عنهم إذا تابوا من ذنبهم وأنابوا إلىٰ ربهم، ومما بشروهم به أنه تعالىٰ سيرسل فيهم مسيحًا ملكًا يجمع شملهم، ويعيد لمملكة صهيون مجدها، وأنه سيبعث نبيًّا رسولًا من بني إخوتهم (أي العرب) يجدد ملة إبراهيم وينصر التوحيد وأهله علىٰ الشرك وأهله، فكانوا

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، ابن القيم، ص١٦٠.
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٢/ ٣٠.

ينتظرون مسيحًا مبشَّرًا به يعبرون عنه (بالمسيح) معرَّفًا، ونبيًّا مبشرًّا به يتناقلون خبره معرَّفًا أيضًا، وفي آخر نبوة ملاخي آخر أنبيائهم قبل المسيح أن الرب سيرسل إليهم (إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف)(١) وإيليا عندهم هو إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكان قد خفي عليهم ما آل إليه أمره. فكان اليهود ينتظرون إيليا والمسيح والنبي، ففي إنجيل يوحنا أنه لما ظهر يوحنا أي الذي يلقبونه المعمدان (هو يحيىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) أرسل إليه اليهود من أورشليم بعض الكهنة واللاويين ليسألوه من هو؟ فسألوه: «أأنت المسيح؟ قال: لا، أإيليا أنت؟ قال: لا، آلنبي أنت؟ قال: لا، قالوا: أخبرنا من أنت لنجيب الذين أرسلونا؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبي(٢)»(٣). فهذا نص واضح يدل علىٰ تبشير الأنبياء ببعضهم، وعلىٰ أنهم كانوا يترقبون هذه البشارات.

وأوضح منه ذلك النص الذي يقول: «أُقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه»(٤). وسواء فسروه علىٰ أنه تبشير بشموئيل أو يوشع أو بالمسيح أو حتىٰ بنبي لم يظهر بعد كما ظهر ذلك في تأويلات لليهود والنصارىٰ(٥) لكي يصرفوا البشارة عن محمد ﷺ، فالشاهد الذي نود إثباته الآن هو اتفاق اليهود والنصارىٰ علىٰ أن الأنبياء يبشرون ببعضهم البعض.

ولقد أثبت القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ هذه الحقيقة، فقد جاء في القرآن الكريم ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء:١٩٦]، قال بعض المفسرين: أي إِنَّ

---

(١) ملاخي ٤/ ٥

(٢) يوحنا ١/ ٩: ٢٣.

(٣) مُلك اليهود وهيكلهم ومسيحهم والمسيح الحق، محمد رشيد رضا، مقال بمجلة المنار ٣٠/ ٥٤٦ وما بعدها.

(٤) التثنية ١٨/ ١٨.

(٥) انظر: هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، ابن القيم، ص٥١، ٥٢.

ذِكْرَ محمدٍ ﷺ في كتب الأَوَّلِينَ[(١)]. كذلك في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٧] فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه؛ فمجيئه هو نفس صدق خبره، فكأن مجيئه تصديقًا لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به»[(٢)]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد»[(٣)].

ولقد ذكر الله تعالىٰ أن التوراة والإنجيل بشرتا بمحمد ﷺ فقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وهو موصوف إلىٰ الحد الذي يجعلهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، كما ذكر النبي ﷺ أن الأنبياء الذين قبله بشروا به فقال: «**أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيم.. وَكَانَ آخِرُ مَنْ بَشَّرَ بِي عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ**»[(٤)].

ومن العجيب الذي تم كشفه مؤخرا في اللغة العربية، ويثبت تبشير الأنبياء ببعضهم، وتبشيرهم بنبينا ﷺ، ما جاء في كتب الديانات القديمة من بشارات، فلقد جاء فيها وصف دقيق وعجيب لصفات النبي ﷺ، ونحن نعتمد في هذا المبحث علىٰ الدراسة التي كتبها العالِم الهندي المسلم صفي الرحمن المباركفوري عن هذه البشارات في الكتاب الذي ألفه جماعة من العلماء تحت إشراف الشيخ صفي الرحمن، وهو بعنوان «وإنك لعلىٰ خلق عظيم»[(٥)].

---

(١) تفسير مقاتل، مقاتل بن سلمان، ٢/ ٤٦٤؛ النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ١٨٧؛ معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، ٦/ ١٢٩؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٣٨؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، ٦/ ٣٢٢.

(٢) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، ابن القيم، ص١٦٠.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٣/ ٥٠.

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٣٩٣ بإسناد فيه ضعف ولكن له شواهد عند أحمد والطبراني، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٦).

(٥) وإنك لعلىٰ خلق عظيم، تأليف مجموعة من العلماء، إشراف، صفي الرحمن المباركفوري، =

(١) في كتاب «الساما فيدا» أحد الكتب المقدسة لدىٰ البراهمة: «أحمد تلقىٰ الشريعة من ربه، وهي مملوءة بالحكمة، وقد قُبِست من النور كما يُقبس من الشمس».

(٢) وفي كتاب «ندا أفستا» بشارة عن رسول يوصف بأنه «رحمة للعالمين»، ويتصدىٰ له عدو يسمىٰ بالفارسية القديمة أبو لهب، ويدعو إلىٰ إله واحد لم يكن له كفوًا أحد، وليس له أول ولا آخر، ولا ضريع ولا فريع، ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا ولد، ولا مسكن ولا جسد، ولا شكل ولا لون ولا رائحة.

(٣) وفي الكتب الزرادشتية: «إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعُه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام... وإن نبيهم يكون فصيحا يتحدث بالمعجزات».

(٤) وفي كتاب بفوشيا برانم: «في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم (محامد) الملقب بأستاذ العالم». وفي هذا الكتاب نفسه صفة لهؤلاء الأصحاب: «يختتنون، ولا يربون القزع[1]، ويربون اللحىٰ، وينادون الناس للدعاء بصوت عال[2]، ويأكلون أكثر الحيوانات إلا الخنزير».

(٥) وفي كتاب أتهرو ويد -وهو من الكتب الأربعة المقدسة في الهندوسية- جاء: «١ اسمعوا أيها الناس باحترام، إن نراشنس[3] يُحمد ويُثنىٰ عليه، ونحن

= ١/ ٣٦١ وما بعدها، وإننا نوصي بالرجوع إليه ففيه التفصيل الذي لا يسعه المقام هنا، كما أورد المؤلف النصوص الأصلية التي ننقل هنا ترجماتها.

(١) القزع: هو أن يحلق الصبي بعض شعره ويترك بعضه، لا سيما في مقدمة الرأس، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن القزع كما في الحديث الصحيح عند البخاري والنسائي.

(٢) إشارة إلىٰ الأذان.

(٣) نراشنس: كلمة مكونة من مقطعين: (نر) ومعناه الإنسان، (أشنس)، ومعناه: مَنْ يُحْمَدُ ويُثْنَىٰ عليه بكثرة، فهو مرادف لـ«محمد».

نعصم ذلك الكورم[١] بين ستين ألف عدوٍّ وتسعين عدوًّا[٢]. ٢ يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتي عشرة امرأة، ويحصل له من علو المنزلة، وسرعة المركب أنه يمسُّ السماء ثم ينزل[٣]. ٣ أعطي للرسول (مامح)[٤] مئة دينار ذهبي وعشر قلائد وثلاثمائة جواد وعشرة آلاف بقرة[٥]. ٤ بلِّغ يا أحمد بلغ كما تغرد الطيور علىٰ شجرة يانعة الثمار، لسانك وشفتيك تتحرك مثل نصلي المقص. ٥ الحَمَّادون مع محامدهم -أو المصلون مع صلواتهم- يسرعون إلىٰ الحرب مثل

(١) الكورم: يُحتمل في اللغة السنسكريتية أن يكون معناها «المُهَاجِر»، أو «من يَبْسُط الأمن والسلام»، وفي الحالتين يصدق الوصف علىٰ نبينا محمد، فهو قد هاجر من مكة إلىٰ المدينة، والهجرة من أبرز الأحداث في سيرته، وهو كذلك «باسط الأمن والسلام»؛ فلقد كانت الجزيرة العربية تشتعل حروبا بين قبائل العرب، وبين العرب والفرس، وبين اليهود والنصارىٰ في اليمن، وصارت بعد دخولها في طاعةته آمنة، ويتوقَّع الشيخ صفي الرحمن المباركفوري أن (كورم) قد تكون تحريفًا لكلمة (قُرم) العربية، التي تعني «السيد المعظم» [انظر: المعجم الوسيط، ص٧٣٠]، وهي بهذا المعنىٰ -أيضًا- تصدق علىٰ محمد ﷺ، انظر: وإنك لعلىٰ خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري (إشراف)، ١/ ٣٧١.

(٢) واجه النبي ﷺ -كما قال الشيخ صفي الدين- من الأعداء: عشرة آلاف من العرب -كانوا في غزوة الأحزاب- ومثلهم من اليهود من قبائل شتىٰ، وأربعين ألفا من النصارىٰ في تبوك، وتسعين من المنافقين تخلف منهم عن تبوك ثمانون وخرج معه اثنا عشر أو ثلاثة عشر، وفق الله ثلاثة منهم للتوبة، فبهذا يبلغ مجموع أعدائه ستين ألفا وتسعين، قال: «ولا نعرف في التاريخ نبي حصل له مثل هذا». انظر: وإنك لعلىٰ خلق عظيم، ١/ ٣٨١.

(٣) إشارة واضحة لحادثة المعراج.

(٤) ما أقرب (مامح) من (محمد)، فإن لم يكن هذا تصحيفا أو نقصا حصل في النقل والترجمات، فإن «مامح» باللغة السنسكريتية إنما تعني «محمد العظيم»، أي أن التطابق قائم في اللغة وفي المعنىٰ كذلك. انظر: وإنك لعلىٰ خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، ١/ ٣٨٦.

(٥) مائة دينار ذهبي إشارة إلىٰ المهاجرين إلىٰ الحبشة الذين بلغوا مائة، وعشر قلائد (ومن معانيها في السنسكريتية عشرة سادات أو رؤساء): إشارة إلىٰ العشرة المبشرين بالجنة، وثلاثمائة جواد إشارة إلىٰ أهل بدر، وعشرة آلاف بقرة (والبقرة في السنسكريتية ترمز إلىٰ الرجل الصالح الكريم) إشارة إلىٰ عدد جيش النبي في فتح مكة. انظر: وإنك لعلىٰ خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، ١/ ٣٨٦: ٣٨٨.

الثور القوي. وأولادهم في بيوتهم آمنون (مثل) البقرات في مرابضها. ٦ يا أحمد خذ هذا الكلام الحكيم بقوة، فهو أساس البقر والأموال[1] وأبلغه إلىٰ المتقين، كما يرمي البطل السهم علىٰ الهدف. ٧ هو سيد العالم، قدوس، أفضل البشر، هدىٰ للناس كافة، معروف لدىٰ الأمم جميعا، فتغنوا بأفضل الثناء عليه».

(٦) وفي كتاب «كلكي بوران» في الهندوسية: «إن كلكي أوتار يولد من سومتي لرجل اسمه وشنو ويش». وكلكي أوتار هو الرسول الذين ينتظره الهندوس، وصفاته في كتب الهندوسية تنطبق علىٰ نبيينا ﷺ، وفي هذه الترتيلة نجدها تتحدث عن أبيه وأمه؛ إذ معنىٰ سومتي: آمنة، ومعنىٰ وشنو ويش: عبد الله. وفي نفس الكتاب يرد أن والد كلكي أوتار يموت قبل ولادته، وأما أمه فهي أيضا تموت في زمن قريب من مولده. وفي تفس الكتاب أن كلكي أوتار يذهب إلىٰ غار في جبل وهناك يتلقىٰ العلم من «برشو رام». وهذا الاسم يعني عند الهندوس مَلَك من الملائكة، ومن العجيب أنه يمكن أن يترجم إلىٰ روح القدس. ونجد في الكتاب أيضًا تفاصيل أخرىٰ في غاية العجب والتطابق عن دعوته وإيذائه من قومه ودار هجرته

(٧) وفي كتاب «بهاكوت بوران»: «إن كلكي أوتار يولد في «شنبل غرام» لـ «ويشنو ويش» في بيت سيدهم الديني». وإذا ترجمنا شنبل غرام فهي تعني البلد الآمن أو الأمين، وسبق أن ذكرنا أن ويشنو ويش معناها: عبد الله.

ونحن نكتفي في هذا المقام بهذا القدر، إلا أننا نرجو من الباحثين المتخصصين في الديانات الشرقية والقديمة أن يلجوا هذا الباب الذي فتحه العلامة الشيخ صفي الرحمن، فسيجدون مصداق قول الله ورسوله في بشارات الأنبياء، وفي انتشارهم بطول الأرض وعرضها ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

---

(١) إشارة إلىٰ السيادة في الدنيا والغلبة علىٰ الحكم والأموال.

نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ [فاطر:٢٤]، وحينها يرىٰ الناس آيات الله وبراهينها فيؤمنوا، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا[١].



(١) استغرق إحصاء هذه البشارات ١١٧ صفحة، ونعيد التوصية بالرجوع إليها للاطلاع علىٰ المزيد مما لم يسعفنا المقام بنقله.

في ذكرى سقوط صقلية الإسلامية

يعرف المسلمون أن ثمة أرضًا كان اسمها الأندلس ضاعت منهم، ولكن البلاد التي ضاعت -غير الأندلس- كثير، ومن المؤسف أن أغلبها ما زال مجهولا لعامة المسلمين، ومن هذه البلاد جزيرة صقلية (الإيطالية الآن) والتي ظلت تحت الحكم الإسلامي لنحو قرنين من الزمان، صعدت فيهما علىٰ خارطة التاريخ، فلما أن سقط عنها الحكم الإسلامي، عادت مرة أخرىٰ جزيرة غير ذي قيمة، وما زالت حتىٰ هذه اللحظة من المناطق التي لا تبلغ ما وصلته النهضة الأوروبية في مناطق الشمال الإيطالية.

وبخلاف أطلال مسجد بالقرب من كنيسة القديس يوحنا في بالرمو، وقصر الفوارة، لا يوجد في صقلية أي مباني إسلامية ترجع إلىٰ فترة الحكم الإسلامي.

صقلية قبل الفتح الإسلامي:

تعد كتابات المفكر والمؤرخ الإيطالي الكبير ميشيل أماري هي العمدة التي يعتمد عليها الباحثون في كل العالم -تقريبا- حين يحاولون التأريخ لجزيرة صقلية، وخصوصا الفترة الإسلامية التي ضَمَّنَها كتابه الكبير (تاريخ مسلمي صقلية) (Storia Dei Musulmani Di Sicilia)، والذي بذل فيه جهدا عظيما في البحث من خلال المصادر والمراجع العربية واللاتينية واليونانية والوثائق والنقوش، ومؤلفات من قبله.

وخلاصة ما سجله ميشيل أماري عن تاريخ صقلية قبل الفتح الإسلامي يتمثل في النقاط الآتية:

١- كانت صقلية فريسة لجشع المحصلين تدفع ضريبة علىٰ الأملاك،

وأخرىٰ علىٰ الرؤس، وإتاوات علىٰ التجارة والصناعة، وزيادات إضافية علىٰ الضريبة الأولىٰ، وضرائب للجند، وأخرىٰ للملاحين، وأموالا يبتزها الموظفون ويزيدون بها الحمل ثقلًا.

٢- وصل الحال في نهاية القرن السادس الميلادي، إلىٰ درجة خطيرة حتىٰ إن أحد الجباة أجبر الرعايا العاجزين عن دفع المال علىٰ تقديم أبنائهم، واستطاع موظف تافه الشأن في صقلية أن يصادر الممتلكات بالقوة، ويقول القديس جريجوريو: «نحتاج إلىٰ مجلد لنفصل الجور الذي سمعنا به من هذا القبيل».

٣- كانت الكنيسة أيضًا تتحكم في صقلية، وكانت لها أملاك يفلحها لهم طبقة من الفلاحين تشبه طبيقة العبيد في ارتباطها بالأرض ودفعها للضرائب تسمىٰ (الكولونيين coloni)، وكانت تلك الأراضي تمد الكنيسة كل عام بأسطولين محملين بالقمح، وإذا غرقت المؤن في البحر أو نهبت قبل وصولها، طولب الكولونيون بالتعويض.

٤- أهملت الدولة البيزنطية جيش صقلية، فأصبحت وارداته قليلة مما اضطر القادة والحكام إلىٰ طرق خطيرة النتائج، فكان القائد مثلًا يعهد بأرضه إلىٰ جماعة من الجنود كي يفلوحها ويفيدوا من حاصلاتها دخل في صفوف الجيش جماعة من الفقراء الذين رضوا أن يتقاضوا أجرًا قليلًا، وحل هؤلاء بجهلهم محل العسكريين أصحاب الدربة القديمة، وبهذا أصبح الجيش سيئًا وأصبح الجنود مجرد حاشية للقائد فأصبحوا جزءًا من مشكلة الأمن والحماية بعكس ما يفترض بهم.

٥- وكانت الجزيرة أيضًا من وسائل العقوبات باعتبارها منفىٰ، فكثيرًا ما امتلأت بالفقراء وصغار الملاك ممن لم يستطيعوا دفع الضرائب، فعوقبوا بالنفي، ثم اضطر هؤلاء بعد فترة إلىٰ التحول إلىٰ عبيد.

٦- وكانت الحالة الدينية تشبه حالة هذه العصور من حيث سيطرة الخرافات والأوهام علىٰ الناس والمجتمع.

ويلخص أماري الوضع بعبارة واحدة في قوله: «تلك هي حال الجزيرة بين أطماع الحكومة والكنيسة وفساد حال الجيش، ومن ثم لم يكن المجتمع الصقلي في ظل الدولة البيزنطية مجتمعًا سعيدًا ناهضًا مكفول الحرية»[1].

الفتح الإسلامي لصقلية:

كانت صقلية بموقعها الجغرافي إحدىٰ مناطق خط الاحتكاك بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، فخرجت غزوات عربية إلىٰ صقلية، وخرجت كذلك حملات بحرية من صقلية، كثيرا ما أسرت تجارا من المسلمين في البحر، وجاء سبب الدخول الإسلامي لصقلية (ربيع الأول ٢١٢ هـ/ يونيو ٨٢٧م) حين تغير الوضع في الجزيرة، إذ عيَّن الإمبراطور ميخائيل الثاني علىٰ صقلية الوالي قسطنطين في عام (٢١١ هـ/ ٨٢٦م)، الذي لم يلبث قليلا حتىٰ دخل في صراع مع قائد الأسطول (فيمي Euphemius)، إذ أمر الإمبراطور أن قسطنطين أن يقبض عليه أو أن يعاقبه لجريمة تعزوها المصادر الأوروبية لقصة حب وزواج بالإكراه من راهبة، وعندها ثار فيمي علىٰ قسطنطين، وانتصر عليه وأعدمه، ثم أعلن نفسه إمبراطورا، ولكن لم يلبث الأمر إلا قليلا حتىٰ ثار عليه أحد رجاله ويدعىٰ (بلاطه) وأعلن ولاءه للإمبراطور ميخائيل وهزم فيمي الذي انسحب هاربا إلىٰ شمال إفريقيا التي يحكمها في ذلك الوقت أمراء الدولة الأغلبية التي بدأ حكمها في عهد الرشيد واستقر أمرها في عصر المأمون الذي امتد من (١٩٨ هـ - ٢١٨ هـ) ويظلل هذه اللحظة التاريخية.

هذا هو التطور التاريخي في الجانب الصقلي، وهذه التطورات لم تكن

(١) د. إحسان عباس: العرب في صقلية، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٥ م. ص٢٥ وما بعدها.

بعيدة لا بالجغرافيا ولا بالتأثير عن المسلمين، إذ بمجرد ظهور فيمي علىٰ الساحة وهو قائد الأسطول، بدأ نقض للسلم الذي كان تم إبرامه بين الأغلبة وحكام صقلية فغزا فيمي سواحل إفريقية، فنهب وأسر وبقىٰ محتلا للسواحل فترة[1]، ثم وجود أسرىٰ من المسلمين في سجون صقلية، كل هذا يعني أن الأوضاع قد تغيرت في صقلية وانتهت المعاهدة، ثم هذا فيمي قد جاء يطلب المساعدة مع التعهد بأن يكون تابعا للأغالبة، بما ينهي -علىٰ الأقل- لفترة طويلة تلك المخاطر التي تأتي من صقلية، إلىٰ جانب أن الفتح الإسلامي له نظرية خاصة في نشر الخير وتوفير الحرية الإنسانية للشعوب المفتوحة بما لا يمكن عزله عن القيم الإنسانية التي طبقها الإسلام واقعيا، ولا يمكن مقارنة الفتوح الإسلامية بحركات التوسع الامبراطورية التي لم تهدف إلا لزيادة السيطرة ونقل خيرات البلاد إلىٰ عاصمة الامبراطورية.

انطلق الأسطول الإسلامي بقيادة الفقيه المالكي الكبير أسد بن الفرات، ومعه قوات فيمي، لتدخل صقلية، ولتبدأ الأيام الصقلية تبرز علىٰ مسرح التاريخ الإنساني[2].

صقلية الإسلامية تتألق:

تألقت صقلية الإسلامية علىٰ مستويين: المستوىٰ الإنساني، والمستوىٰ المادي. فعلىٰ المستوىٰ الإنساني أصبحت صقلية متحفا ثقافيا مفتوحا زاخرا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ، ٥/ ٤٣٦، النويري: نهاية الأرب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ ٢٤/ ٣٥٦.

(٢) انظر في تفاصيل الفتح ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤٣٦ وما بعدها، النويري: نهاية الأرب ٢٤/ ٣٥٦ ومابعدها، د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامي، ترجمة وتعليق: د. أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٠م. ص١٣ وما بعدها، إحسان عباس: العرب في صقلية ص٣١ وما بعدها.

بالبشر من شتىٰ أجناسهم وألوانهم وأديانهم، وهذا ما سجله الراهب ثيودوسيوس -كما نقله عنه ميشيل أماري- بقوله: «حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتىٰ كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرق إلىٰ غرب ومن شمال إلىٰ جنوب، وبين أهلها من صقليين وإغريق ولمباردين ويهود ترىٰ العرب والبربر والفرس والتتار والزنوج، بعضهم يرتدي العباءة والعمامة، وبعضهم يلبس الجلود وفيهم أنصاف عراة وثمة وجوه مستطيلة أو مربعة أو مستديرة من كل سحنة وهيئة، ولحىٰ من كل لون طويلة أو قصيرة»[١].

هذا المتحف في حد ذاته دليل علىٰ الروح الإسلامية الحضارية، لا سيما في ذلك الزمن البعيد الذي لم يُعرف فيه التسامح العرقي والديني في أوروبا، لكن التألق الإنساني لا يقف عند حد الوجود، بل يُقِر المستشرق والفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون بأنه قد «تُرِك لنصارىٰ صقلية كل ما لا يمس النظام العام، فكان للنصاري، كما في زمن الروم، قوانينهم المدنية والدينية، وحُكَّام منهم للفصل في خصوماتهم، وجباية الجزية السنوية التي فرضها العرب عليهم وهي ٤٨ دينارا عن كل غني، و٢٤ دينارا عن كل موسر، و١٢ دينارا عن كل من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية التي هي دون ما كان يأخذه الروم، لا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد»[٢].

كان منطقيًّا أن يكون أكثر المتأثرين بالفتح الإسلامي، تلك الطبقة من العبيد والفلاحين الكولونيين، فإنهم كانوا أسرع الطبقات إلىٰ اعتناق الإسلام، بل وتكوين الجيش المسلم في صقلية[٣]، وهذا المشهد -مجاهدة قوم من

---

(١) Amari: S. D. M. vol . 2.p.49 نقلا عن: د. إحسان عباس: العرب في صقلية، ص٦٤.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م. ص٣٠٩.

(٣) د. إحسان عباس: العرب في صقلية، ص٦٣.

الأقطار المفتوحة تحت راية الإسلام- قد تم في كل البلاد التي فتحها الإسلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

استطاع الإسلام تخليص الصقليين من الإقطاعيات الكبرىٰ التي مثلت الجرح العميق لها فيما قبل الإسلام، وكان هذا بفضل نظام الميراث الإسلامي الذي يفتت الملكيات الكبيرة -بعكس النظام السائد حينذاك[١]- ففي «فترة قصيرة قضىٰ نظام الإرث الإسلامي علىٰ هذه الإقطاعات. وفي القرن الثاني عشر نجد في ولاية «مازر» أسماء عربية كثيرة تملك مساحات صغيرة من الأرض ولكن النظم الإسلامية لم تكد تنقذ صقلية من الإقطاعية الكبيرة حتىٰ عادت هذه إليها [بعد سقوط المسلمين] مع الفتح النورماني»[٢].

وتمثل جزيرة صقلية واحدة من الأمثلة الواقعية علىٰ أن الإسلام ليس مجرد رسالة روحية، ذلك أن النهضة الإسلامية التي بعثها الإسلام في الأراضي التي فتحها لم تكن ارتفاعا بالمستوىٰ الروحي الأخلاقي فحسب، بل شملت النهضة المادية كذلك، ففي الإسلام ليس ثمة انفصال بين ما هو روحي ديني وما هو مادي دنيوي.

وفي استعراض الحال إبان القرنين اللذين عاشتهما صقلية في ظل الإسلام، نجد أن القيم الأخلاقية والمعاني الإنسانية التي دخلت إلىٰ صقلية، وإلىٰ أوروبا، مع الفتح الإسلامي قد رافقتها عمليات نهضة علمية أيضًا، ومثلت صقلية أهمية خاصة في التاريخ كونها كانت أحد المعابر التي نقلت الحضارة الإسلامية إلىٰ الغرب.

---

(١) كان الغربيون يورثون أملاك الفرد إلىٰ ابنه الأكبر فقط تفاديا لتفتت الملكيات الكبيرة ويرون في هذا ضياعا لثروة الأسرة، وكان هذا النظام يسبب قلاقل اجتماعية داخل الأسرة الواحدة وشقاقا بين الإخوة، فضلا عن ترسيخه لنظام الملكيات الكبيرة الإقطاعية التي تجعل المجتمع بين فئتين: قلة تمتلك الثراء والأملاك، وكثرة كاثرة من العبيد والفلاحين والأجراء.

(٢) Amari: S. D. M. vol .2 pp40 – 41، نقلًا عن: د. إحسان عباس: العرب في صقلية، ص٧٠.

الزراعة:

شهدت الزراعة في صقلية طفرة كبيرة، فبعد أن كانت الجزيرة في أيام البيزنطيين تهتم بالقمح والكرمة، أدخل المسلمون إليها محاصيل جديدة منها: الليمون والبرتقال والقصب والأرز والنخيل والقطن والبردي والسكر، حتىٰ **نشأت في صقلية أساليب زراعية** تلائم بيئتها وأصبحنا نسمع في كتاب الفلاحة بما يسمىٰ طريقة صقلية في زراعة البصل مثلًا أو عادة أهل صقلية في زراعة القطن أو طريقهم الخاصة في عمل معنب من عصير العنب الحلو. وأكثر الناس من زراعة الخضروات. وكانت بلرم وضواحيها عامرة بالبساتين والأجنة والطواحين. ويذكر المقدسي كثرة الفواكه والخيرات والأعناب في بلرم وضواحيها، ولم يغير الفتح النورماني كثيرًا من عمران صقلية ولذلك نستطيع أن نعتمد علىٰ ما كتبه الإدريسي لنتصور الحالة الزراعية بصقلية في العصر الإسلامي. وليس هنالك من بلد مذكور من صقلية -في نزهة المشتاق- لا يقترن به ذكر البساتين والمتنزهات والمياه والمزارع الطيبة وسائر القلاع والحصون، داخلية كانت أو ساحلية. وحول شنت ماركو خاصة كان يكثر البنفسج ذو الرائحة الفائحة العطرة[1].

كانت الجزيرة تتمتع بالموارد الكافية ولم ينقصها إلا قوم يجيدون تنظيمها وإدارة مواردها، يشرح هذا المؤرخ الأمريكي المعروف ول ديورانت بقوله: «كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس، فقد كانت تربتها غاية في الخصب، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم، وأضحت بالرم (باليرمو) ثغرًا تجاريًا عظيمًا بين أوربا المسيحية وإفريقية الإسلامية؛ وما لبثت أن صارت من أغنىٰ المدن في بلاد الإسلام»[2]، ولنا

---

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٥ م. ص٧٢، ٧٣

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: مجموعة، الهيئة المصرية للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م. ١٣/ ٢٧٩



أن نتخيل حجم الإخصاب والإعمار الذي يجعل هذه الجزيرة التي تعد من ضمن البقاع الجغرافية غير المحسوبة في ميزان البلاد، يجعلها من أغنىٰ المدن في بلاد الإسلام!!

وقد أرجع مؤرخ صقلية ميشيل أماري بداية النهضة الحقيقية في الزراعة إلىٰ النظام الإسلامي في محاربة الإقطاع، فبعد أن كانت مشكلة صقلية في الإقطاعيات الكبيرة لم يمض وقت كثير حتىٰ «قضىٰ نظام الإرث الإسلامي علىٰ هذه الإقطاعات» مما جعل عددًا كبيرًا من الناس يملك مساحات أصغر من الأرض[١]، مما عاد بالخير علىٰ الزراعة في صقلية.

الصناعة:

وامتدت النهضة من مجال الزراعة إلىٰ مجال الصناعة التي اعتمدت علىٰ الحاصلات النباتية والحيوانية والمعدنية فقامت صناعة السفن علىٰ الخشب وعلىٰ الحديد، وكان القطن يصدر بكثرة إلىٰ البلاد الأفريقية، وكان الكتان الصقلي ذا شهرة واسعة لجودته الفائقة وأسعاره الرخيصة، حتىٰ يذكر ابن حوقل أن ثياب الكتان فيها لا نظير لها جودة ورخصًا، وتم استثمار المعادن الموجودة في صقلية كالكبريت والشب والزفت والقطران، وعلىٰ ثروة الغابات الخاصة من جبل إتنا الذي يؤخذ منه الجوز والقسطل وخشب الأرزن أضف إلىٰ ذلك مستخرجات البحر والأنهار كسمك التن والمرجان[٢].

وبهذا كانت صقلية أحد أهم المعابر لحضارة الإسلام إلىٰ الغرب الأوروبي، وتمثل أهم إنجاز للمعبر الصقلي في نقل «صناعة الورق» إلىٰ الغرب، وتحديدًا من صقلية إلىٰ إيطاليا ومن الأندلس إلىٰ فرنسا كما يقرر مؤرخ الحضارة ول ديورانت[٣].

---

(١) Amari: S. D. M. vol . 2 pp40 – 41 نقلًا عن: د. إحسان عباس: العرب في صقلية ص٧٠.

(٢) د. إحسان عباس: العرب في صقلية ص٧٣ وما بعدها.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠

وأهم ما أحدثه نقل صناعة الورق إلىٰ أوروبا أنه أخرج أوروبا من الظلمات إلىٰ النور، فصناعة الورق -بتعبير زيجريد هونكه- هي في الحقيقة «إحدىٰ دعائم الثقافة والحياة الرُّوحية، وبذلك فتح المسلمون عصرًا جديدًا لم يَعُدِ العِلْمُ فيه وَقْفًا علىٰ طبقة مُعَيَّنة من الناس، بل غدا مَشاعًا للجميع، ودعوة لكل العقول لأن تَعْمَلَ وتُفَكِّر»[1].

ونقلت صقلية إلىٰ أوروبا فن صباغة المنسوجات التي يؤكد جوستاف لوبون أن كل الأدلة تؤدي إلىٰ هذه النتجية، يقول: «يحمل كل شئ علىٰ القول بانتشار فن صباغة المنسوجات في أوروبا من صقلية»[2].

وقد استدعت النهضة الصناعية تعدد الحرف في أيدي الناس. وفي بلرم وحدها عدَّ ابن حوقل أصنافًا كثيرة منها وذكر أن أهل حرفة سوقًا. فبين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة كانت تقع أكثر الأسواق كسوق (الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة وأسواق القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وطائفة من القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والرياحين والجرارين والخبازين والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين خارج المدينة. وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم والقليل منهم برأس السماط ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاءون». وهذه الفقرة الإحصائية غنية بالدلالة علىٰ حال السوق في بلرم أثناء العصر الإسلامي[3].

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع علىٰ الغرب، رجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسىٰ الخوري، دار صادر، الطبعة العاشرة - بيروت، ٢٠٠٢م. ص٤٦.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م. ص٣١٠.

(٣) إحسان عباس: العرب في صقلية ص٧٥.

لكل هذا يقرر لوبون أن العرب «انتشلوا وبسرعة الزراعة والصناعة من الانحطاط الذي كانتا فيه، كما انتعشت التجارة واتسع نطاقها بعد أن كانت صفرا تقريبا»[١].

النهضة العمرانية:

يصف الجغرافي الكبير الإدريسي، وقد كان من العلماء الذين عاشوا في رعاية الملك روجر، مدينة بلرم، عاصمة المسلمين في صقلية، والتي استمرت عاصمة الملوك النورمان فيما بعد فيعطينا بانبهاره صورة عما وصلت إليه حاضرة صقلية من ازدهار في عهد المسلمين، إذ لم يكن مر من الوقت ما يتيح للنورمان أن يصنعوا فيها حضارة، ومما قال فيها: «المدينة السنية العظمىٰ والمحلة البهية الكبرىٰ. والمنبر الأعظم الأعلىٰ علىٰ بلاد الدنيا وإليها في المفاخر النهاية القصوىٰ ذات المحاسن الشرائف ودار الملك في الزمن المؤتنف والسالف ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هي الآن عليه من ذاك وهي علىٰ ساحل البحر منها في شرقيها والجبال الشواهق العظام محدقة بها وساحلها بهيج مشرق فرج ولها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها.

وهي علىٰ قسمين قصر وربض فالقصر هو **القصر القديم** المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته علىٰ ثلاثة أسمطة فالسماط الأوسط يشتمل علىٰ قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسماطان الباقيان فيهما أيضًا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الحمامات والفنادق كثير وبها الجامع الأعظم الذي كان في الزمن الأقدم وأعيد في هذه المدة علىٰ حالته كما كان في سالف الأزمان وصفته الآن تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣١٠

المنتجة المخترعة من أصناف التصوير وأجناس التزاويق والكتابات. وأما الربض فمدينة أخرىٰ تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة التي بها كان سكنىٰ السلطان والخاصة في أيام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التي هي للإنشاء.

والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالجملة فتنة للناظرين»[1].

ومما يقول ابن جبير، الجغرافي الأندلسي الشهير، الذي زار صقلية في عام (٥٨٠ هـ / ١١٨٤م) عن وصف بلرم: «أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة مونقة، تتطلع بمرأىٰ فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشان، قرطبية البنيان ... تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب، ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب ...»[2].

قصة السقوط:

كانت إيطاليا في ذلك الوقت منقسمة علىٰ نفسها بين القوىٰ الحاكمة، كانت تعيش ما يمكن أن نسميه «عصر ملوك الطوائف»، فكانت بوليا وقلوريا تابعتان للامبراطورية البيزنطية، بينما كانت بينيفيتو وكابوا وساليرنو إمارات لمباردية، فيما كانت جايتا ونابولي وأمالفىٰ جمهوريات صغيرة مستقلة.

وتعد ظروف الانقسام والحروب الداخلية هدفا مغريا للمغامرين الطموحين،

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩ هـ. ٢/ ٥٩٠، ٥٩١.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولىٰ. ص٣٠٥، ٣٠٦

لا سيما إن كانوا مجموعة من العصابات المرتزقة التي تقطن شمال فرنسا، فهم يوفرون عدة للأمير الذي يريد شن الحرب ما دام يملك الأموال، وبتوالي الأحداث ظهر مغامرون أكثر جرأة طمحوا في أن يستولوا علىٰ هذه البلاد لحسابهم هم بعد أن ضاقت بهم فرنسا الفقيرة.

أتت عصابات النورمان من الشمال الفرنسي لتساعد أمراء الحرب في إيطاليا، وكان مستقرهم الأول في مدينة ساليرنو علىٰ الساحل الغربي لإيطاليا، وحيثما أرادوا التوسع فقد اتجهوا نحو الأملاك البيزنطية، جنوبا وغربا، ونحو الجمهوريات الصغيرة المستقلة شمالا وفي الشمال الشرقي.

توسع النورمان في إيطاليا، واستطاعوا تحقيق انتصارات كبرىٰ علىٰ الإمارات البيزنطية في عهد قائدهم وليام (ت ١٠٤٨م) الملقب بـ «صاحب الذراع الحديدي» (William of the iron Arm)، وأخيه دروجو (Drogo) (ت ١٠٥١م)، فتولىٰ أخوه روبرت جيسكارد زعامة النورمان وبدأ التوسع في منطقة قلوريا في الجنوب الغربي لإيطاليا، وهو الجزء المتاخم لصقلية، ثم اقتسم المهام مع أخيه روجر، فتولىٰ جيسكارد التوسع النورماني في الشمال والشرق مع البيزنطيين، فيما تولىٰ روجر التوسع في الجنوب تحت قيادة أخيه.

كان النورمان عصابات مرتزقة، تكتسح بلا تردد وتقتل بلا رحمة وتحرق الكبار مع الصغار، ولا تفرق بين الرجال والنساء والعجائز والأطفال، وبلغوا من الوحشية حدًّا فظيعًا جعل البابا ليو التاسع في روما يتحالف مع الامبراطور البيزنطي رغم كل الخلافات السياسية والدينية العميقة، لإيقاف هذا الطوفان الوحشي، ولكن يد النورمان كانت الأعلىٰ، بل استطاعوا هزيمة البابا وأسره (١٠٥٣ م).

بعد ست سنوات من هذه المعركة لم يكن أمام البابا نيكولاس الثاني إلا أن يعطي الشرعية لجيسكارد، ويوليه علىٰ المناطق الجنوبية الإيطالية (قلوريا،

أبوليا، صقلية)، وهي المناطق التي يسيطر عليها فعليا أخوه روجر!

استمر التوسع النورماني إلىٰ أن استولوا (١٠٦٠ م) علىٰ مدينة ريو (ريجو) التي تعتبر المدخل إلىٰ صقلية، وهنا سنركز علىٰ المشهد في الجنوب مع روجر، تاركين مشهد الشمال وتوسعات جيسكارد.



تعتبر مدينة ريو (ريجو) بوابة صقلية

أحوال المسلمين :

أما المسلمون، فقد جرت عليهم سنة الله في خلقه، وقد هدموا أنفسهم قبل أن يهدمهم عدوهم، وفقدوا الجزيرة عبر ثلاثين سنة (٤٥٣ - ٤٨٤ هـ/ ١٠٦١ - ١٠٩٢).

كانت صقلية باعتبارها من خطوط الاحتكاك دائما في قلب المعارك بين المسلمين والدولة البيزنطية، وحين قامت الدولة الفاطمية (العبيدية) في المغرب، ظهر نزاع بين المسلمين لم تكن الجزيرة بعيدة عنه، فكثيرا ما تناوشت السيطرة علىٰ الجزيرة الدولة العبيدية، والأغلبية، ثم العبيدية والصنهاجية، وأحيانا العبيدية والدولة الأموية في الأندلس.

إلا أن كل هذا لم يكن مؤثرا علىٰ مستوىٰ الوجود الإسلامي في الجزيرة، ولكن الأزمة الفعلية علىٰ مستوىٰ الوجود بدأت حين انقسمت صقلية نفسها في

أربعينيات القرن الحادي عشر الميلادي إلىٰ «عصر الطوائف»، بدأت بحرب أهلية عام (٤٣١ هـ/ ١٠٤٠م)، بين ممثلي الدولة العبيدية والصنهاجية: الوالي صمصام الدولة العبيدي، والأمير عبد الله بن المعز الصنهاجي، هُزِم فيها عبد الله بن المعز، ولكن ولاية الصمصام أيضًا لم تدم، واستمرت الاضطرابات ١٢ عاما (٤٣١ هـ- ٤٤٣ هـ/ ١٠٤٠-١٠٥٢م).

وأسفرت هذه الاضطرابات عن تفتت الجزيرة إلىٰ مناطق نفوذ متعادية يحكمها أمراء من العسكر علىٰ النحو الآتي:

استولىٰ القائد العسكري عبد الله بن منكود علىٰ الأجزاء الغربية.

كما استولىٰ القائد العسكري ابن المكلاتي علىٰ قطانية (في الشرق).

واستولىٰ القائد العسكري ابن الحواس علىٰ قصريانة وجرجنت (في الوسط).

وأصبحت باليرمو (العاصمة) -بعد خلع الصمصام منها- يحكمها جماعة من الأعيان.

ثم ظهر قائد -سيتكرر اسمه معنا- وهو ابن الثمنة الذي استولىٰ علىٰ سرقوسة (في الجنوب الشرقي).

وبين هؤلاء الأمراء انتشرت العداوة والبغضاء والتحاسد، والاقتتال، وكانت كثرة الأعراق في الجزيرة عاملًا يزيد من العصبيات والانقسامات، وفي جولة من هذه التقاتلات، هزم ابنُ الحواس ابنَ الثمنة، فقام ابن الثمنة بالخيانة المشهورة عبر التاريخ .. ذهب إلىٰ النورمان وأغراهم بدخول الجزيرة!!

بداية النهاية:

كان لابد لقوم همج مرتزقة مثل النورمان أن يجذبهم الخصب والغنىٰ الموجود في صقلية، وحاول روجر مهاجمة مدينة مسينا علىٰ الساحل الشمالي الشرقي لصقلية، ولكنه فشل مرتين (١٠٦٠م، فبراير ١٠٦١م).

لكن الفرصة جاءت له علىٰ طبق من ذهب حين راسله ابن الثمنة ليتحالف معه مقابل أن يعطيهم جزءا من الجزيرة، ولمزيد من ضمان الولاء فقد وضع أحد ابنائه رهينة عند روبرت جيسكارد، فلما استوثقوا من ولائه لهم هاجموا مسينة بمعونته، واستولوا عليها (٤٥٣ / ١٠٦١م) واتخذوها قاعدة لأعمالهم الحربية التي سيطروا منها علىٰ أكثر من مدينة . ولكن اضطر روجر أن يعود إلىٰ إيطاليا لمساعدة أخاه جيسكارد، فواصل ابن الثمنة الحملة ولكنه توفي في العام التالي (١٠٦٢م)، ثم حدث خلاف بين الأخوين روبرت جيسكار وروجر فلم يحدث تقدم نورماني في هذه الفترات، ثم جاء نزاع آخر بين الأخوين أدىٰ إلىٰ تقهقر النورمان إلىٰ صقلية، وفي هذه الأثناء ثار ضدهم السكان النصارىٰ لطبيعة الأسلوب المتوحش للنورمان حيث ينهبون ويسلبون ويستبيحون النساء.

ذهب المسلمون بستصرخون المعز بن باديس (الأمير الثاني في الدولة الصنهاجية بإفريقية) فبعث بأسطول كبير غرق أكثره بفعل عاصفة بحرية. ولم يستطع مد يدن العون مرة أخرىٰ لانهزاماته المتوالية أمام القبائل العربية من بين هلال وبني سليم الذين كانوا ذراع الدولة العبيدية، واجتاحوا بلاده حتىٰ أنه نقل عاصمته إلىٰ المهدية.

ولما تولىٰ تميم بن المعز الحكم، أرسل أسطولًا إلىٰ الجزيرة عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)، بقيادة ابنيه علي وأيوب. أما أيوب فنزل في بلرم، وأما علي فتوجه إلىٰ جرجنت، ثم أنضم إليه أيوب، وبدا لوقت من الزمن أن الوضع هدأ إذ لم تدر معركة بين المسلمين والنورمان حتىٰ عام ١٠٦٧م، أي لمدة خمس سنوات، ويبدو أن عمل القائدين اقتصر علىٰ تحصين المدن الإسلامية، ولا تشير المصادر إلىٰ محاولات من جانب المسلمين لاستعادة مسينة أو المدن الأخرىٰ التي حازها النورمان.

بدأت الأزمات عندما نشب صراع بين علي -قائد الحملة- وابن الحواس،

تشير بعض المصادر إلىٰ حب أهل جرجنت لعلي وخشية ابن الحواس علىٰ مكانه، وتطور هذا الصراع إلىٰ قتال قتل فيه ابن الحواس، ومالبث أن نشبت صراعات أخرىٰ بين الصقليين والحملة الإفريقية، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الجو المنقسم أن استطاع روجر إنزال هزيمة حاسمة بعلي وأيوب (١٠٦٨ م) ليعود القائدان بعدها إلىٰ إفريقية وقد اعترت أحوال المسلمين اضطرابات كبيرة بالجزيرة.

وكالعادة في عهود الضعف، تضيع لحظات ذهبية كان من الممكن أن تغير التاريخ، فكما فرط المسلمون في المدن تباعا، رغم انشغال النورمان بصراعاتهم مع البيزنطيين، ومع البابا في روما، ومع الأزمات التي نشبت بين روجر وجسكارد، وثورة النصارىٰ ضد النورمان، إلا أن كل هذا لم يدفع باتجاه إعادة تحرير مسينة.

وتكررت الفرصة مرة أخرىٰ، إذ اضطر روجر ثانية أن يعود إلىٰ إيطاليا للمساعدة في الصراع ضد بيزنطة والبابا، وما إن انتهت الحرب في الشمال حتىٰ كان روجر مدعوما بقوات من أخيه جيسكارد يتجه لمحاصرة العاصمة الصقلية باليرمو، ولموقعها الحصين ووقوعها علىٰ البحر، تم الحصار بالبر والبحر، واستمر عدة شهور سقط فيه كثير من الطرفين، وانتهىٰ باستسلام المدينة (ربيع الثاني ٤٦٤ هـ/ يناير ١٠٧٢م).

أدىٰ سقوط العاصمة إلىٰ انهيار مدن أخرىٰ في الشمال والغرب، وتركز المسلمون في الشرق والجنوب، وظل الانقسام قائما في معسكر المسلمين، فتوزعت المدن الإسلامية الأخرىٰ في ولائها إما لأمير سرقوسة (الجنوب) أو لأمير قصريانة (في الوسط).

بعد سقوط باليرمو ظهر الفارس ابن عباد الذي قاد المقاومة ضد النورمان لعشر سنوات من مدينة سرقوسة الجنوبية، وظل يبدي بطولة ويحقق انتصارات

هي أقصىٰ ما يستطيعه فارس في ظروفه، خصوصا مع ما يبدو من خذلان ابن حمود أمير قصريانة (في الوسط) له. حتىٰ قتل ابن عباد وسقطت سرقوسة عام (١٠٨٢م).

بعد ذلك بشهور سقطت جرجنت، فلم يبق بيد المسلمين من المناطق الهامة إلا قصريانة، التي مالبث أميرها ابن حمود إلا أن استسلم وتنصر وصار من رجال النورمان وأنعموا عليه بإقطاع خارج صقلية في إقليم قلوريا الإيطالي.

ومنذ تلك اللحظة نستطيع أن نقول إن الجزيرة كانت في حكم النورمان، الذين مهما استدعت ظروفهم الصعود إلىٰ إيطاليا فلم تكن هناك حركات مقاومة من المدن الإسلامية الباقية، التي ظلت موجودة حتىٰ عشر سنوات أخرىٰ إلىٰ أن سقطت تمامًا عام (٤٨٤ هـ/ ١٠٩١م).

بشائع النورمان:

لم تتوقف أساليب النورمان الحربية وبشائعهم عند المسلمين بل شملت كل شئ، أملاك المسيحيين، بل أملاك البابا، والأديرة، بل البابا نفسه، وهذا ما كتبه الأوروبيون أنفسهم، ويمكننا أن ننقل طرفًا من هذا عن جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب):

«كان همهم مصروفًا إلىٰ النهب علىٰ حسب عادة ذلك الزمن أكثر مما هو مصروف إلىٰ الدفاع عن دينهم، والذين تساوىٰ الأغارقة والإيطاليون والعرب في نظرهم فصاروا يسلبون هؤلاء جميعًا بنشاط ... ولم ينشأ عن أعمال حماة الدين النورمان سوىٰ تخريب تلك البلاد بسرعة، ولم يلبث أهلوها أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمان أشد وِقرا من عداوة العرب، فاستغاثوا بالبابا لينقذهم النورمان، ولم يجد إنذار البابا للنورمان نفعا، فأرسل إلىٰ قيصر القسطنطينية كتابا يدلنا علىٰ سوء معاملة جيش نصراني في ذلك الزمان لبلاد صديقة استُوْلِيَ عليها.

يقول البابا:

«يكاد قلبي يتفطر من الأخبار المحزنة التي أنبأني بها رسل ابني أرجيروس، فعزمت علىٰ تطهير إيطاليا من ظلم هؤلاء الأجانب النورمان المردة الأشرار الزنادقة الذين لا يحترمون شيئًا عند اندفاعهم، والذين يذبحون النصارىٰ ويسومونهم أشد العذاب غير راحمين ولا مفرقين بين الجنسين والأعمار، والذين ينهبون الكنائس ويحرقونها ويهدمونها، والذين يعدون كل شئ فريسة يباح سلبها، والذين أكثرت من لومهم علىٰ فسادهم وإنذارهم بسوء أحكامي وخوفتهم من سخط الرب، فلم يزدهم ذلك إلا عتوا... ولهذا عزمت علىٰ شن الحرب الدينية المشروعة علىٰ هؤلاء الغرباء الثقلاء الذين أمعنوا في الظلم وصار أمرهم لا يطاق، وهذا دفاعًا عن الشعوب والكنائس»[(١)].

يواصل لوبون: «وداوم النورمان علىٰ اقتراف جرائم النهب عمدا في صقلية وإيطاليا، وتعوده الأهالي وصاروا يألفون ما يقع كل يوم من حوادث السلب والقتل التي قص المؤرخون خبر كثير منها كما لو كان ذلك من الوقائع اليومية التي لا أهمية لها، ومن ذلك أن فرسان النورمان كانوا يفاجئون الأديار السيئة التحصين ويسلبون كل ما فيها ويبقرون بطون رهبانها علىٰ بكرة أبيهم خشية الفضيحة، وأن الرهبان من ناحيتهم كانوا يتغفلون بعض أولئك الفرسان بين حين وآخر فينتقمون منهم أشد الانتقام»[(٢)]... واستمر لوبون يسرد بعض القصص.

ولم تتوقف هذه السياسة المتبعة في النهب والسلب إلا لما تم استيلاء النورمان علىٰ صقلية بالكامل، فبدأ فيها علىٰ يد روجر عهد جديد فيه كثير من التعايش، وتنظيم الدولة باسترشاد واستلهام مباشر لنظم وطرق الحكم الإسلامية في الجزيرة وبالاستعانة بعلماء المسلمين الموجودين بصقلية.

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٠٤، ٣٠٥

(٢) السابق ص٣٠٥

وعلىٰ رغم ما أعطاه المسلمون من الحضارة للعهد النورماني إلا أن إبادتهم التامة وجلاءهم الكامل كان في عهد فريدريك الثاني، صديق الملك الكامل الأيوبي، وأبرز ملوك أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو الذي قاد الحملة الصليبية السادسة علىٰ بيت المقدس، فدخلها بالخيانة المشهورة للسلطان الكامل الأيوبي.



قصة حرب السويس ١٩٥٦

علىٰ عكس ما يتصور البعض من أن العسكريين إذا حكموا عاد ذلك علىٰ الوطن بالحزم والفتوة وقوة الجيوش، فإن الحكم العسكري مرتبط بالهزائم والمرارات والاستبداد علىٰ الشعب في الداخل والذلة والضعف والعمالة أمام العدو في الخارج. وتلك هي سيرتهم وطبعهم منذ حكموا وليس شيئا طارئا عليهم.

وفي هذه الأيام تمر علينا الذكرىٰ الأولىٰ للنكبة الأولىٰ تحت حكم العسكر، وهي هزيمة ١٩٥٦ التي ما زال البعض يظن أنها نصر بتأثير الإعلام العسكري، الذي تولىٰ أمره مجموعة ممن لم يتورعوا أبدا عن الكذب علىٰ الناس وقلب النكبات إلىٰ انتصارات، بل لم يتورعوا عن وضع قواعد جديدة للنصر والهزيمة: فنحن انتصرنا ما دام الزعيم بخير وإن دُمِّر الجيش وسلاحه وضاع البلاد والعباد.

هذه السطور القادمة هي موجز تاريخ هذه النكبة، بأوجز عبارة ممكنة.

(١) فهم أطراف الحرب:

لفهم هذه الحرب يجب التفريق بين أمرين: المواجهة مع إسرائيل، والمواجهة مع بريطانيا وفرنسا!

وفي ذلك الوقت كانت إسرائيل ما تزال في أول التأسيس، لم يمض علىٰ وجودها سوىٰ ست سنوات، وهي محاصرة من الجنوب لا تملك الملاحة في البحر الأحمر ويرقد في سيناء وقطاع غزة جيش متفوق علىٰ جيشها بحساب العدد والعدة، وقد خرجت بريطانيا من مصر وصارت خطوط المواجهة مكشوفة، فكانت تعاني لتثبيت وجودها في محيط عربي يفور ببغضها ويملؤه الأمل بإزالتها، ويرىٰ أن الطريق لهذا قريب واضح خصوصا مع بدء زوال

الاحتلال الغربي للبلاد، ومن ثم لا يبقىٰ إلا التعاون بين هذه البلاد فتزول إسرائيل! ولم تكن أمريكا ذاتها -حينئذ- قد حسمت أمرها بدعم إسرائيل كموقف استراتيجي علىٰ حساب العرب، بل كانت المحاولات الأمريكية لتثبيت إسرائيل وتبريد الوضع العربي تحاول إلزامها بوجود طريق بري آمن بين مصر والأردن يخترق صحراء النقب، وبطريق بري آمن بين مصر ولبنان، وبحق العرب في استعمال ميناء حيفا.. إلا أن إسرائيل نجحت من خلال الانتصارات المتتالية في فرض نفسها كأمر واقع وحسمت هذا التردد الأمريكي نحو أن يكون في صالحها علىٰ حساب العرب في هذه المنطقة.

أما بريطانيا وفرنسا فأولئك هم عجائز القرن الماضي ومخلفات الحرب العالمية الثانية، ورغم انتصارهم فيها نظريًّا إلا أن شمسهما إلىٰ أفول مع بروز القوتين الكبريين: أمريكا والاتحاد السوفيتي، وهما يرثان الآن هذا الإرث الاستعماري، وفيما كانت العداوة واضحة وظاهرة بين الاتحاد السوفيتي والغرب الرأسمالي من جهة، فقد كان ثمة عداء نصف معلن ونصف خفي وهو العداء بين أمريكا من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من الجهة الأخرىٰ، وهو العداء الناجم عن محاولة وراثة الشرق الأوسط، وكانت أبرز مظاهر هذه العداوة هي الانقلابات والانقلابات المضادة في سوريا أواخر الأربعينيات. لكن الوضع الظاهر الذي لا شك فيه هو غروب شمس بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط تشيعهما اللعنات ومشاعر البغض العربية، وهي ذات المشاعر التي بدأت تتجه للتخلص من إسرائيل، المولود الاستعماري اللقيط!

يقول عبد الناصر -كما روىٰ عنه بغدادي-: «إن إسرائيل اليوم تفكر بدلا من المرة عشرات المرات قبل أن تقدم علىٰ مهاجمة مصر لعلمها بقوة جيشها ومدىٰ استعداده، وهي الآن لن تقامر علىٰ كيانها» (أكتوبر ١٩٥٥م) لكنه وفي ذات الوقت -كما روىٰ هيكل في قصة السويس ص٢٢- يقول لوفد من حزب

العمال البريطاني أنه «لا يشغل نفسه بإسرائيل، وإنما يركز علىٰ التنمية الداخلية في مصر، وأنه لذلك خفض ميزانية القوات المسلحة بخمسة ملايين جنيه عن السنة الماضية».

وفي الحقيقة فقد كانت هذه هي الضمانة الوحيدة لبقاء إسرائيل التي كان يمكن أن تزول في هذا التاريخ لو وجدت لدىٰ حكام مصر الإرادة لذلك، إذ كل الظروف وقتها كانت مهيأة لهذا، وكانت إسرائيل تعرف هذا جيدا ولا يهمها سوىٰ تثبيت وجودها وفرض نفسها بالقوة والدم لئلا يكون ثمة أمل في إزالتها، ومن هنا كان الموقف في أكتوبر (١٩٥٥) -كما رواه تقرير استخباري بريطاني، ذكره بغدادي، وذكر أن مصر حصلت عليه- هو «ليس لدىٰ مصر أية نية في الاعتداء علىٰ إسرائيل. وأنها ليست مستعدة إلىٰ ذلك بخلاف موقف إسرائيل واستعدادها».

(٢) ما قبل المعركة:

وضع موشىٰ ديان خطة عسكرية قصد بها فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية (بالسيطرة علىٰ الشاطئ الغربي لخليج العقبة) وتصفية الجهاد في قطاع غزة، وكان من المقرر تنفيذها في نوفمبر ١٩٥٥، لكن المحاولات الأمريكية الجارية للجمع بين عبد الناصر وبن جوريون جعلت هذا الأخير يوصي ديان بتأجيل الخطة حتىٰ يناير ١٩٥٦، ومن أجل هذا لم تستطع إسرائيل الحصول علىٰ أسلحة متطورة من أمريكا ولا بريطانيا فلم تجد سوىٰ فرنسا التي عقدت معها صفقة الأسلحة المشهورة في يونيو ١٩٥٦م، وبها امتلكت أول طائرات مقاتلة في تاريخ الجيش الإسرائيلي، وفي فرنسا سعت إسرائيل لتسويق نيتها بشنّ عملية عسكرية لاحتلال الشاطئ الغربي لخليج العقبة لفتح الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية، وأجابت فرنسا بأنه يمكن لهم في هذه الحال أن يمدوا خط أنابيب من إيلات (علىٰ الخليج) إلىٰ البحر المتوسط. وما إن عاد بن

جوريون من فرنسا حتىٰ قال لديان بأن يكون علىٰ استعداد للحرب.

أي أن إسرائيل كانت ستحارب في كل الأحوال، أكان التأميم أم لم يكن! فيما كان العسكر في مصر لا يفكرون في إسرائيل ويخفضون ميزانية الجيش!!

في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس، وهو - مهما كان بغضنا لعبد الناصر- قرار بطولي ووطني وشجاع، وذلك لتمويل مشروع السد العالي من بعد ما رفض البنك الدولي تمويله، إلا أنه -كعادة قرارات العسكر- لم يكن قرارا محسوبا ولا مدروسا ولا كانت ثمة استعدادات لآثاره، وهذا ما يجعله في الحقيقة قرارا كارثيا لولا أن الخلافات الدولية الكبرىٰ كانت في صالحنا آنذاك.

فلولا أن أمريكا كانت حاسمة في إزالة بريطانيا والحلول مكانها في الشرق الأوسط لكان هذا القرار هو السبب في عودة الاحتلال الإنجليزي إلىٰ ديارنا مرة أخرىٰ، ولئن كان الاحتلال هزم جيش عرابي قبل ثمانين سنة فإنه في هذه اللحظة لم يكن ليجد جيشا أمامه أصلا من فرط سوء السياسة والإدارة العسكرية، وكان أول اختبار حقيقي لهذه الإرادات الدولية في أزمة مرشدي القناة، إذ كان علىٰ مصر وقد أممت شركة القناة أن تثبت استطاعتها إدارة الملاحة فيها، بعد امتناع الإنجليز والفرنسيين عن العمل، وهنا تدخلت روسيا ويوغسلافيا واليونان بمساعدة مصر بالمرشدين كما وسمحت أمريكا لرعاياها بالعمل كمرشدين في القناة. ولم يكن هذا إلا نزعا لأي ذريعة بريطانية فرنسية لأي عمل عسكري تعودان به إلىٰ الشرق الأوسط.

ولهذا يقول المعترضون علىٰ قرار التأميم بأن امتياز القناة كان سينتهي بعد ١١ عاما، دون هذه المخاطرة الكبرىٰ بإعادة الاحتلال مرة أخرىٰ، فإن لم يكن ممكنا الانتظار فقد كان ممكنا الدخول مع الشركة في مفاوضات لاختصار المدة أو لزيادة المشاركة المصرية في إدارة القناة أو عوائدها، أما النقض المفاجئ

لاتفاقية دولية فعملٌ لا تبرير له خصوصا وأن عبد الناصر وقع قبل شهر واحد اتفاقية مع الشركة نفسها تتضمن اعترافا بشرعية الشركة، ومن ثم كان بالإمكان مدَّ أجل المفاوضات كي يكون قطعها ذريعة للتأميم! ولو أن القرار حظي بأقل قدر من الدراسة لأمكن إنقاذ ٤ مدمرات بحرية مصرية كانت راسية آنذاك علىٰ الشواطئ البريطانية والتي سارعت بريطانيا بالاستيلاء عليها، أو حتىٰ إنقاذ شيء من الأموال التي جمدت في بريطانيا وأمريكا (١١٢ مليون جنيه استرليني، ٦٠ مليون دولار) عقيب قرار التأميم.

لقد جنّ جنون بريطانيا وهي ترىٰ نفسها تقصىٰ علىٰ هذا النحو، وكانت الصحافة الغربية تفور بالغضب والتحريض ضد مصر، حتىٰ الدول التي لا سهم لها في شركة قناة السويس، واستعدت بريطانيا وفرنسا لعمل عسكري، وهنا تدخلت أمريكا بكل ثقلها السياسي لتبريد الموضوع بكسب الوقت أولا، فدعا وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس إلىٰ مؤتمر في لندن يضم كافة الموقعين علىٰ اتفاقية ١٨٨٨ بشأن القناة بما فيهم روسيا وإيران وباكستان (وهي الدول التي من شأنها أن تعرقل أي خطوة عسكرية ضد مصر)، ثم دعا بعده إلىٰ اجتماع لـ «جمعية المنتفعين من القناة» وأصدرت هذه الأخيرة قرارا بتعيين لجنة دولية (من الدول المنتفعة) تتولىٰ إدارة شركة القناة، وهو ما كان مستحيلا قبوله إذ كيف تؤمم شركة ليؤتىٰ بلجنة دولية! وبعثت الجمعية منزس (رئيس وزراء استراليا) علىٰ رأس وفد لعبد الناصر، لكن الرئيس الأمريكي أيزنهاور كان يفشل مهمتها علنا في مؤتمر صحفي يصرح فيه بأنه لا استعمال للقوة لحل مشكلة القناة، ولما سئل: ماذا لو رفض عبد الناصر مقترحات منزس قال: يجب أن نفكر في اقتراحات أخرىٰ. ثم حملت بريطانيا القضية إلىٰ الأمم المتحدة التي أسفرت اجتماعاتها عن مشروع المبادئ الستة الذي قبلته كل الأطراف بنية عدم تنفيذه، فمصر قبلته لكسب الوقت باعتبار أن أي تأخير يقلل

من فرص استعمال القوة بينما قبلته بريطانيا وفرنسا لأنهما سيتذرعان بالهجوم الإسرائيلي الذي غَيَّر الموقف. وكانت أمريكا تلقي بثقلها كله في المعركة السياسية هذه، وما إن تم التوصل إلىٰ هذا المشروع حتىٰ خرج أيزنهاور -وكان الوقت وقت انتخابات في أمريكا- ليزف إلىٰ شعبه هذا الخبر السعيد الذي يقضي علىٰ فرص نشوب حرب في الشرق الأوسط، ليقطع بذلك الطريق علىٰ أي تحرك عسكري أنجلو فرنسي.

منذ منتصف أغسطس بدأت الاستعدادت العسكرية العلنية في بريطانيا وفرنسا، وجاءت الأخبار من أكثر من مصدر باستعداد عسكري حقيقي لغزو مصر، لكن عبد الناصر المطمئن إلىٰ أمريكا لم يحفل بأي شيء واعتبرها مجرد حشود إعلامية، بل أصدر قرارا في ٨ أغسطس بسحب الجيش من سيناء!!

(٣) أحداث الحرب:

كان الخلاف الإسرائيلي - الأنجلو فرنسي (وقد اجتمعوا في مدينة سيفر الفرنسية لإبرام الحرب) محصورا في رغبة إسرائيل ألا تبدأ بالحرب وحدها خصوصا وسلاح الطيران المصري متفوق علىٰ الطيران الإسرائيلي آنذاك ويمكنه أن يدمر مدن إسرائيل الرئيسية بما فيها تل أبيب (وهذا ما رواه موشي ديان في مذكراته)، ولذلك يجب أن تبدأ بريطانيا بالحرب أو علىٰ الأقل بتدمير سلاح الطيران المصري. فيما كانت الرغبة البريطانية مختلفة لأنهم في ظل الأزمة السياسية مع أمريكا يريدون حربا تشتعل أولا لتكون لهم ذريعة التدخل لحماية القناة، ثم استقر الأمر علىٰ أن إسرائيل ستخاطر وتخوض المغامرة اعتمادا علىٰ عدم وجود رغبة مصرية في تصعيد الأمور وأنهم سيبتلعون الضربات الإسرائيلية في اليوم الأول -كما ابتلعوها سابقا- باعتبارها عمليات محدودة وليست حربا كبيرة، وبهذا تتوفر الذريعة لدخول فرنسا وبريطانيا الحرب ويقومون بتدمير سلاح الطيران المصري.

أي أن إسرائيل خاضت مغامرة وجودية فارقة في مصيرها النهائي معتمدة علىٰ عدم وجود رغبة مصرية في التصعيد!! وعلىٰ أن مصر ستبتلع الضربات الأولىٰ كالعادة!! وسيظل هذا الشلل في الطيران المصري حتىٰ تتحرك بريطانيا وفرنسا لتدميره!! وهو ما كان!

ومهما أوتي المرء من حسن ظن بل من سذاجة فإنه لا يمكن استبعاد عنصر الجاسوسية، إذ أن الطيران المصري لم يتحرك لسبب هو الأغرب من نوعه، فقد قال محمد صدقي قائد سلاح الطيران (ولم يكن من الضباط الأحرار، وتعيينه في هذا المكان لغز يستدعي بحثًا معمقًا) لعبد الناصر بأنه لا يستطيع تطيير طائرات مصرية لأن مطار غرب القاهرة ليس فيه بنزين!! ولا تنس أن هذا قيل في أجواء الحرب التي تزخر بها كافة وسائل الإعلام منذ ثلاثة أشهر!

وهنا جرت قصة حرب من أغرب ما يكون:

بدأت إسرائيل بالهجوم الساعة الخامسة عصر يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ووصل الخبر إلىٰ عبد الناصر عن طريق وكالات الأنباء فقد حملت إليه برقية من وكالة يونايتد برس، وكان ساعتها في احتفال عيد ميلاد ابنه عبد الحميد ومعه عبد الحكيم عامر، فهرعوا إلىٰ مكتب عبد الناصر، ومن هناك حاول عامر الاتصال بالقيادة العسكرية في كوبري القبة والتي أفادت أنها لم تتلق شيئًا من سيناء!! وتخيل إلىٰ أي مدىٰ يصل انهيار دولة يعرف فيها الإعلام الخبر قبل رئيس الدولة التي يجري احتلال أراضيها!!

صدرت أوامر عبد الحكيم عامر بتحرك القوات إلىٰ سيناء مساء يوم ٢٩ أكتوبر، وينقل عبد اللطيف البغدادي (صباح ٣٠ أكتوبر) أن عبد الحكيم عامر كان يدير المعركة بعصبية واضحة ويدفع بالمزيد من القوات دون حاجة واضحة رغبة في تحقيق نصر سريع. إلا أن عبد الناصر أمر بسحب القوات من سيناء إلىٰ ما خلف قناة السويس علىٰ الضفة الغربية، وهو ما يعني إخلاء سيناء

تماما للإسرائيليين رغم أن النظرة البسيطة تقول أن الدفاع عن القناة لا يستلزم إخلاء سيناء لأنه من الممكن أن يكون الدفاع عنها من الضفة الشرقية والغربية معا، هذا بالإضافة إلىٰ الآثار السلبية للانسحاب علىٰ معنويات الجنود. المصيبة الأخطر أن هذا الانسحاب تم بلا أي ترتيب ولا خطة، بل وبنص عبارة هيكل «كل رجل علىٰ مسؤوليته».. أي أنه قرار تدمير حقيقي للجيش المصري، الذي انساح هائما مشرذما مشتتا ليكون صيدا سهلا للطيران الإسرائيلي قتلا وأسرا.

لم يصل نبأ الانسحاب إلىٰ كل الوحدات، أو وصل لبعضهم وامتنعوا عن تنفيذه، وهذه القوات التي ظلت تحارب استطاعت إيقاف التقدم الإسرائيلي علىٰ أكثر من جهة، وروىٰ ديان في مذكراته مقاومة شرسة كادت تودي بحياته هو شخصيًا، ولكن ما كان لهذه المقاومة أن تستمر في ظل الظروف المستحيلة من انهيار الجيش والسيطرة الإسرائيلية أرضًا وجوًا وانعدام المدد.

وإذا عدنا إلىٰ ما قبل يومين، فسنجد أن الإنزال الإسرائيلي وفَّر الذريعة لبريطانيا -ومعها فرنسا- إذ ادعوا بأن هذه الحرب تؤثر علىٰ القناة، وأطلقوا إنذار للجانبين بوقف الحرب، وهو بطبيعة الحال إنذار إعلامي قبل مجيئ الجيوش، وكانت الخطوة الأولىٰ هي الغارات التي دمرت سلاح الطيران المصري، وأصدر عبد الناصر قراره بمنع سلاح الطيران المصري من الاشتباك مع العدو، وفسَّر هيكل هذا بأن المعركة غير متكافئة.

وهنا يأتي الخلط غير المبرر، فالطيران المصري كان متفوقا علىٰ الطيران الإسرائيلي طبقا للتقدير الإنجليزي والإسرائيلي (كما في مذكرات ديان التي أفصحت عن نقاشات خطورة المغامرة الإسرائيلية بالبدء في الحرب وحدها) ولكنه لم يتحرك طوال الفترة التي أعقبت الهجوم الإسرائيلي (بحجة المطارات الخالية من البنزين)، ثم ما إن جاءت بريطانيا حتىٰ صدر الأمر بعدم الاشتباك لأن المعركة غير متكافئة. أي أنهم لم يخوضوا لا المعركة التي كانت لصالحنا

ولا حتىٰ التي كانت علينا، وهنا يبرر هيكل هذا بقوله: أن إنجلترا وفرنسا عدو عابر فيما يجب الاحتفاظ بالطيران للعدو المقيم: إسرائيل. وعلىٰ الناحية الأخرىٰ يجري ذات الخلط بالنسبة للقوات البرية، فيبرر قرار الانسحاب بأنه اتخذ لمواجهة إنجلترا وفرنسا (رغم أنهما العدو العابر) فيما أمر إسرائيل سهل (رغم أنها العدو المقيم).. وبهذا انسحبت كل الجيش المصري برا وجوا من المعركة، مرة لأجل العدو العابر ومرة لأجل العدو المقيم!!! (وضع ما شئت من علامات التعجب، أو علامات الخيانة).

وهكذا دمرت المطارات المصرية وطائراتها في يوم واحد (وظل محمد صدقي قائدًا لسلاح الطيران حتىٰ نكبة ١٩٦٧)، وانسحبت الجيوش، واستسلمت الحاميات العسكرية في بورسعيد بعد ثلاث ساعات فقط، وتم لإسرائيل احتلال سيناء (وهي ضعف مساحة إسرائيل) في ٣٦ ساعة فقط!

والمشهد المذهل أن الأمر لم يكن مفاجأة، بل إن نبأ الاستعداد الإسرائيلي وصل إلىٰ مصر قبل عام -بشهادة بغدادي في تقرير المخابرات البريطانية- فيما كان نبأ الاستعدادت البريطانية الفرنسية مشهورا علىٰ كل الصحافة، وقد استطاعت السياسة الأمريكية تأخير الغزو ثلاثة أشهر (من أواخر يوليو إلىٰ أواخر أكتوبر)!

لم يقاوم في هذه الحرب إلا الجنود الذين رفضوا -أو لم يصلهم- أمر الانسحاب، مع مقاومة شعبية باسلة في بورسعيد والسويس، وقد كان من حسن حظ أهل بورسعيد وجود قطار أسلحة استطاعوا نهبه وخاضوا بما استطاعوا حرب شوارع قاسية وباسلة وإن لم تكن مؤثرة أمام الجيوش الكبرىٰ وفي ظروف انهيار الجيش المصري.. أي أن الذين قاوموا -كالعادة- كانوا هم الشعب لا السلطة التي أذلت هذا الشعب وشربت دماءه بحجة حمايته.. بل إن السلطة كانت في موقف فاضح كعادتها.

ففي القاهرة كان يجري مشهد آخر من أغرب ما يمكن تصوره، فالقيادة العسكرية التي تحكم مصر والتي أذلت البلاد والعباد قد تحولت إلىٰ مجموعة من الفئران المذعورة، وقد تضاربت الروايات في مذكرات بعضهم، إلا أن الثابت من مجموعها أن الحيرة والارتباك قد عم المشهد كله، خصوصا حينما وصل خبر كاذب بإنزال مظلي بريطاني في مصر الجديدة، ففكَّر عبد الناصر أول ما فكَّر في أولاده ونقلهم إلىٰ القناطر الخيرية أو إلىٰ منزل آخر في القاهرة، وفكر صلاح سالم في ترك مبنىٰ القيادة والتوجه لمكان آخر غير معروف، ثم اقترح صلاح سالم أن يتناولوا سما فينتحروا قبل أن يؤخذوا أسرىٰ، ونسب إيه اقتراح آخر بتسليم أنفسهم للسفارة البريطانية!!!

ولعل هذا المشهد هو ما يشرح لماذا سعت أمريكا للحفاظ عليهم في حكم مصر!

فعلىٰ الصعيد الدولي ألقت أمريكا بثقلها لمنع العجائز (بريطانيا وفرنسا) من العودة إلىٰ المشهد، فأعلن أيزنهاور أن أمريكا تقف إلىٰ جوار مصر، واستخدم كل أوراق الضغط السياسي في الأمم المتحدة، فتقدمت أمريكا وروسيا بقرار لمجلس الأمن لوقف الحرب فاستعملت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو، فصوتت أمريكا وروسيا علىٰ طلب تحويل الأمر إلىٰ الجمعية العامة للأمم المتحدة (حيث لا فيتو) وهناك تولت أمريكا دعم المشروع وترتيب الأغلبية له وهو ما كان، وكان نيكسون -نائب الرئيس الأمريكي أيزنهاور- يقود مظاهرة في أمريكا ضد بريطانيا! بالإضافة إلىٰ أن أمريكا منعت تزويد بريطانيا وفرنسا بالنفط مما كانت له آثار اقتصادية فورية وقوية، وعملت علىٰ نزيف الجنيه الإسترليني الذي بدأت قيمته في الانهيار. وكان الأسطول السادس الأمريكي -في البحر المتوسط- قد نفذ تحركات أعاقت سير الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، فيما سماه بعض المؤرخين «تحرشا»! ثم وجه

أيزنهاور إنذارا لبريطانيا وفرنسا بوقف إطلاق النار خلال ١٢ ساعة. ثم رفضت أمريكا بقاء القوات البريطانية فيما احتله من السويس وبورسعيد (كي لا تساوم به علىٰ أي مكسب) وأصرت علىٰ الانسحاب بلا قيد ولا شرط.

ثم أصدر الروس إنذارهم يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٦م، وكان أول بصيص أمل للمصريين، علىٰ قلة قيمته، أما القيمة الحقيقية فقد كانت في الإنذار الأمريكي الذي جاء بعده بساعات واستجاب له الإنجليز والفرنسيون وهم صاغرون يوم ٦ نوفمبر، وتحدد يوم ٢٣ ديسمبر لجلاء القوات الإنجليزية والفرنسية عن منطقة القناة، وقد كان. أما إسرائيل فماطلت ولم تجل عن سيناء إلا في فبراير ١٩٥٧.

(٤) نتائج الحرب:

أما نحن فقد استفدنا التأميم الذي تحول إلىٰ واقع، وتجنبنا عودة الاحتلال الإنجليزي (وإن كان الحكم العسكري علىٰ الحقيقة أسوأ عشرات المرات من الاحتلال الإنجليزي، وأنزل بمصر من المصائب والنكبات ما لم ينزله بها الاحتلال الإنجليزي)، وإن يكن هذا جرىٰ لظروف وبقدرة خارجة عن إرادتنا.

وأما أمريكا فقد قطعت فعلا ذيل الأسد البريطاني وأثبتت له بالواقع أن أيامه قد ولَّت وأن هذه المنطقة قد صارت ملكا لنا.

وأما إسرائيل فهي صاحب حظ الأسد من هذه الحرب، فقد ثبتت ورسخت وجودها وجعلت إزالتها وهما بعد تدمير الجيش المصري وسلاحه السوفيتي، وامتلكت حرية الملاحة في خليج العقبة، وأثبتت أنها قادرة علىٰ احتلال مساحات جديدة من أكبر بلد عربية، وجعلت ما حصلت عليه عام ١٩٤٨ غير قابل للمساومة، ولم تخرج من سيناء إلا وقد جاء البوليس الدولي حارسا لحدودها (وهي قوات دولية تراقب الوضع ولا يمكن سحبها إلا بقرار من الأمم المتحدة، أي أن مصر لو أرادت شن الحرب فسيعرف كل العالم بذلك،

لأنها مضطرة لتقديم طلب لسحب البوليس الدولي)، مع تعهد بتجميد الأوضاع بينها وبين مصر لعشر سنوات، وقد أثَّر هذا كله علىٰ المقاومة في قطاع غزة وعلىٰ قواعد المقاومة وامتداداتها في سيناء، وعاشت إسرائيل هدوءا كاملا علىٰ الجبهة المصرية حتىٰ عام ١٩٦٧م. وأفشلت بهذا عمليا مشروعا عربيا كان في طور الولادة سنذكره بعد قليل.

ولك أن تتخيل تأثير هذا كله علىٰ رأي عام (عربي وإسرائيلي وعالمي) يظن أن إسرائيل لا تطمح لأكثر من الهدوء والقبول بوجودها، في ظل محيط يرىٰ أن إزالتها شيء ميسور يحتاج فقط لإحكام الترتيب والتدبير.

(٥) على هامش الحرب:

قبيل الحرب كانت الحالة العربية في أفضل حالاتها، وقد نتج هذا عن دوافع وطنية عروبية علىٰ مستوىٰ الأفراد في بلاط الأنظمة، فمما لا يعرفه كثيرون أنه وحتىٰ وقت قريب كان رجال الأنظمة العربية الحاكمة لا ينتمون فقط لأوطانهم المحلية، بل كانت الأنظمة تضم في وزرائها ورؤساء حكوماتها عربا من كل الأوطان، وقد كانت تنتشر فيهم الولاءات العروبية والإسلامية والوطنية، وكان العقل الجمعي في هذا الوقت يتعامل مع أي قضية وطنية علىٰ أنها قضية عربية عامة تهم الجميع.

وقبيل الحرب نشأ تحالف مصري سعودي سوري يمني، وقبل الحرب بعام كان فيصل بن عبد العزيز يشكل مع جمال عبد الناصر لجنة عسكرية لتحديد الأسلحة المطلوب شرائها فتشتريها السعودية لدعم قواتها في حال نشوب أي حرب بين مصر وإسرائيل تنفيذا للاتفاقية العسكرية المصرية السودانية، بل بلغ الأمر ذروته بتشكيل قيادة عسكرية موحدة لجيوش مصر وسوريا والأردن يرأسها عبد الحكيم عامر. ولذا يتساءل كثير من المؤرخين حول سر قرار عبد الحكيم عامر الذي منع به جيشي سوريا والأردن من التحرك

ضد إسرائيل، خصوصا وأن الأوضاع العسكرية والسياسية معا تجعل تدخل هذين الجيشين فرصة لا تقدر بثمن.

فمن الناحية العسكرية لم يكن فارق القوة كبيرا بين إسرائيل ومجموع الدول العربية، كما أن إسرائيل تحاول الاستيلاء علىٰ سيناء التي مساحتها ضعف مساحة إسرائيل، ولدىٰ هذه الجيوش -ومن ورائها الشعوب، وحركات المقاومة الشعبية- من الشعور بالثأر لعار ١٩٤٨ ما يؤمل منه أن انفتاح جبهتين علىٰ إسرائيل أشبه بانفتاح طوفانيْن من الغضب.

ومن الناحية السياسية فقد كان الأردن مرتبطا بحلف دفاعي مع العراق، وصل إلىٰ وضع فرقة عسكرية عراقية علىٰ الحدود الأردنية للتدخل السريع حال تعرض الأردن لغزو إسرائيلي، وكان البريطانيون الذين يحاولون التمسك بأهداب أي نفوذ في المنطقة قد ارتبطوا مع العراق بحلف دفاعي يحملهم علىٰ الدخول معه في المعركة، ويورد ديان في مذكراته أن هذا وضع حرج معقد قد يسفر عن وضع غريب: أن يحاربوا مع بريطانيا في جبهة مصر وأن تضربهم بريطانيا علىٰ جبهة الأردن، ولذلك كان الحلم الإسرائيلي والبريطاني (والأمريكي من ورائهم طبعا) ألا تدخل الأردن الحرب، ولكن هذا كان في غاية الصعوبة إذ كانت الحكومة الأردنية والبرلمان -في ذلك الوقت- يتفجرون بالحمية العربية، ويوصمون بأنهم ناصريون وسعوديون، وقد طُرد قبل قليل رجال بريطانيا من الجيش الأردني، ولم يكن ملك الأردن في حال تسمح له بالامتناع عن هذا ولو أراد.

ومن هنا يرجح بعض المؤرخين -ومنهم أستاذنا جلال كشك رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أن الصفقة كانت كالآتي: تطلب أمريكا من مصر منع دخول الجيشين السوري والأردني إلىٰ المعركة، فيما تتكفل هي بسحب إسرائيل من المعركة، وهو ما تمَّ، وما أسفر عن مكاسب هائلة إسرائيلية وخسارة هائلة عربية.

(٦) إعلام الخديعة:

بدأت في هذه الحرب الماكينة الإعلامية الشيطانية للعسكر، تلك التي تقلب النكبات انتصارات، فقد عمل إعلام العسكر علىٰ الحديث عن طائرات يسقطها المصريون، وعن مظليين يقتلهم المصريون قبل الوصول إلىٰ الأرض، ولم يكن هذا مقتصرا علىٰ مصر فقط بل كانت وزارة الحربية ترسل هذه المنشورات إلىٰ ملاحقها العسكريين في السفارات لتوزيعها علىٰ الصحافة الأجنبية!!

وبعد وقف القتال صرح قائد سلاح الطيران صدقي بأن سلاح الطيران المصري لا يزال سليما وأنه مستعد للقضاء علىٰ كل من تسول له نفسه العدوان علىٰ مصر!!! وقد كان الطيران المصري في الحقيقة قد تحطم! وراح العسكر يوهمون الناس أن المقاومة الشعبية هي التي ردت أساطيل الغزاة علىٰ أعقابها، وسُوِّقت الحرب علىٰ أنها نصر عظيم مؤزر بل جعلها هيكل (كاهن معبد الاستبداد وأبرز شياطين الإعلام العسكري) «أكمل انتصار في تاريخ العرب الحديث»!!!! وكتب بعد ثلاثين عاما في الأهرام يحث الناس علىٰ الاحتفال بذكرىٰ النصر ويأسف لأن البعض يعتبرها هزيمة!! وإن لم تستح فافعل ما شئت.

يقول أستاذنا جلال كشك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنها أشهر عملية تزوير في التاريخ، أن تظل أمة عشر سنوات تجهل أنها هزمت هزيمة فادحة، بل وتظل معتقدة أنها انتصرت، وأن احتلال اليهود لسيناء كان عبقرية عسكرية من جانبنا، إذ أمرنا بالانسحاب البارع والإفلات من طرفي الكماشة!! أو الفخ الذي كان مدبرا لتدمير الجيش المصري.. وأفسدنا المخطط ونجا الجيش!»[(١)].



(١) محمد جلال كشك، **النكسة والغزو الفكري**، ص٢٢.

التاريخ في فكر الشيخ محمد قطب[(١)]

فاضت روحه إلىٰ بارئها بعد حياة حافلة مديدة اقتربت أن تكمل القرن من عمر الزمان، عاش لنحو نصف قرن من استشهاد أخيه، وهو الحدث الذي اهتز له كل العالم الإسلامي حينئذ، رأىٰ فيها مصارع الظالمين وتبدل الدول وتقلب الأفكار وانهيار الإمبراطوريات وصعود أخرىٰ، فرأىٰ قرنا من التاريخ الإنساني بعيني رأسه بخلاف ما احتواه في صدره من قرون السابقين. ثم كان لا بد من الرحيل، فمات صباح يوم الجمعة الرابع من جمادىٰ الآخرة ١٤٣٥هـ، الرابع من إبريل ٢٠١٤م، وصُلِّي عليه في الحرم المكي الشريف.

والشيخ محمد من العلامات العلمية والفكرية في عصره، وكان إنتاجه من أهم ما اطلعت عليه وتأثرت به الصحوة الإسلامية المعاصرة فهو في الطبقة الأولىٰ من الأعلام المؤثرين فيها، ولا زلت أتذكر أن كتابه «واقعنا المعاصر» كان أول كتاب ضخم أتمه من أوله إلىٰ آخره، وكان ذلك قبل نحو سبعة عشر عاما حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، من فرط إعجابي به لسلاسة أسلوبه ووضوح أفكاره وقدرتها علىٰ مخاطبة من هم في هذا السنِّ بهذه القوة والعمق.

فكان أضعف الإيمان أن نتوقف في هذه السطور مع منهج الشيخ في قراءة وكتابة التاريخ الإنساني، وفي القلب منه التاريخ الإسلامي بطبيعة الحال.

خلاصة المنهج:

لقد أبان الشيخ عن منهجه غير مرة، فكتب بناءه النظري في كتابه «كيف نكتب التاريخ الإسلامي»، الذي صدر حين كان الشيخ في الثالثة والسبعين

---

(١) كُتب هذا المقال عقيب وفاة الشيخ محمد قطب (٤ إبريل ٢٠١٤).

من عمره، أي في مرحلة استواء الأفكار، وإن كان قد كتبه أول مرة وهو في الثامنة والخمسين، وقد صرح فيه بأنه «يحوىٰ الصورة الأخيرة لتفكيري في موضوع كتابة التاريخ الإسلامي»[١]. ثم أعاد طرح منهجه بإيجاز في فصل ضمن كتابه «التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية» والصادر بعد الكتاب الأول بست سنوات.

ثم طبق هذا المنهج عمليًّا في بعض كتبه والتي علىٰ رأسها «واقعنا المعاصر» وكتابه «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر».

وخلاصة هذا المنهج: أنه يجب علينا أن نكتب تاريخنا الإسلامي بنظرة يتحقق فيها عدة أمور:

١- الانطلاق من حقيقة أن هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس، وهي الأمة الوسط، وهي التي تحمل الرسالة الأزلية -فهي خاتمة الرسالات وليست انبعاثًا جديدًا متأخرًا- وأن هذه الخيرية ليست عرقية ولا قومية ولا ذاتية، وإنما مستمدة من الرسالة، وينتج عن هذا الانطلاق أربعة نتائج مهمة هي:

- أن التأريخ للجاهلية ينبغي أن ينطلق من كونها انحرافًا كونيًا عن دين الله، وأنه انحراف تتعدد مظاهره وأشكاله، فالجاهلية كل ما سوىٰ الإسلام وليست مرحلة تاريخية سابقة.
- أن التوحيد هو أكبر حركة تحررية في التاريخ وذلك أنه حركة تحرير شاملة لا تقتصر علىٰ تغيير اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي أو فكري أو فني، بل هو إخراج للإنسان كله من الظلمات إلىٰ النور.
- أن العالم كله يخسر بانحطاط المسلمين وليس المسلمون وحدهم، وهذا هو الحادث في الواقع المعاصر، الذي ينبغي أن يُركز في عرضه علىٰ هذه الجزئية التي يكاد يغفلها الجميع.

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص٧.

▪ أن النهضة الغربية الحالية مهما قيل في وصف تقدمها المادي فإنما هي نهضة «عرجاء» لما تحتويه من كفر وظلم وفساد وانحلال، وجنوح إلىٰ الدمار، وإفساد للفطرة، وأنها -لهذا- حضارة آيلة للسقوط.

٢- تنقية وتصفية التراث الأرشيفي الكبير الذي تركه لنا علماؤنا وتمييز الصحيح والضعيف من الروايات الكثيرة التي تصل حد التناقض والتضارب، لا سيما فيما يخص عصر الصحابة.

٣- التخلص من الآثار الاستشراقية في الدراسات الحديثة والمعاصرة، سواء كتبها مستشرقون أو غيرهم، وسواء انطلقت من كراهية للإسلام أو علق بها الرؤية المادية أو التفسيرات القومية والعرقية للتاريخ.

٤- قراءة تاريخنا الإسلامي بعين وروح إسلامية، في ضوء الهداية التي جاء بها القرآن والسنة وبغير فصل نكد بين ما هو «دين» وما هو «تاريخ»، بل التاريخ هو أثر الدين علىٰ واقع الحياة، فبه يُفهم طالما أنه منه انطلق، ويتمثل هذا كأبرز ما يكون في أربعة جوانب:

▪ الفتوح الإسلامية وكيف أنها تفارق تماما التوسعات الامبراطورية في الغاية والمسلك.

▪ الحركة العلمية الإسلامية التي انطلقت لتحقيق طلب العلم وعمارة الأرض، وسلكت سبيلًا خلقيًّا يمنعها من استخدامه في الفساد والإفساد، كما ويستحيل عليها أن تصل إلىٰ نزاع بين العلم والدين.

▪ الحضارة الإسلامية التي هي حضارة قيم ونظم بالأساس لا حضارة زخارف ورسوم وبنايات، فمن القيم تستمد هذه المظاهر المادية روحها ووظيفتها.

▪ تقييم فترات الضعف والانهيار بعين ترصد أسبابه في الابتعاد عن الوحي وهدايته، لا في مجرد التخلي عن الأسباب المادية، في الظروف الداخلية قبل الظروف الخارجية، فيما كان فينا من عيوب أنجحت المؤامرات لا في مجرد المؤامرات.

٥- قراءة التاريخ بلا إفراط ولا تفريط، بلا تزوير ولا تبرير، فتاريخنا مجيد زاهر إلىٰ الحد الذي يبعث بالفخر، وهو أحوج ما نكون إليه في واقعنا ولأداء رسالتنا، كما نحن أحوج إلىٰ معرفة العيوب والمشكلات التي أدت إلىٰ انحدارنا وانهيارنا في نهاية المطاف، وهو أمر جلل لا ينفع فيه التخدير بالاقتصار علىٰ الأمجاد أو بذل المجهود في تبرير العيوب، فكيف ونحن مأمورون بالعدل مع أنفسنا والأقربين!

٦- رفض قصر التاريخ الإسلامي علىٰ جانب التاريخ السياسي، بل ينبغي أن نولي العناية لتاريخ الأمة الحضاري والعلمي والاجتماعي

المحطات التاريخية الكبرى:

وبناء علىٰ هذا المنهج وضع الشيخ رؤية لمحطات التاريخ الكبرىٰ كيف يكون عرضها وتفسير ما وقع فيها، فأبان في هذه المحطات والأحقاب عن أبحاث لم تدرس بعد، وأبحاث لم تدرس بشكل وافٍ، وأبحاث بحاجة إلىٰ إعادة عرضها والتأمل فيها.

فالحقبة الجاهلية ينبغي أن تدرس لا كفترة زمنية بل كحالة انحراف، وهي حالة يعاني منها البشر في القديم والحديث، ليس فقط من جهة عبادة الأوثان، وإن تكن عبادة الأوثان ما تزال منتشر في مناطق واسعة من الأرض كالهند، والأوثان ذاتها ليست دائمًا حجارة، بل كل ما قُدِّس وأطيع من دون الله فهو بمنزلة الأوثان وأولئك المتبعون إنما هم في جاهلية، ولذلك فكل ما تعيشه الإنسانية من شيوع القتل وجحيم الظلم والعبودية والتعصب للأعراق والألوان والأرض وانحلال الأخلاق وأكل الربا والاحتكار إنما هو من جراء تقديس ما سوىٰ الله واتباع غير أوامره واعتناق الخرافة. وينبغي أن تعرف هذه الفترة بعمق كي يدرك الناس مدىٰ نعمة الله عليهم بالتوحيد، إذ لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية. وبهذا المعنىٰ فالجاهلية متعددة متكررة قائمة وليست حقبة قد

انتهت، كما أن وجود حضارة وتفوق علمي تقني مادي لا يعني انفكاك هذه الحضارة من وصف الجاهلية.

والإسلام ليس دعوة نبي بعث قبل ألف سنة، بل إن هذا النبي هو خاتمة الرسالات التي هي الاستقامة، فهو ليس رد فعل للجاهلية ولا هو حركة أرضية إصلاحية ضيقة، بل هو أوسع وأشمل حركة تحرر ومواجهة لهذه المظالم والمفاسد كلها، وهو كذلك أفضل وأعمق إصلاح للنفس الإنسانية، وبهذا المعنىٰ فلا بد من وقوع الحرب بين الحق والباطل، بين المتألهين والمستبدين والمفسدين وبين المتحررين والمجاهدين والمصلحين، ويرىٰ الشيخ أن فترة البعثة وصدر الإسلام يجب أن تركز علىٰ أربع موضوعات: شخصية النبي، استقبال الجاهلية لدعوته، موقف المؤمنين مما وقع عليهم من العذاب، التربية في دار الأرقم. فبهذه الموضوعات يظهر أثر الإسلام في النفوس والمجتمعات، وأما الفترة المدنية فأهم ما ينبغي التركيز عليه هو ثمرة الإسلام إذ أنشأ الدولة ووضع قواعد النصر والتمكين وقواعد الحكم والسياسة، ثم دراسة المواجهة بين دولة الإسلام والجاهلية من حولها، ويرىٰ أن هذه الفترة يكتفىٰ فيها بالقرآن والسنة وشروحهما فحسب.

وأما فترة صدر الإسلام (الخلافة الراشدة) فينبغي أن تعرض علىٰ أنها التطبيق المباشر للإسلام، فينظر فيها فيما يعرض للسلطة والسياسة من قضايا، وما يعرض للمجتمع من تغيرات حين يحكم نفسه بغير وحي من السماء، وكيف ينبغي أن يتعلم الناس أن المجتمع المثالي ليس خياليا بل واقعيا، ومثاليته لا ترفعه عن بشريته، بل تظل ثمة أخطاء تقع وتُعالج، وتعدّ فترة الشيخين علىٰ وجه الخصوص أغزر الفترات التي ينبغي التوقف عندها لأخذ الدرس في الحسم والحزم والتعامل في الأزمات، وفي حقوق الرعية علىٰ الراعي وحقوقه عليها، ويعزو الشيخ وقوع الفتن إلىٰ هذا التوسع السريع للإسلام وهو ماترتب

عليه دخول قوم فيه لم يحظوا بالقدر المناسب من التربية فمن هنا كانت الفتنة التي عمل علىٰ بذرها وإشعالها أعداء الأمة من اليهود كعبد الله بن سبأ.

وأما فترة انتشار الإسلام في عهود الدولة الأموية والعباسية والعثمانية فمختصر منهج الشيخ هو العناية بدراستها دراسة فاحصة تفصل لتمييز الحقائق من المبالغات والتشويهات، وتحدد بدقة جوانب الانحراف واستمرارها، وترصد نمو هذه العوامل وانتقالها من السلطة إلىٰ المجتمع ثم تأثير هذا علىٰ وقوع الأمة فيما بعد تحت براثن الصليبيين والمغول.

وأما فترة الضعف العام التي سقطت فيها الخلافة ووقع فيها المسلمون تحت الاحتلال الأجنبي، فمختصر منهج الشيخ هو ذاته ما سبق ثم هو يضيف إليه ضرورة التركيز علىٰ عرض «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، حيث لم يكن انحطاط المسلمين مجرد خسارة لهم وحدهم، بل انحطاطهم هذا هو ما جعل المفاسد تغزو العالم بلا حماية، فلو قدر أن المسلمين كانوا أقوياء لما كان الربا هو أساس التعامل المالي العالمي، ولا كان الانحلال الأخلاقي هو أساس الواقع الاجتماعي، ولا كان المستضعفون في هذا العالم أضيع من الأيتام علىٰ موائد اللئام، فكل هذا إنما انتشر وصار سلوكا عالميا بفعل وجود الداعي الغربي واليهودي وانتفاء النموذج المقاوم القوي المتمثل في الإسلام، وهو ما خسرت به البشرية كلها أرواحا وأموالا ومظالم لا تعد ولا تحصىٰ.

ويرىٰ الشيخ ضرورة التأريخ النزيه لحركات الصحوة الإسلامية، فيم نجحت وفيم أخفقت، وهو يثبت لها جهادها وفضلها وإخلاصها، ويعزو إخفاقها إلىٰ أمرين: استعجال الثمرة قبل أوانها، واعتمادها في تربية أبنائها علىٰ السمع والطاعة أكثر من الشورىٰ.

ونخلص من هذا العرض إلىٰ أن منهج الشيخ يعتمد أساسا كبيرا هو مركزية العقيدة وأهميتها، فهي السبيل للتخلص من أسر المناهج المادية التي

سيطرت علىٰ مناهج النظر والبحث بأثر من التفوق الغربي والغزو الفكري، فمن العقيدة يُعاد تعريف «الإنسان» من حيث الطبيعة والغاية والرسالة، ويُعاد تعريف «الحضارة» من حيث الجوهر والمظهر، ويُعاد تعريف «الحال» من حيث التقدم والتخلف.

وفي منهج الشيخ نجد موضوع التربية: الهدف والوسائل، شائعا مهيمنا، فلئن خلا الكلام من ذكر صريح فهي مخبوءة في باطن الكلمات، وليس هذا محصورا في شأن التاريخ وحده بل هو منهج للشيخ في كافة العلوم حتىٰ في كتابه «منهج الفن الإسلامي»، فضلا عن آثاره التي خصصها لموضوع التربية.

ما ينتقد على منهج الشيخ:

وهو يتلخص في ثلاثة أمور:

١- أولها أنك لا تجد عند الشيخ نقاشًا موسعًا ولو لقضية واحدة كمثال تاريخي يرصد ويحلل أسبابها وظروفها بعمق، فيعدُّ تطبيقا لمنهجه في التحليل والتفسير، فكم كان مهما وهو يستنكر تحول الحكم من الخلافة إلىٰ الملك أن يبين عن موضع المشكلة، ذلك أن البيعة ليزيد لم تكن مجرد قرار من معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بل هي تعد موضع رضا عام من بعد ما قبل بها الصحابة والتابعون ولم يتخلف عن هذا الرضا إلا أربعة ثم لم يخرج عليها إلا واحد وهو (الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، لا سيما والشيخ يذكر من تغير الزمان والنفوس ما هو دليل لمن أيَّد معاوية في فعله، باعتبار أن هذا هو الحل «العملي، الواقعي» الذي يحفظ الأمة[1].

وبرغم أن أكبر توسع للشيخ في نقاش وتحليل قضايا تاريخية كانت من نصيب التاريخ المعاصر والحديث[2]، إلا أن قضية مهمة كقضية اشتراك الإخوان في حرب

---

(١) كابن خلدون الذي ناقش الموضوع في مقدمته، وانظر أيضا نقاش جلال كشك في كتابه «جهالات عصر التنوير».

(٢) بالذات في «واقعنا المعاصر» و «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر».

فلسطين لم تأخذ حقها من النقاش، وهي ربما القضية الأهم والفيصل التي كنا سنعرف بها منهج الشيخ في إشكالية «المثالي والواقعي» ذلك أن الجهاد في فلسطين يمثل كل معاني المثالية المطلوبة: الأخوة والجهاد والنصرة والمقدسات فيما تؤكد صياغته أن هذا الاشتراك هو ما أثار القوىٰ العالمية علىٰ جماعة الإخوان فاجتمعوا علىٰ حلها والقضاء عليها وهو ما كان. وتوحي صياغة الشيخ -والله أعلم- بأنه لم يكن يؤيد هذا الاشتراك، ولمثل هذا نقول بأنه لو فصَّل في هذه اللحظة التاريخية لاستبان منهجه أكثر، فالتطبيق يضبط النظرية.

وقد يُجاب علىٰ هذا بأن الشيخ نفسه صرح بأنه ليس مؤرخا ولا له دأب المؤرخ وصبره، وقد يجاب بأن واضع المنهج الكلي ليس بالضرورة أن يكون ذا باع فيه، وهو ما لا نوافق عليه، إذ من الضرورة أن يكون الأصولي علىٰ قدر من الإلمام بالفقه، وكان لابد لمثل ابن خلدون أن يكتب تاريخًا نرىٰ فيه أثر منهجه في التفسير، وإلا وقعنا في مشكلة المثالية التي تفارق الواقع، وهو ما نأخذه علىٰ بعض طروحات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- ثانيها أن أثر اهتمام الشيخ بموضوع التربية، وهو أمر يكاد يصبغ كل إنتاجه، نجد تعظيمًا لأمر «التربية والتكوين» وتقليلًا لحجم «السياسة والسلطة» في قراءته التاريخية، فكتابات الشيخ توحي وكأن التربية هي الغرض من قراءة التاريخ ومن تدريسه، فيما نظن أن التربية نفسها هي وسيلة لتأسيس حكم الله في الأرض الذي هو سياسة وسلطة، وهذا إلىٰ جانب أن السياسة والسلطة تتحكم وتؤثر في التربية، كما في قول عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، ثم إن العالم منذ نحو مائتي عام وهو يرزح تحت ظل الدولة المركزية التي تجمع كل شيء بيد السلطة حتىٰ مناهج التعليم ووسائل الإعلام والتثقيف حتىٰ التحكم فيمن يصعد علىٰ المنبر ومن يلقي الدروس ومن يخرج من البلد



ومن يدخل إليها[١]، فهذا كله مما يعظم شأن السياسة وأثرها علىٰ أحوال الناس وأعمالهم، وذلك هو تاريخهم.

٣- ثالثها هو تضخيم حجم المؤامرة وأثرها في واقعنا، وخصوصًا في بحث المستشرقين الذين يرتاب الشيخ في كل ما يفعلون حتىٰ ما كان منه طبيعيًّا فيفترض فيه غرضًا خبيثًا، فمن ذلك أنه ينظر بعين الريبة إلىٰ تقسيمهم التاريخ إلىٰ عصور: خلافة راشدة، أموية، عباسية، مملوكية، عثمانية.. ويرىٰ أنهم بهذا أرادوا تمزيق تاريخ الأمة وقطع تواصل الأجيال[٢]، ولما كانت الحقيقة أن هذا التقسيم فعله المؤرخون المسلمون الأوائل لم يجد إلا أن يعبر عن إحساسه بأن حديث الأوائل في هذا التقسيم طبيعي بينما إحساسه لدىٰ قراءته عند المستشرقين يوحي بغرضهم الدفين هذا[٣]. ومعروف أن مجرد الإحساس ليس معيارا منضبطا يصلح للاستناد عليه.

ومن توابع هذا أن الشيخ سريع إلىٰ الشك فيمن يرىٰ منهم «اقترابا» من الغرب، حتىٰ وإن عُرِفوا بنقده أو الثورة عليه أو حتىٰ الخطأ في التعامل معه مع تراث صريح في الدفع عن الإسلام وتعظيمه، فممن طالتهم سهام الشيخ لهذا رجال أمثال: الشيخ رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ونحوهم.. في حين أن البحث التاريخي المعمق في أحوالهم ونتاجهم ينتهي إلىٰ نتيجة أخرىٰ[٤]، وهو أمر لا ينفرد به الشيخ بل سبقه إلىٰ مثل هذا

(١) راجع مقال «جناية الأنظمة العلمانية علىٰ الأوقاف الإسلامية» الذي نشر في مجلة البيان العدد ٣١٢ شعبان ١٤٣٤هـ، يونيو - يوليو ٢٠١٣م.

(٢) وأغلب الظن أن هذه الفكرة مأخوذة من د. عبد العظيم الديب في كتابه «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي».

(٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص١٩.

(٤) صدر حديثًا في القاهرة كتاب «ما أخفاه العلمانيون من تاريخ مصر الحديث» للكاتب: معتز زاهر، يتناول توضيح جوانب من الشخصيات التي حاول العلمانيون «اختطافها» لصالحهم، والكتاب يكتفي بالنقل من كتبهم ما هو صريح في تبيين مناهجهم.

بعض الكبار كأبي فهر محمود شاكر والدكتور محمد محمد حسين، وهو ما نحسب أنه من جراء طبيعة المعركة المشتعلة التي يكون فيها المقاتل سريعا إلىٰ تصنيف من حوله إلىٰ صديق وعدو، ويقلّ فيها تقدير المواقف الوسيطة أو غفران الزلات وإن كانت هينة.

ومع قلة المصادر التي كُتبت في التاريخ الحديث والمعاصر بروح إسلامية فيُطمأن إليها، ومع هذه الأجواء السالفة الذكر، فإن هذا الجزء من التاريخ في كتابات الشيخ تهيمن عليه حس المؤامرة التي لا ننكرها ولا نقلل من أثرها، وإن كنا نرىٰ أنها في حجم أكبر من حجمها، والله أعلم.

❁❁❁

إن تأسيسات الشيخ لأفكار: الانطلاق من هداية الدين في البحث والنظر التاريخي، وما يترتب عليه من تحويل زاوية النظر نحو اكتشاف وتقييم الفترات والأحقاب القديمة والمعاصرة، لجدير بأن يضعه الباحثون الشباب نصب أعينهم، ذلك أن المحترفين من الإسلاميين في مجال التاريخ ما زالوا ندرة، والباحثون مضطرون إلىٰ الأخذ عمن أتيح لهم قديما التدريس في الجامعات واعتلاء مناصب البحث في المراكز العلمية والمؤسسات الثقافية، وكثرة الأخذ عن هؤلاء يجعل الباحث منطبعا بالمنهج مع ما استفاده من علم، فمثل هذه الهدايات المنطلقة من فكر إسلامي خالص هي العاصمة له من الانسياق في تيار المناهج الأخرىٰ الملتبسة بباطل أو التي يغلب عليها الباطل.

رحم الله الشيخ الجليل وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وألحقنا به في الصالحين.

❁❁❁

خاتمة

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، وقد أبىٰ الله أن يتم كتابًا إلا كتابه.

وأسأل الله تعالىٰ ألا تكون خاتمة اللقاء بالقراء الكرام، وأن يوفقنا لما فيه رضاه، وأسأله تعالىٰ أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ولا يجعل لأحد سواه فيها نصيبًا.

وأستقبل ملاحظاتكم وتعقيباتكم وإضافاتكم على بريدي

moha.elhamy@gmail.com

